

الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة والإرشاد القومي
دار الكتب

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القطبي

الجزء الثالث عشر



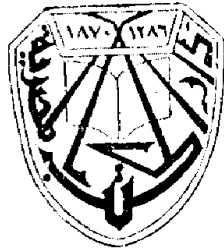
القاهرة
مطبعة دار الكتب
١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م

الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة والإرشاد القومي
دار الكتب

الجامع الحكيم القرآني

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء السابع عشر



القاهرة
مطبعة دار الكتب
١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م

بيان

تم تحقيق هذا الجزء (الرابع عشر) من تفسير القرطبي،
على الأصول الآتية :

(١)	نسخة رقم ٩٥	تفسير، المرموز إليها بحرف ا
(٢)	» » ٢٦٨	» » » » ب
(٣)	» » ٢٨٣	» » » » ج
(٤)	» » ١	» » حلیم » ح
(٥)	» » ٢٥٨	بالمكتبة الأزهرية، المرموز إليها بحرف ز
(٦)	» » ٥١٣	تفسير، المرموز إليها بحرف ش
(٧)	» » ٣١٨	» » » » ط
(٨)	» » ٩٣	» » » » ك

وقد وصفت هذه النسخ جميعها في مقدمة الجزء الثالث (الطبعة الثانية)

حققه
أحمد عبد العليم البردوني

٨ جمادى الأولى سنة ١٣٨٤ هـ
١٤ — بنمبر سنة ١٩٦٤ م } الاثنین

فهرس الجزء الرابع عشر

سورة الروم

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « الهم . غلبت الروم ... » الآيات . بيان ما وقع بين فارس
والروم ومراهنة أبي بكر رضى الله عنه . سبب غلبة الروم فارس ١
- تفسير قوله تعالى : « أولم يتفكروا فى أنفسهم ... » الآيات . توبيخ المشركين
لأنهم لم يتفكروا ولم يتعظوا . بيان عاقبتهم وعاقبة المؤمنين ٨
- تفسير قوله تعالى : « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون » . بيان أن الآية
خطاب للمؤمنين بالأمر بالعبادة ، والحض على الصلاة فى أوقاتها ١٤
- تفسير قوله تعالى : « ومن آياته أن خلقكم من تراب ... » الآيات . بيان آيات
الله تعالى فى خلق الإنسان . المعنى المراد من المودة والرحمة التى بين الرجل
والمرأة . الكلام على اختلاف الألسنة والألوان ١٦
- تفسير قوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفا ... » الآيات . الأمر باتباع الدين
الحنيف . اختلاف العلماء فى معنى « الفطرة » ٢٤
- تفسير قوله تعالى : « فآت ذاق القربى حقه والمسكين ... » الآية . الأمر بإيتاء
ذى القربى حقه من الصدقة ، وأن خير الصدقة ما كان على القريب ٣٥
- تفسير قوله تعالى : « وما آتيتم من ربا ... » الآية . الكلام على المكافأة فى الهبة ٣٦
- تفسير قوله تعالى : « ظهر الفساد فى البر والبحر ... » الآيات . الاختلاف فى معنى
الفساد فى البر والبحر ٤٠
- تفسير قوله تعالى : « فانظر إلى آثار رحمة الله ... » الآيات . الاستدلال بإحياء
الأرض على إحياء الموتى ٤٥

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « الله الذى خلقكم من ضعف ... » الآية . الاستدلال على قدرة
 ٤٦ الله تعالى بتطور حال الإنسان من الضعف إلى القوة ، ثم من القوة إلى الضعف ...
 ٤٧ تفسير قوله تعالى : « ويوم تقوم الساعة » ... الآيات

سورة لقمان

- تفسير قوله تعالى : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ... » المعنى المراد من
 « لهو الحديث » . استدال العلماء بهذه الآية على كراهة الغناء والمنع منه . بيان
 ما ورد من الآثار فى ذمه . ما أبيع من الغناء . الاشتغال به سفه ترد به الشهادة .
 ٥١ جواز سماع الرجل غناء جاريتة
 ٥٨ تفسير قوله تعالى : « خلق السموات بغير عمد ... » الآيات
 تفسير قوله تعالى : « ولقد آتينا لقمان الحكمة ... » الآيات . الكلام على نسب
 « لقمان » ، وهل كان حكيما أم نبيا . الاختلاف فى صنمته . شىء من حكمة .
 نهى لقمان ابنه عن الشرك . الكلام على طاعة الأيوين . الاختلاف فى مدة
 ٥٩ الرضاع . صلة الأيوين الكافرين . وصية لقمان لابنه
 تفسير قوله تعالى : « ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات » ... الآيات .
 ذكر ما أنعم الله به على بنى آدم ، وبيان النعم الظاهرة والباطنة . توبيخ
 ٧٣ المشركين على مجادلهم فى الله تعالى
 ٧٤ تفسير قوله تعالى : « ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن ... » الآيات
 تفسير قوله تعالى : « ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام ... » الآيات . بيان
 ٧٦ أن معانى كلام الله تعالى لا تنفذ . بيان المراد بكلمات الله
 ٧٨ تفسير قوله تعالى : « ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ... » الآيات
 تفسير قوله تعالى : « إن الله عنده علم الساعة ... » الآية . بيان مفاتيح الغيب
 ٨٢ الخمس التى لا يعلمها إلا الله تعالى

سورة السجدة

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ... » الآيات . القول في معنى
 ٨٦ « يدبر الأمر » ومعنى عروجه . الكلام على اليوم الذي مقداره ألف سنة ...
- تفسير قوله تعالى : « وقالوا أنذا ضللنا في الأرض ... » الآيات . إنكار الكفار
 للبعث . بيان ما في « ضل » من اللغات . الرد على الكفار في استبعادهم البعث .
 ٩١ الكلام على توفى الأنفس
- تفسير قوله تعالى : « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ... » القول في هداية الخلق .
 ٩٦ تفسير قوله تعالى : « نتجافى جنوبهم عن المضاجع ... » الآية . المراد بتجافى الجنوب .
 القيام لصلاة النوافل بالليل . بيان ما ورد في فضل ذلك من الأحاديث
 ٩٩ تفسير قوله تعالى : « أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا ... » نفي المساواة بين المؤمن
 والكافر . احتجاج العلماء بهذه الآية على أبي حنيفة في قتله المسلم بالذمى
 ١٠٥ تفسير قوله تعالى : « أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... » الآيات . بيان ما أعدت
 للمؤمنين والكافرين في الآخرة . الكلام على العذاب الأدنى والعذاب الأكبر
 ١٠٦ تفسير قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى الكتاب ... » الآيات
 ١٠٨

سورة الأحزاب

بيان أنها نزلت في المنافقين وإيذانهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وطعنهم
 فيه وفي من أكتفه .

- تفسير قوله تعالى : « يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين ... » الآيات .
 ١١٣ الزجر عن اتباع مراسم الجاهلية والأمر بجهادهم
- تفسير قوله تعالى : « ما جعل الله لرجل من قابلين في جوفه ... » الآيات . الكلام
 على سبب نزول هذه الآية . حقيقة القلب . ذكر خبر زيد بن حارثة . الكلام
 على التبنّي ومن ادعى إلى غير أبيه
 ١١٦

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ... » الآية . بيان أن هذه الآية أزاله أحكاما كانت في صدر الإسلام . بيان أن الله تعالى جعل أزواج الرسول صلى الله عليه وسلم أمهات للمؤمنين تشرىفاً لهم . اختلف في كونهن كالأمهات في المحرم وإباحة النظر . بيان أن المسلمين كانوا يتوارثون بالهجرة ثم نسخ ذلك بالتوارث بالأرحام ١٢١
- تفسير قوله تعالى : « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ... » الآية . بيان ما أخذ من المواثيق على الأنبياء عليهم السلام ١٢٦
- تفسير قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أذكروا نعمة الله عليكم ... » الآيات . الكلام على غزوة الخندق وفي أي سنة كانت . سببها وما كان فيها من آيات النبوة . ما تضمنته من أحكام . ابتلاء المؤمنين بالقتال والجوع والخوف . أمر المنافقين لهم بالفرار والرجوع إلى منازلهم ١٢٨
- تفسير قوله تعالى : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ... » الآية . بيان أن هذا عتاب للمخلفين عن القتال . الاختلاف في هذه الأسوة بالرسول ، هل هي على الإيجاب أو على الاستحباب ١٥٥
- تفسير قوله تعالى : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ... » الآية . الكلام على من وفى بعهدته حتى قتل . معنى « النجيب » ١٥٨
- تفسير قوله تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا ... » الآيات . بيان السبب الذي أوجب تخيير الرسول صلوات الله عليه زوجاته . الكلام على أزواج الرسول صلى الله عليه وسلم ، من دخل بها ، ومن عقد عليها ولم يدخل بها ، ومن خطبها فلم يتم نكاحه معها . سراريه صلى الله عليه وسلم . بيان أن التخيير والطلاق المعلقين على شرط صحيحان . اختلاف العلماء في كيفية تخيير النبي صلى الله عليه وسلم أزواجه . أقوال العلماء في الخيرة إذا اختارت زوجها وهل يكون ذلك طلاقاً ، ومتى يكون لها الخيار ١٦٢

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة ... » الآيات . لما كان أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في مهبط الوحي لزمهن بسبب مكاتهن أكثر مما يلزم غيرهن . معنى « الضعفين » ١٧٣
- تفسير قوله تعالى : « يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن أتقنين ... » الآيات . نهى الله أمهات المؤمنين عن مكالمة الرجال بترخيم الصوت ولينه . أمرهن بملازمة البيوت ، ونهين عن التبرج . اختلاف الناس في الجاهلية الأولى . الرد على من طعن في أم المؤمنين عائشة في أنها خالفت أمر الرسول صلوات الله عليه حين خرجت في وقعة الجمل . اختلاف العلماء في أهل البيت من هم . أمر أمهات المؤمنين بذكر الكتاب والحكمة والمراد بالذكر ١٧٧
- تفسير قوله تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة ... » الآية . الكلام على سبب نزول هذه الآية . بيان أن لفظة « ما كان ، وما ينبغي » معناها الحظر والمنع . في الآية دليل على أن الكفاءة لا تعتبر في الأحساب بل في الأديان . لا يجوز لأحد أن يختار غير ما اختاره الله ورسوله ١٨٦
- تفسير قوله تعالى : « وإذ تقول للذي أنعم الله عليه ... » الآيات . لو كان النبي صلى الله عليه وسلم كاتماً شيئاً من الوحي لكتّم هذه الآية . اختلاف العلماء في تأويلها . قصة زواج زيد بن حارثة من زينب بنت جحش . زواجها من رسول الله صلى الله عليه وسلم بدون عقد ولا صداق . نسب زيد وبيان فضله . في الآية دليل على ثبوت الولي في النكاح ١٨٨
- تفسير قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ... » الآية . بيان أن المطلقة قبل الدخول لا عدّة عليها . بيان أن لا طلاق إلا بعد نكاح . أقوال العلماء فيمن طلق أمرأته طليقة رجعية أو بائنة ٢٠٢
- تفسير قوله تعالى : « يا أيها النبي إنا أحللتنا لك أزواجك ... » الآية . بيان ما أحل الله لنبيه صلى الله عليه وسلم من النساء . من وهبن أنفسهن لرسول الله صلى الله

صفحة

- عليه وسلم . الاختلاف في تحريم الخزة الكافرة عليه . الاختلاف في النكاح
 ٢٠٥ بللفظ الهبة . بيان ما خص به صلى الله عليه وسلم منزية على الأمة
 تفسير قوله تعالى : « ترجى من تشاء ممن ... » الآية . اختلاف العلماء في تأويل
 ٢١٤ هذه الآية . الكلام على القسم بين الزوجات والعدل بينهما
 تفسير قوله تعالى : « لا يحل لك النساء من بعد ... » الآية . أقوال العلماء في تأويل
 هذه الآية . الدليل على جواز النظر إلى المخطوبة . آخلاف فيما يجوز أن ينظر
 ٢١٩ منها . آخلاف العلماء في إحلال الأمة الكافرة للنبي صلى الله عليه وسلم
 تفسير قوله تعالى : « يأبى الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن
 لكم ... » الآية . بيان أن الآية تضمنت الأدب في أمر الطعام والجلوس
 وأمر الحجاب . نهى الله المؤمنين عن دخول بيت النبي صلى الله عليه وسلم بغير
 إذن وانتظار نضح الطعام . آخلاف في بيوت النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته
 هل هى ملك لأمهات المؤمنين . حرص عمر رضى الله عنه على نزول الحجاب .
 إذن الله في مسألة أمهات المؤمنين من وراء حجاب فيما يعرض من المسائل ؛
 ويدخل في هذا جميع النساء . أستدل بعض العلماء بهذه الآية على جواز شهادة
 الأعمى . من خصائصه صلى الله عليه وسلم تحريم نكاح أزواجه من بعده .
 آخلاف في أزواجه صلى الله عليه وسلم بعد موته هل يقين أزواجا ، أم زال
 النكاح بالموت ، وهل عليهن عدة
 ٢٢٣ تفسير قوله تعالى : « إن الله وملائكته يصلون على النبي ... » الآية . بيان تعظيم
 قدر النبي صلى الله عليه وسلم . بيان أن الأمر بالصلاة عليه فرض في العمر مرة .
 آخلاف الآثار في صفة الصلاة عليه ، فضل الصلاة عليه . آخلاف العلماء
 ٢٣٢ في الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم في الصلاة

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

تفسیر سورة الروم

سورة الروم مكية كلها من غير خلاف، وهي ستون آية

قوله تعالى : **الْم** **غُلِبَتِ الرُّومُ** **فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ**
مَنْ بَعْدَ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ **فِي بضع سنين** **لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ**
بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ **بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ**
الرَّحِيمُ

قوله تعالى : (**الْم** . **غُلِبَتِ الرُّومُ** . **فِي أَدْنَى الْأَرْضِ**) روى الترمذى عن أبى سعيد
الخدري قال : لما كان يوم بدرٍ ظهرت الروم على فارس فأعجب ذلك المؤمنين فنزلت :
« **الْم** . **غُلِبَتِ الرُّومُ** . **فِي أَدْنَى الْأَرْضِ** — إلى قوله — **يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ** . **بِنَصْرِ اللَّهِ** » .
قال : ففرح المؤمنون بظهور الروم على فارس . قال : هذا حديث غريب من هذا الوجه .
هكذا قرأ نصر بن على الجهضمي « **غُلِبَتِ الرُّومُ** » . ورواه أيضا من حديث ابن عباس
بأتم منه . قال ابن عباس في قول الله عز وجل : « **الْم** . **غُلِبَتِ الرُّومُ** . **فِي أَدْنَى الْأَرْضِ** » قال :
غُلِبَتِ وَغُلِبَتِ ، قال : كان المشركون يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم لأنهم وإياهم أهل
أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب ، فذكروه لأبي بكر
فذكره أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أما إنهم سيغلبون » فذكره أبو بكر لهم
فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلا ، فإن ظهرنا كان لنا كذا ، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا
فجعل أجل خمس سنين ، فلم يظهرُوا ، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : « ألا جعلته

(١) في نسخة الترمذى : « هذا حديث حسن غريب ... » .

إلى دون» — أراه قال العشر — قال قال أبو سعيد: والبيضع ما دون العشرة. قال: ثم ظهرت الروم بعد، قال: فذلك قوله «الْمَ . غُلِبَتِ الرُّومُ» — إلى قوله — وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . يَنْصُرُ اللَّهُ . قال سفيان: سمعت أنهم ظهروا عليهم يوم بدر . قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب . ورواه أيضا عن نيار بن مُكرم الأسلمي قال: لما نزلت «الْمَ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بَضْعِ سِنِينَ» وكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم لأنهم وإياهم أهل كتاب، وفي ذلك نزل قول الله تعالى: «وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ» وكانت قریش تحب ظهور فارس لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان بيعت، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر الصديق رضى الله عنه يصيح في نواحي مكة: «الْمَ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بَضْعِ سِنِينَ» . قال ناس من قریش لأبي بكر: فذلك بيننا وبينكم، زعم صاحبك أن الروم ستغاب فارس في بضع سنين! أفلا نراهنك على ذلك؟ قال: بلى . وذلك قبل تحريم الرهان، فأرتهن أبو بكر والمشركون وتواضعوا الرهان . وقالوا لأبي بكر: كم تجعل البيضع؟ ثلاث سنين أو تسع سنين؟ فسم بيننا وبينك وسطا تنتهى إليه؛ قال فسموا بينهم ست سنين؛ قال: فمضت الست سنين قبل أن يظهروا، فأخذ المشركون رهن أبي بكر، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس، فعاب المسلمون على أبي بكر تسمية ست سنين، قال: لأن الله تعالى قال «فِي بَضْعِ سِنِينَ» قال: وأسلم عند ذلك ناس كثير . قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب . وروى القشيري وابن عطية وغيرهما: أنه لما نزلت الآيات خرج أبو بكرها إلى المشركين فقال: أسرتم أن غلبت الروم؟ فإن نبينا أخبرنا عن الله تعالى أنهم سيغلبون في بضع سنين . فقال له أبي بن خلف وأمية أخوه — وقيل أبو سفيان ابن حرب — : يا أبا فصيل! — يعرضون بكنته «يا أبا بكر» — فلنتناحب — أى ترهن

(٢) الفصيل: ولد الناقة إذا فصل عن أمه .

(١) في جوك: «أوسج» .

في ذلك فراهنهم أبو بكر . قال قتادة : وذلك قبل أن يحرم القمار ، وجعلوا الزهان خمس قلائص^(٢) والأجل ثلاث سنين . وقيل : جعلوا الرهان ثلاث قلائص . ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال : ” فهلا احتطت ، فإن البيضع ما بين الثلاث والتسع والعشر ! ولكن ارجع فزدهم في الرهان واستزدهم في الأجل “ ففعل أبو بكر ، فجعلوا القلائص مائة والأجل تسعة أعوام ؛ فغلبت الروم في أثناء الأجل . وقال الشعبي : فظهروا في تسع سنين . القشيري : المشهور في الروايات أن ظهور الروم كان في السابعة من غلبة فارس للروم ، ولعل رواية الشعبي تصحيف من السبع إلى التسع من بعض النقلة . وفي بعض الروايات : أنه جعل القلائص سبعا إلى تسع سنين . ويقال : إنه آخر فتوح كسرى أبرويز فتح فيه القسطنطينية حتى بنى فيها بيت النار ؛ فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فساءه ذلك ، فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين . وحكى النقاش وغيره : أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه لما أراد الهجرة مع النبي صلى الله عليه وسلم تعلق به أبي بن خلف وقال له : أعطني كفيلا بالخطر إن غلبت ؛ فكفل به ابنه عبد الرحمن ، فلما أراد أبي الخروج إلى أحد طلبه عبد الرحمن بالكفيل فأعطاه كفيلا ، ثم مات أبي بمكة من جرح جرحة النبي صلى الله عليه وسلم ، وظهرت الروم على فارس يوم الحديدية على رأس تسع سنين من مناجبتهم . وقال الشعبي : لم تمض تلك المدة حتى غلبت الروم فارس ؛ وربطوا خيلهم بالمدائن ، وبنوا رومية ؛ فقمراً أبو بكر^(٤) وأخذ مال الخطر من ورثته ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ” تصدق به “ فتصدق به . وقال المفسرون : إن سبب غلبة الروم فارس امرأة كانت في فارس لا تلد إلا الملوك والأبطال ، فقال لها كسرى : أريد أن أستعمل أحد بنيك على جيش أجهزه إلى الروم ؛ فقالت : هذا هُرْمُزُ أروغ من ثعلب وأحذر من صقر ، وهذا فرخان أحد من سنان وأنفذ من نبل ، وهذا شهر بزان أحلم من كذا ، فأخترت ؛ قال فأختار الحليم وولاه ، فسار إلى الروم بأهل فارس فظهر على

(١) في ج : « الرهان » . (٢) القلائص : جمع القلوص ، وهي القنينة من الإبل . (٣) الخطر (بالتحريك) : الرهن ، وما يخاطر عليه . (٤) قرت الرجل : غلبته . (٥) راجع هذا الخبر في تاريخ الطبري (ج٤ ص ١٠٠٥ من القمم الأثرى طبع أوربا) . (٦) هكذا ورد في كتب التفسير . والذي في تاريخ الطبري : « شهر بزان » .

الروم . قال عكرمة وغيره : إن شهر بزّان لما غلب الروم حرب ديارها حتى بلغ الخليج ، فقال أخوه فرخان : لقد رأيتني جالسا على سرير كسرى ؛ فكتب كسرى إلى شهر بزّان أرسل إلى برأس فرخان فلم يفعل ؛ فكتب كسرى إلى فارس : إني قد استعملت عليكم فرخان وعزّات شهر بزّان ، وكتب إلى فرخان إذا ولي أن يقتل شهر بزّان ؛ فأراد فرخان قتل شهر بزّان فأخرج له شهر بزّان ثلاث صحائف من كسرى يأمره بقتل فرخان ، فقال شهر بزّان لفرخان : إن كسرى كتب إلى أن أقتلك ثلاث صحائف وراجعتة أبدا في أمرك ، أفقتلني أنت بكتاب واحد ؟ فرد الملك إلى أخيه ، وكتب شهر بزّان إلى قيصر ملك الروم فتعاونوا على كسرى ، فغلبت الروم فارس ومات كسرى . وجاء الخبر إلى النبي صلى الله عليه وسلم يوم الحديدية ففرح من معه من المسلمين ؛ فذلك قوله تعالى : « أَلَمْ يَغْلِبِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ » يعني أرض الشام . عكرمة : بأذرعات ، وهي ما بين بلاد العرب والشام . وقيل : إن قيصر كان بعث رجلا يدعى يحنس وبعث كسرى شهر بزّان فالتقيا بأذرعات وبصرى وهي أدنى بلاد الشام إلى أرض العرب والعجم . مجاهد : بالجزيرة ، وهو موضع بين العراق والشام . مقاتل : بالأردن وفلسطين . و « أدنى » معناه أقرب . قال ابن عطية : فإن كانت الواقعة بأذرعات فهي من أدنى الأرض بالقياس إلى مكة ، وهي التي ذكرها امرؤ القيس في قوله :

تنورتها من أذرعات وأهلها * بيثرب أدنى دارها نظر عال

وإن كانت الواقعة بالجزيرة فهي أدنى بالقياس إلى أرض كسرى ، وإن كانت بالأردن فهي أدنى إلى أرض الروم . فلما طرأ ذلك وغلبت الروم سر الكفار فبشر الله عباده بأن الروم سيغلبون وتكون الدولة لهم في الحرب .

وقد مضى الكلام في فواتح السور . وقرأ أبو سعيد الخدري وعلي بن أبي طالب ومعاوية بن قرة « غَلَبَتِ الرُّومُ » بفتح الغين واللام . وتأويل ذلك أن الذي طرأ يوم بدر إنما كانت الروم غلبت فعز ذلك على كفار قريش وسرّ بذلك المسلمون ، فبشر الله تعالى عباده أنهم سيغلبون أيضا في بضع سنين ؛ ذكر هذا التأويل أبو حاتم . قال أبو جعفر النحاس :

قراءة أكثر الناس « غلبت الروم » بضم الغين وكسر اللام . وروى عن ابن عمر وأبي سعيد الخدري أنهما قرأا « غلبت الروم » وقرأ « سيغلبون » . وحكى أبو حاتم أن عصمة روى عن هارون : أن هذه قراءة أهل الشام ، وأحمد بن حنبل يقول : إن عصمة هذا ضعيف ، وأبو حاتم كثير الحكاية عنه ، والحديث يدل على أن القراءة « غلبت » بضم الغين ، وكان في هذا الإخبار دليل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن الروم غلبتها فارس ، فأخبر الله عز وجل نبيه بهذا صلى الله عليه وسلم أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين ، وأن المؤمنين يفرحون بذلك ، لأن الروم أهل كتاب ، فكان هذا من علم الغيب الذي أخبر الله عز وجل به مما لم يكن [علموه] ^(١) ، وأمر أبا بكر أن يراهمهم على ذلك وأن يبألغ في الرهان ، ثم حرم الرهان بعد ونسخ بتحريم القمار . قال ابن عطية : والقراءة بضم الغين أصح ، وأجمع الناس على « سيغلبون » أنه بفتح الياء ، يراد به الروم . وروى عن ابن عمر أنه قرأ أيضا بضم الياء ^(٢) في « سيغلبون » ، وفي هذه القراءة قلب للمعنى الذي تظاهرت الروايات به . قال أبو جعفر النحاس : ومن قرأ « سيغلبون » فالمعنى عنده : وفارس من بعد غلبهم ، أى من بعد أن غلبوا ، سيغلبون . وروى أن إيقاع الروم بالفارس كان يوم بدر ، كما في حديث أبي سعيد الخدري حديث الترمذى ، وروى أن ذلك كان يوم الحديبية ، وأن الخبر وصل يومبيعة الرضوان ، قاله عكرمة وقتادة . قال ابن عطية : وفي كلاً اليومين كان نصر من الله للمؤمنين . وقد ذكر الناس أن سبب سرور المسلمين بغلبة الروم وهمهم أن تغلب إنما هو أن الروم أهل كتاب كالمسلمين ، وفارس من أهل الأوثان ^(٣) ، كما تقدم بيانه في الحديث . قال النحاس : وقول آخر وهو أولى - أن فرجهم إنما كان لإنجاز وعد الله تعالى ، إذ كان فيه دليل على النبوة لأنه أخبر تبارك وتعالى بما يكون في بضع سنين فكان فيه . قال ابن عطية : ويشبهه أن يعال ذلك بما يقتضيه النظر من محبة أن يغلب العدو الأصغر لأنه أيسر مئونة ، ومتى غلب الأكبر كثرا لخوف منه ، فتأمل هذا المعنى ، مع ما كان رسول الله

(١) زيادة عن النحاس . (٢) في ك : بفتح الياء . (٣) في ش : « كالمسلمين ، فهم أقرب من أهل الأوثان ... » .

صلى الله عليه وسلم ترجاه من ظهور دينه وشرع الله الذي بعثه به وغلبته على الأمم ، وإرادة كفار مكة أن يرميه الله بمك يبتليهم منه . وقيل : سرورهم إنما كان بنصر رسول الله صلى الله عليه وسلم على المشركين ؛ لأن جبريل أخبر بذلك النبي عليه السلام يوم بدر ، حكاه القشيري .

قلت : ويحتمل أن يكون سرورهم بالمجموع من ذلك ، فسروا بظهورهم على عدوهم وبظهور الروم أيضا وبإنجاز وعد الله . وقرأ أبو حيوّة الشامي ومحمد بن السميع « من بعد غلبهم » بسكون اللام ، وهما لغتان ؛ مثل الظن والظن . وزعم الفراء أن الأصل « من بعد غلبتهم » فحذفت التاء كما حذفت في قوله عز وجل « وإقام الصلاة » وأصله وإقامة الصلاة . قال النحاس : « وهذا غلط لا يجبل^(١) على كثير من أهل النجف ؛ لأن « إقام الصلاة » مصدر قد حذفت منه لاعتلال فعله ، فعملت التاء عوضا من المحذوف ، و « غلب » ليس بمعتل ولا حذفت منه شيء . وقد حكى الأصمعي : طرد طردا ، وجلب جلبا ، وحاب حابا ، وغاب غابا ؛ فأى حذفت في هذا ، وهل يجوز أن يقال في أكل أكلا وما أشبهه — : حذفت منه ؟ .

(في بضع سنين) حذفت الهاء من « بضع » فرقا بين المذكر والمؤنث ، وقد مضى الكلام فيه في « يوسف » . وفتحت النون من « سنين » لأنه جمع مسلم . ومن العرب من يقول « في بضع سنين » كما يقول في « غسيلين » . وجاز أن يجمع سنة بجمع من يعقل بالواو والنون والياء والنون ؛ لأنه قد حذفت منها شيء فجعل هذا الجمع عوضا من النقص الذي في واحده ؛ لأن أصل « سنة » سنه أو سنة ، وكسرت السين منه دلالة على أن جمعه خارج عن قياسه ونمطه ؛ هذا قول البصريين . ويلزم الفراء أن يضمها لأنه يقول : الضمة دليل على الواو وقد حذفت من سنة واو في أحد القولين ، ولا يضمها أحد علمناه .

قوله تعالى : (لِّلّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ) أخبر تعالى بأفراده بالقدرة وأن ما في العالم من غلبة وغيرها إنما هي منه وإرادته وقدرته فقال « لله الأمر » أي إنفاذ الأحكام .

(١) أي لا يشكل ، وهو من أخال الشيء أشبهه . (٢) راجع ج ٩ ص ١٩٧ .

« مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ » أى من قبل هذه الغلبة ومن بعدها . وقيل : من قبل كل شيء ومن بعد كل شيء . و « مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ » ظرفان بنايا على الضم ؛ لأنهما تعزفا بحذف ما أضيفا إليهما وصارا متضمنين ما حذف نخالفا تعريف الأسماء وأشبهها الحروف فى التضمين فبينا ، وخصبا بالضم لشبههما بالمنادى المفرد فى أنه إذا نكر وأضيف زال بناءؤه ، وكذلك هما فصمًا . ويقال : « من قبل ومن بعد » . وحكى الكسائى عن بعض بنى أسد « لَيْلَةُ الْأَمْرِ مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدِ » الأوّل مخفوض متون ، والثانى مضموم بلا توين . وحكى الفراء « مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدِ » مخفوضين بغير توين . وأنكره النحاس وردّه . وقال الفراء فى كتابه : فى القرآن أشياء كثيرة ، الغلط فيها بين ، منها أنه زعم أنه يجوز « من قبل ومن بعد » وإنما يجوز « من قبل ومن بعد » على أنهما نكرتان . قال الزجاج : المعنى من متقدم ومن متأخر . (وَيَوْمَئِذٍ يَقْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ) تقدم ذكره . (يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ) يعنى من أوليائه ؛ لأن نصره مختص بغلبة أوليائه لأعدائه ، فأما غلبة أعدائه لأوليائه فليس بنصره ، وإنما هو ابتلاء وقد يسمى ظفرا . (وَهُوَ الْعَزِيزُ) فى نفقته (الرَّحِيمُ) لأهل طاعته .

قوله تعالى : وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعَدَّهُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٦٢﴾

قوله تعالى : (وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعَدَّهُ) لأن كلامه صدق . (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) وهم الكفار وهم أكثر . وقيل : المراد مشركو مكة . وانتصب « وَعَدَّ اللَّهُ » على المصدر ؛ أى وعد ذلك وعدا . ثم بين تعالى مقدار ما يعلمون فقال : (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) يعنى أمر معاشهم ودنياهم : متى يزرعون ومتى يحصدون ، وكيف يفرسون وكيف يبنون ؛ قاله ابن عباس وعكرمة وقتادة . وقال الضحاك : هو بنيان قصورها ، وتشقيق أنهارها وغرس أشجارها ؛ والمعنى واحد . وقيل : هو ما تلقيه الشياطين إليهم من أمور الدنيا

عند استراقهم السمع من سماء الدنيا؛ قاله سعيد بن جبير . وقيل : الظاهر والباطن ؛ كما قال في موضع آخر « **أَمْ بَظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ** » .

قلت : وقول ابن عباس أشبه بظاهر الحياة الدنيا ، حتى لقد قال الحسن : بلغ والله من علم أحدهم بالدنيا أنه ينقذ الدرهم فيخبرك بوزنه ولا يحسن أن يصلي . وقال أبو العباس المبرد : قسم كسرى أيامه فقال : يصلح يوم الريح للزوم ، ويوم الغيم للصيد ، ويوم المطر للشرب واللهو ، ويوم الشمس للخواج . قال ابن خالويه : ما كان أعرفهم بسياسة دنياهم ، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا . **(وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ)** أي عن العلم بها والعمل لها **(هُمْ غَافِلُونَ)** قال بعضهم :

ومن البلية أن ترى لك صاحباً * في صورة الرجل السميع المبصر
فطن بكل مصيبة في ماله * وإذا يصاب بدينه لم يشعر

قوله تعالى : **أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ** مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ
رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾

قوله : **(فِي أَنفُسِهِمْ)** ظرف للتفكر وليس بمفعول ، تعدى إليه « **يَتَفَكَّرُوا** » بحرف جر ؛ لأنهم لم يؤمروا أن يتفكروا في خلق أنفسهم ، إنما أمروا أن يستعملوا التفكير في خلق السموات والأرض وأنفسهم ، حتى يعلموا أن الله لم يخلق السموات وغيرها إلا بالحق . قال الزجاج : في الكلام حذف ، أي فعلموا ؛ لأن في الكلام دليلا عليه . **(إِلَّا بِالْحَقِّ)** قال الفراء : معناه إلا للحق ؛ يعني الثواب والعقاب . وقيل : إلا لإقامة الحق . وقيل : « **بِالْحَقِّ** » بالعدل . وقيل : بالحكمة ؛ والمعنى متقارب . وقيل : « **بِالْحَقِّ** » أي أنه هو الحق وللحق خلقها ، وهو الدلالة على توحيده وقدرته . **(وَأَجَلٍ مُّسَمًّى)** أي للسموات والأرض أجل

يتهميان إليه وهو يوم القيامة . وفي هذا تنبيه على الفناء ، وعلى أن لكل مخلوق أجلا ، وعلى ثواب المحسن وعقاب المسيء . وقيل : « وَأَجَلٌ مُّسَمًّى » أى خلق ما خلق فى وقت سماه لأن يخلق ذلك الشيء فيه . (وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ) اللام للتوكيد ، والتقدير : لكافرون بقاء ربهم ، على التقديم والتأخير ؛ أى لكافرون بالبعث بعد الموت . وتقول : إن زيدا فى الدار لجالس . ولو قلت : إن زيدا لى الدار لجالس جاز . فإن قلت : إن زيدا جالس لى الدار لم يجوز ؛ لأن اللام إنما يؤتى بها توكيدا لاسم إن وخبرها ، وإذا جئت بهما لم يجوز أن تأتى بها . وكذا إن قلت : إن زيدا لجالس لى الدار لم يجوز .

قوله تعالى : **أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : (**أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا**) ببصائرهم وفلوجهم . (**كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ**) أى قلبوها للزراعة ؛ لأن أهل مكة لم يكونوا أهل حث ؛ قال الله تعالى : « **تُثِيرُ الْأَرْضَ** » ^(١) . (**وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا**) أى وعمروها أولئك أكثر مما عمروها هؤلاء فلم تنفعهم عمارتهم ولا طول مدتهم . (**وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ**) أى بالمعجزات . وقيل : بالأحكام فكفروا ولم يؤمنوا . (**فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ**) بأن أهلكهم بغير ذنب ولا رسل ولا حجة . (**وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**) بالشرك والعصيان .

قوله تعالى : **ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَعْوَأَ السَّوَأَى أَن كَذَبُوا بِعَايَتِ**

اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَى ﴾ السُّوءَى فُعِلَ مِنَ السُّوءِ تَأْنِيثُ الْأَسْوَا وَهُوَ الْأَقْبَحُ ، كَمَا أَنَّ الْحَسَنَى تَأْنِيثُ الْأَحْسَنِ . وَقِيلَ : يَعْنِي بِهَا هَاهُنَا النَّارُ ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ . وَمَعْنَى « أَسَاءُوا » أَشْرَكُوا ؛ دَلَّ عَلَيْهِ « أَنَّ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ » . « السُّوءَى » : اسْمُ جَهَنَّمَ ؛ كَمَا أَنَّ الْحَسَنَى اسْمُ الْجَنَّةِ . ﴿ أَنَّ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ أَيْ لِأَنَّ كَذَبُوا ؛ قَالَ الدِّكْسَانِيُّ . وَقِيلَ : بَانَ كَذَبُوا . وَقَرَأَ نَافِعُ وَابْنُ كَثِيرٌ وَأَبُو عَمْرٍو « ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ » بِالرَّفْعِ اسْمُ كَانَ ، وَذَكَرْتُ لِأَنَّ تَأْنِيثَهَا غَيْرُ حَقِيقِي . وَ« السُّوءَى » خَبَرُ كَانَ . وَالْبَاقُونَ بِالنَّصْبِ عَلَى خَبَرِ كَانَ . « السُّوءَى » بِالرَّفْعِ اسْمُ كَانَ . وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اسْمُهَا التَّكْذِيبُ ؛ فَيَكُونُ التَّقْدِيرُ : ثُمَّ كَانَ التَّكْذِيبُ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا ؛ أَوْ صِفَةً لِمُحْذَوْفٍ ؛ أَيْ الْخَلْقَةِ السُّوءَى . وَرَوَى عَنِ الْأَعْمَشِ أَنَّهُ قَرَأَ « ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَى » بِرَفْعِ السُّوءِ . قَالَ النُّعْمَانِيُّ : السُّوءُ أَشَدُّ الشَّرِّ ؛ وَالسُّوءَى الْفِعْلِيُّ مِنْهُ . ﴿ أَنَّ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ قِيلَ بِمُحَمَّدٍ وَالْقُرْآنِ ؛ قَالَ الْكَلْبِيُّ . مَقَابِلُ : بِالْعَذَابِ أَنْ يَنْزَلَ بِهِمْ . الضَّحَّاكُ : بِمُعْجَزَاتِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . ﴿ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ .

قوله تعالى : اللَّهُ يَبْدُوا أَنْخَلَقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبَاسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾

قَرَأَ أَبُو عَمْرٍو وَأَبُو بَكْرٌ « يَرْجَعُونَ » بِالْيَاءِ . الْبَاقُونَ بِالنَّاءِ . ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبَاسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ وَقَرَأَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ « يُبَاسُ » بِفَتْحِ اللَّامِ ؛ وَالْمَعْرُوفُ فِي اللُّغَةِ : أَبْلَسَ الرَّجُلُ إِذَا سَكَتَ وَأَنْقَطَعَتْ حِجَّتُهُ ، وَلَمْ يُؤْمَلْ أَنْ يَكُونَ لَهُ حِجَّةٌ ، وَقَرِيبٌ مِنْهُ : تَحْيِيرٌ ؛ كَمَا قَالَ الْعِجَّاجُ :

يَا صَاحِبَ هَلْ تَعْرِفُ رَشْمًا مُكْرَسًا * قَالَ نَعَمْ أَعْرِفُهُ وَأَبْلَسًا^(١)

(١) الْمُكْرَسُ : الَّذِي قَدْ بَعُرَتْ فِيهِ الْإِبِلُ وَبَوَّلَتْ فَرَكَبَ بَعْضُهُ بَعْضًا .

وقد زعم بعض النحويين أن إبليس مشتق من هذا ، وأنه أبلس لأنه أنقطعت حجته .
النحاس : ولو كان كما قال لوجب أن ينصرف ، وهو في القرآن غير منصرف . الزجاج :
المبلس الساكت المنقطع في حجته ، اليأس من أن يهتدى إليها . (ولم يكن لهم من شركائهم)
أى ما عبدوه من دون الله (شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين) قالوا ليسوا بأهلة فتهروا منها
وتبرأت منهم ؛ حسبما تقدم في غير موضع .

قوله تعالى : وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِئذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِئذٍ يَتَفَرَّقُونَ) يعنى المؤمنين من الكافرين ؛
ثم بين كيف تفرقهم فقال : (فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا) قال النحاس : سمعت الزجاج يقول :
معنى « أما » دع ما كنا فيه وخذ في غيره . وكذا قال سيبويه : إن معناها مهما كما في شيء^(١)
نخذ في غير ما كنا فيه . (فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ) قال الضحاك : الروضة الجنة ، والرياض
الجنان . وقال أبو عبيد : الروضة ما كان في تسفل ، فإذا كانت مرتفعة فهي ترعة . وقال
غيره : أحسن ما تكون الروضة إذا كانت في موضع مرتفع غليظ ؛ كما قال الأعشى :
ما رَوْضَةٌ من رياض الحزن مُعْشَبَةٌ * خَضْرَاءُ جَادَ عَلَيْهَا مُسِيلٌ هَاطِلٌ^(٢)
يضاحك الشمس منها كوكبٌ شَرِيقٌ * مؤزَّرٌ بعصمِ النَّبْتِ مُكْتَبِلٌ^(٣)
يوماً بأطيب منها نَشْرَ رَائِحَةٍ * ولا بأحسن منها إذ دَنَا الأَصْلُ^(٤)

إلا أنه لا يقال لها روضة إلا إذا كان فيها نبت ، فإن لم يكن فيها نبت وكانت مرتفعة فهي
ترعة . وقد قيل في التربة غير هذا . وقال القشيري : والروضة عند العرب ما ينبت حول

(١) في ش وج « مهما يكن » . (٢) رياض الحزن أحسن من رياض الخفوض لارتفاعها .
(٣) قوله : « يضاحك الشمس » أى يدور معها حيثما دارت . وكوكب كل شئ . معظمه ؛ والمراد هنا الزهر . ومؤزر :
مفعل من الإزار . والشرق : الريان المنلى . ماء . والعصم : انمام السن . والمكتبل : الذى قد بلغ وتم . (٤) النشرة : الرائحة
الطيبة . والأصل : جمع أصل ؛ وخص هنا الوقت لأن النبت يكون فيه أحسن ما يكون لبعاد الشمس والنفى عنه .

الغدِير من البقول ؛ ولم يكن عند العرب شيء أحسن منه . الجوهرى : والجمع رَوْض ورياض ، صارت الواو ياء لكسر ما قبلها . والزوض : نحو من نصف القِرْبَةِ ماء .
وفي الحوض رَوْضَةٌ من ماء إذا غطى أسفله . وأنشد أبو عمرو :
* وَرَوْضَةٌ سَقِيَتْ مِنْهَا نَضْوِي ^(١) *

(يُجْبَرُونَ) قال الضحاك وابن عباس : يُكْرَمُونَ ، وقيل ينعمون ؛ وقاله مجاهد وقتادة .
وقيل يسرون . السدى : يفرحون . والحَبْرَةُ عند العرب : السرور والفرح ؛ ذكره الماوردى .
وقال الجوهرى : الحَبْر : الحُبُّور وهو السرور ؛ ويقال : حَبْرُهُ يَحْبِرُهُ (بالضم) حَبْرًا وَحَبْرَةً ؛
قال تعالى : « فَهَمُّ فِي رَوْضَةٍ يُجْبَرُونَ » أى ينعمون ويكرمون ويسرون . ورجل يُجْبَرُ ^(٢) يفعل
من الحبور . النحاس : وحكى الكسائى حَبْرته أى أكرمه ونعمته . وسمعت على بن سليمان
يقول : هو مشتق من قولهم : على أسنانه حَبْرَةٌ أى أثر ؛ فـ « يجبرون » يتبين عليهم أثر النعيم .
والحبر مشتق من هذا . قال الشاعر :

لا تملأ الذأو وعرق فيها ^(٣) * أما ترى حَبْرًا من يسقيها

وقيل : أصله من التحبير وهو التحسين ؛ فـ « يُجْبَرُونَ » يحسنون . يقال : فلان حسن الحبر
والسبر إذا كان جميلا حسن الهيئة . ويقال أيضا : فلان حسن الحبر والسبر (بالفتح) ؛ وهذا
كأنه مصدر قولك : حَبْرْتُهُ حَبْرًا إذا حسنته . والأوّل أسم ؛ ومنه الحديث : "يخرج رجل من
النار ذهب حَبْرُهُ وَسِبْرُهُ" وقال يحيى بن أبى كثير « فى رَوْضَةٍ يُجْبَرُونَ » قال : السماع فى الجنة ؛
وقاله الأوزاعى ، قال : إذا أخذ أهل الجنة فى السماع لم تبق شجرة فى الجنة إلا رَدَدَتْ الغناء ^(٤)
بالسبوح والتقدیس . وقال الأوزاعى : ليس أحد من خلق الله أحسن صوتا من إسرائيل ،
فإذا أخذ فى السماع قطع على أهل سبع سموات صلاتهم وتسبيحهم . زاد غير الأوزاعى :
ولم تبق شجرة فى الجنة إلا رَدَدَتْ ، ولم يبق سِتر ولا باب إلا ارتج وأفتح ، ولم تبق حلقة

(١) النضو : الدابة التى أهزتها الأسفار .

(٢) الجبرير : الناعم من الرجال .

(٣) السماع : الغناء .

(٤) أمرقت الكأس وعزقتها : أفلت ماءها .

الاطنت بألوان طينها ، ولم تبق أجمه من آجام الذهب إلا وقع أهبوب الصوت في مقاصبها
 فزمرت تلك المقاصب بفنون الزمر ، ولم تبق جارية من جوار الحور العين إلا غنت بأغانها ،
 والطير بألحانها ، ويوحى الله تبارك وتعالى إلى الملائكة أن جاوبوهم وأسمعوا عبادى الذين
 نزهوا أسماعهم عن مزامير الشيطان فيجاوبون بألحان وأصوات روحانيين فتختلط هذه
 الأصوات فتصير رجة واحدة ، ثم يقول الله جل ذكره : يا داود قم عند ساق عرشى فجدنى ؛
 فيندفع داود بتمجيد ربه بصوت يغمر الأصوات ويحياها وتتضاعف اللذة ؛ فذلك قوله تعالى :
 « فَمِمَّنْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ » . ذكره الترمذى الحكيم رحمه الله . وذكر الثعلبى من حديث
 أبى الدرداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يذكر الناس ؛ فذكر الجنة وما فيها من
 الأزواج والنعيم ؛ وفي أنحريات القوم أعرابى فقال : يا رسول الله ، هل فى الجنة من سماع ؟
 فقال : « نعم يا أعرابى ! إن فى الجنة لنهرا حافتاه الأبقار من كل بيضاء حمصانية يتغنين
 بأصوات لم تسمع الخلائق بمثالها قط فذلك أفضل نعيم الجنة » فسأل رجل أبا الدرداء :
 بماذا يتغنين ؟ فقال : بالتسبيح . والحصانية : المرهفة الأعلى ، الحصانة البطن ، الضخمة
 الأسفل .

قلت : وهذا كله من النعيم والسرور والإكرام ؛ فلا تعارض بين تلك الأقوال . وأين هذا
 من قوله الحق : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » على ما يأتى . وقوله عليه السلام :
 « فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » . وقد روى : « إن فى الجنة
 لأشجارا عليها أجراس من فضة ، فإذا أراد أهل الجنة السماع بعث الله ريحا من تحت العرش
 فتقع فى تلك الأشجار فتتحرك تلك الأجراس بأصوات لو سمعها أهل الدنيا لما اتوا طربا » .
 ذكره الزمخشيرى .

(١) فى ك : « ويحليا » بالخاء المهملة . وفى كتاب التذكرة : « ويحليا » بالخاء المعجمة .

(٢) راجع ص ١٠٣ من هذا الجزء . (٣) فى الأصول : « الأجراس » .

قوله تعالى : **وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ** ﴿١٦﴾

قوله تعالى : **(وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا)** تقدم الكلام فيه . **(وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ)** أى بالبعث . **(فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ)** أى مقيمون . وقيل : مجموعون . وقيل : معذبون . وقيل : نازلون ؛ ومنه قوله تعالى : **« إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ »** أى نزل به ؛ قاله ابن شجرة ، والمعنى متقارب .

قوله تعالى : **فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ** ﴿١٧﴾
وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : **(فَسُبْحَانَ اللَّهِ)** الآية فيه ثلاثة أقوال : الأول - أنه خطاب للمؤمنين بالأمر بالعبادة والحض على الصلاة في هذه الأوقات . قال ابن عباس : الصلوات الخمس في القرآن ؛ قيل له : أين ؟ فقال : قال الله تعالى **« فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ »** صلاة المغرب والعشاء **« وَحِينَ تُصْبِحُونَ »** صلاة الفجر **« وَعَشِيًّا »** العصر **« وَحِينَ تُظْهِرُونَ »** الظهر ؛ وقاله الضحاك وسعيد بن جبير . وعن ابن عباس أيضا وقتادة : أن الآية تنبيه على أربع صلوات : المغرب والصبح والعصر والظهر ؛ قالوا : والعشاء الآخرة هي في آية أخرى في **« وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ »** وفي ذكر أوقات العورة . وقال النحاس : أهل التفسير على أن هذه الآية **« فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ »** في الصلوات . وسمعت علي بن سليمان يقول : حقيقته عندي : فسبحوا الله في الصلوات ، لأن التسبيح يكون في الصلاة ؛ وهو القول الثاني . والقول الثالث - فسبحوا الله حين تمسون وحين تصبحون ؛ ذكره الماوردي . وذكر القول

الأول ، ولفظه فيه : فصلوا لله حين تمسون وحين تصبحون . وفي تسمية الصلاة بالتسبيح وجهان : أحدهما - لما تضمنها من ذكر التسبيح في الركوع والسجود . الثاني - ماخوذ من السبحة والسبحة الصلاة ؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " تكون لهم سبحة يوم القيامة " أى صلاة .

الثانية - قوله تعالى : (وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) اعتراض بين الكلام بدء وب الحمد على نعمه وآلائه . وقيل : معنى « وَلَهُ الْحَمْدُ » أى الصلاة له لاختصاصها بقراءة الحمد . والأول أظهر ؛ فإن الحمد لله من نوع تعظيم الله تعالى والحض على عبادته ودوام نعمته ؛ فيكون نوعا آخر خلاف الصلاة ، والله أعلم . وبدأ بصلاة المغرب لأن الليل يتقدم النهار . وفي سورة « سبحان »^(١) بدأ بصلاة الظهر إذ هى أول صلاة صلاها جبريل بالنبي صلى الله عليه وسلم . الماوردي : وخص صلاة الليل باسم التسبيح وصلاة النهار باسم الحمد لأن للإنسان في النهار متقلبا في أحوالٍ توجب حمد الله تعالى عليها ، وفي الليل على خلوة توجب تنزيه الله من الأسواء فيها ؛ فلذلك صار الحمد بالنهار أخص فسميت به صلاة النهار ، والتسبيح بالليل أخص فسميت به صلاة الليل .

الثالثة - قرأ عكرمة « حِينًا تُمَسُونَ وَحِينًا تُصْبِحُونَ » والمعنى : حيناً تمسون فيه وحيناً تصبحون فيه ؛ فحذف « فيه » تخفيفاً ، والقول فيه كالقول في « وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا » . (وَعَشِيًّا) قال الجوهرى : العشي والعشية من صلاة المغرب إلى العتمة ؛ تقول : أيدته عشية أمس وعشي أمس . وتصغير العشي : عشيان ، على غير [قياس] مكبره ؛ كأنهم صغروا عشياناً ، والجمع عُشِيَّات . وقيل أيضاً في تصغيره : عُشِيَّيَان ، والجمع عُشِيَّيَات . وتصغير العشية عُشِيَّيَّة ، والجمع عُشِيَّيَّات . والعشاء^(٢) (بالكسر والمد) مثل العشي^(٣) . والعشاءان المغرب والعتمة . وزعم قوم أن العشاء من زوال الشمس إلى طلوع الفجر ، وأنشدوا :

غدونا غدوة سحرا بليلى * عشاء بعد ما أنتصف النهار

(١) راجع ج ١٠ ص ٢١٠ . (٢) راجع ج ١ ص ٣٧٧ فابعد . (٣) من ك . (٤) في ج : «العشاء» .

الماوردى: والفرق بين المساء والعشاء: أن المساء بدؤ الظلام بعد المغيب ، والعشاء آخر النهار عند ميل الشمس للغيب ، وهو ماخوذ من عشا العين وهو نقص النور من الناظر كنقص نور الشمس .

قوله تعالى : يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ نُخْرِجُكُمْ ①٩

بين كمال قدرته ، أى كما أحيا الأرض بإخراج النبات بعد همودها ، كذلك يحييكم بالبعث .
 وفى هذا دليل على صحة القياس ؛ وقد مضى فى « آل عمران » بيان « يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ » .
 (١)

قوله تعالى : وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ②٠ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ②١ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَالِدِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ②٢ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ ②٣ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ②٤ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ②٥ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهٌ قَانِتُونَ ②٦

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ أى من علامات ربوبيته ووَحدانيته أن خلقكم من تراب؛ أى خلق أباكم منه والفرع كالأصل، وقد مضى بيان هذا فى «الأنعام» .
 و « أن » فى موضع رفع بالابتداء وكذا « أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا » .
 ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْشُرُونَ﴾ ثم أنتم عقلاء ناطقون تُصرفون فيما هو قوام معاشكم ، فلم يكن ليخلقكم عبثاً ؛ ومن قدر على هذا فهو أهل للعبادة والتسبيح . ومعنى : ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ أى نساء تسكنون إليها . ﴿ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ أى من نطف الرجال ومن جنسكم . وقيل : المراد حواء ، خلقها من ضلع آدم ؛ قاله قتادة . ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : المودة الجماع ، والرحمة الولد ؛ وقاله الحسن . وقيل : المودة والرحمة عطفت قلوبهم بعضهم على بعض . وقال السدى : المودة : المحبة ، والرحمة : الشفقة ؛ ورؤى معناه عن ابن عباس قال : المودة حب الرجل امرأته ، والرحمة رحمته إياها أن يصيبها بسوء . ويقال : إن الرجل أصله من الأرض ، وفيه قوة الأرض ، وفيه الفرج الذى منه بدئ خلقه فيحتاج إلى سكن ، وخالقت المرأة سكناً للرجل ؛ قال الله تعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ » الآية . وقال : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا » فأقول آرتفاق الرجل بالمرأة سكنه إليها مما فيه من غليان القوة ، وذلك أن الفرج إذا تحمل فيه هيج ماء الصلب إليه ، فإليها يسكن وبها يتخلص من الهياج ، وللرجال خلق البضع منهم ، قال الله تعالى : « وَتَدْرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » فاعلم الله عز وجل الرجال أن ذلك الموضع خلق منهم للرجال ، فعلها بذله فى كل وقت يدعوها الزوج ، فإن منعه فهو ظالمة وفى حرج عظيم ؛ ويكفيك من ذلك ما ثبت فى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «والذى نفسى بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشها فتأبى عليه إلا كان الذى فى السماء ساخطا عليها حتى يرضى عنها» . وفى لفظ آخر : « إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها المسلائكة حتى تُصبح » . ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تقدّم

(١) راجع ج ٦ ص ٣٨٧ . (٢) كذا فى الأصل . (٣) راجع ج ١٣ ص ١٢٢ .

(١) في « البقرة » وكانوا يعترفون بأن الله تعالى هو الخالق . (وَأَخْتِلَافُ أَسْمَانِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ)
 اللسان في الفم ؛ وفيه اختلاف اللغات : من العربية والعجمية والتركية والرومية . واختلاف
 الألوان في الصور : من البياض والسواد والحمره ؛ فلا تكاد ترى أحداً إلا وأنت تفرق بينه
 وبين الآخر . وليس هذه الأشياء من فعل النطفة ولا من فعل الأبوين ؛ فلا بد من فاعل ،
 فعلم أن الفاعل هو الله تعالى ؛ فهذا من أدل دليل على المدبر البارئ . (إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَآيَاتٍ لِّعَالَمِينَ)^(٢) أي للبر والفاجر . وقرأ حفص : « لِّلْعَالَمِينَ » بكسر اللام جمع عالم .
 (وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) قيل : في هذه الآية تقديم وتأخير ، والمعنى :
 ومن آياته منامكم بالليل وابتغائكم من فضله بالنهار ؛ فحذف حرف الجر لاتصاله بالليل
 وعطفه عليه ، والواو تقوم مقام حرف الجر إذا اتصلت بالمعطوف عليه في الاسم الظاهر
 خاصة ؛ فجعل النوم بالليل دليلاً على الموت ، والتصرف بالنهار دليلاً على البعث . (إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) يريد سماع تفهم وتدبر . وقيل : يسمعون الحق فيتبعونه . وقيل :
 يسمعون الوعظ فيخافونه . وقيل : يسمعون القرآن فيصدقونه ؛ والمعنى متقارب . وقيل :
 كان منهم من إذا تلى القرآن وهو حاضر سد أذنيه حتى لا يسمع ؛ فبين الله عز وجل هذه
 الدلائل عليه . (وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا) قيل : المعنى أن يريكم ، فحذف
 « أن » لدلالة الكلام عليه ؛ قال طرفة :

ألا أيهذا اللائمي أحضر الوغى * وأن أشهد اللذات هل أنت مخددي

وقيل : هو على التقديم والتأخير ؛ أي ويريك البرق من آياته . وقيل : أي ومن آياته
 آية يريكم بها البرق ؛ كما قال الشاعر :

وما الدهر إلا تارتان فمنها * أموت وأخرى أبتغي العيش أكدح

وقيل : أي من آياته أنه يريكم البرق خوفاً وطمعا من آياته ؛ قاله الزجاج ، فيكون
 عطف جملة على جملة . (خَوْفًا) أي للمسافر . (وَطَمَعًا) للقيم ؛ قاله قتادة . الضحاك :

(١) راجع ج ١ ص ٢٥١ . (٢) بفتح اللام قراءة نافع ، وبها كان يقرأ المؤلف .

(٣) هو ابن مقبل ؛ كما في شواهد سيويه والخرانة .

« خَوْفًا » من الصواعق ، « وَطَمَعًا » في الغيث . يحيى بن سلام : « خَوْفًا » من البرد أن يهلك الزرع ، « وَطَمَعًا » في المطر أن يحيى الزرع . ابن بحر : « خَوْفًا » أن يكون البرق بَرَقًا خُلْبًا لا يُمطر ، « وَطَمَعًا » أن يكون ممطرًا ؛ وأنشد قول الشاعر :

لا يكن بَرَقُك بَرَقًا خُلْبًا * إن خير البرق ما الغيث معه

وقال آخر :

فقد أريد المياه بغير زاد * سوى عدى لها برق الغمام

والبرق الخُلْب : الذي لا غيث فيه كأنه خادع ؛ ومنه قيل لمن يعد ولا يُنجز : إنما أنت كبرق خُلْب . والخُلْب أيضا : السحاب الذي لا مطر فيه . ويقال : بَرَق خُلْب ، بالإضافة . (وَيُنزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) تقدم . (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ) « أَنْ » في محل رفع كما تقدم ؛ أى قيامها واستمساكها بقدرته بلا عمد . وقيل : بتدبيره وحكمته ؛ أى يسكنها بغير عمد لمنافع الخلق . وقيل : « بأمره » بإذنه ؛ والمعنى واحد . (ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ) أى الذى فعل هذه الأشياء قادر على أن يبعثكم من قبوركم ؛ والمراد سرعة وجود ذلك من غير توقف ولا تلبث ؛ كما يجيب الداعى المطاع مدعوه ؛ كما قال القائل :

دَعْوَةٌ كُلِّبَا بِأَسْمِهِ فَكَأَنَّمَا * دعوت برأس الطود أو هو أسرع^(١)

يريد برأس الطود : الصدى أو الحجر إذا تدهده . وإنما عطف هذا على قيام السموات والأرض بـ « ثم » اعظم ما يكون من ذلك الأمر واقتداره على مثله ، وهو أن يقول : يا أهل القبور قوموا ؛ فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين إلا قامت تنظر ؛ كما قال تعالى : « ثُمَّ نُنْفِخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ »^(٢) . و « إذا » الأولى في قوله تعالى :

(١) رواية البيت كما في اللسان :

دهوت جليدا دعوة فكأنما * دعوت به ابن الطود أو هو أسرع

قال : وابن الطود : الجلود الذى يتدهدى من الطود . والطود : الجبل العظيم . وتدهده الحجر : تدرج . في كتاب ما يعول عليه : دعوت خليدا ... بالخاء المعجمة .

(٢) راجع ج ١٥ ص ٢٧٩ .

« إِذَا دَعَاكُمْ » للشرط ، والثانية في قوله تعالى : « إِذَا أَنْتُمْ » للفاجأة ، وهى تنوب مناب الفاء في جواب الشرط . وأجمع القراء على فتح التاء هنا في « تَخْرُجُونَ » . واختلفوا في التى فى « الأعراف » فقرأ أهل المدينة : « ومنها تخرجون » بضم التاء ، وقرأ أهل العراق : بالفتح ، وإليه يميل أبو عبيد . والمعنيان متقاربان ، إلا أن أهل المدينة فزقوا بينهما لنسق الكلام ، فنسق الكلام فى التى فى « الأعراف » بالضم أشبه ؛ إذ كان الموت ليس من فعلهم ، وكذا الإخراج . والفتح فى سورة الروم أشبه بنسق الكلام ؛ أى إذا دعاكم خرجتم أى أطعتم ؛ فالفعل [بهم]^(٢) أشبه . وهذا الخروج إنما هو عند نفخة إسرافيل النفخة الآخرة ؛ على ما تقدم ويأتى . وقرئ : « تخرجون » بضم التاء وفتحها ، ذكره الزمخشري ولم يزد على هذا شيئاً ، ولم يذكر ما ذكرناه من الفرق ، والله أعلم . ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ خلقا وملكا وعبدا . ﴿ كُلُّ لَهُ قَانِتُونَ ﴾ روى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « كل قنوت فى القرآن فهو طاعة » . قال النحاس : مطيعون طاعة آقياد . وقيل : « قَانِتُونَ » مقترنون بالعبودية ، إما قالة وإما دلالة ؛ قاله عكرمة وأبو مالك والسدى . وقال ابن عباس : « قَانِتُونَ » مصلون . الربيع بن أنس : « كُلُّ لَهُ قَانِتُونَ » أى قائم يوم القيامة ؛ كما قال : « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ »^(٣) أى للحساب . الحسن : كل له قائم بالشهادة أنه عبده . سعيد بن جبير : « قَانِتُونَ » مخلصون .

قوله تعالى : وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ج
 وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾
 قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ أما بدء خلقه فبعلوقه فى الرحم قبل ولادته ، وأما إعادته فأحياؤه بعد الموت بالنفخة الثانية للبعث ؛ فجعل ما علم من ابتداء خلقه دليلا على ما ينهى من إعادته ؛ استدلالا بالشاهد على الغائب ، ثم أكد ذلك بقوله

(١) راجع ج ٧ ص ١٨١ فما بعد .

(٢) زيادة عن إعراب القرآن للنحاس .

(٣) راجع ج ١٩ ص ٢٥٢ .

(وهو أهون عليه) وقرأ ابن مسعود وابن عمر: «يَبْدِي الخَلْق» من أبدأ يبدئ؛ دليله قوله تعالى: «إِنَّهُ هُوَ يَبْدِي وَيُعِيد»^(١) . ودليل قراءة العامة قوله سبحانه: «كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ»^(٢) . و«أَهون» بمعنى هين؛ أى الإعادة هين عليه؛ قاله الربيع بن خثيم والحسن . فأهون بمعنى هين؛ لأنه ليس شيء أهون على الله من شيء . قال أبو عبيدة: ومن جعل أهون يعبر عن تفضيل شيء على شيء فقولته مردود بقوله تعالى: «وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا» وبقوله: «وَلَا يَسُودُهُ حِفْظُهُمَا» . والعرب تحمل أفعال على فاعل، ومنه قول الفرزدق:

إن الذى سمك السماء بنى لنا * بيتاً دعائمه أعز وأطول
أى دعائمه عزيزة طويلة . وقال آخر^(٣):

لعمرك ما أدري وإنى لأوجل * على أيتنا تعدو المنية أول
أراد: إنى لوجل . وأنشد أبو عبيدة أيضاً:

إنى لأمنحك الصدود وإنى * قسماً إليك مع الصدود لا ميل^(٤)
أراد لمائل . وأنشد أحمد بن يحيى:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت * فتلك سبيل لست فيها بأوحد
أراد بواحد . وقال آخر:

لعمرك إن الزبرقان لباذل * لمعرفه عند السنين وأفضل

أى وفاضل . ومنه قولهم: الله أكبر؛ إنما معناه الله الكبير . وروى معمر عن قتادة قال: فى قراءة عبد الله بن مسعود «وهو عليه هين» . وقال مجاهد وعكرمة والضحاك: إن المعنى أن الإعادة أهون عليه - أى على الله - من البداية؛ أى أيسر، وإن كان جميعه على الله تعالى هيناً؛ وقاله ابن عباس . ووجهه أن هذا مثل ضربه الله تعالى لعباده؛ يقول: إعادة الشيء على الخلائق أهون من ابتدائه؛ فينبغى أن يكون البعث لمن قدر على البداية عندكم وفيما بينكم

(١) راجع ج ١٩ ص ٢٩٤ . (٢) راجع ج ٧ ص ١٨٧ فابعد .

(٣) القائل هو معن بن أرم . (٤) البيت للأحوص بن محمد الأنصارى .

أهون عليه من الإنشاء . وقيل : الضمير في «عَلَيْهِ» للمخلوقين ؛ أى وهو أهون عليه ، أى على الخلق ، يصاح بهم صيحة واحدة فيقومون ويقال لهم : كونوا فيكونون ؛ فذلك أهون عليهم من أن يكونوا نطفاً ثم علقاً ثم مضغاً ثم أجنة ثم أطفالاً ثم غلماناً ثم شباناً ثم رجالاً أو نساء . وقاله ابن عباس وقطرب . وقيل : أهون أسهل ؛ قال :

وهان على أسماء أن شطت النوى * يحن إليها والله ويتوق

أى سهل عليها ، وقال الربيع بن خثيم فى قوله تعالى : « وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » قال : ما شىء على الله بعزير . عكرمة : تعجب الكفار من إحياء الله الموتى فنزلت هذه الآية . (وله المثل الأعلى) أى ما أراداه جلّ وعزّ كان . وقال الخليل : المثل الصفة ؛ أى وله الوصف الأعلى (فى السموات والأرض) كما قال : « مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ » أى صفتها . وقد مضى الكلام فى ذلك . وعن مجاهد : « المثل الأعلى » قول لا إله إلا الله ؛ ومعناه : أى الذى له الوصف الأعلى ، أى الأرفع الذى هو الوصف بالوحدانية . وكذا قال قتادة : إن المثل الأعلى شهادة أن لا إله إلا الله ؛ ويعضده قوله تعالى : « ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ » على ما نبينه آنفاً إن شاء الله تعالى . وقال الزجاج : « وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى قوله : « وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » قد ضربه لكم مثلاً فيما يصعب ويسهل ؛ يريد التفسير الأول . وقال ابن عباس : أى ليس كمثل شىء (وهو العزيز الحكيم) تقدم .

قوله تعالى : ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾

(١) راجع ج ٩ ص ٣٢٤ .

(٢) راجع ج ١ ص ٢٨٧ . وج ٢ ص ١٣١ .

فيه مسألتان :

الأولى - قوله تعالى : **(مِنْ أَنْفُسِكُمْ)** ثم قال : **(مِنْ شُرَكَاءِ)** ؛ ثم قال : **(مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ)** فـ « من » الأولى للابتداء ؛ كأنه قال : أخذ مثلا وأنتزعه من أقرب شيء منكم وهي أنفسكم . والثانية للتبعيض ، والثالثة زائدة لتأكيد الاستفهام . والآية نزلت في كفار قريش ، كانوا يقولون في التلبية : لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك ؛ قاله سعيد بن جبیر . وقال قتادة : هذا مثل ضربه الله للمشركين ؛ والمعنى : هل يرضى أحدكم أن يكون مملوكه في ماله ونفسه مثله ، فإذا لم ترضوا بهذا لأنفسكم فكيف جعلتم لله شركاء .

الثانية - قال بعض العلماء : هذه الآية أصل في الشركة بين المخلوقين لانفجار بعضهم إلى بعض ونفيها عن الله سبحانه ، وذلك أنه لما قال جل وعز : **« ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ »** الآية ، فيجب أن يقولوا : ليس عبيدنا شركاءنا فيما رزقنا ! فيقال لهم : فكيف يتصور أن تنزهوا نفوسكم عن مشاركة عبيدكم وتجعلوا عبيدكم شركاء في خلق ؛ فهذا حكم فاسد وقلة نظر وعمى قلب ! فإذا بطلت الشركة بين العبيد وساداتهم فيما يملكه السادة والخلق كلهم عبيد لله تعالى فيبطل أن يكون شيء من العالم شريكا لله تعالى في شيء من أفعاله ؛ فلم يبق إلا أنه واحد يستحيل أن يكون له شريك ، إذ الشركة تقتضى المعاونة ، ونحن مفتقرون إلى معاونة بعضنا بعضا بالمال والعمل ؛ والقديم الأزلي منزّه عن ذلك جل وعز .

وهذه المسألة أفضل للطالب من حفظ ديوان كامل في الفقه ؛ لأن جميع العبادات البدنية لا تصح إلا بتصحيح هذه المسألة في القلب ، فافهم ذلك .

قوله تعالى : **بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ** ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : **(بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ)** لما قامت عليهم الحجة ذكر أنهم يعبدون الأصنام باتباع أهوائهم في عبادتها وتقليد الأسلاف في ذلك . **(فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ)** أى لا هادى لمن أضله الله تعالى . وفي هذا رد على القدرية . **(وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)** .

قوله تعالى : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ) فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قال الزجاج : « فِطْرَةَ » منصوب بمعنى أتبع فطرة الله . قال : لأن معنى « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ » أتبع الدين الحنيف وأتبع فطرة الله . وقال الطبري : « فِطْرَةَ اللَّهِ » مصدر من معنى : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ » لأن معنى ذلك : فطر الله الناس على ذلك فِطْرَةَ . وقيل : معنى ذلك أتبعوا دين الله الذى خلق الناس له ؛ وعلى هذا القول يكون الوقف على « حَنِيفًا » تاما . وعلى القولين الأولين يكون متصلا ، فلا يوقف على « حَنِيفًا » . وسميت الفِطْرَةَ دِينًا لأن الناس يُخْلَقُونَ له ، قال جل وعز : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ »^(١) . ويقال : « عَلَيْهَا » بمعنى لها ؛ كقوله تعالى : « وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا »^(٢) . والخطاب بـ « فَأَقِمْ وَجْهَكَ » للنبي صلى الله عليه وسلم ، أمره بإقامة وجهه للدين المستقيم ؛ كما قال : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ »^(٣) وهو دين الإسلام . وإقامة الوجه هو تقويم المقصد والقوة على الحد في أعمال الدين ؛ وخص الوجه بالذكر لأنه جامع حواس الإنسان وأشرفه . ودخل في هذا الخطاب أُمَّتُهُ باتفاق من أهل التأويل . و « حَنِيفًا » معناه معتدلا مائلا عن جميع الأديان المحرفة المنسوخة .

الثانية — فى الصحيح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من مولود إلا يولد على الفِطْرَةَ — فى رواية « على هذه الملة — أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسّون فيها من جدعاء » ثم يقول أبو هريرة : « واقروا إن شئتم » « فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ » ، فى رواية : « حتى

(١) راجع ج ١٧ ص ٥٥٥ (٢) راجع ج ١٠ ص ٢١٧ (٣) راجع ص ٤٢ من هذا الجزء .

(٤) أى سابعة من العيوب مجتمعة الأعضاء كاملها .

تكونوا أتمّ تجدعونها“ قالوا : يا رسول الله ؛ أفرأيت من يموت صغيراً ؟ قال : ” الله أعلم بما كانوا عاملين “ . لفظ مسلم .

الثالثة - واختلاف العلماء في معنى الفطرة المذكورة في الكتاب والسنة على أقوال متعددة ؛ منها الإسلام ؛ قاله أبو هريرة وابن شهاب وغيرهما ؛ قالوا : وهو المعروف عند عامة السلف من أهل التأويل ؛ واحتجوا بالآية وحديث أبي هريرة ، وعَضَدُوا ذلك بحديث عياض بن حمار الجبّاشي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للناس يوماً : ” ألا أحدثكم بما حدثني الله في كتابه ، أن الله خلق آدم وبنيه حنفاء مسلمين ، وأعطاهم المال حلالاً لا حرام فيه فجعلوا مما أعطاهم الله حلالاً وحراماً ... “ الحديث . وبقوله صلى الله عليه وسلم : ” خمس من الفطرة ... “ فذكر منها قصّ الشارب ، وهو من سنن الإسلام ؛ وعلى هذا التأويل فيكون معنى الحديث : أن الطفل خلق سليماً من الكفر على الميثاق الذي أخذه الله على ذرية آدم حين أخرجهم من صلبه ، وأنهم إذا ماتوا قبل أن يُدْرِكُوا في الجنة ؛ أولاد مسلمين كانوا أو أولاد كفار . وقال آخرون : الفطرة هي البداءة التي ابتدأهم الله عليها ؛ أي على ما فطر الله عليه خلقه من أنه ابتدأهم للحياة والموت والسعادة والشقاء ، وإلى ما يصيرون إليه عند البلوغ . قالوا : والفطرة في كلام العرب البداءة . والفاطر : المبتدئ ؛ واحتجوا بما روى عن ابن عباس أنه قال : لم أكن أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتى أمر ابان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ؛ أي ابتدأتها . قال المروزي : كان أحمد بن حنبل يذهب إلى هذا القول ثم تركه . قال أبو عمر في كتاب التمهيد له : ما رسمه مالك في موطنه وذكر في باب القدر^(١) فيه من الآثار - يدلّ على أن مذهبه في ذلك نحو هذا ، والله أعلم . ومما احتجوا به ما روى عن كعب القرظي في قول الله تعالى : « فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ » قال : من ابتدأ الله خلقه للضلالة صيره إلى الضلالة وإن عمل بأعمال الهدى ، ومن ابتدأ الله خلقه على الهدى صيره إلى الهدى وإن عمل بأعمال الضلالة ، ابتدأ الله خلق إبليس على الضلالة وعمل بأعمال السعادة مع الملائكة ، ثم رده الله إلى ما ابتدأ عليه خلقه ، قال : وكان من الكافرين .

(١) في ج ، ش ، ك : أبواب . (٢) راجع ج ٧ ص ١٨٨ فابعد .

قلت : قد مضى قول كعب هذا في « الأعراف » وجاء معناه مرفوعاً من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : دُعِيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازة غلام من الأنصار فقلت : يا رسول الله ، طُوبَى لهذا عصفور من عصافير الجنة ، لم يعمل السوء ولم يدركه ! قال : ” أو غير ذلك يا عائشة ! إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاّب آبائهم ، وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاّب آبائهم ” خرج ابن ماجه في السنن . وخرج أبو عيسى الترمذى عن عبد الله بن عمرو قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده كتابان فقال : ” أتدرون ما هذان الكتابان ؟ ” فقلنا : لا يا رسول الله ، إلا أن تخبرنا ؛ فقال للذي في يده اليمنى : ” هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزداد فيهم ولا ينقص منهم أبداً — ثم قال للذي في شماله — هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزداد فيهم ولا ينقص منهم أبداً ... ” وذكر الحديث ، وقال فيه : حديث حسن . وقالت فرقة : ليس المراد بقوله تعالى : « فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْنَا » ولا قوله عليه السلام : ” كل مولود يولد على الفطرة ” العموم ، وإنما المراد بالناس المؤمنون ؛ إذ لو فطر الجميع على الإسلام لما كفر أحد ، وقد ثبت أنه خلق أقواماً للنار ؛ كما قال تعالى : « وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ ^(١) » وأخرج الذرية من صلب آدم سوداء وبيضاء . وقال في الغلام الذي قتله الخضر : طبع يوم طبع كافراً . وروى أبو سعيد الخدري قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم العصر بنهار ؛ وفيه : وكان فيما حفظنا أن قال : ” ألا إن بنى آدم خلُقوا طبقات شتى فمنهم من يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت مؤمناً ، ومنهم من يولد كافراً ويموت كافراً ، ومنهم من يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت كافراً ، ومنهم من يولد كافراً ويحيا كافراً ويموت مؤمناً ، ومنهم حسن القضاء حسن الطلب ” ذكره حماد بن زيد بن سلمة ^(٢) في مسند الطيالسي قال : حدثنا علي بن زيد عن أبي نضرة عن أبي سعيد . قالوا : والعموم بمعنى الخصوص كثير في لسان العرب ؛ ألا ترى إلى قوله

(١) راجع ج ٧ ص ٣٢٤ . (٢) أى والشمس عالية . (٣) لفظ « مسلبة » ساقط من ج ، ش .

عز وجل : «تَدْرُسُ كُلَّ شَيْءٍ»^(١) ولم تدمر السموات والأرض . وقوله : «فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ»^(٢) ولم تفتح عليهم أبواب الرحمة . وقال إسحاق بن رَاهُوِيَه الحنظلي : تم الكلام عند قوله : «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا» ثم قال : «فِطْرَةَ اللَّهِ» أى فطر الله الخلق فطرة إما بجنة أو نار ، وإليه أشار النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : «كل مولود يولد على الفطرة» ولهذا قال : ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ قال شيخنا أبو العباس : من قال هى سابقة السعادة والشقاوة فهذا إنما يليق بالفطرة المذكورة فى القرآن ؛ لأن الله تعالى قال : «لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ» وأما فى الحديث فلا ؛ لأنه قد أخبر فى بقية الحديث بأنها تبدل وتغير . وقالت طائفة من أهل الفقه والنظر : الفطرة هى الحلقة التى خلق عليها الموالود فى المعرفة بربه ؛ فكأنه قال : كل مولود يولد على خلقه يعرف بها ربه إذا بلغ مبلغ المعرفة ؛ يريد خلقه مخالفةً للحلقة البهائم التى لا تصل بخلقها إلى معرفته . واحتجوا على أن الفطرة الحلقة ، والفاطر الخالق ؛ لقول الله عز وجل : «الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»^(٣) يعنى خالقهن ، وبقوله : «وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ^(٤) الَّذِي فَطَرَنِي» يعنى خلقنى ، وبقوله : «الَّذِي فَطَرَهُنَّ»^(٥) يعنى خلقهن . قالوا : فالفطرة الحلقة ، والفاطر الخالق ؛ وأنكروا أن يكون الموالود يُفطر على كفر أو إيمان أو معرفة أو إنكار . قالوا : وإنما المولود على السلامة فى الأغلب خلقه وطبعاً وبينة ليس معها إيمان ولا كفر ولا إنكار ولا معرفة ؛ ثم يعتقدون الكفر والإيمان بعد البلوغ إذا ميزوا . واحتجوا بقوله فى الحديث : «كَمَا تُنْتِجُ الْبَيْهَمَةُ بَيْهَمَةً جَمَاعًا — يعنى سالمة — هَلْ تُحْسِنُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءٍ» يعنى مقطوعة الأذن . فمثل قلوب بنى آدم بالبهائم لأنها تولد كاملة الخلق ليس فيها نقصان ، ثم تقطع آذانها بعد وأنوفها ؛ فيقال : هذه بحائر وهذه سوائب^(٦) . يقول : فكذلك قلوب الأطفال فى حين ولادتهم ليس لهم كفر ولا إيمان ، ولا معرفة ولا إنكار كالبهائم السائمة ، فلما بلغوا آستهوتهم الشياطين فكفروا أكثرهم ، وعصم الله أقلهم . قالوا : ولو كان الأطفال قد فطروا على شىء من الكفر والإيمان فى أولية أمورهم ما آنتقلوا عنه أبداً ، وقد نجدهم يؤمنون ثم يكفرون . قالوا :

(١) راجع ج ١٦ ص ٢٠٥ .

(٢) راجع ج ٦ ص ٤٢٥ .

(٣) راجع ج ١٤ ص ٣١٨ فما بعد .

(٤) راجع ج ١٥ ص ١٧ .

(٥) راجع ج ١١ ص ٢٩٦ .

(٦) راجع ج ٦ ص ٣٣٥ .

ويستحيل في المعقول أن يكون الطفل في حين ولادته يعقل كفرًا أو إيمانًا، لأن الله أخرجهم في حال لا يفقهون معها شيئًا، قال الله تعالى: « **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا** »^(١) فن لا يعلم شيئًا استحالة منه كفر أو إيمان، أو معرفة أو إنكار. قال أبو عمر بن عبد البر: هذا أصح ما قيل في معنى الفطرة التي يولد الناس عليها. ومن الحجّة أيضًا في هذا قوله تعالى: « **إِنَّمَا يُجِزُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** »^(٢) و « **كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ** »^(٣) ومن لم يبلغ وقت العمل لم يرتن بشيء. وقال: « **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا** »^(٤) ولما أجمعوا على دفع القود والقصاص والحدود والآثام عنهم في دار الدنيا كانت الآخرة أولى بذلك. والله أعلم. ويستحيل أن تكون الفطرة المذكورة الإسلام، كما قال ابن شهاب؛ لأن الإسلام والإيمان: قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح، وهذا معدوم من الطفل، لا يجهل ذلك ذو عقل. وأما قول الأوزاعي: سألت الزهري عن رجل عليه رقبة أيجزى عنه الصبي أن يعتقه وهو رضيع؟ قال نعم؛ لأنه ولد على الفطرة يعنى الإسلام؛ فإنما أجزى عتقه عند من أجازته؛ لأن حكمه حكم أبيه. وخالفهم آخرون فقالوا: لا يجزى في الرقاب الواجبة إلا من صام وصلى، وليس في قوله تعالى: « **كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ** »^(٥) ولا في « **أَنْ يُخْتَمَ اللَّهُ لِلْعَبْدِ بِمَا قَضَاهُ لَهُ وَقَدَرَهُ عَلَيْهِ** »— دليل على أن الطفل يولد حين يولد مؤمنًا أو كافرًا؛ لما شهدت له العقول أنه في ذلك الوقت ليس ممن يعقل إيمانًا ولا كفرًا، والحديث الذي جاء فيه: « **أَنَّ النَّاسَ خَلَقُوا عَلَى طَبَقَاتٍ** » ليس من الأحاديث التي لا مطعن فيها؛ لأنه انفرد به علي بن زيد بن جدعان، وقد كان شعبة يتكلم فيه. هل أنه يحتمل قوله: « **يُولَدُ مُؤْمِنًا** » أي يولد ليكون مؤمنًا، ويولد ليكون كافرًا على سابق علم الله فيه، وليس في قوله في الحديث « **خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَخَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنَّارِ** » أكثر من مراعاة ما يختم به لهم؛ لا أنهم في حين طفولتهم ممن يستحق جنة أو نارًا، أو يعقل كفرًا أو إيمانًا.

(١) راجع ج ١٠ ص ١٥١ .
 (٢) راجع ج ١٧ ص ٦٢ فما بعد .
 (٣) راجع ج ١٩ ص ٨٢ فما بعد .
 (٤) راجع ج ١٠ ص ٢٣١ فما بعد .
 (٥) لفظه « شعبة » ساقطة من ج .

قلت : وإلى ما اختاره أبو عمر واحتج له ، ذهب غير واحد من المحققين منهم ابن عطية في تفسيره في معنى الفطرة ، وشيخنا أبو العباس . قال ابن عطية : والذي يعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة أنها الخلق والمهيئة التي في نفس الطفل التي هي معدة ومهيأة لأن يميز بها مصنوعات الله تعالى ، ويستدل بها على ربه ويعرف شرائعه ويؤمن به ؛ فكأنه تعالى قال : أقم وجهك للدين الذي هو الحنيف ، وهو فطرة الله الذي على الإعداد له فطر البشر ، لكن تعرضهم العوارض ؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه " فذكر الأبوين إنما هو مثال للعوارض التي هي كثيرة . وقال شيخنا في عبارته : إن الله تعالى خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق ، كما خلق أعينهم وأسماعهم قابلة للرئيات والمسموعات ، فدامت باقية على ذلك القبول وعلى تلك الأهلية أدركت الحق ودين الإسلام وهو الدين الحق . وقد دل على صحة هذا المعنى قوله : " كما تُنتجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاء هل تُحسنون فيها من جدعاء " يعني أن البهيمة تلد ولدها كامل الخلق سليما من الآفات ، فلو ترك على أصل تلك الخلق لبقى كاملا بريئا من العيوب ، لكن يتصرف فيه فيجدع أذنه ويوسم وجهه فتطرا عليه الآفات والنقائص فيخرج عن الأصل ؛ وكذلك الإنسان ، وهو تشبيهه واقع ووجهه واضح .

قلت : وهذا القول مع القول الأول موافق له في المعنى ، وأن ذلك بعد الإدراك حين عقلوا أمر الدنيا ، وتأكدت حجة الله عليهم بما نصب من الآيات الظاهرة : من خلق السموات والأرض ، والشمس والقمر ، والبر والبحر ، واختلاف الليل والنهار ؛ فلما عملت أهواؤهم فيهم أتهم الشياطين فدعتهم إلى اليهودية والنصرانية فذهبت بأهوائهم يمينا وشمالا ، وأنهم إن ماتوا صغارا فهم في الجنة ، أعنى جميع الأطفال ، لأن الله تعالى لما أخرج ذرية آدم من صلبه في صورة الذر أقرأوا له بالربوبية وهو قوله تعالى : « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا » . ثم أعادهم في صلب آدم بعد أن أقرأوا له بالربوبية ، وأنه الله لا إله غيره ، ثم يكتب العبد في بطن أمه شقيا أو سعيدا على

(١) لفظة « فيه » ساقطة من ج

(٢) قراءة نافع ، وبها كان يقرأ المؤلف .

(٣) راجع ج ٧ ص ٣١٤ فما بعد .

الكتاب الأول ؛ فن كان في الكتاب الأول شقياً عُمر حتى يجرى عليه القلم فينقض الميثاق الذي أخذ عليه في صلب آدم بالشرك ، ومن كان في الكتاب الأول سعيداً عُمر حتى يجرى عليه القلم فيصير سعيداً ، ومن مات صغيراً من أولاد المسلمين قبل أن يجرى عليه القلم فهم مع آبائهم في الجنة ، ومن كان من أولاد المشركين مات قبل أن يجرى عليه القلم فليس يكونون مع آبائهم ؛ لأنهم ماتوا على الميثاق الأول الذي أخذ عليهم في صلب آدم ولم ينقض الميثاق . ذهب إلى هذا جماعة من أهل التأويل ، وهو يجمع بين الأحاديث ، ويكون معنى قوله عليه السلام لما سئل عن أولاد المشركين فقال : ” الله أعلم بما كانوا عاملين ” يعني لو بلغوا . ودل على هذا التأويل أيضاً حديث البخاري عن سُمرة بن جندب عن النبي صلى الله عليه وسلم - الحديث الطويل حديث الرؤيا ، وفيه قوله عليه السلام : ” وأما الرجل الطويل الذي في الروضة لإبراهيم عليه السلام ، وأما الولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة ” . قال فقيل : يا رسول الله ، وأولاد المشركين ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” وأولاد المشركين ” . وهذا نص يرفع الخلاف ، وهو أصح شيء روي في هذا الباب ، وغيره من الأحاديث فيها طلل وليست من أحاديث الأئمة الفقهاء ؛ قاله أبو عمر بن عبد البر . وقد روي من حديث أنس قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال : ” لم تكن لهم حسنات فيجزوا بها فيكونوا من ملوك الجنة ، ولم تكن لهم سيئات فيعاقبوا عليها فيكونوا من أهل النار ، فهم خدم لأهل الجنة ” ذكره يحيى بن سلام في التفسير له . وقد زدنا هذه المسألة بياناً في كتاب التذكرة ، وذكرنا في كتاب المقتبس في شرح موطأ مالك بن أنس ما ذكره أبو عمر من ذلك ، والحمد لله . وذكر إسحاق بن راهويه قال : حدثنا يحيى بن آدم قال : أخبرنا جرير بن حازم عن أبي رجاء العطاردي قال : سمعت ابن عباس يقول : لا يزال أمر هذه الأمة موالياً أو متقارباً - أو كلمة تشبه هاتين - حتى يتكلموا أو ينظروا في الأطفال والقدر . قال يحيى بن آدم : فذكرته لابن المبارك فقال : أيسكت الإنسان على الجهل ؟ قلت : فتأمر بالكلام ؟ قال فسكت . وقال أبو بكر الوراق : « فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا » هي الفطرة والفاقة ؛ وهذا حسن ؛ فإنه منذ ولد إلى حين يموت فقير محتاج ، نعم ! وفي الآخرة .

قوله تعالى : (لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ) أى هذه الفطرة لا تبدل لها من جهة الخالق . ولا يجرى الأمر على خلاف هذا بوجه ؛ أى لا يشقى من خلقه سعيداً ، ولا يسعد من خلقه شقيماً . وقال مجاهد : المعنى لا تبدل لدين الله ؛ وقاله قتادة وابن جبير والضحاك وابن زيد والنخعي ، قالوا : هذا معناه في المعتقدات . وقال عكرمة : وروى عن ابن عباس وعمير ابن الخطاب أن المعنى : لا تغيير لخلق الله من البهائم أن تخصى فطرتها ؛ فيكون معناه النهى عن خصاء الفحول من الحيوان . وقد مضى هذا في « النساء » . (ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ)^(١) أى ذلك القضاء المستقيم ؛ قاله ابن عباس . وقال مقاتل : ذلك الحساب البين . وقيل : « ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ » أى دين الإسلام هو الدين القيم المستقيم . (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) أى لا يتفكرون فيعلمون أن لهم خالفاً معبوداً ، وإلهاً قديماً سبق قضاؤه ونفذ حكمه .

قوله تعالى : مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعَةً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢)

قوله تعالى : (مُنِيبِينَ إِلَيْهِ) اختلف في معناه ، فقيل : راجعين إليه بالتوبة والإخلاص . وقال يحيى بن سلام والفراء : مقبلين إليه . وقال عبدالرحمن بن زيد : مطيعين له . وقيل : تائبين إليه من الذنوب ؛ ومنه قول [أبى] قيس بن الأسلت :

فإن تابوا فإن بنى سليم * وقومهم هوازن قد أنابوا

والمعنى واحد ؛ فإن « ناب وتاب واثاب وآب » معناه الرجوع . قال المارديني : وفي أصل الإنابة قولان : أحدهما — أن أصله القطع ؛ ومنه أخذ اسم الناب لأنه قاطع ؛ فكان الإنابة هي الانقطاع إلى الله عز وجل بالطاعة . الثاني — أصله الرجوع ؛ مأخوذ من ناب ينوب إذا رجع مرة بعد أخرى ؛ ومنه التوبة لأنها الرجوع إلى عادة . الجوهرى :

(٢) لفظة « من الذنوب » ساقطة من ج

(١) راجع ج ٥ ص ٣٨٩ فما بعد .

(٢) لفظة « أخذ » مأخوذ « ساقطة من ج

وأنا ب إلى الله أقبل وتاب . والنَّوْبَةُ واحدة النَّوْبِ ، تقول : جاءت نَوْبَتُكَ ونيابَتُكَ ، وهم يتناوبون النَّوْبَةَ فيما بينهم في الماء وغيره . وانتصب على الحال . قال محمد بن يزيد : لأن معنى : «أَقِمَّ وَجْهَكَ» فأقيموا وجوهكم منيبين . وقال الفراء : المعنى فأقم وجهك ومن معك منيبين . وقيل : انتصب على القطع ؛ أى فأقم وجهك أنت وأمتك المنيبين إليه ؛ لأن الأمر له ، أمر لأمته ؛ فحسن أن يقول منيبين إليه ، وقد قال الله تعالى : «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ» (١) . «وَأَتَّقُوهُ» أى خافوه وامثلوا ما أمركم به . «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» [بين أن العبادة لا تنفع إلا مع الإخلاص ؛ فلذلك قال : «وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ»] وقد مضى هذا مبينا «في النساء والكهف» وغيرهما . (٢) «مِنَ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ» تأوله أبو هريرة وعائشة وأبو أمامة : أنه لأهل القبلة من أهل الأهواء والبدع . وقد مضى «في الأنعام» بيانه . وقال الربيع بن أنس : الذين فارقوا دينهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ؛ وقاله قتادة ومعمّر . وقرأ حمزة والكسائي : «فَارْقُوا دِينَهُمْ» ، وقد قرأ بذلك على ابن أبي طالب ؛ أى فارقوا دينهم الذى يجب أتباعه ، وهو التوحيد . «وَكَانُوا شِعْمًا» أى فرقا ؛ قاله الكلبي . وقيل أديانا ؛ قاله مقاتل . «كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ» أى مسرورون معجبون ، لأنهم لم يتبينوا الحق وعليهم أن يتبينوه . وقيل : كان هذا قبل أن تنزل الفرائض . وقول ثالث : أن العاصي لله عز وجل قد يكون فرحا بمعصيته ، وكذلك الشيطان وقطاع الطريق وغيرهم ؛ والله أعلم . وزعم الفراء أنه يجوز أن يكون التمام «وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» ويكون المعنى : من الذين فارقوا دينهم «وَكَانُوا شِعْمًا» على الاستئناف ، وأنه يجوز أن يكون متصلا بما قبله . [النحاس : وإذا كان متصلا بما قبله (٣) فهو عند البصريين على البديل بإعادة الحرف ؛ كما قال جل وعز : « قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ » ولو كان بلا حرف لحاز .

(١) راجع ج ١٨ ص ١٤٧ .

(٢) ما بين المربعين ساقط من ج

(٣) راجع ج ٥ ص ١٨٠ و ج ١١ ص ٦٩ .

(٤) راجع ج ٧ ص ١٤٩ و ص ٢٤٠ .

قوله تعالى : وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ
ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ ﴾ أى حَقَطَ وَشَدَّةَ ﴿ دَعَوْا رَبَّهُمْ ﴾ أن يرفع ذلك عنهم ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ قال ابن عباس : مقبلين عليه بكل قلوبهم لا يشركون . ومعنى هذا الكلام التعجب ، عجب نبيه من المشركين في ترك الإجابة إلى الله تعالى مع نتاج الحجج عليهم ؛ أى إذا مس هؤلاء الكفار ضُرٌّ من مرض وشدة دعوا ربهم ؛ أى استغاثوا به في كشف ما نزل بهم ، مقبلين عليه وحده دون الأصنام ، لعلمهم بأنه لا فرج عندها . ﴿ ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ أى عافية ونعمة . ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ أى يشركون به في العبادة .

قوله تعالى : لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ قيل : هى لام كي . وقيل : هى لام أمر فيه معنى التهديد ؛ كما قال جل وعز : « فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ » . ﴿ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ تهديد ووعيد . وفى مصحف عبد الله « وَابْتَمَتَّعُوا » ؛ أى مكَّاهم من ذلك لكى يتمتعوا ، فهو إخبار عن غائب ؛ مثل : « لِيَكْفُرُوا » . وهو على خط المصحف خطاب بعد الإخبار عن غائب ؛ أى تمتعوا أيها الفاعلون لهذا .

قوله تعالى : أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ

يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا ﴾ استفهام فيه معنى التوقيف . قال الضحاك : « سُلْطَانًا » أى كتابا ؛ وقاله قتادة والربيع بن أنس . وأضاف الكلام إلى الكتاب توسعاً . وزعم الفراء أن العرب تؤنث السلطان ؛ تقول : قضتُ به عليك السلطان . فأما البصريون فالتذكير عندهم أفصح ، وبه جاء القرآن ، والثابت عندهم جائز لأنه بمعنى الحجية ؛ أى حجة

(١) راجع ج ١٠ ص ٣٩٢ فما بعد .

تنطق بشرككم ؛ قاله ابن عباس والضحاك أيضا . وقال علي بن سليمان عن أبي العباس محمد ابن يزيد قال : سلطان جمع سليط ؛ مثل رغيف ورغفان ، فتذكيره على معنى الجمع وتأنيته على معنى الجماعة . وقد مضى في « آل عمران » الكلام في السلطان أيضا مستوفى . والسلطان : ما يدفع به الإنسان عن نفسه أمرا يستوجب به عقوبة ؛ كما قال تعالى : « ^(١) أَوْ لَذُنْجَنَهُ أَوْ لِيَأْتِيَنَّيَ سُلْطَانًا مُّبِينًا ^(٢) » .

قوله تعالى : وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ ^(٣) سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : (وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا) يعني الحِصْب والسعة والعافية ؛ قاله يحيى بن سلام . النقاش : النعمة والمطر . وقيل : الأمن والدعة ؛ والمعنى متقارب . (فَرِحُوا بِهَا) أى بالرحمة . (وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ) أى بلاء وعقوبة ؛ قاله مجاهد . السدى : حط المطر . (بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ) أى بما عملوا من المعاصى . (إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ) أى يياسون من الرحمة والفرج ؛ قاله الجمهور . وقال الحسن : إن القنوط ترك فرائض الله سبحانه وتعالى فى السر . قنط يقنط ، وهى قراءة العامة . وقنط يقنط ، وهى قراءة أبى عمرو والكسائى ويعقوب . وقرأ الأعمش : « قنط يقنط » بالكسر فيهما ؛ مثل حسب يحسب . والآية صفة للكافر ، يقنط عند الشدة ، ويبطر عند النعمة ؛ كما قيل :

كحمار السوء إن أعلفته * ربح الناس وإن جاع نهق

وكثير ممن لم يربح الإيمان فى قلبه بهذه المثابة ؛ وقد مضى فى غير موضع . فأما المؤمن فيشكر ربه عند النعمة ، ويرجوه عند الشدة .

قوله تعالى : أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ

فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾

(٢) راجع ج ١٣ ص ١٧٦ فابعد .

(١) راجع ج ٤ ص ٢٣٣ .

(٤) راجع ج ١٠ ص ٣٥ .

(٣) فى ك ، ش : « الفرح » بالخاء .

قوله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أى يوسع الخير فى الدنيا لمن يشاء أو يضيق ؛ فلا يجب أن يدعوهم الفقر إلى القنوط . ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ .

قوله تعالى : فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفَاحُونَ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى - لما تقدم أنه سبحانه يبسط الرزق [لمن يشاء] ^(١) ويقدر أمر من وسع عليه الرزق أن يوصل إلى الفقير كفايته ليمتحن شكر الغنى . والخطاب للنبي عليه السلام والمراد هو وأمته ؛ لأنه قال : « ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ » . وأمر بإيتاء ذى القربى لقرب رحمة ؛ وخير الصدقة ما كان على القريب ، وفيها صلة الرحمة . وقد فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصدقة على الأقارب على عتق الرقاب ، فقال لميمونة وقد أعتقت وليدة : « أما إنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك » .

الثانية - واختلف فى هذه الآية ؛ فقيل : إنها منسوخة بآية المواريث . وقيل : لا نسخ ، بل للقريب حق لازم فى البر على كل حال ؛ وهو الصحيح . قال مجاهد وقتادة : صلة الرحمة فرض من الله عز وجل ، حتى قال مجاهد : لا تقبل صدقة من أحد ورحمته محتاجة . وقيل : المراد بالقربى أقرباء النبي صلى الله عليه وسلم . والأقول أصح ؛ فإن حقهم مبين فى كتاب الله عز وجل فى قوله : « فَأَنَّ لِلَّهِ نَحْمَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ » ^(٢) . وقيل : إن الأمر بالإيتاء لذى القربى على جهة الندب . قال الحسن : « حقه » المواساة فى اليسر ، وقول ميسور فى العسر . ﴿وَالْمِسْكِينَ﴾ قال ابن عباس : أى أطعم السائل الطواف ؛ وابن السبيل : الضيف ؛ بفعل الضيافة فرضاً ، وقد مضى جميع هذا مبسوطاً مبيناً فى مواضعه والحمد لله .

(١) ما بين المربعين ما قطف من ك .

(٢) راجع ج ٨ ص ١ .

(٣) راجع ج ٢ ص ١٥ و ٢٤١ . و ج ٨ ص ١١ و ج ٩ ص ٦٤ .

الثالثة — (ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ) أى إعطاء الحق أفضل من الإمساك إذا أريد بذلك وجهُ الله والتقربُ إليه . (وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) أى الفائزون بمطلوبهم من الثواب فى الآخرة . وقد تقدّم فى « البقرة »^(١) القول فيه .

قوله تعالى : وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّا لِيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾
قوله تعالى : (وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّا لِيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ)
فيه أربع مسائل :

الأولى — لما ذكر ما يراد به وجهه ويشب عليه ذكر غير ذلك من الصفة وما يراد به أيضا وجهه . وقرأ الجمهور : « آتَيْتُمْ » بالمد بمعنى أعطيت . وقرأ ابن كثير ومجاهد وحُميد بن عمار ، بمعنى ما فعلتم من رَبِّا لِيَرْبُوا ؛ كما تقول : آتيت صوابا وآتيت خطأ . وأجمعوا على المد فى قوله : « وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ » . والربا الزيادة وقد مضى فى « البقرة » معناه ، وهو هناك محرم وهاهنا حلال . وثبت بهذا أنه قسمان : منه حلال ومنه حرام . قال عكرمة فى قوله تعالى : « وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّا لِيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ » قال : الرِّبَا رِبَاوَانٌ ، ربا حلال وriba حرام ؛ فأما الربا الحلال فهو الذى يهدى ، يلتبس ما هو أفضل منه . وعن الضحاك فى هذه الآية : هو الربا الحلال الذى يهدى لثواب ما هو أفضل منه ، لاله ولا عليه ، ليس له فيه أجر وليس عليه فيه إثم . وكذلك قال ابن عباس : « وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّا » يريد هدية الرجل الشئ يرجو أن يثاب أفضل منه ؛ فذلك الذى لا يربو عند الله ولا يؤجر صاحبه ولكن لا إثم عليه ، وفى هذا المعنى نزلت الآية . قال ابن عباس وابن جبير وطاوس ومجاهد : هذه آية نزلت فى هبة الثواب . قال ابن عطية : وما جرى مجراها مما يصنعه الإنسان ليجازى عليه كالسلام وغيره ؛ فهو وإن كان لا إثم فيه فلا أجر فيه ولا زيادة عند الله تعالى . وقاله القاضى أبو بكر بن العربى . وفى كتاب الناسى

(١) راجع ج ١ ص ١٨١ . (٢) راجع ج ٣ ص ٢٤٨ فابعد . (٣) فى ج : « وليس فيه أجر » .

عن عبد الرحمن بن علقمة قال: قدم وفد تقيف على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعهم هدية [فقال: "أهدية أم صدقة" ^(١)] فإن كانت هدية فإنما يُدَنِّي بها وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقضاء الحاجة، وإن كانت صدقة فإنما يُدَنِّي بها وجه الله عز وجل" قالوا: لابل هدية؛ فقبليها منهم وقعد معهم يسألهم ويسألونه. وقال ابن عباس أيضا وإبراهيم النخعي: نزلت في قوم يعطون قراباتهم وإخوانهم على معنى نفعهم وتمويلهم والفضل عليهم، ويزيدوا في أهوالهم على وجه النفع لهم. وقال الشعبي: معنى الآية أن ما خدم الإنسان به أحدا وخف له لينتفع به في دنياه فإن ذلك النفع الذي يجزي به الخدمة لا يربو عند الله. وقيل: كان هذا حراما على النبي صلى الله عليه وسلم على الخصوص؛ قال الله تعالى: «وَلَا تَمُنُّنَ تَسْتَكْبِرُ» ^(٢) فهي أن يعطى شيئا فيأخذ أكثر منه عوضا. وقيل: إنه الربا المحترم؛ فمعنى: «لَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ» على هذا القول لا يحكم به لآخذه بل هو للأخوذ منه. قال السدي: نزلت هذه الآية في ربا تقيف؛ لأنهم كانوا يعملون بالربا وتعمله فيهم قريش.

الثانية — قال القاضي أبو بكر بن العربي: صريح الآية فيمن يهب يطلب الزيادة من أموال الناس في المكافأة. قال المهلب: اختلف العلماء فيمن وهب هبة يطلب ثوابها وقال: إنما أردت الثواب؛ فقال مالك: ينظر فيه؛ فإن كان مثله ممن يطلب الثواب من الموهوب له فله ذلك؛ مثل هبة الفقير للغني، وهبة الخادم لصاحبه، وهبة الرجل لأمره ومن فوقه؛ وهو أحد قولي الشافعي. وقال أبو حنيفة: لا يكون له ثواب إذا لم يشترط؛ وهو قول الشافعي الآخر. قال: والهبة للثواب باطلة لاتنفعه؛ لأنها بيع بئس مجهول. واحتج الكوفي بأن موضوع الهبة التبرع، فلو أوجبت فيها العوض لبطل معنى التبرع وصارت في معنى المعاوضات؛ والعرب قد فرقت بين لفظ البيع ولفظ الهبة، بفعات لفظ البيع على ما يستحق فيه العوض، والهبة بخلاف ذلك. ودليلنا ما رواه مالك في موطنه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: أئمتنا رجل وهب هبة يرى أنها للثواب فهو على هبته حتى يرضى

(١) ما بين المربعين ساقط من ش . (٢) راجع ج ١٩ ص ٦٦ . (٣) لفظة يطلب ساقطة من جرش .

منها . ونحوه عن عليّ رضي الله عنه قال : المواهب ثلاثة : موهبة يراد بها وجه الله ، وموهبة يراد بها وجوه الناس ، وموهبة يراد بها الثواب ؛ فوهبة الثواب يرجع فيها صاحبها إذا لم يُثب منها . وترجم البخاريّ رحمه الله (باب المكافأة في الهبة) وساق حديث عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويثيب عليها ، وأثاب على لِقْحَةٍ ولم ينكر على صاحبها حين طلب الثواب ، وإنما أنكر سخطه للثواب وكان زائدا على القيمة .
نخرجه الترمذى .

الثالثة — ما ذكره عليّ رضي الله عنه وفصله من الهبة صحيح ؛ وذلك أن الواهب لا يخلو في هبته من ثلاثة أحوال : أحدها — أن يريد بها وجه الله تعالى ويتنقى عليها الثواب منه . والثاني — أن يريد بها وجوه الناس رياء ليحمدوه عليها ويثنوا عليه من أجلها . والثالث — أن يريد بها الثواب من الموهوب له ؛ وقد مضى الكلام فيه . وقال صلى الله عليه وسلم : « الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » . فأما إذا أراد بهبته وجه الله تعالى وأبتغى عليه الثواب من عنده فله ذلك عند الله بفضلته ورحمته ؛ قال الله عز وجل :
﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ .

وكذلك من يصل قرابته ليكون غنياً حتى لا يكون كلاً فالنية في ذلك متبوعة ؛ فإن كان ليظاهر بذلك دنيا فليس لوجه الله ، وإن كان لما له عليه من حق القرابة وبينهما من وشيجة الرحم فإنه لوجه الله .

وأما من أراد بهبته وجوه الناس رياء ليحمدوه عليها ويثنوا عليه من أجلها فلا منفعة له في هبته ؛ لا ثواب في الدنيا ولا أجر في الآخرة ؛ قال الله عز وجل : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ » الآية .^(٢)

وأما من أراد بهبته الثواب من الموهوب له فله ما أراد بهبته ، وله أن يرجع فيها ما لم يثب بقيمتها ، على مذهب ابن القاسم ، أو ما لم يرض منها بأزيد من قيمتها ، على ظاهر قول عمر

(١) اللقحة (بكر اللام وفتحها) : الناقة الخلوب . (٢) راجع ج ٣ ص ٣١١ .

وعلى^٢، وهو قول مُطَّرَف في الواضحة: أن الهبة ما كانت قائمة العين، وإن زادت أو نقصت فللواهب الرجوع فيها وإن أتابه الموهوب فيها أكثر منها . وقد قيل : إنها إذا كانت قائمة العين لم تتغير فإنه يأخذ ما شاء ، وقيل : تلزمه القيمة ككنكاح التفويض ، وأما إذا كان بعد فوت الهبة فليس له إلا القيمة اتفاقاً؛ قاله ابن العربي .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ لِيَرْبُو ﴾ قرأ جمهور الفراء السبعة : « اربو » بالياء وإسناد الفعل إلى الربا . وقرأ نافع وحده : بضم التاء [والواو] ساكنة على المخاطبة ؛ بمعنى تكونوا ذوى زيادات ، وهذه قراءة ابن عباس والحسن وقتادة والشعبي . قال أبو حاتم : هي قراءة تناسل . وقرأ أبو مالك : « اربوها » بضمير مؤنث . ﴿ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى لا يزكو ولا يثيب عليه ؛ لأنه لا يقبل إلا ما أريد به وجهه وكان خالصاً له ؛ وقد تقدم في « النساء » . ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ ﴾ قال ابن عباس : أى من صدقة . ﴿ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ أى ذلك الذى يقبله ويضاعفه له عشرة أضعافه أو أكثر ؛ كما قال : « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ . وقال : « وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ اتِّبَاعًا مَرْضَاةً لِلَّهِ وَتَثْبِيئًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَثَلٍ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ ﴾ . وقال : « فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ » ولم يقل فاتم المضعفون لأنه رجع من المخاطبة إلى الغيبة ؛ مثل قوله : « حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَينَ بِهِمْ » . وفى معنى المضعفين قولان : أحدهما — أنه تضاعف لهم الحسنات كما ذكرنا . والآخر — أنهم قد أضعف لهم الخير والنعيم ؛ أى هم أصحاب أضعاف ، كما يقال : فلان مقوٍ إذا كانت إبله قوية ، أوله أصحاب أقوياء . ومُسَجِّنٌ إذا كانت إبله سمناً . ومُعْطِشٌ إذا كانت إبله عطاشاً . ومضعفٌ إذا كانت إبله ضعيفة ؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : « اللهم إني أعوذ بك من الخبيث الخبيث الشيطان الرجيم » . فالخبيث : الذى أصابه خبيث ، يقال : فلان ردىء أى هو ردىء ؛ فى نفسه . ومردئى : أصحابه أردئاء .

(٢) راجع ج ٣ ص ٢٣٧ و ٣١٤ .

(١) راجع ج ٥ ص ٤١٠ .

(٣) راجع ج ٨ ص ٣٢٤ .

قوله تعالى : اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِثْلَ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ) ابتداء وخبر . وعاد الكلام إلى الاحتجاج على المشركين وأنه الخالق الرازق المميت المحيي . ثم قال على جهة الاستفهام : (هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِثْلَ شَيْءٍ) لا يفعل . ثم نزه نفسه عن الأنداد والأضداد والصاحبة والأولاد بقوله الحق : (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) وأضاف الشركاء إليهم لأنهم كانوا يسمونهم بالآلهة والشركاء ، ويعملون لهم من أموالهم .

قوله تعالى : ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَنَهُمْ بِرَجْعُونَ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) اختلف العلماء في معنى الفساد والبر والبحر؛ فقال قتادة والسدي : الفساد الشرك ، وهو أعظم الفساد . وقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد : فساد البر قتل ابن آدم أخاه ؛ قابيل قتل هابيل . وفي البحر بالملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصبا . وقيل : الفساد القحط وقلة النبات وذهاب البركة . ونحوه قال ابن عباس قال : هو نقصان البركة بأعمال العباد كي يتوبوا . قال النحاس : وهو أحسن ما قيل في الآية . وعنه أيضا : أن الفساد في البحر انقطاع صيده بذنوب بني آدم . وقال ابن عباس : فإذا قل المطر قل الغوص عنده ، وأخفق الصيادون ، وعميت دواب البحر . وقال ابن عباس : إذا مطرت السماء تفتحت الأصداف في البحر ، فما وقع فيها من السماء فهو لؤلؤ . وقيل : الفساد كساد الأسعار وقلة المعاش . وقيل : الفساد المعاصي وقطع السبيل والظلم ؛ أي صار هذا العمل مانعا من الزرع والعمارات والتجارات ؛ والمعنى كله متقارب . والبر والبحر هما المعروفان المشهوران في اللغة وعند الناس ؛ لا ما قاله بعض العباد : أن البر اللسان ، والبحر القلب ؛ لظهور

ما على اللسان وخفاء ما في القلب . وقيل : البرّ : الفياق، والبحر : القرى ؛ قاله عكرمة .
والعرب تسمى الأمصار البحار . وقال قتادة : البرّ أهل العمود ، والبحر أهل القرى
والريف . وقال ابن عباس : إن البر ما كان من المدن والقرى على غير نهر، والبحر ما كان
على شط نهر ؛ وقاله مجاهد، قال : أما والله ما هو بحر كم هذا، ولكن كل قرية على ماء جارٍ
فهى بحر . وقال معناه النحاس، قال : فى معناه قولان : أحدهما - ظهر الجذب فى البر ؛
أى فى البوادي وقراها، وفى البحر أى فى مدن البحر؛ مثل : « وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ ^(١) » . أى ظهر
قلة الغيث وغلاء السمر . (بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ) أى عقاب بعض
(الَّذِي عَمِلُوا) ثم حذف . والقول الآخر - أنه ظهرت المعاصى من قطع السبيل والظلم ،
فهذا هو الفساد على الحقيقة، والأقول مجاز إلا أنه على الجواب الثانى، فىكون فى الكلام
حذف واختصار دل عليه ما بعده، ويكون المعنى : ظهرت المعاصى فى البر والبحر فحس الله
عنهما الغيث وأغلى سعرهم ليذيقهم عقاب بعض الذى عملوا . (نَعَلَهُمْ يَرْجِعُونَ) لعلمهم
يتوبون . وقال : « بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا » لأن معظم الجزاء فى الآخرة . والقراءة « لِيُذِيقَهُمْ »
بالياء . وقرأ ابن عباس بالنون ، وهى قراءة السامى وابن محيىصن وقنبل ويعقوب على
التعظيم ؛ أى نذيقهم عقوبة بعض ما عملوا .

قوله تعالى : قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ
مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ) أى قل لهم يا محمد سيرا فى الأرض ليعتبروا
بمن قبلهم، وينظروا كيف كان عاقبة من كذب الرسل (كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ) أى
كافرين فأهلكوا .

قوله تعالى : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ
لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدَّعُونَ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ ﴾ قال الزجاج : أى أقم قصدك ، واجعل جهتك اتباع الدين القيم ؛ يعنى الإسلام . وقيل : المعنى أوضح الحق وبالغ فى الإعذار ، واشتغل بما أنت فيه ولا تحزن عليهم . ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى لا يردّه الله عنهم ، فإذا لم يردّه لم يتهياً لأحد دفعه . ويجوز عند غير سيويه « لَا مَرَدَّ لَهُ » وذلك عند سيويه بعيد ، إلا أن يكون فى الكلام عطف . والمراد يوم القيامة . ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدُّونَ ﴾ قال ابن عباس : معناه يتفرقون . وقال الشاعر :

وَكَمَا كُنْدَمَانِي جَذِيمَةً حِقْبَةً * من الدهر حتى قيل لن يتصدعا^(١)

أى لن يتفرقا ؛ نظيره قوله تعالى : « يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ » « فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ » . والأصل يتصدعون ؛ ويقال : تصدع القوم إذا تفرقوا ؛ ومنه اشتق الصداع ، لأنه يفرق شُعب الرأس .

قوله تعالى : مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَهُوَ عَمَلٌ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ أى جزاء كفره . ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ أى يوطئون لأنفسهم فى الآخرة فراشا ومسكنا وقرارا بالعمل الصالح ؛ ومنه : مهد الصبي . والمهاد الفراش ، وقد مهدت الفراش مهذاً : بسطته ووطأته . وتمهيد الأمور : تسويتها وإصلاحها . وتمهيد العذر : بسطه وقبوله . والتمهيد : التمكن . وروى ابن أبي نجیح عن مجاهد « فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ » قال : فى القبر .

قوله تعالى : لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾

(١) البيت لمتعم بن نويرة اليربوعي من قصيدة يرى بها أخاه مالكا مطلعها :

لعمري وما دهري بتأين هالك * ولا جزع مما أصاب فأوجعا

وقوله : « كندمانى جذيمة » يعنى جذيمة الأبرش وكان ملكا . وندبناه : يقال لها مالك وعقبيل . و يضرب بهما المثل لظول ما نادماه ، فقد نادماه أربعين سنة ما أعادا عليه حديثا .

قوله تعالى : (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا) أى يمهّدون لأنفسهم ليجزيهم الله من فضله .
وقيل يصدّعون ليجزيهم الله ، أى ليميز الكافر من المسلم . (إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ) .

قوله تعالى : وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ
مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ) أى ومن أعلام كمال قدرته
إرسال الرياح مبشرات أى بالمطر لأنها تتقدمه . وقد مضى فى « الحجر » بيانه . (وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ
رَحْمَتِهِ) يعنى الغيث والخصب . (وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ) أى فى البحر عند هبوبها . وإنما زاد
« بِأَمْرِهِ » لأن الرياح قد تهب ولا تكون مواتية ، فلا بد من إرساء السفن والاحتياط بحبسها ،
وربما عصفت فأغرقتها بأمره . (وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) يعنى الرزق بالتجارة (وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)
هذه النعم بالتوحيد والطاعة . وقد مضى هذا كله مبينا .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ بِخَبْرِهِمْ
بِالْبَيِّنَاتِ فَأَتْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ بِخَبْرِهِمْ بِالْبَيِّنَاتِ) أى المعجزات
والحجج البينات (فَأَتْتَقَمْنَا) أى فكفروا فانتقمنا من كفرهم . (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)
« حَقًّا » نصب على خبر كان ، « ونصر » أسماها . وكان أبو بكر يقف على « حَقًّا » أى وكان عقابنا
حقا ، ثم قال : « عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ » ابتداء وخبر ، أى أخبر بأنه لا يخلف الميعاد ، ولا خلف
فى خبرنا . وروى من حديث أبى الدرداء قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من
مسلم يذنب عن عرض أخيه إلا كان حَقًّا على الله تعالى أن يردّ عنه نار جهنم يوم القيامة —
ثم تلا — وكان حَقًّا علينا نصر المؤمنين » . ذكره النحاس والنعلبى والزنجشبرى وغيرهم .

(١) راجع ج ١٠ ص ١٥ . (٢) راجع ج ١ ص ٣٨٨ و ٣٩٧ و ج ٢ ص ١٩٤ فابعد .

(٣) فى ج ٤ ، ش : « أى أخبرنا به ولا ... » .

قوله تعالى : اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ
كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا
أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ﴿٤٨﴾ وإن كانوا
من قبل أن ينزل عليهم من قبيله لمبلسين ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ ﴾ قرأ ابن محيصة وابن كثير وحزمة والكسائي :
« الريح » بالتوحيد . والباقون بالجمع . قال أبو عمرو : وكل ما كان بمعنى الرحمة فهو جمع ،
وما كان بمعنى العذاب فهو موحد . وقد مضى في « البقرة » معنى هذه الآية وفي غيرها .
« كِسْفًا » جمع كِسْفَةٍ وهى القطعة . وفى قراءة الحسن وأبى جعفر وعبد الرحمن الأعرج وابن
عامر « كِسْفًا » بإسكان السين ، وهى أيضا جمع كِسْفَةٍ كما يقال : سُدْرَةٌ وَسُدْرٌ ، وعلى هذه القراءة
يكون المضممر الذى بعده عائدا عليه ؛ أى فترى الودق أى المطر يخرج من خلال الكسف ؛
لأن كل جمع بينه وبين واحده الهاء [لا غير] فالتذكير فيه حسن . ومن قرأ : « كِسْفًا »
فالمضممر عنده عائدا على السحاب . وفى قراءة الضحاك وأبى العالية وابن عباس : « فترى الودق
يخرج من خلاله » ويجوز أن يكون خَلَّ جمع خِلَالٍ . ﴿ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ ﴾ أى بالمطر .
﴿ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ يفرحون بتزول المطر عليهم . ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ
قَبْلِ أَنْ يَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾ أى يائسين مكتئبين قد ظهر الحزن عليهم لاحتباس
المطر عنهم . و « مِنْ قَبْلِهِ » تكرر عند الأخفش معناه التأكيد ؛ وأكثر النحويين على هذا
القول ؛ قاله النحاس . وقال قُطْرُبُ : إن « قبل » الأولى للإنزال والثانية لاطر ؛ أى وإن
كانوا من قبل التنزيل من قبل المطر . وقيل : المعنى من قبل تنزيل الغيث عليهم من قبل
الزرع ، ودل على الزرع المطر إذ بسببه يكون . ودل عليه أيضا « فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا » على ما باتى .
وقيل : المعنى من قبل السحاب من قبل رؤيته ؛ وأختار هذا القول النحاس ، أى من
قبل رؤية السحاب ﴿ لَمُبْلِسِينَ ﴾ أى ليائسين . وقد تقدم ذكر السحاب .

(١) راجع ج ٢ ص ١٩٧ فابعد . (٢) ما بين المربعين زيادة من شوك . (٣) راجع ج ٢ ص ٢٠٠ فابعدا .

قوله تعالى : فَأَنْظُرْ إِلَىٰ آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿فَأَنْظُرْ إِلَىٰ آثَرِ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ يعني المطر ؛ أى انظروا نظرا استبصار واستدلال ؛ أى استدلووا بذلك على أن من قدر عليه قادر على إحياء الموتى . وقرأ ابن عامر وحفص وحزمة والكسائي : « آثَارِ » بالجمع . الباقون بالتوحيد ؛ لأنه مضاف إلى مفرد . والأثر فاعل « يُحْيِي » ويجوز أن يكون الفاعل اسم الله عز وجل . ومن قرأ : « آثَارِ » بالجمع فلأن رحمة الله يجوز أن يراد بها الكثرة ؛ كما قال تعالى : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا » . وقرأ الجحدري وأبو حيوة وغيرهما : « كَيْفَ تُحْيِي الْأَرْضَ » بتاء ؛ ذهب بالتأنيث إلى لفظ الرحمة ؛ لأن أثر الرحمة يقوم مقامها فكأنه هو الرحمة ؛ أى كيف تحيي الرحمة الأرض أو الآثار . « ويحيي » أى يحيي الله عز وجل أو المطر أو الأثر فيمن قرأ بالياء . و﴿ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ ﴾ في موضع نصب على الحال على الجمال على المعنى لأن اللفظ لفظ الاستفهام والحال خبر ؛ والتقدير : فانظر إلى أثر رحمة الله محيية للأرض بعد موتها . ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ استدلال بالشاهد على الغائب .

قوله تعالى : وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ

يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ يعني الريح ، والريح يجوز تذكيره ، قال محمد بن يزيد : لا يمتنع تذكير كل مؤنث غير حقيقي ، نحو أعجبنى الدار وشبهه . وقيل : فرأوا السحاب . وقال ابن عباس : الزرع ، وهو الأثر ؛ والمعنى : فرأوا الأثر مصفراً ؛ واصفرار الزرع بعد اخضراره يدل على يسه ، وكذا السحاب يدل على أنه لا يمطر ، والريح على أنها لا تلحق ﴿ لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ أى لَيَظُنُّوا ؛ وحسن وقوع الماضى فى موضع المستقبل لما فى الكلام من معنى المجازاة ، والمجازاة لا تكون إلا بالمستقبل ؛ قاله الخليل وغيره .

قوله تعالى : فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَكَ إِذَا
وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِبَصِيرٍ الْعُمَى عَنِ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمِعُ
إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : (فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى) أى وَضَحْتَ الحُجُجَ يا مَجْدُ ؛ لَكِنِّهِمْ لِإِفْهِهِمْ تَقْلِيدَ
الْأَسْلَافِ فِي الْكُفْرِ مَاتَ عَقُولُهُمْ وَعَمِيَّتْ بَصَائِرُهُمْ ، فَلَا يَتَبَايَأُ لَكَ إِسْمَاعُهُمْ وَهَدَايَتُهُمْ . وَهَذَا
رَدٌّ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ . (إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا) أى لَا تَسْمِعُ مَوَاعِظَ اللَّهِ إِلَّا الْمُؤْمِنِينَ
الَّذِينَ يَصْغُونَ إِلَى أَدْلَةِ التَّوْحِيدِ وَخَلَقَتْ لَهُمُ الْهُدَايَةَ . وَقَدْ مَضَى هَذَا فِي « النَّخْلِ » (١) وَوَقَعَ قَوْلُهُ
« بِهَادِ الْعُمَى » هُنَا بِغَيْرِ يَاءٍ .

قوله تعالى : اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ
ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ
وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ) ذَكَرَ اسْتِدْلَالَآ آخِرَ عَلَى قُدْرَتِهِ فِي نَفْسِ
الْإِنْسَانِ لِيَعْتَبَرَ . وَمَعْنَى : « مِنْ ضَعْفٍ » مِنْ نَظْفَةٍ ضَعِيفَةٍ . وَقِيلَ : « مِنْ ضَعْفٍ » أَيْ
فِي حَالِ ضَعْفٍ ؛ وَهُوَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ فِي الْإِبْتِدَاءِ مِنَ الطُّفُولَةِ وَالصُّغُرِ . (ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ
ضَعْفٍ قُوَّةً) يَعْنِي الشَّبَابَ . (ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا) يَعْنِي الْهَرَمَ . وَقُرَأَ عَاصِمٌ وَحَمْزَةٌ :
بِفَتْحِ الضَّادِ فِيهِمْ ، الْبَاقُونَ بِالضَّمِّ ، لَفْتَانٌ ، وَالضَّمُّ لُغَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَقُرَأَ الْجَمْدَرِيُّ :
« مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ » بِالْفَتْحِ فِيهِمَا ؛ « ضَعْفًا » بِالضَّمِّ خَاصَّةً . أَرَادَ أَنْ يَجْمَعَ
بَيْنَ اللَّغَتَيْنِ . قَالَ الْفَرَّاءُ : الضَّمُّ لُغَةُ قَرِيْشٍ ، وَالْفَتْحُ لُغَةُ تَمِيمٍ . الْجَوْهَرِيُّ : الضُّعْفُ وَالضُّعْفُ :
خِلَافُ الْقُوَّةِ . وَقِيلَ : الضُّعْفُ بِالْفَتْحِ فِي الرَّأْيِ ، وَبِالضَّمِّ فِي الْجَسَدِ ؛ وَمِنْهُ الْحَدِيثُ فِي الرَّجُلِ

الذي كان يخدع في البيوع : " أنه يتناع وفي عُقدته ضعف " . (وَشَيْبَةَ) مصدر كالشيب ، والمصدر يصلح للجملة ، وكذلك القول في الضعف والقوة . (يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ) يعنى من قوة وضعف ، (وَهُوَ الْعَلِيمُ) بتدييره . (الْقَدِيرُ) على إرادته . وأجاز النحويون الكوفيون « من ضَعَف » بفتح العين ، وكذا كل ما كان فيه حرف من حروف الحلق ثانيا أو ثالثا .

قوله تعالى : وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ) أى يحلف المشركون . (مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ) ليس فى هذا رد لعذاب القبر ؛ إذ كان قد صحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير طريق أنه تعوذ منه ، وأمر أن يتعوذ منه ؛ فمن ذلك ما رواه عبد الله بن مسعود قال : سمع النبي صلى الله عليه وسلم أم حبيبة وهى تقول : اللَّهُمَّ أمتعنى بزوجه رسول الله ، وبأبى أبى سفيان ، وبأبى معاوية ؛ فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : " لقد سألت الله لآجال مضر وبة وأرزاق مقسومة ولكن سلبه أن يعيدك من عذاب جهنم وعذاب القبر " فى أحاديث مشهورة نرجها مسلم والبخارى وغيرهما . وقد ذكرنا منها جملة فى كتاب (التذكرة) . وفى معنى : « مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ » قولان : أحدهما — أنه لا بد من نعمة قبل يوم القيامة ؛ فعلى هذا قالوا : ما لبثنا غَيْرَ سَاعَةٍ . [والقول الآخر — أنهم يعنون فى الدنيا لزوالها وانقطاعها ، كما قال تعالى : « كَانَهُمْ يَوْمَ يَرُونَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا » كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ أَقْسَمُوا عَلَى غَيْبٍ وَعَلَى غَيْرِ مَا يَدْرُونَ . قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : [كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ] أى كانوا يكذبون فى الدنيا ؛ يقال : أُنْفِكَ الرَّجُلُ إِذَا صُرِفَ عَنِ الصِّدْقِ وَالْحَيْرِ . وَأَرْضُ مَا فَوْكَةَ : ممنوعة من المطر . وقد زعم جماعة من أهل النظر أن القيامة لا يجوز أن يكون فيها كذب لما هم فيه ، والقرآن يدل على غير ذلك ، قال الله عز وجل : « كَذَلِكَ كَانُوا

(١) أى فى رأيه ونظيره فى مصالح نفسه . (٢) ما بين المربعين سابق من ش (٣) راجع ج ١٩ ص ٢٠٧ فساهد

يُؤْفَكُونَ « أى كما صُرفوا عن الحق في قَسَمِهِمْ أَنَّهُمْ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُصْرَفُونَ
 عن الحق في الدنيا ؛ وقال جل وعز : « يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْجِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْجِفُونَ لَكُمْ
 وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ^(١) » وقال : « ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا
 وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا ^(٢) » .

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ
 اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ ﴾
 اختلف في الذين أُوتوا العلم ؛ فقيل الملائكة . وقيل الأنبياء . وقيل علماء الأمم . وقيل مؤمنو
 هذه الأمة . وقيل جميع المؤمنين ؛ أى يقول المؤمنون للكفار ردا عليهم لقد لبثتم في قبوركم إلى
 يوم البعث . والفاء في قوله : « فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ » جواب لشرط محذوف دل عليه الكلام ؛
 مجازه : إن كنتم منكرين البعث فهذا يوم البعث . وحكى يعقوب عن بعض الفراء وهى قراءة
 الحسن : « إلى يوم البعث » بالتحريك ؛ وهذا مما فيه حرف من حروف الخلق . وقيل : معنى
 « فِي كِتَابِ اللَّهِ » في حكم الله . وقيل : في الكلام تقديم وتأخير ؛ أى وقال الذين أُوتوا العلم
 في كتاب الله والإيمان لقد لبثتم إلى يوم البعث ؛ قاله مقاتل وقتادة والسدى . القشيري :
 وعلى هذا « أُوتُوا الْعِلْمَ » بمعنى كتاب الله . وقيل : الذين حكم لهم في الكتاب بالعلم
 ﴿ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ ﴾ أى اليوم الذى كنتم تنكرونه .

قوله تعالى : فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعِدْرَتُهُمْ وَلَا هُمْ

يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾

(١) راجع ج ١٧ ص ٣٠٥ فما بعد .

(٢) راجع ج ٦ ص ٤٠٢ .

قوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ ﴾ أى لا ينفعهم العلم بالقيامة ولا الاعتذار يومئذ . وقيل : لما رد عليهم المؤمنون سألوا الرجوع إلى الدنيا واعتذر واقلم يعذروا . ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أى ولا حالهم حال من يستعتب ويرجع ؛ يقال : استعتبته فأعتبني ، أى استرضيته فأرضاني ، وذلك إذا كنت جانبا عليه . وحقبة أعتبته : أزلت عتبه . وسيأتي في « فصات » بيانه . وقرأ عاصم وحزمة والكسائي : « فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ » بالياء ، والباقون بالناء .^(١)

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخْفَنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أى من كل مثل يدلهم على ما يحتاجون إليه ، وينبههم على التوحيد وصدق الرسل . ﴿ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ ﴾ أى معجزة ؛ كفلق البحر والعصا وغيرهما ﴿ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ ﴾ يامعشر المؤمنين . ﴿ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾ أى تتبعون الباطل والسحر ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أى كما طبع الله على قلوبهم حتى لا يفهموا الآيات عن الله فكذلك ﴿ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أدلة التوحيد ﴿ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أى اصبر على أذاهم فإن الله ينصرك ﴿ وَلَا يَسْتَخْفَنَّكَ ﴾ أى لا يستفزتك عن دينك ﴿ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ قيل : هو النضر بن الحارث . والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته ؛ يقال : استخف فلان فلانا أى أستجهله حتى حملة على أتباعه فى الغي . وهو فى موضع جزم بالنهى ، أؤكد بالنون الثقيلة فبنى على الفتح كما يبنى الشيطان إذا ضم أحدهما إلى الآخر . « الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ » فى موضع رفع ، ومن العرب من يقول : اللذون فى موضع الرفع . وقد مضى فى « الفاتحة »^(٢) .

(١) راجع ج ١٥ ص ٣٥١ فما بعد . (٢) راجع ج ١ ص ١٤٨ .

تفسير سورة لقمان

وهي مكية ، غير آيتين قال قتادة : أولهما « وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ »^(١)
إلى آخر الآيتين . وقال ابن عباس : ثلاث آيات ، أولهن « وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ » .
وهي أربع وثلاثون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : **الْم** ﴿١﴾ **تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ** ﴿٢﴾ **هُدًى**
وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ **الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ**
هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ **أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴿٥﴾
قوله تعالى : (**الْم** . **تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ**) مضى الكلام في فواتح السور .
و « **تِلْكَ** » في موضع رفع على إضمار مبتدأ ، أى هذه تلك . ويقال : « **تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ**
الْحَكِيمِ » بدلا من تلك . والكتاب : القرآن . والحكيم : المحكم ، أى لا خلل فيه ولا تناقض .
وقيل ذو الحكمة وقيل الحاكم (**هُدًى وَرَحْمَةً**) بالنصب على الحال ؛ مثل : « **هَذِهِ**
نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ » وهذه قراءة المدنيين وأبي عمرو وعاصم والكسائي . وقرأ حمزة :
« **هُدًى وَرَحْمَةً** » بالرفع ، وهو من وجهين : أحدهما — على إضمار مبتدأ ؛ لأنه أول آية .
والآخر — أن يكون خبر « **تِلْكَ** » . والمحسن : الذى يعبد الله كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه فإنه يراه .
وقيل : هم المحسنون فى الدين وهو الإسلام ؛ قال الله تعالى : « **وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ**
وَجْهَهُ لِلَّهِ » الآية . (**الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ**) فى موضع الصفة ، ويجوز الرفع على القطع
بمعنى : هم الذين ، والنصب بإضمار أعمى . وقد مضى الكلام فى هذه الآية والتي بعدها
فى « البقرة » وغيرها .^(٤)

(١) راجع ص ٧٦ من هذا الجزء . (٢) راجع ج ٧ ص ٢٣٨ . (٣) راجع ج ٥ ص ٣٩٩ .

(٤) راجع ج ١ ص ١٦٢ فابعد . وج ٦ ص ٢٢١ .

قوله تعالى : وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦٦﴾
فيه خمس مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ « مَنْ » في موضع رفع بالابتداء . و « لَهْوَ الْحَدِيثِ » : الغناء ؛ في قول ابن مسعود وابن عباس وغيرهما . النحاس : وهو ممنوع بالكتاب والسنة ؛ والتقدير : من يشتري ذا لهو أو ذات لهو ؛ مثل : « وَأَسْأَلُ الْقُرْيَةَ ^(١) » . أو يكون التقدير : لما كان إنما اشتراها يشتريها ويبالغ في ثمنها كأنه اشتراها للهو ^(٢) .

قلت : هذه إحدى الآيات الثلاث التي استدل بها العلماء على كراهة الغناء والمنع منه . والآية الثانية قوله تعالى : « وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ ^(٣) » . قال ابن عباس : هو الغناء بالحميرية ؛ اسمدى لنا ؛ أى غنى لنا .

والآية الثالثة قوله تعالى : « وَأَسْتَفْزِزَ مَنِ اسْتَطَعَت مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ^(٤) » قال مجاهد : الغناء والمزامير . وقد مضى في « سبحان » الكلام فيه . وروى الترمذي عن أبي أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تتبعوا القينات ولا تشتروهن ولا تعلموهن ولا خير في تجارة فيهن وثمنهن حرام ، في مثل هذا أنزلت هذه الآية : ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله » إلى آخر الآية . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب ، إنما يروى من حديث القاسم عن أبي أمامة ، والقاسم ثقة وعلى بن يزيد يضعف في الحديث ؛ قاله محمد بن إسماعيل . قال ابن عطية : وهذا فسر ابن مسعود وابن عباس وجابر بن عبد الله ومجاهد ، وذكره أبو الفرج الجوزي عن الحسن وسعيد بن جبير وقتادة والنخعي .

(١) راجع ج ٩ ص ٢٤٥ فابعد . (٢) كذا في جميع نسخ الأصل . وفي كتاب النحاس : « أو يكون التقدير : لما كان إنما يشتريها ويبالغ في ثمنها كأنه اشترى اللهو » . وفي العبارتين غموض ، ولعل العبارة هكذا : أو يكون التقدير أنه لما كان إنما يشتريها ويبالغ في ثمنها لأجل لهوها كان كأنه اشترى اللهو . (٣) راجع ج ١٧ ص ١٢١ فابعد . (٤) راجع ج ١٠ ص ٢٩٠ .

قلت : هذا أعلى ما قيل في هذه الآية ، وحلف على ذلك ابن مسعود بالله الذي لا إله إلا هو ثلاث مرات إنه الغناء . روى سعيد بن جبير عن أبي الصهباء البكري قال : سئل عبد الله بن مسعود عن قوله تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ » فقال : الغناء والله الذي لا إله إلا هو ؛ يرددها ثلاث مرات . وعن ابن عمر أنه الغناء ؛ وكذلك قال عكرمة وميمون بن مهران ومكحول . وروى شعبة وسفيان عن الحكم وحماد عن إبراهيم قال قال عبد الله بن مسعود : الغناء ينبت النفاق في القاب ؛ وقاله مجاهد ، وزاد : إن لهو الحديث في الآية الاستماع إلى الغناء وإلى مثله من الباطل . وقال الحسن : لهو الحديث المعازف والغناء . وقال القاسم بن محمد : الغناء باطل والباطل في النار . وقال ابن القاسم سألت ما بالكا عنه فقال : قال الله تعالى : « فَمَآذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ »^(١) أخفق هو ؟ ! وترجم البخاري^(٢) (بَابُ كُلِّ لَهْوٍ بَاطِلٌ إِذَا شَغَلَ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ ، وَمَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ تَعَالَى أَقَامِرْكَ) ، وقوله تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا) فقوله : « إذا شغل عن طاعة الله » مأخوذ من قوله تعالى : « لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » . وعن الحسن أيضا : هو الكفر والشرك . وتأوله قوم على الأحاديث التي يتلها بها أهل الباطل واللعب . وقيل : نزلت في النضر بن الحارث ؛ لأنه اشترى كتب الأعاجم : رستم ، واسفنديار ؛ فكان يجلس بمكة ، فإذا قالت قريش إن محمدا قال كذا ضحك منه ، وحدثهم بأحاديث ملوك الفرس ويقول : حديثي هذا أحسن من حديث محمد ؛ حكاه الفراء والنكبي وغيرهما . وقيل : كان يشتري المغنيات فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قبنته فيقول : أطعميه وأسقيه وغنّيه ؛ ويقول : هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه . وهذا القول والأقول ظاهر في الشراء . وقالت طائفة : الشراء في هذه الآية مستعار ، وإنما نزلت الآية في أحاديث قريش وتلهمهم بأمر الإسلام وخوضهم في الباطل . قال ابن عطية : فكان ترك ما يجب فعله وامتنال هذه المنكرات

(٢) في آخر كتاب الاستئذان .

(١) راجع ج ٨ ص ٢٣٥ فابعد .

شراء لها؛ على حد قوله تعالى : « أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى » ؛ اشتروا الكفر بالإيمان ؛ أى استبدلوه منه واختاروه عليه . وقال مُطَرَّف : شراء لهو الحديث استجاباه . فتادة : ولعله لا ينفق فيه مالا ، ولكن سماعه شراؤه .

قلت : القول الأول أولى ما قيل به في هذا الباب ؛ للحديث المرفوع فيه ، وقول الصحابة والتابعين فيه . وقد زاد الثعلبي والواحدى في حديث أبي أمامة : « وما من رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله عليه شيطانين أحدهما على هذا المنكب^(٢) [والآخر على هذا المنكر] فلا يزالان يضربان بأرجلهما حتى يكون هو الذى يسكت » . وروى الترمذى وغيره من حديث أنس وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « صوتان ملعونان فاجران أنهى عنهما : صوت مزمار ورتنة شيطان عند نفحة ومرح ورتنة عند مصيبة أطم خدود وشق جيوب » . وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن عليّ عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بُعثت بكسر المزامير » نخرجه أبو طالب الغيلاني . ونخرج ابن بشران عن عكرمة عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « بُعثت بهدم المزامير والطبل » . وروى الترمذى من حديث عليّ رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حلّ بها البلاء — فذكر منها : إذا اتخذت القينات والمعازيف » . وفي حديث أبي هريرة : « وظهرت القيان والمعازيف » . وروى ابن المبارك عن مالك بن أنس عن محمد بن المنكدر عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من جلس إلى قينة يسمع منها صُبّ في أذنه الآنك^(٣) يوم القيامة » . وروى أسد بن موسى عن عبد العزيز بن أبي سلمة عن محمد بن المنكدر قال : بلغنا أن الله تعالى يقول يوم القيامة : « أين عبادى الذين كانوا يترهون أنفسهم وأسماعهم عن الله - ومن أمير الشيطان أحلّوهم رياض المسك وأخبروهم أنى قد أحلت عليهم رضوانى » . وروى ابن وهب عن مالك عن محمد بن المنكدر مثله ، وزاد بعد قوله « المسك » : ثم يقول للملائكة أسمعوهم حمدى وشكرى وثنائى ، وأخبروهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . وقد روى مرفوعا هذا المعنى من حديث أبي موسى الأشعري أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) راجع ج ١ ص ٢١٠ .

(٢) ما بين المربعين ساقط من الأصل المطبوع .

(٣) فى ج ٦ ش : « رياض الجنة » .

(٤) الآنك : الرصاص .

” من أستمع إلى صوت غناء لم يؤذن له أن يسمع الروحانيين “ . فقيل : ومن الروحانيون يا رسول الله؟ قال : ” قراء أهل الجنة “ خرجه الترمذي الحكيم أبو عبدالله في نوادر الأصول ، وقد ذكرنا في كتاب التذكرة مع نظائره : ” فمن شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة ، ومن لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة “ . إلى غير ذلك . وكل ذلك صحيح المعنى على ما بيناه هناك . ومن رواية مكحول عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” من مات وعنده جارية مغنية فلا اتصلوا عليه “ . ولهذا الآثار وغيرها قال العلماء بتحريم الغناء . وهي المسألة : —

الثانية — وهو الغناء المعتاد عند المشتهرين به ، الذي يحرك النفوس ويبعثها على الهوى والغزل ، والمجون الذي يحرك الساكن ويبعث الكامن ، فهذا النوع إذا كان في شعر يُسبب فيه بذكر النساء ووصف محاسنهن وذكر الخمر والمحرمات لا يختلف في تحريمه ، لأنه اللهو والغناء المذموم بالاتفاق . فأما ما سلم من ذلك فيجوز القليل منه في أوقات الفرح ، كالعرس والعيد وعند التنشيط على الأعمال الشاقة ، كما كان في حفر الحندق وحدو أنجشة وسلمة بن الأكوخ .^(١) فأما ما ابتدئته الصوفية اليوم من الإدمان على سماع المغاني والآلات المطربة من الشبابات^(٢) والطار والمعازف والأوتار فخرام . ابن العربي : فأما طبل الحرب فلا حرج فيه ؛ لأنه يقيم النفوس ويرهب العدو . وفي البراعة تردد . والدف مباح . [الجوهري] : وربما سموا قصبه^(٣) الراعى التي يزرعها هيرة وبراءة^(٤) . قال القشيري : ضرب بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم يوم دخل المدينة ، فهم أبو بكر بالزجر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” دعهن يا أبا بكر حتى تعلم اليهود أن ديننا فسيح “ فكان يضرين ويقلن : نحن بنات النجار ، حبذا محمد من جار . وقد قيل : إن الطبل في النكاح كالدف ، وكذلك الآلات المشهورة للنكاح يجوز استعمالها فيه بما يحسن من الكلام ولم يكن فيه رَفَث .

(١) هو عبد أسود كان يسوق أو يقود بنساء النبي صلى الله عليه وسلم عام حجة الوداع ، وكان حسن الحذاء ، وكانت الإبل تزيد في الحركة بجذائه .
 (٢) الشباية (بالتشديد) : قصة الزمر ، وهي مولدة .
 (٣) البراعة : مزمار الراعى .
 (٤) ما بين المربعين ساقط من ج ، ش .

الثالثة — الاشتغال بالغناء على الدوام سفه تُردُّ به الشهادة، فإن لم يدم لم تردّ . وذكر إسحاق بن عيسى الطباع قال : سألت مالك بن أنس عما يُرخص فيه أهل المدينة من الغناء فقال : إنما يفعله عندنا الفساق . وذكر أبو الطيب طاهر بن عبد الله الطبري قال : أما مالك بن أنس فإنه نهى عن الغناء وعن استماعه، وقال : إذا اشترى جارية ووجدها مغنية كان له ردّها بالعيب ؛ وهو مذهب سائر أهل المدينة ؛ إلا إبراهيم بن سعد فإنه حكى عنه زكريا الساجي أنه كان لا يرى به بأسا . وقال ابن خُوَيْرِمَنْدَاد : فأما مالك فيقال عنه : إنه كان عالما بالصناعة وكان مذهب^(١)ه تحريمها . وروى عنه أنه قال : تعلمت هذه الصناعة وأنا غلام شاب، فقالت لي أمي : أي بني ! إن هذه الصناعة يصلح لها من كان صبيح الوجه ولست كذلك ، فاطلب العلوم الدينية ؛ فصحبت ربعة فجعل الله في ذلك خيرا . قال أبو الطيب الطبري : وأما مذهب أبي حنيفة فإنه يكره الغناء مع إباحته شرب النبيذ ، ويعمل سماع الغناء من الذنوب . وكذلك مذهب سائر أهل الكوفة : إبراهيم والشعبي وحامد والثوري وغيرهم ، لا اختلاف بينهم في ذلك . وكذلك لا يعرف بين أهل البصرة خلاف في كراهية ذلك والمنع منه ؛ إلا ما روى عن عبيد الله بن الحسن العنبري أنه كان لا يرى به بأسا . قال : وأما مذهب الشافعي فقال : الغناء مكروه يشبه الباطل ، ومن استكثر منه فهو سفه تردّ شهادته . وذكر أبو الفرج الجوزي عن إمامه أحمد بن حنبل ثلاث روايات قال : وقد ذكر أصحابنا عن أبي بكر الخلال وصاحبه عبد العزيز إباحة الغناء ، وإنما أشاروا إلى ما كان في زمانهما من القصائد الزهديات ؛ قال : وعلى هذا يحمل ما لم يكرهه أحمد ؛ ويدل عليه أنه سئل عن رجل مات وخلف ولدا وجارية مغنية فاحتاج الصبي إلى بيعها فقال : تباع على أنها ساذجة لا على أنها مغنية . فقيل له : إنها تساوي ثلاثين ألفا ؛ ولعلها إن بيعت ساذجة تساوي عشرين ألفا ؟ فقال : لا تباع إلا على أنها ساذجة . قال أبو الفرج : وإنما قال أحمد هذا لأن هذه الجارية المغنية لا تغني بقصائد الزهد ، بل بالأشعار المطربة المثيرة إلى العشق .

(١) لفظة : « كان » ساقطة من جم .

وهذا دليل على أن الغناء محظور؛ إذ لو لم يكن محظورا ما جاز تفويت المال على اليتيم . وصار هذا كقول أبي طلحة للنبي صلى الله عليه وسلم : عندي نجر لأيتام ؟ فقال : " أرقها " . فلو جاز استصلاحها لما أمر بتضييع مال اليتامى . قال الطبري : فقد أجمع علماء الأمصار على كراهة الغناء والمنع منه . وإنما فارق الجماعة إبراهيم بن سعد وعبيد الله العنبري ؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " عليكم بالسواد الأعظم . ومن فارق الجماعة مات ميتة جاهلية " . قال أبو الفرج : وقال القفال من أصحابنا : لا تقبل شهادة المغني والرقاص .

قلت : وإذ قد ثبت أن هذا الأمر لا يجوز فأخذ الأجرة عليه لا تجوز . وقد ادعى أبو عمر بن عبد البر الإجماع على تحريم الأجرة على ذلك . وقد مضى في الأنعام عند قوله : « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ ^(١) » وحسبك .

الرابعة — قال القاضي أبو بكر بن العربي : وأما سماع القيئات فيجوز للرجل أن يسمع غناء جاريتها ؛ إذ ليس شيء منها عليه حراما لا من ظاهرها ولا من باطنها ، فكيف يمنع من التلذذ بصوتها . أما أنه لا يجوز انكشاف النساء للرجال ولا هتك الأستار ولا سماع الرفث ، فإذا نرج ذلك إلى ما لا يحل ولا يجوز منع من أوله وأجنت من أصله . وقال أبو الطيب الطبري : أما سماع الغناء من المرأة التي ليست بمحرمة فإن أصحاب الشافعي قالوا لا يجوز ، سواء كانت حرة أو مملوكة . قال : وقال الشافعي : وصاحب الحارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفیه ترد شهادته ؛ ثم غلظ القول فيه فقال : فهي ديانة . وإنما جعل صاحبها سفيا لأنه دعا الناس إلى الباطل ، ومن دعا الناس إلى الباطل كان سفيا .

الخامسة — قوله تعالى : (لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) قراءة العامة بضم الياء ؛ أي ليضل غيره عن طريق الهدى ، وإذا أضل غيره فقد ضل . وقرأ ابن كثير وابن محيصن وحميد وأبو عمرو ورؤيس وابن أبي إسحاق (بفتح الياء) على اللزوم ؛ أي ليضل هو نفسه .

(وَيَتَّخِذَهَا هُزُؤًا) قراءة المدنيين وأبي عمرو وعاصم بالرفع عطفا على « مَنْ يَشْتَرِي » ويجوز أن يكون مستأنفا . وقرأ الأعمش وحمة والكسائي : « وَيَتَّخِذَهَا » بالنصب عطفا على « لِيُضِلَّ » . ومن الوجهين جميعا لا يحسن الوقف على قوله : « يَغَيِّرُ عِلْمٌ » والوقف على قوله : « هُزُؤًا » ، والهاء في « يَتَّخِذَهَا » كناية عن الآيات . ويجوز أن يكون كناية عن السبيل ؛ لأن السبيل يؤث ويذكر . (أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ) أى شديد يهينهم . قال الشاعر :

ولقد جزعت إلى النصارى بعد ما * لقي الصليب من العذاب مهينا^(١)

قوله تعالى : وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَوَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : (وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا) يعنى القرآن . (وَوَلَّى) أى أعرض . (مُسْتَكْبِرًا)^(٢) نصب على الحال . (كَأَنَّ لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا) ثقلا وصمما . وقد تقدم . (فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) تقدم أيضا .^(٣)

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ) لما ذكر عذاب الكفار ذكر نعيم المؤمنين . (خَالِدِينَ فِيهَا) أى دائمين . (وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا) أى وعدهم الله هذا وعدا حقا لا خُلف فيه . (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) تقدم أيضا .^(٤)

(١) هذا البيت لجرير من قصيدة يهجو بها الأخطل ، مظهرها :

أمسيت إذ رحل الشباب حزينا * أبت الليال قبل ذلك فنينا

(٢) راجع ج ٦ ص ٤٠٤ . (٣) راجع ج ١ ص ١٩٨ و ٢٣٨ فما بعد .

(٤) راجع ج ١ ص ٢٨٧ و ٢ ص ١٣١ فما بعد .

قوله تعالى : خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ^{١٠} وَالَّتِي فِي الْأَرْضِ رَوَّاسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ هَذَا خَلَقَ اللَّهُ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾

قوله تعالى : (خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا) تكون « تَرَوْنَهَا » في موضع خفض على النعت لـ « عمَد » فيمكن أن يكون تمَّ عمَد ولكن لا تُرى . ويجوز أن تكون في موضع نصب على الحال من « السَّمَوَاتِ » ولا عمَد تمَّ البتة . النحاس : وسمعت على بن سليمان يقول : الأولى أن يكون مستأنفا ، ولا عمَد تمَّ ، قاله مكي . ويكون « بِغَيْرِ عَمَدٍ » التمام . وقد مضى في « الرد » الكلام في هذه الآية . (وَالَّتِي فِي الْأَرْضِ رَوَّاسِي) أي جبالا ثوابت . (أَنْ تَمِيدَ) في موضع نصب ، أي كراهية أن تميد . والكوفيون يقدرونه بمعنى لئلا تميد . (وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) عن ابن عباس : من كل لون حسن . وتأوله الشعبي على الناس ؛ لأنهم مخلوقون من الأرض ؛ قال : من كان منهم يصير إلى الجنة فهو الكريم ، ومن كان منهم يصير إلى النار فهو اللئيم . وقد تناول غيره أن النطفة مخلوقة من تراب ، وظاهر القرآن يدل على ذلك .

قوله تعالى : (هَذَا خَلَقَ اللَّهُ) [مبتدأ وخبر . وانخلق بمعنى المخلوق ؛ أي هذا الذي ذكرته مما تعابنون « خَلَقَ اللَّهُ »] أي مخلوق الله ، أي خلقها من غير شريك . (فَأَرُونِي) معاشر المشركين (مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ) يعني الأصنام . (بَلِ الظَّالِمُونَ) أي المشركون (فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) أي خسران ظاهر . و « ما » استفهام في موضع رفع بالابتداء وخبره « ذا » وذا بمعنى الذي . و « خلق » واقع على هاء محذوفة ؛ تقديره فأروني أي شيء خلق الذين من دونه ؛ والجملة في موضع نصب بـ « فأروني » وتضمير الهاء مع « خلق »

تعود على الذين ؛ أى فارونى الأشياء التى خلقها الذين من دونه . وعلى هذا القول تقول :
 ماذا تعلمت ، أنحو أم شعر . ويجوز أن تكون « ما » فى موضع نصب بـ «أرونى و « ذا »
 زائد ؛ وعلى هذا القول يقول : ماذا تعلمت ، أنحو أم شعرا .

قوله تعالى : **وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ إِنَّ آسْخَرَ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ
 فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ** ﴿١١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ** ﴾ مفعولان . ولم ينصرف « لُقْمَان » لأن
 فى آخره ألفا ونونا زائدين ؛ فاشبهه فُعْلان الذى أنشأ فعلى فلم ينصرف فى المعرفة لأن ذلك
 ثقل ثان ، وأنصرف فى النكرة لأن أحد الثقلين قد زال ؛ قاله النحاس . وهو لقمان بن باعوراء
 ابن ناحور بن تارح ، وهو آزر أبو إبراهيم ؛ كذا نسبه محمد بن إسحاق . وقيل : هو لقمان
 ابن عتقاء بن سرون وكان نوبيا من أهل أيلة ؛ ذكره السهيلي . قال وهب : كان ابن أخت
 أيوب . وقال مقاتل : ذكر أنه كان ابن خالة أيوب . الزُّنْحَشِيرِيّ : وهو لقمان بن باعوراء
 ابن أخت أيوب أو ابن خالته ، وقيل كان من أولاد آزر ، عاش ألف سنة وأدركه داود عليه
 الصلاة والسلام وأخذ عنه العلم ، وكان يقضى قبل مبعث داود ، فلما بعث قطع الفتوى فقيل له ،
 فقال : ألا أكتفى إذ كُفيت . وقال الواقدي : كان قاضيا فى بنى إسرائيل . وقال سعيد
 ابن المسيّب : كان لقمان أسود من سودان مصر ذا مشافر ، أعطاه الله تعالى الحكمة ومنعه
 النبوة ؛ وعلى هذا جمهور أهل التأويل إنه كان ولياً ولم يكن نبياً . وقال بنبوته عكرمة والشعبي ؛
 وعلى هذا تكون الحكمة النبوة . والصواب أنه كان رجلا حكيما بحكمة الله تعالى — وهى
 الصواب فى المعتقدات والفقهاء فى الدين والعقل — قاضياً فى بنى إسرائيل ، أسود مشقق الرجلين
 ذا مشافر ، أى عظيم الشفتين ؛ قاله ابن عباس وغيره . وروى من حديث ابن عمر قال :
 سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ” لم يكن لقمان نبياً ولكن كان عبدا كثيرا التفكر

(١) فى تفسير ابن عطية : « ... والعمل » .

حسن اليقين ، أحب الله تعالى فأحبه ، فنّ عليه بالحكمة ، وخيره في أن يجعله خليفة يحكم بالحق ؛ فقال : ربّ ، إن خيرتني قبلتُ العافية وتركت البلاء ، وإن عزمت عليّ فسمعاً وطاعة فإنك ستعصمني ؛ ذكره ابن عطية . وزاد الثعلبيّ : فقالت له الملائكة بصوت لا يراهم : لم يا لقمان ؟ قال : لأن الحاكم بأشدّ المنازل وأكدرها ، يغشاه المظلوم من كل مكان ، إن يُعْنُ فبالحرى أن ينجو ، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة . ومن يكن في الدنيا ذليلاً [فذلك ^(٢) خير من أن يكون فيها شريفاً . ومن يَخْتَرِ الدنيا على الآخرة نفته الدنيا ولا يصيب الآخرة . فمجبت الملائكة من حسن منطقته ؛ فنام نومة فأعطى الحكمة فانتبه يتكلم بها . ثم نودي داود بعده فقبلها — يعني الخلافة — ولم يشترط ما اشترطه لقمان ، فهو في الخطيئة غير مرة ، كل ذلك يعفو الله عنه . وكان لقمان يوازره بحكمته ؛ فقال له داود : طوبى لك يا لقمان ! أعطيت الحكمة وُصِرْف عنك البلاء ، وأعطى داود الخلافة وأبتلى بالبلاء والفتنة . وقال قتادة : خير الله تعالى لقمان بين النبوة والحكمة ؛ فاختار الحكمة على النبوة ؛ فأناه جبريل عليه السلام وهو نائم فدرّ عليه الحكمة فأصبح وهو ينطق بها ؛ فقيل له : كيف اخترت الحكمة على النبوة وقد خيرك ربك ؟ فقال : إنه لو أرسل إلى بالنبوة عزمة ^(٣) لرجوت فيها العون منه ، ولكنه خيرني نخفت أن أضعف عن النبوة ، فكانت الحكمة أحبّ إلى .

واختلف في صنعه ؛ فقيل : كان خياطاً ؛ قاله سعيد بن المسيّب ، وقال لرجل أسود : لا تخزن من أنك أسود ، فإنه كان من خير الناس ثلاثةً من السودان : بلال ومهجع مولى عمرو ولقمان . وقيل : كان محتطب كل يوم لمولاه حزمة حطب . وقال لرجل ينظر إليه : إن كنت تراني غليظ الشفتين فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق ، وإن كنت تراني أسود فقلبي أبيض . وقيل : كان راعياً ، فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك فقال له : ألسنت عبيد بنى فلان ؟ قال بلى . قال : فما بلغ بك ما أرى ؟ قال : قدر الله ، وأدأى الأمانة ، وصدق الحديث ،

(١) يقال : فلان حرى بكذا ، وحرى بكذا ، وحرى بكذا ، وبالحرى أن يكون كذا ؛ أي جدير وخلق .

(٢) زيادة يقتضها السياق . (٣) عزائم الله : فرائضه التي أرجبها على عباده .

وترك ما لا يعنيني ، قاله عبد الرحمن بن زيد بن جابر . وقال خالد الرباعي : كان نجارا ؛ فقال له سيده : اذبح لي شاة وانتني بأطيبها مُضغتين ؛ فأناه باللسان والقلب ؛ فقال له : ما كان فيها شيء أطيب من هذين ؟ فسكت ، ثم أمره بذبح شاة أخرى ثم قال له : ألق أخبثها مضغتين ؛ فألقى اللسان والقلب ؛ فقال له : أمرتك أن تأتيني بأطيب مضغتين فأتيتني باللسان والقلب ، وأمرتك أن تلقى أخبثها فألقيت اللسان والقلب ؟ ! فقال له : إنه ليس شيء أطيب منهما إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خبثا .

قلت : هذا معناه مرفوع في غير ما حديث ؛ من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :
 ” ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله إلا وهي القلب “ . وجاء في اللسان آثار كثيرة صحيحة وشهيرة ؛ منها قوله عليه السلام :
 ” من وفاه الله شر اثنتين وبلج الجنة : ما بين ^(١) لحيته ورجليه ... “ الحديث . وحكم لقمان كثيرة مأثورة هذا منها . وقيل له : أي الناس شر ؟ قال : الذي لا يبالي أن رآه الناس مسيئا .

قلت : وهذا أيضا مرفوع معنى ، قال صلى الله عليه وسلم : ” كل أمتي معافي إلا المجاهرون وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله فيقول يا فلان عملت البارحة كذا وكذا وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه “ . رواه أبو هريرة نخرجه البخاري . وقال وهب بن منبه : قرأت من حكمة لقمان أرجح من عشرة آلاف باب . وروى أنه دخل على داود عليه السلام وهو يسرد الدروع ، وقد لين الله له الحديد كالطين فأراد أن يسأله ، فأدركته الحكمة فسكت ؛ فلما أتمها ليسها وقال : نعم لبؤس الحرب أنت . فقال : الصمت حكمة ، وقليل فاعله . فقال له داود : بحق ما سميت حكيما .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَشْكُرَّ لِّلَّهِ ﴾ فيه تقديران : أحدهما أن تكون « أن » بمعنى أى مفسرة ؛ أى قلنا له اشكر . والقول الآخر أنها في موضع نصب والفعل داخل في صلتها ؛ كما حكى سيبويه : كتبت إليه أن قم ؛ إلا أن هذا الوجه عنده بعيد . وقال الزجاج : المعنى ولقد آتينا لقمان

(١) اللسان : حانطا الفم ، وهما العظام اللذان فيما الأسنان من داخل الفم من كل ذى لحي .

الحكمة لأن يشكر الله تعالى . وقيل : أى بأن أشكر الله تعالى فشكره فكان حكيماً بشكره لنا .
والشكر لله : طاعته فيما أمر به . وقد مضى القول فى حقيقته لغة ومعنى فى «البقرة»^(١) وغيرها .
(وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ) أى من يطع الله تعالى فإنما يعمل لنفسه ؛ لأن نفع الثواب
عائد إليه . (وَمَنْ كَفَرَ) أى كفر النعم فلم يوحد الله (فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ) عن عبادة خلقه
(حَمِيدٌ) عند الخلق ؛ أى محمود . وقال يحيى بن سلام : « غَنِيٌّ » عن خلقه « حَمِيدٌ » فى فعله

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ
بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : (وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ) قال السَّمِيلِيُّ : اسم ابنه ثاران ؛ فى قول
الطبرى والقتبي . وقال الكلبي : مشكم . وقيل أنعم ؛ حكاه النقاش . وذكر القشيري أن
ابنه وامراته كانا كافرين فما زال يعظهما حتى أسلما .

قلت : ودل على هذا قوله : « لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » . وفى صحيح مسلم
وغيره عن عبد الله قال : لما نزلت « الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ »^(٢) شق ذلك على
أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : أينما لا يظلم نفسه ؟ فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : " ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه : يا بني لا تشرك بالله إن الشرك
لظلم عظيم " . واختلف فى قوله : « إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » فقيل : إنه من كلام لقمان . وقيل :
هو خبر من الله تعالى منقطعاً من كلام لقمان متصلاً به فى تأكيد المعنى ؛ ويؤيد هذا الحديث
المأثور أنه لما نزلت : « الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ » أشفق أصحاب رسول الله صلى
الله عليه وسلم وقالوا : أينما لم يظلم ؛ فأنزل الله تعالى : « إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » فسكن إشفاقهم ،
وإنما يسكن إشفاقهم بأن يكون خبراً من الله تعالى ؛ وقد يسكن الإشفاق بأن يذكر الله ذلك
عن عبد قد وصفه بالحكمة والسداد . و « إذ » فى موضع نصب بمعنى اذكر . وقال الزجاج

(١) راجع ج ١ ص ٣٩٧ . (٢) راجع ج ٧ ص ٢٩ فما بعد . .

في كتابه في القرآن: إن « إذ » في موضع نصب بـ « آتينا » والمعنى: ولقد آتينا لقمان الحكمة إذ قال . النحاس: وأحسبه غلطا؛ لأن في الكلام واوا تمنع من ذلك . وقال: (يابني) بكسر الياء؛ لأنها دالة على الياء المحذوفة، ومن فتحها فلخفة الفتحة عنده؛ وقد مضى في « هود » القول في هذا . وقوله: « يابني » ليس هو على حقيقة التصغير وإن كان على لفظه، وإنما هو على وجه الترفيق؛ كما يقال للرجل: يا أُنْحَى، وللصبي هو كُوَيْس .

قوله تعالى: **وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَيَّ وَهْنًا وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾** وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾

فيه ثمانى مسائل:

الأولى - قوله تعالى: **(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ)** هاتان الآيتان اعتراض بين أثناء وصية لقمان . وقيل: إن هذا مما أوصى به لقمان أبنه؛ أخبر الله به عنه؛ أى قال لقمان لابنه: لا تشرك بالله ولا تطع في الشرك والديك، فإن الله وصى بهما في طاعتهما مما لا يكون شركا ومعصية لله تعالى . وقيل: أى وإذ قال لقمان لابنه؛ فقلنا للقمان فيما آتينا من الحكمة ووصينا الإنسان بالديه؛ أى قلنا له أشكر الله، وقلنا له ووصينا الإنسان . وقيل: وإذ قال لقمان لابنه لا تشرك، ونحن وصينا الإنسان بالديه حسنا، وأمرنا الناس بهذا، وأمر لقمان به أبنه؛ ذكر هذه الأقوال القشيري . والصحيح أن هاتين الآيتين نزلتا في شأن سعد ابن أبي وقاص؛ كما تقدم في « العنكبوت » وعليه جماعة المفسرين .

(١) في نسخ الأصل: « يو-ف » وهو تحريف . راجع ج ٩ ص ٣٩ . (٢) راجع ج ١٣ ص ٣٢٨ .

وجملة هذا الباب أن طاعة الأبوين لا تراعى في ركوب كبيرة ولا في ترك فريضة على الأعيان، وتلزم طاعتها في المباحات، ويستحسن في ترك الطاعات الندب؛ ومنه أمر الجهاد الكفائية، والإجابة للآثم في الصلاة مع إمكان الإعادة؛ على أن هذا أقوى من الندب؛ لكن يعلل بخوف هلكة عليها، ونحوه مما يبيح قطع الصلاة فلا يكون أقوى من الندب^(١). وخالف الحسن في هذا التفصيل فقال: إن منعه أتمه من شهود العشاء شفقة فلا يطعها.

الثانية - لما خصّ تعالى الأم بدرجة ذكر الحمل وبدرجة ذكر الرضاع حصل لها بذلك ثلاث مراتب، وللأب واحدة؛ وأشبه ذلك قوله صلى الله عليه وسلم حين قال له رجل من أبرّ؟ قال: "أمك" قال ثم من؟ قال: "أمك" قال ثم من؟ قال: "أمك" قال ثم من؟ قال: "أبوك" فجعل له التربع من المبرّة كما في هذه الآية؛ وقد مضى هذا كله في «سبحان»^(٢).

الثالثة - قوله تعالى: ((وَهَنَّا عَلَى وَهْنٍ)) أى حملته في بطنها وهى تزداد كل يوم ضعفا على ضعف. وقيل: المرأة ضعيفة الحلقة ثم يضعفها الحمل. وقرأ عيسى الثقفى: «وَهَنَّا عَلَى وَهْنٍ» بفتح الهاء فيهما؛ ورويت عن أبي عمرو، وهما بمعنى واحد. قال قعنب ابن أم صاحب:

هل للعواذل من ناهٍ فيزجرهما • إن العواذل فيها الإين والوهن

يقال: وهن يهن، ووهن يوهن ووهن، يهن، يهن، مثل ورم يرم. وانتصب «وهنا» على المصدر؛ ذكره القشيري. النحاس: على المفعول الثانى بإسقاط حرف الجر؛ أى حملته بضعف على ضعف. وقرأ الجمهور: «وفصّاله» وقرأ الحسن ويعقوب: «وفصّله» وهما لغتان، أى وفصّاله في انقضاء عامين؛ والمقصود من الفصل الفطام، فعبر بغايته ونهايته. ويقال: انفصل عن كذا أى تميّز؛ وبه سُمى الفصّيل.

(١) لفظة «أقوى ساقطة من الأصل المطبوع» . (٢) راجع ج ١٠ ص ٢٣٩ .

الرابعة - الناس يُجمعون على العامين في مدة الرضاع في باب الأحكام والنقعات ، وأما في تحريم اللبن فحددت فرقة بالعام لا زيادة ولا نقص . وقالت فرقة : العامان وما اتصل بهما من الشهر ونحوه إذا كان متصل الرضاع . وقالت فرقة : إن فُطم الصبي^(١) قبل العامين وترك اللبن فإن ما شرب بعد ذلك في الحولين لا يحترم ، وقد مضى هذا في «البقرة» مستوفى ، الخامسة - قوله تعالى : ﴿ اِنَّ اَشْكُرْلِي ﴾ « أن » في موضع نصب في قول الزجاج ، وأن المعنى : ووصينا الإنسان بوالديه أن أشكركم . النحاس : وأجود منه أن تكون « أن » مفسرة ، والمعنى : فلنا له أن أشكركم ولو لديك . قيل : الشكر لله على نعمة الإيمان ، وللوالدين على نعمة التربية . وقال سفيان بن عيينة : من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى ، ومن دعا لوالديه في أديار الصلوات فقد شكرهما .

السادسة - قوله تعالى : ﴿ وَاِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ اَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ اَنَابَ اِلَيَّْ ثُمَّ اِلَىٰ صَرْحِكُمْ فَمَا تُبَشِّرُهُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ قد بينا أن هذه الآية والتي قبلها نزلتا في شأن سعد بن أبي وقاص لما أسلم ، وأن أمه وهي حمنة بنت أبي سفيان بن أمية حلفت ألا تأكل ، كما تقدم في الآية قبلها .

السابعة - قوله تعالى : ﴿ وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ نعت لمصدر محذوف ؛ أى مصاحباً معروفاً ؛ يقال صاحبتُه مصاحبةً ومصاحباً . و« معروفاً » أى ما يحسن .

والآية دليل على صلة الأبوين الكافرين بما أمكن من المال إن كانا فقيرين ، والآية القول والدعاء إلى الإسلام برفق . وقد قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق للنبي عليه الصلاة والسلام وقد قدمت عليها خالتها وقيل أمها من الرضاعة فقالت : يا رسول الله ، إن أمي قدمت علي وهي راغبة أفأصلها ؟ قال : « نعم » . وراغبة قيل معناه : عن الإسلام . قال ابن عطية : والظاهر عندي أنها راغبة في الصلة ، وما كانت لتقدم على أسماء لولا حاجتها . ووالدة أسماء هي قتيبة بنت عبد العزى بن عبد أسد . وأم عائشة وعبد الرحمن هي أم رومان قديمة الإسلام .

(١) راجع ج ٣ ص ١٦٠ .

الثامنة - قوله تعالى : (وَأَتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ) وصية لجميع العالم ؛ كأن المأمور الإنسان . و « أَنَابَ » معناه مال ورجع إلى الشيء ؛ وهذه سبيل الأنبياء والصالحين . وحكى النقاش أن المأمور سعد ، والذي أناب أبو بكر ؛ وقال : إن أبا بكر لما أسلم أتاه سعد وعبد الرحمن بن عوف وعثمان وطلحة وسعيد والزبير فقالوا : آمنت ! قال نعم ؛ فنزلت فيه : « أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ^(١) » فلما سمعها الستة آمنوا ؛ فانزل الله تعالى فيهم : « وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى ^(١) » - إلى قوله - أولئك الذين هداهم الله . وقيل : الذي أناب النبي صلى الله عليه وسلم . وقال ابن عباس : ولما أسلم سعد أسلم معه أخواه عامر وعويمر ؛ فلم يبق منهم مشرك إلا عتبة . ثم تواعد عن وجل يبعث من في القبور والرجوع إليه للجزاء والتوقيف على صغير الأعمال وكبيرها .

قوله تعالى : يَبْنِيْ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ نَّخْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِيهَا اللَّهُ إِنْ اللَّهُ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ^(١٦)

المعنى : وقال لقمان لابنه يا بُنَيَّ . وهذا القول من لقمان إنما قصد به إعلام ابنه بقدر قدرة الله تعالى . وهذه الغاية التي أمكنه أن يفهمه ، لأن الخردلة يقال : إن الحِسَّ لا يدرك لها ثِقَلًا ، إذ لا تَرَجُّ ميزانًا . أي لو كان للإنسان رزق مثقال حبة نخردل في هذه المواضع جاء الله بها حتى يسوقها إلى من هي رزقه ؛ أي لا تهتم للرزق حتى تستغل به عن أداء الفرائض ، وعن اتباع سبيل من أناب إلى .

قلت : ومن هذا المعنى قولُ النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن مسعود : « لا تكثُرْ همك ما يُقدَّرُ يكون وما تُرْزَقُ يأتيك » . وقد نطقت هذه الآية بأن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علما ، وأحصى كل شيء عددا ؛ سبحانه لا شريك له . وروى أن ابن لقمان سأل أباه

(١) راجع ج ١٥ ص ٢٣٧ فما بعد . و ص ٢٤٣ فما بعد .

عن الحبة تقع في سفل البحر أعلمها الله ؟ فراجمه لقمان بهذه الآية . وقيل : المعنى أنه أراد الأعمال ، المعاصي والطاعات ؛ أى إن تك الحسنة أو الخطيئة مثقال حبة يأت بها الله ؛ أى لا تفوت الإنسان المقدر وقوعها منه . وبهذا المعنى يتحصل في الموعظة ترجية وتخويف مضاف [ذلك] إلى تبيين قدرة الله تعالى . وفي القول الأول ليس فيه ترجية ولا تخويف .

قوله تعالى : ﴿ مِثْقَالَ حَبَّةٍ ﴾ عبارة تصلح للجواهر ، أى قدر حبة ، وتصلح للأعمال ؛ أى ما يزنه على جهة المماثلة قدر حبة . ومما يؤيد قول من قال هى من الجواهر : قراءة عبد الكريم الجوزى « فِتْكَنَ » بكسر الكاف وشدّ النون ، من الكنّ الذى هو الشيء المغطى . وقرأ جمهور القراء : « إِنْ تَكُ » بالتاء من فوق « مِثْقَالَ » بالنصب على خبر كان ، وأسماها مضمّر تقديره : مسألتك ، على ما روى ، أو المعصية والطاعة على القول الثانى ؛ ويدل على صحته قول ابن لقمان لأبيه : يا أبت إن عملت الخطيئة حيث لا يرانى أحد كيف يعلمها الله ؟ فقال لقمان له : « يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ نَخْرَدٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ » الآية . فما زال أبنه يضطرب حتى مات ؛ قاله مقاتل . والضمير فى « إِنَّهَا » ضمير القصة ؛ كقولك : إنها هند قائمة ؛ أى القصة إنها إن تك مثقال حبة . والبصريون يميزون : إنها زيد ضربته ؛ بمعنى إن القصة . والكوفيون لا يميزون هذا إلا فى المؤنث كما ذكرنا . وقرأ نافع : « مِثْقَالُ » بالرفع ، وعلى هذا « تَكُ » يرجع إلى معنى نخردلة ؛ أى إن تك حبة من نخردل . وقيل : أسند إلى المتقال فعلا فيه علامة التأنيث من حيث انضمام إلى مؤنث هو منه ؛ لأن مثقال الحبة من الخردل إما سيئة أو حسنة ؛ كما قال : « قَلْبُهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا » ^(٣) فأنت وإن كان المثل مذكرا ؛ لأنه أراد الحسنات . وهذا كقول الشاعر :

مَشِينٌ كَمَا اهْتَرَّتْ رِمَاحٌ تَسْفَهَتْ * أَعَالِيهَا مَرُّ الرِّيحِ النَّوَاسِمِ ^(٤)

و « تَكُ » هاهنا بمعنى تقع فلا تقتضى خبرا .

(١) زيادة عن ابن عطية . (٢) فى ج : « الجوزى » . (٣) فى ج : « الجوزى » .
 راجع ج ٧ ص ١٥٠ . (٤) البيت لذي الرمة . و « تسفهت » : استخفت ، والسفه خفة العقل وضعفه .
 و « النواسم » : الضعيفة الهبوب . وصف نساء فيقول : إذا مشين اهترزن فى مشين وتنين فكأنهن رماح نصبت
 فرت عليها الرياح فاهترت وتنتت .

قوله تعالى : ﴿ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ ﴾ قيل : معنى الكلام المبالغة والانتهاى فى التفهيم ؛ أى أن قدرته تعالى تنال ما يكون فى تضاعيف صخرة وما يكون فى السماء والأرض . وقال ابن عباس : الصخرة تحت الأرضين السبع وعليها الأرض . وقيل : هى الصخرة على ظهر الحوت . وقال السدى : هى صخرة ليست فى السموات والأرض ، بل هى وراء سبع أرضين عليها ملك قائم ؛ لأنه قال : ﴿ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ ﴾ وفيهما غنية عن قوله : « فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ » ؛ وهذا الذى قاله ممكن ، ويمكن أن يقال : قوله : « فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ » تأكيد ؛ كقوله : « افسراً بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ » ، وقوله : « سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا » .

قوله تعالى : يٰبُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَآمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾
فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ يٰبُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ وصى ابنه بعظم الطاعات وهى الصلاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وهذا إنما يريد به بعد أن يمثل ذلك هو فى نفسه ويزدجر عن المنكر ، وهنا هى الطاعات والفضائل أجمع . ولقد أحسن من قال :
وأبدأ بنفسك فأنهبا عن غيرها * فإذا آتته عنه فانت حكيم
فى أبيات تقدم فى « البقرة » ذكرها .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ﴾ يقتضى حضا على تغيير المنكر وإن نالك ضرر ؛ فهو إشعار بأن المغير يؤذى أحيانا ؛ وهذا القدر على جهة الندب والقوة فى ذات الله ؛ وأما على اللزوم فلا ، وقد مضى الكلام فى هذا مستوفى فى « آل عمران والمائدة » . وقيل : أمره بالصبر على شدائد الدنيا كالأمرض وغيرها ، وألا يخرج من الجزع إلى معصية الله عز وجل ؛ وهذا قول حسن لأنه يعنى .

(٢) راجع ج ١٠ ص ٢٠٤ .

(١) راجع ج ٢٠ ص ١١٧ .

(٤) راجع ج ٤ ص ٤٧ ، راجع ج ٦ ص ٢٤٣ .

(٣) راجع ج ١ ص ٣٦٧ .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ قال ابن عباس : من حقيقة الإيمان الصبر على المكروه . وقيل : إن إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من عزم الأمور ؛ أى مما عزمه الله وأمر به ؛ قاله ابن جريج . ويحتمل إن يريد أن ذلك من مكارم الأخلاق وعزائم أهل الحزم السالكين طريق النجاة . وقول ابن جريج أصوب .

قوله تعالى : وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى - قرأ نافع وأبو عمرو وحزمة والكسائي وابن محيصة : « تصاعر » بالألف بعد الصاد . وقرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر والحسن ومجاهد : « تُصَعَّر » وقرأ الجحدري : « تُصَعِر » بسكون الصاد ؛ والمعنى متقارب . والصَّعَر : الميل ؛ ومنه قول الأعرابي : وقد أقام الدهر صعري ، بعد أن أقمت صعره . ومنه قول عمرو بن حنبل التغلبي :

وكنا إذا الجبار صعر خده * أقناله من مياله فتقوم^(١)

وأنشده الطبري : « فتقوماً » . قال ابن عطية : وهو خطأ ؛ لأن قافية الشعر مخفوضة .

وفي بيت آخر :

* أقناله من خده المتصعر *

قال الهروي : « ولا تصاعر » أى لا تعرض عنهم تكبراً عليهم ؛ يقال : أصاب البعير صعراً وصيّد إذ أصابه داء يلوى منه عنقه . ثم يقال للتكبر : فيه صعراً وصيّد ؛ فعنى : « لا تُصَعِّر » أى لا تلزم خدك الصعير . وفي الحديث : « يأتى على الناس زمان ليس فيهم إلا أضعر أو أوتر »

(١) يريد : فتقوم أنت . (٢) قبل هذا البيت كما في معجم الشعراء للرزباني :

نعاطى الملوك الحق ما قصدوا بنا * وليس علينا فتاهم بمحرم

قال المرزباني : وهذا البيت - بيت الشاهد - يروى من قصيدة المنهس التي أولها :

بعيرنى أى رجال ولن ترى * أبا كرم إلا بأن ينكرما

والأصغر : المعرض بوجهه كبراً؛ وأراد رذالة الناس الذين لا دين لهم . وفي الحديث :
«كُلُّ صَعَارٍ مَلْعُونٌ» أى كل ذى أبهة وكبر .

الثانية - معنى الآية : ولا تُمِلْ خَدَّكَ للناس كبرا عليهم وإعجابا واحتقارا لهم .
وهذا تأويل ابن عباس وجماعة . وقيل : هو أن تلوى شِدْقَكَ إذا ذكر الرجل عندك كأنك
تحتقره ؛ فالمعنى : أقبل عليهم متواضعا مؤنسا مستأنسا ، وإذا حدثك أصغرهم فاصغع إليه
حتى يكمل حديثه . وكذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل .

قلت : ومن هذا المعنى^(١) ما رواه مالك عن ابن شهاب عن أنس بن مالك أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال : « لا تباغضوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا ،
ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث » . فالتدابير الإعراض وترك الكلام والسلام ونحوه .
وإنما قيل للإعراض تدابر لأن من أبغضته أعرضت عنه ووليته دبرك ؛ وكذلك يصنع
هو بك . ومن أحببته أقبلت عليه بوجهك وواجهته لتسره ويسرك ؛ فمعنى التدابر موجود
فمن صَعَّرَ خَدَّهُ ، وبه فسر مجاهد الآية . وقال ابن خُوَيزِمَةَ مَدَّادٌ : قوله : « وَلَا تُصَاعِرْ خَدَّكَ
لِلنَّاسِ » كأنه نهى أن يذل الإنسان نفسه من غير حاجة ؛ ونحو ذلك روى عن النبي صلى الله
عليه وسلم أنه قال : « ليس للإنسان أن يذل نفسه » .

الثالثة - قوله تعالى : (وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا) أى متبخترا متكبرا ، مصدر
في موضع الحال ، وقد مضى في « سبحان » . وهو النشاط والمشى فرحا في غير شغل وفي غير
حاجة . وأهل هذا الخُلُقُ ملازمون للفخر والحُبْلَاءُ ؛ فالمرح مختلف في مشيته . روى يحيى
ابن جابر الطائى عن ابن عائذ الأزدي عن غُصَيْفِ بْنِ الْحَارِثِ قَالَ : أتيت بيت المقدس
أنا وعبد الله بن عبيد بن عمير^(٢) قال : بخاسنا إلى عبد الله بن عمرو بن العاصي فسمعتة يقول : إن
القبر يكلم العبد إذا وضع فيه فيقول : يا بن آدم ما غرَّك بي ! ألم تعلم أنى بيت الوحدة ! ألم
تعلم أنى بيت الظلمة ! ألم تعلم أنى بيت الحق ! يا بن آدم ما غرَّك بي ! لقد كنت تمشى حولى

(١) في ج « ومن هذا الباب » . (٢) راجع ج ١٠ ص ٢٦٠ . (٣) ورد هذا الامم
مضطربا في نسخ الأصل . والتصويب عن تهذيب التهذيب .

فَدَادَا . قال ابن عائذ قلت لُغْضِيف : ما الفَدَادَا يا أبا أسماء ؟ قال : كِبْعُضٌ مِشِيَتِكَ يَا بِنَ أَخِي أحياناً . قال أبو عبيد : والمعنى ذا مال كثير وذا خِيَلَاءَ . وقال صلى الله عليه وسلم : " من جر ثوبه خِيَلَاءَ لا ينظر الله إليه يوم القيامة " . والهِخْوَرُ : هو الذى يعدد ما أعطى ولا يشكر الله تعالى ؛ قاله مجاهد . وفى اللفظة الفخر بالنسب وغير ذلك .

قوله تعالى : **وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنْ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتِ الْحَمِيرِ** ﴿١٩﴾

فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى : **(وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ)** لما نهى عن الخُلُقِ الذميمة رسم له الخُلُقُ الكريم الذى ينبغى أن يستعمله فقال : **« وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ »** أى توسط فيه . والقصد : ما بين الإسراع والبطء ؛ أى لا تَدِبْ دِيبَ الْمُتَمَلِّوِينَ ولا تَتَبْ وَتِبَ الشُّطَارِ ؛ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سرعة المشى تذهب بهاء المؤمن " . فأما ما روى عنه عليه السلام أنه كان إذا مشى أسرع ، وقول عائشة فى عمر رضى الله عنهما : كان إذا مشى أسرع - فإنما أرادت السرعة المرتفعة عن ديب المتماوت ؛ والله أعلم . وقد مدح الله سبحانه من هذه صفته حسبما تقدم بيانه فى **« الفرقان »** ^(١) .

الثانية - قوله تعالى : **(وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ)** أى انقص منه ؛ أى لا تتكلف رفع الصوت وخذ منه ما تحتاج إليه ؛ فإن الجهر بأكثر من الحاجة تكلف يؤذى . والمراد بذلك كله التواضع ؛ وقد قال عمر لمؤذن تكلف رفع الأذان بأكثر من طاقته : لقد خشيت أن ينشق مَرِيَطَاؤُكَ ! والمؤذن هو أبو محذورة سُمرة بن معير ^(٢) . والمريطاء : ما بين السرة إلى العانة .

الثالثة - قوله تعالى : **(إِنْ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتِ الْحَمِيرِ)** أى أقبحها وأوحشها ؛ ومنه أتانا بوجه منكر . والحمار مثل فى الblem والبليغ والشتيمة ، وكذلك نُهَاقَه ؛ ومن استفحاشهم

(١) راجع ج ١٣ ص ٦٨ . (٢) فى الأصول : « معير » بالميم بدل الباء وهو تحريف .

لذكرة مجردا أنهم يكونون عنه ويرغبون عن التصريح فيقولون : الطويل الأذنين ؛ كما يكنى عن الأشياء المستقدرة . وقد عدّ في مساوي الآداب أن يجري ذكر الحمار في مجلس قوم من أولى المروءة . ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافا وإن بلغت منه الرجلة^(١) . وكان عليه الصلاة والسلام يركبه تواضعا وتذلالا لله تبارك وتعالى .

الرابعة - في الآية دليل على تعريف قبج رفع الصوت في المخاطبة والملاحة بقبح^(٢) أصوات الحمير ؛ لأنها عالية . وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان فإنها رأّت شيطانا " . وقد روى : أنه ما صاح حمار ولا نبج كلب إلا أن يرى شيطانا . وقال سفیان الثوري : صياح كل شيء تسبيح إلا نهيق الحمير . وقال عطاء : نهيق الحمير دعاء على الظلمة .

الخامسة - وهذه الآية أدب من الله تعالى بترك الصياح في وجوه الناس تهاونا^(٥) بهم ، أو بترك الصياح جملة ؛ وكانت العرب تفخر بجهازة الصوت الجهير وغير ذلك ، فمن كان منهم أشد صوتا كان أعز ، ومن كان أخفض كان أذل ، حتى قال شاعرهم :
جَهِيرُ الْكَلَامِ جَهِيرُ الْعُطَاسِ * جَهِيرُ الرِّوَاءِ جَهِيرُ النَّعَمِ^(٦)
وَيَعْدُو عَلَى الْإَيْنِ عَدْوَى الظُّلَمِ * وَيَعْلُو الرِّجَالُ بِخَلْقِ عَمَمِ^(٧)
فنهى الله سبحانه وتعالى عن هذه الخلق الجاهلية بقوله : « إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ »
أى لو أن شيئا يهاب لصوته لكان الحمار ؛ فجعلهم في المثل سواء .

السادسة - قوله تعالى : ﴿ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ اللام للتأكيد ، ووحده الصوت وإن كان مضافا إلى الجماعة لأنه مصدر والمصدر يدل على الكثرة ، وهو مصدر صات يصوت صوتا فهو صائت . ويقال : صوت تصويتا فهو مصوت . ورجل صات أى شديد الصوت بمعنى صائت ؛ كقولهم : رجل مال ونال ؛ أى كثير المال والنوال .

(١) الرجلة (بضم فسكون) : المشى راجلا . (٢) الملاحة : الملاومة والمباغضة .

(٣) لفظة «أنه» ساقطة من ج . (٤) في ك : «وفي هذه الآية إذن من الله تعالى بترك الصوت والصياح» .

(٥) في ج : «تهازيا» . (٦) الرواء (بالضم والمد) : المنظر الحسن . والنعم : الإبل .

(٧) الأين : الإعياء . والخلق العمم : التام .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُوا كَانِ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ذكر نعمه على بنى آدم ، وأنه سخر لهم « مآ في السموات » من شمس وقمر ونجوم وملائكة تحوطهم وتجر إليهم منافعهم . « وما في الأرض » عام في الجبال والأشجار والثمار وما لا يحصى . ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ﴾ أى أكملها وأتمها . وقرأ ابن عباس ويحيى بن عمار : « وَأَصْبَغَ » بالصاد على بدلها من السين ؛ لأن حروف الاستعلاء تجتذب السين من سفلها إلى علوها فتردّها صاداً . والنعم : جمع نعمة كسندرة وسدر (بفتح الدال) وهى قراءة نافع وأبى عمرو وحفص . الباقون : « نعمة » على الأفراد ؛ والأفراد يدل على الكثرة ؛ كقوله تعالى : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا » (١) وهى قراءة ابن عباس من وجوه صحاح . وقيل : إن معناها الإسلام ؛ قال النبى صلى الله عليه وسلم لابن عباس وقد سأله عن هذه الآية : « الظاهرة الإسلام وما حسن من خلقك ، والباطنة ما ستر عليك من سنى عمالك » . النحاس : وشرح هذا أن سعيد بن جبير قال فى قول الله عز وجل : « وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُظْهِرَهُمْ وَلِيَتِمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ » (٢) قال : يدخلكم الجنة . وتام نعمة الله عز وجل على العبد أن يدخله الجنة ، فكذا لما كان الإسلام يتول أمره إلى الجنة ستم نعمة . وقيل : الظاهرة الصحة وكال الخلق ، والباطنة المعرفة والعقل . وقال المحاسبى : الظاهرة نعم الدنيا ، والباطنة نعم العقبى . وقيل : الظاهرة ما يرى بالأبصار من المال والجاه والجمال فى الناس وتوفيق الطاعات ، والباطنة ما يجده المرء فى نفسه من العلم بالله

(١) راجع ج ٩ ص ٣٦٦ فابعد .

(٢) راجع ج ٦ ص ٨٠ فابعد .

وحسن اليقين وما يدفع الله تعالى عن العبد من الآفات . وقد سرد الماوردي في هذا أقوالا تسعة ، كلها ترجع إلى هذا .

قوله تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ) تقدم معناها في « الحج » وغيرها .^(١)
 نزلت في يهودى جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد ، أخبرنى عن ربك ، من أى شىء هو ؟ بغامت صاعقة فأخذته ؛ قاله مجاهد . وقد مضى هذا في « الرمد » .^(٢) وقيل : إنها نزلت في النضر بن الحارث ، كان يقول : إن الملائكة بنات الله ؛ قاله ابن عباس .
 (يُجَادِلُ) يخاصم (بِغَيْرِ عِلْمٍ) أى بغير حجة (وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ) أى نير بين ؛ إلا الشيطان فيما يلقي إليهم . « وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ »^(٣) وإلا تقليد الأسلاف كما فى الآية بعد . (أَوْ تَوَكَّنَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ) يتبعونه .

قوله تعالى : وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : (وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ) أى يخلص عبادته وقصده إلى الله تعالى . (وَهُوَ مُحْسِنٌ) لأن العبادة من غير إحسان ولا معرفة القلب لا تنفع ؛ نظيره : « وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ » . وفى حديث جبريل قال : فأخبرنى عن الإحسان ؟ قال : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . (فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى) قال ابن عباس : لا إله إلا الله ؛ وقد مضى فى « البقرة » . وقد قرأ على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه والسامى وعبد الله بن مسلم بن يسار : « وَمَنْ يُسَلِّمْ » . النحاس : و « يسلم » فى هذا أعرف ؛ كما قال عز وجل : « فَقُلْ اسَلِّمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ »^(٤) ومعنى : « اسَلِّمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ » قصدت بعبادتى إلى الله عز وجل ؛ ويكون « يسلم » على التكثير ؛ إلا أن المستعمل

(١) راجع ج ١٢ ص ١٥٠٥ (٢) راجع ج ٩ ص ٢٩٨ (٣) راجع ج ٧ ص ٧٧

(٤) راجع ج ١١ ص ٢٤٨ فيما بعد (٥) راجع ج ٣ ص ٢٧٩ (٦) راجع ج ٤ ص ٤٥

في سلمت أنه بمعنى دفعت ؛ يقال سلمت في الحنطة ، وقد يقال أسلمت . الزمخشري :
قرأ علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه : « وَمَنْ يُسَلِّمْ » بالتشديد ؛ يقال : أسلم أمرك وسلم
أمرك إلى الله تعالى ؛ فإن قلت : ماله عدى بإلى ، وقد عدى باللام في قوله عز وجل :
« بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ^(١) » ؟ قلت : معناه مع اللام أنه جعل وجهه وهو ذاته ونفسه سالماً لله ؛
أي خالصاً له . ومعناه مع إلى راجع إلى أنه سلم إليه نفسه كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا دفع
إليه . والمراد التوكل عليه والتفويض إليه . (وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) أي مصيرها .

قوله تعالى : وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ
بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نَمَتَّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ
إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : (وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا) أي نجازيهم .
(إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) . (نَمَتَّعُهُمْ قَلِيلًا) أي نبقيهم في الدنيا مدة قليلة يتمتعون بها .
(ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ) أي نلجئهم ونسوقهم . (إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ) وهو عذاب جهنم . ولفظ
« مَنْ » يصلح للواحد والجمع ، فلماذا قال : « كُفْرُهُ » ثم قال : « مَرْجِعُهُمْ » وما بمله
على المعنى .

قوله تعالى : وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ
اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : (وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) أي هم
يعترفون بأن الله خالقهم فلم يعبدون غيره . (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ) أي على ما هدانا له من دينه ،
وليس الحمد لغيره . (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) أي لا ينظرون ولا يتدبرون . (لِلَّهِ

مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) أى ملكا وخالقا . (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ) أى الغنى عن خلقه وعن عبادتهم ، وإنما أمرهم لينفعهم . (الْحَمِيدُ) أى المحمود على صنعه .

قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧٧﴾

لما احتج على المشركين بما احتج بين أن معانى كلامه سبحانه لا تنفذ، وأنها لا نهاية لها . وقال القفال : لما ذكر أنه سخر لهم ما فى السموات وما فى الأرض وأنه أسبغ النعم نبيه على أن الأشجار لو كانت أقلاما ، والبحار مدادا فكتب بها عجائب صنع الله الدالة على قدرته ووحدانيته لم تنفذ تلك العجائب . قال القشيري : فرد معنى تلك الكلمات إلى المقدورات ، وحمل الآية على الكلام القديم أولى ؛ والمخلوق لا بد له من نهاية ، فإذا نفيت النهاية عن مقدراته فهو نفي النهاية عما يقدر فى المستقبل على إيجاده ، فأما ما حصره الوجود وعده فلا بد من تناهيه ، والقديم لا نهاية له على التحقيق . وقد مضى الكلام فى معنى « كَلِمَاتُ اللَّهِ » فى آخر « الكهف »^(١) . وقال أبو على : المراد بالكلمات والله أعلم ما فى المقدور دون ما خرج منه إلى الوجود . وهذا نحو مما قاله القفال ، وإنما الغرض الإعلام بكثرة معانى كلمات الله وهى فى نفسها غير متناهية ، وإنما قرب الأمر على أفهام البشر بما يتناهى لأنه غاية ما يعهده البشر من الكثرة ؛ لا أنها تنفذ بأكثر من هذه الأقلام والبحور . ومعنى نزول الآية : يدل على أن المراد بالكلمات الكلام القديم . قال ابن عباس : إن سبب هذه الآية أن اليهود قالت : يا محمد ، كيف عُنينا بهذا القول « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا »^(٢) ونحن قد أوتينا التوراة فيها كلام الله وأحكامه ، وعندك أنها تبيان كل شيء ؟ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « التوراة قليل من كثير » ونزات هذه الآية ، والآية مدنية . قال أبو جعفر النحاس : فقد تبين أن الكلمات ها هنا يراد بها العلم وحقائق الأشياء ؛ لأنه عز وجل علم قبل أن

(٢) راجع ج ١٠ ص ٣٢٤ .

(١) راجع ج ١١ ص ٦٨ .

يخلق الخلق ما هو خالق في السموات والأرض من كل شيء ، وعلم ما فيه من مثاقيل الذر ؛
وعلم الأجناس كلها وما فيها من شعرة وعضو ، وما في الشجرة من ورقة ، وما فيها من
ضروب الخلق ، وما يتصرف فيه من ضروب الطعم واللون ؛ فلو سمي كل دابة وحدها ،
وسمي أجزاءها على ما علم من قليلها وكثيرها وما تحوّل عليه من الأحوال ، وما زاد فيها في كل
زمان ، وبين كل شجرة وحدها وما تفرّعت إليه ، وقدر ما يبس من ذلك في كل زمان ،
ثم كتب البيان على كل واحد منها ما أحاط الله جل ثناؤه به منها ، ثم كان البحر مدادا لذلك
البيان الذي بين الله تبارك وتعالى عن تلك الأشياء يمدّه من بعده سبعة أبحر لكان البيان عن
تلك الأشياء أكثر .

قلت : هذا معنى قول القفال ، وهو قول حسن إن شاء الله تعالى . وقال قوم : إن
قريشا قالت سيّتم هذا الكلام لمحمد وينحسر ؛ فنزلت . وقال السدي : قالت قريش ما أكثر
كلام محمد ! فنزلت .

قوله تعالى : ﴿ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ ﴾ قراءة الجمهور بالرفع على الابتداء ، وخبره في الجملة التي
بعدها ، والجملة في موضع الحال ؛ كأنه قال : والبحر هذه حاله ؛ كذا قدرها سيوييه .
وقال بعض النحويين : هو عطف على « أن » لأنها في موضع رفع بالابتداء . وقرأ أبو عمرو
وآبن أبي إسحاق : « وَالْبَحْرَ » بالنصب على العطف على « ما » وهي اسم « أن » . وقيل : أي
ولو أن البحر يمدّه أي يزيد فيه . وقرأ ابن هرْمُز والحسن : « يمدّه » ؛ من أمد . قالت
فرقة : هما بمعنى واحد . وقالت فرقة : مد الشيء بعضه بعضا ؛ كما تقول : مد النيل الخليج ؛
أي زاد فيه . وأمد الشيء ما ليس منه . وقد مضى هذا في « البقرة . وآل عمران » . وقرأ
جعفر بن محمد : « والبحر مداده » . ﴿ مَا نَفَدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ تقدم . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾
تقدم أيضا . وقال أبو عبيدة : البحر ها هنا الماء العذب الذي ينبت الأقلام ، وأما الماء
الملح فلا ينبت الأقلام .

(٢) راجع ج ١١ ص ٦٨ .

(١) راجع ج ١ ص ٢٠٩ وج ٤ ص ١٩٤ فابعد .

(٣) راجع ج ٢ ص ١٣١ .

قوله تعالى : مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بَعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : (مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بَعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً) قال الضحاك : المعنى ما ابتداء خلقكم جميعا إلا تخلق نفس واحدة ، وما بعثكم يوم القيامة إلا كبعث نفس واحدة . قال النحاس : وهكذا قدره النحويون بمعنى إلا تخلق نفس واحدة ؛ مثل : «وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ»^(١) . وقال مجاهد : لأنه يقول للقليل والكثير كن فيكون . ونزلت الآية في أبي بن خلف وأبي الأسدين ومنبه ونبه ابنه الحجاج بن السباق ، قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى قد خلقنا أطوارا ، نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاما ، ثم تقول إنا نبعث خلقا جديدا جميعا في ساعة واحدة ! فأنزل الله تعالى : «مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بَعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً» ، لأن الله تعالى لا يصعب عليه ما يصعب على العباد ، وخلقهم للعالم تخلقهم لنفس واحدة . (إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ) لما يقولون (بِصِيرٌ) بما يفعلون .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ) تقدم في «الحج وآل عمران» . (وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) أى ذللهما بالطلوع والأفول تقديرا للأجال وإتماما للنافع . (كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى) قال الحسن : إلى يوم القيامة . فتادة :

(١) راجع ج ٩ ص ٢٤٥ فما بعد . (٢) كنا في نسخ الأصل . وفي روح المعاني : « وأبي الأسود » .

(٣) في الأصل : « الحج والأنام » وهو تحريف . راجع ج ١٢ ص ٩٠ ر ج ٤ ص ٥٦ .

إلى وقته في طلوعه وأفوله لا يعدوه ولا يقصُر عنه . (وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) أى من قدر على هذه الأشياء فلا بد من أن يكون عالمًا بها ، والعالم بها عالم بأعمالكم . وقراءة العامة « تَعْمَلُونَ » بالناء على الخطاب . وقرأ السلمي ونصر بن عاصم والدوري عن أبي عمرو بالياء على الخبر . (ذَلِكَ) أى فعل الله تعالى ذلك لتعلموا وتقرؤا (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ) أى الشيطان ؛ قاله مجاهد . وقيل : ما أشركوا به الله تعالى من الأصنام والأوثان . (وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) العلى في مكانته ، الكبير في سلطانه .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلُوكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلُوكَ) أى السفن (تَجْرِي) فى موضع الخبر . (فى الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ) أى بلطفه بكم وبرحمته لكم فى خلاصكم منه . وقرأ ابن هُرْمُز : « بنعمات الله » جمع نعمة وهو جمع السلامة ، وكان الأصل تحريك العين فأسكنت . (لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ) « مِنْ » للتبويض ، أى ليرىكم جرى السفن ؛ قاله يحيى بن سلام . وقال ابن شجرة : « مِنْ آيَاتِهِ » ما تشاهدون من قدرة الله تعالى فيه . النقاش : ما يرزقهم الله منه . وقال الحسن : مفتاح البحار السفن ، ومفتاح الأرض الطرق ، ومفتاح السماء الدعاء . (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) أى صبار لقضائه شكور على نعمائه . وقال أهل المعاني : أراد لكل مؤمن بهذه الصفة ؛ لأن الصبر والشكر من أفضل خصال الإيمان . والآية : العلامة ، والعلامة لانتسبين فى صدر كل مؤمن إنما تسنين لمن صبر على البلاء وشكر على الرخاء . قال الشعبي : الصبر نصف الإيمان ، والشكر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كله ؛ ألم تر إلى قوله تعالى : « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » وقوله : « وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ^(١) » وقال عليه السلام : « الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر » .

قوله تعالى : وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلِيلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ
فَلَمَّا تَجَلَّوْهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ
كَفُورٍ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : (وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلِيلِ) قال مقاتل : كالجبال . وقال الكلبي :
كالسحاب ؛ وقاله قتادة - جمع ظلة ؛ شبه الموج بها لكبرها وارتفاعها . قال النابغة
في وصف بحر :

يماشين أخضر ذو ظلال * على حافاته فسلق الدنان

ولنما شبه الموج وهو واحد بالظل وهو جمع ؛ لأن الموج يأتي شيئاً بعد شيء ويركب
بعضه بعضاً كالظلال . وقيل : هو بمعنى الجمع ، وإنما لم يجمع لأنه مصدر . وأصله من الحركة
والازدحام ؛ ومنه : ماج البحر ، والناس يموجون . قال كعب :

بفئنا إلى موج من البحر وسطه * أحابيش منهم حاسر ومقنع

وقرأ محمد بن الحنفية : « مَوْجٌ كَالظَّلَالِ » جمع ظَلَّ . (دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)
مؤخدين له لا يدعون لخلاصهم سواه ؛ وقد تقدم . (فَلَمَّا تَجَلَّوْهُمْ) ^(١) يعني من البحر . (إِلَى الْبَرِّ)
فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ) قال ابن عباس : مؤفٍ بما عاهد عليه الله في البحر . النقاش : يعني عدل
في العهد ، وثى في البر بما عاهد عليه الله في البحر . وقال الحسن : « مقتصدٌ » مؤمن متمسك
بالتوحيد والطاعة . وقال مجاهد : « مقتصدٌ » في القول مضمحل للكفر . وقيل : في الكلام
حذف ؛ والمعنى : فمنهم مقتصد ومنهم كافر . ودل على المحذوف قوله تعالى : (وَمَا يَجْحَدُ
بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ) الختار : الغدار . والختر : أسوأ الغدر . قال عمرو بن معديكرب :

فإنك لو رأيت أبا عمير * ملأت يديك من غدر وخر

وقال الأعشى :

بالأبقي الفرد من تيماء منزله * حصن حصين وجار غير ختار

قال الجوهري : الختر الغدر ، يقال : ختره فهو ختار . الماوردي : وهو قول الجمهور .
وقال عطية : إنه الجاحد . ويقال : ختر يخرت ويخرت (بالضم والكسر) خترا ؛ ذكره القشيري ،
ومجد الآيات إنكار أعيانها . والمجد بالآيات إنكار دلائلها .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي
وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ
فَلَا تُغْنِيَنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْنُنْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ) يعني الكافر والمؤمن ؛ أي خافوه ووحده .
(وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا) تقدم معنى
« يَجْزِي » في البقرة وغيرها . فإن قيل : فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من مات له ثلاثة
من الولد لم يبلغوا الجنة لم تمسه النار إلا تيممه القسم » . وقال : « من ابتلى بشيء من هذه البنات
فأحسن إليهن كنن له حجابا من النار » . قيل له : المعنى بهذه الآية أنه لا يحمل والد ذنب
ولده ، ولا مولود ذنب والده ، ولا يؤخذ أحدهما عن الآخر . والمعنى بالأخبار أن ثواب
الصبر على الموت والإحسان إلى البنات يحجب العبد عن النار ، ويكون الولد سابقا له
إلى الجنة . (إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) أي البعث (فَلَا تُغْنِيَنَّكُمْ) أي تخدعنكم (الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)
بزينتها وما تدعوا إليه فتكلموا عليها وتركوا إليها وتركوا العمل للآخرة (وَلَا يَغْنُنْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ)
قراءة العامة هنا وفي سورة الملائكة والحديد بفتح الغين ، وهو الشيطان في قول مجاهد وغيره ،
وهو الذي يغتر الخلق ويمتئهم الدنيا ويلمهم عن الآخرة ؛ وفي سورة النساء : « يعدهم ويمنيهم » .
وقرأ سماك بن حرب وأبو حيوة وابن السَّمِيقِ بضم الغين ؛ أي لا تغتروا . كأنه مصدر غرت
يغرغروا . قال سعيد بن جبير : هو أن يعمل بالمعصية ويمتنى المغفرة .

(١) راجع ج ١ ص ٣٧٧ . (٢) أي لم يبلغوا مبلغ الرجال ويجري عليهم القلم فكانت عليهم الجنة ؛
وهو الإثم . (٣) راجع ص ٣٢٢ من هذا الجزء . (٤) راجع ج ١٧ ص ٢٤٧ .
(٥) راجع ج ٥ ص ٣٩٥ .

قوله تعالى : **إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴿٣٤﴾

زعم القراء أن هذا معنى النفي ؛ أى ما يعلمه أحد إلا الله تعالى . قال أبو جعفر النحاس : وإنما صار فيه معنى النفي والإيجاب بتوقيف الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم قال فى قول الله عز وجل « **وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ** » : ” إنها هذه “ :

قلت : قد ذكرنا فى سورة « الأنعام »^(١) حديث ابن عمر فى هذا ، أخرجه البخارى . وفى حديث جبريل عليه السلام قال : ” أخبرنى عن الساعة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، هن خمس لا يعلمهن إلا الله تعالى : إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا “ قال : ” صدقت “ . لفظ أبى داود الطيالسى . وقال عبد الله بن مسعود : كل شىء أوتى نبيكم صلى الله عليه وسلم فى خمس : « **إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ** ، الآية إلى آخرها . وقال ابن عباس : هذه الخمسة لا يعلمها إلا الله تعالى ، ولا يعلمها ملك مقرب ولا نبي مرسل ؛ فمن ادعى أنه يعلم شيئا من هذه فقد كفر بالقرآن ؛ لأنه خالفه . ثم إن الأنبياء يعلمون كثيرا من الغيب بتعريف الله تعالى إياهم . والمراد بإبطال كون الكهنة والمنجمين ومن يستسقى بالأنواء^(٢) وقد يعرف بطول التجارب أشياء من ذكورة الحمل وأنوثته إلى غير ذلك ؛ حسبما تقدم ذكره فى الأنعام^(١) . وقد تختلف التجربة وتتكرر العادة ويبقى العلم لله تعالى وحده . وروى أن يهوديا كان يحسب حساب النجوم ، فقال لابن عباس : إن شئت نبأتك نجم أبك ، وأنه يموت بعد عشرة أيام ،

(١) راجع ج ٧ ص ١ و ٢ فابعد . (٢) الأنواء : جمع نوء ، وهو سقوط نجم فى المنازل فى المغرب مع الفجر وطلوع آخر من المشرق يقابله فى ساعته . وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها .

وأنت لا تموت حتى تعمى ، وأنا لا يحول على الحول حتى أموت . قال : فإن موتك يا يهودى؟ فقال : لا أدري . فقال ابن عباس : صدق الله . « وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ » فرجع ابن عباس فوجد ابنه محمومًا ، ومات بعد عشرة أيام . ومات اليهودى قبل الحول ، ومات ابن عباس أعمى . قال علي بن الحسين راوى هذا الحديث : هذا أعجب الأحاديث . وقال مقاتل : إن هذه الآية نزلت في رجل من أهل البادية اسمه الوارث ابن عمرو بن حارثة ، أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن امرأتى حبلى فأخبرنى ماذا تلد ، وبلادنا جدبة فأخبرنى متى ينزل الغيث ، وقد علمت متى ولدت فأخبرنى متى أموت ، وقد علمت ما عملت اليوم فأخبرنى ماذا أعمل غدا ، وأخبرنى متى تقوم الساعة ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية ؛ ذكره القشيري والماوردي . وروى أبو المليح عن أبي عزة الهذلي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد الله تعالى قبض روح عبد بأرض جعل له إليها حاجة فلم ينته حتى يقدمها - ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم - « إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ - إلى قوله - بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ » ذكره الماوردي ، وخرجه ابن ماجه من حديث ابن مسعود بمعناه . وقد ذكرناه في كتاب (التذكرة) مستوفى . وقراءة العامة : « وَيُنزَّلُ » مشددا . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي مخففا . وقرأ أبي بن كعب : « بِأَيِّ أَرْضٍ » الباقون « بِأَيِّ أَرْضٍ » . قال الفراء : اكتفى بتأنيث الأرض من تأنيث أى . وقيل : أراد بالأرض المكان فذكر . قال الشاعر :

فلا مَزْنَةٌ وَدَقَّتْ وَدَقَّهَا * ولا أرض أبقل إبقالها^(١)

وقال الأخفش : يجوز مررت بجارية أى جارية ، وأية جارية . وشبهه سيدييه تأنيث «أى» بتأنيث كل في قولهم : كَلَّمْتُهُنَّ . (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَيْرٌ) « خَيْرٌ » نعت لـ « عليم » أو خبر بعد خبر . والله تعالى أعلم .

(١) القائل هو عامر بن جوين الطائي . وصف أرضا مخصبه لكثرة ما نزل بها من الغيث . والمنزلة : السحابة .

تفسير سورة السجدة

وهي مكية ، غير ثلاث آيات نزلت بالمدينة ؛ وهي قوله تعالى : « أَقْمِنَ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ
كَانَ فَاسِقًا » تمام ثلاث آيات ؛ قاله الكلبي ومقاتل . وقال غيرهما : إلا خمس آيات ،
من قوله تعالى : « تَجِبَانِي جُنُوبَهُمْ ^(١) — إِلَى قَوْلِهِ — الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكذِّبُونَ » . وهي
ثلاثون آية . وقيل تسع وعشرون . وفي الصحيح عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه
وسلم كان يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة « أَلَمْ . تَنْزِيلُ » السجدة ، و « هَلْ أُنِى عَلَى
الْإِنْسَانِ حِينَ مَنَ الدَّهْرِ » الحديث . ونخرج الدارمي أبو محمد في مسنده عن جابر بن عبد الله
قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم لا ينام حتى يقرأ : « أَلَمْ . تَنْزِيلُ » السجدة .
و « تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ » . قال الدارمي : وأخبرنا أبو المغيرة قال حدثنا عبدة
عن خالد بن معدان قال : اقرءوا المنجية ، وهي « أَلَمْ . تَنْزِيلُ » فإنه بلغني أن رجلا كان
يقرأها ، ما يقرأ شيئا غيرها ، وكان كثير الخطايا ؛ فنشرت جناحها عليه وقالت : رب اغفر
له فإنه كان يكثر من قراءتي ؛ فشققها الرب فيه وقال : « اكتبوا له بكل خطيئة حسنة
وأرفعوا له درجة » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : أَلَمْ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ

الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾

قوله تعالى : (أَلَمْ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ) الإجماع على رفع « تَنْزِيلُ الْكِتَابِ » ولو كان
منصوبا على المصدر لحاز ؛ كما قرأ الكوفيون : « إِنَّكَ لِمِنَ الْمُرْسَلِينَ . عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .
تَنْزِيلُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ^(١) » . و « تَنْزِيلُ » رفع بالابتداء والخبر (لَأَرْيَبَ فِيهِ) . أو خبر على
إضمار مبتدأ ؛ أى هذا تنزيل ، أو المتلو تنزيل ، أو هذه الحروف تنزيل . ودأت : « أَلَمْ »

(١) راجع ج ١٥ ص ٣ فابعده .

على ذكر الحروف . ويجوز أن يكون « لَا رَبَّ فِيهِ » في موضع الحال من « الْكِتَابِ » .
 و (مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) الخبر . قال مكي : وهو أحسنها . ومعنى : « لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ » لا شك فيه أنه من عند الله ؛ فليس بسحر ولا شعر ولا كهانة ولا أساطير الأولين .
 قوله تعالى : أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِنُنذِرَ

قَوْمًا مَّا آتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ) هذه « أَمْ » المنقطعة التي تقدر بـ « بَلْ » وألف الاستفهام ؛
 أى بل أيقولون . وهى تدل على خروج من حديث إلى حديث ؛ فإنه عز وجل أثبت أنه تنزيل
 من رب العالمين ، وأن ذلك مما لا ريب فيه ، ثم أضرب عن ذلك إلى قوله : « أَمْ يَقُولُونَ
 افْتَرَاهُ » أى افتعله واختلقه . (بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ) كذبهم فى دعوى الافتراء . (لِنُنذِرَ
 قَوْمًا) قال قتادة : يعنى قريشا ، كانوا أمة أمية لم يأتهم نذير من قبل محمد صلى الله عليه وسلم .
 و « لِنُنذِرَ » متعلق بما قبلها فلا يوقف على « مِنْ رَبِّكَ » . ويجوز أن يتعلق بمحذوف ؛ التقدير :
 أنزله لتنذر قوما ، فيجوز الوقف على « مِنْ رَبِّكَ » . و « مَا » فى قوله : (مَّا آتَاهُمْ) نفى .
 (مِنْ نَذِيرٍ) صلة . و « نَذِيرٍ » فى محل الرفع ، وهو المَعْلَمُ الْمُخَوَّفُ . وقيل : المراد بالقوم
 أهل الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام ؛ قاله ابن عباس ومقاتل . وقيل : كانت الحجّة
 ثابتة لله جل وعز عليهم بإنذار من تقدم من الرسل وإن لم يروا رسولا ؛ وقد تقدم
 هذا المعنى .^(١)

قوله تعالى : اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا
 فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ
 أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ عرفهم كمال قدرته ليسمعوا القرآن ويتأملوه . ومعنى : « خَلَقَ » أبداع وأوجد بعد العدم وبعد أن لم تكن شيئاً . ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ من يوم الأحد إلى آخر يوم الجمعة . قال الحسن : من أيام الدنيا . وقال ابن عباس : إن اليوم من الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض مقدارُه ألف سنة من سِنِي الدنيا . وقال الضحاك : في ستة آلاف سنة ؛ أي في مدة ستة أيام من أيام الآخرة . ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ تقدم في الأعراف والبقرة وغيرهما ، وذكرنا ما للعلماء في ذلك مستوفى في (الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى) . وليست « ثُمَّ » للترتيب وإنما هي بمعنى الواو . ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ أي ما للكافرين من ولي يمنع من هذابهم ولا شفيع . ويجوز الرفع على الموضع . ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ في قدرته ومخلوقاته .

قوله تعالى : يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ قال ابن عباس : يُنزل القضاء والقدر . وقيل : ينزل الوحي مع جبريل . وروى عمرو بن مرة عن عبد الرحمن بن سابط قال : يدبر أمر الدنيا أربعة : جبريل ، وميكائيل ، وملاك الموت ، وإسرافيل ؛ صلوات الله عليهم أجمعين . فأما جبريل فوكل بالرياح والجنود . وأما ميكائيل فوكل بالقطر والماء . وأما ملك الموت فوكل بقبض الأرواح . وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم . وقد قيل : إن العرش موضع التدبير ؛ كما أن مادون العرش موضع التفصيل ؛ قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ (٢) . وما دون السموات موضع التصريف ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا بِهِمْ لِيَذَكَّرُوا ﴾ (٣) .

(٢) راجع ج ٩ ص ٢٧٩ فما بعده .

(١) راجع ج ٧ ص ٢١٩ وج ١ ص ٢٥٤ .

(٣) راجع ج ١٣ ص ٥٧ .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَرْجُؤُا إِلَيْهِ ﴾ قال يحيى بن سلام : هو جبريل يصعد إلى السماء بعد نزوله بالوحي . النقاش : هو الملك الذي يدبر الأمر من السماء إلى الأرض . وقيل : إنها أخبار أهل الأرض تصعد إليه مع حملتها من الملائكة ؛ قاله ابن شجرة . ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ . وقيل : « ثُمَّ يَرْجُؤُا إِلَيْهِ » أى يرجع ذلك الأمر والتدبير إليه بعد انقضاء الدنيا « فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ » وهو يوم القيامة . وعلى الأقوال المتقدمة فالكتابة في « يَرْجُؤُا » كناية عن الملك ، ولم يجرله ذكر لأنه مفهوم من المعنى ، وقد جاء صريحا في « سَأَلَ سَائِلٌ » قوله : « تَرْجُؤُا الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ » . والضمير في ﴿ إِلَيْهِ ﴾ يعود على السماء على لغة من يذكروها ، أو على مكان الملك الذي يرجع إليه ، أو على اسم الله تعالى ؛ والمراد إلى الموضوع الذي أقره فيه ، وإذا رجعت إلى الله فقد رجعت إلى السماء ، أى إلى سدرة المنتهى ؛ فإنه إليها يرتفع ما يصعد به من الأرض ومنها ينزل ما يهبط به إليها ؛ ثبت معنى ذلك في صحيح مسلم . والهاء في « مِقْدَارُهُ » راجعة إلى التدبير ؛ والمعنى : كان مقدار ذلك التدبير ألف سنة من سني الدنيا ؛ أى يقضى أمر كل شيء لألف سنة في يوم واحد ، ثم يلقيه إلى ملائكته ، فإذا مضت قضى لألف سنة أخرى ، ثم كذلك أبدا ؛ قاله مجاهد . وقيل : الهاء للعروج . وقيل : المعنى أنه يدبر أمر الدنيا إلى أن تقوم الساعة ، ثم يرجع إليه ذلك الأمر فيحكم فيه في يوم كان مقداره ألف سنة . وقيل : المعنى يدبر أمر الشمس في طلوعها وغروبها ورجوعها إلى موضعها من الطلوع ، في يوم كان مقداره في المسافة ألف سنة . وقال ابن عباس : المعنى كان مقداره لو ساره غير الملك ألف سنة ؛ لأن النزول نحسائة والصعود نحسائة . وروى ذلك عن جماعة من المفسرين ، وهو اختيار الطبري ؛ ذكره المهدوي . وهو معنى القول الأول . أى أن جبريل لسرعة سيره يقطع مسيرة ألف سنة في يوم من أيامكم ؛ ذكره الزمخشري . وذكر الماوردي عن ابن عباس والضحاك أن الملك يصعد في يوم مسيرة ألف سنة . وعن قتادة أن الملك ينزل ويصعد في يوم مقداره ألف سنة ؛ فيكون مقدار

نزوله خمسمائة سنة ، ومقدار صعوده خمسمائة على قول قتادة والسدى . وعلى قول ابن عباس والضحاك : النزول ألف سنة ، والصعود ألف سنة . (**يَمَّا تَعُدُّونَ**) أى مما تحسبون من أيام الدنيا . وهذا اليوم عبارة عن زمان يتقدر بألف سنة من سِنِي الْعَالَمِ ، وليس بيوم يستوعب نهارا بين ليلتين ؛ لأن ذلك ليس عند الله . والعرب قد تعبر عن مدّة العصر باليوم ؛ كما قال الشاعر :

يومان يومٌ مقامات وأندية * ويومٌ سير إلى الأعداء تأويب^(١)

وليس يريد يومين مخصوصين ، وإنما أراد أن زمانهم ينقسم شطرين ، فعبر عن كل واحد من الشطرين بيوم . وقرأ ابن أبي عملة : « **يَعْرَجُ** » على البناء للفعول . وقرئ : « **يَعُدُّونَ** » بالياء . فأما قوله تعالى : « **فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ** » فمشكل مع هذه الآية . وقد سأل عبد الله بن فيروز الديلمي عبد الله بن عباس عن هذه الآية وعن قوله : « **فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ** » فقال : أيام سماها سبحانه ، وما أدري ما هى ؟ فأكره أن أقول فيها مالا أعلم . ثم سئل عنها سعيد بن المسيّب فقال : لا أدري . فأخبرته بقول ابن عباس فقال ابن المسيّب للسائل : هذا ابن عباس أتق أن يقول فيها وهو أعلم مني . ثم تكلم العلماء في ذلك فقبيل : إن آية « **سَأَلْ سَائِلٌ** » هو إشارة إلى يوم القيامة ، بخلاف هذه الآية . والمعنى : أن الله تعالى جعله في صعودته على الكفار تكمسين ألف سنة ؛ قاله ابن عباس . والعرب تصف أيام المكروه بالطول وأيام السرور بالقصر . قال :

ويوم كظل الرح قصر طوله * دم الزق عنا وأصطفأ المظاهر

وقيل : إن يوم القيامة فيه أيام ؛ فنه ما مقداره ألف سنة ومنه ما مقداره خمسون ألف سنة . وقيل : أوقات القيامة مختلفة ، فيعذب الكافر بجنس من العذاب ألف سنة ، ثم ينتقل إلى جنس آخر مدته خمسون ألف سنة . وقيل : مواقف القيامة خمسون موقفا ، كل موقف ألف سنة . فمعنى : « **يَعْرَجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ** » أى مقدار

(١) البيت لسلامة بن جندل . والتأويب في كلام العرب : سير النهار كله إلى الليل . يقال : أوب الغوم تأويا أى ساروا بالنهار .

وقت ، أو موقف من يوم القيامة . وقال النحاس : اليوم في اللغة بمعنى الوقت ، فالمعنى : تعرج الملائكة والروح إليه في وقت كان مقداره ألف سنة ، وفي وقت آخر كان مقداره خمسين ألف سنة . وعن وهب بن منبه « فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » قال : ما بين أسفل الأرض إلى العرش . وذكر الثعلبي عن مجاهد وقتادة والضحاك في قوله تعالى : « تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » ^(١) أراد من الأرض إلى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى التي فيها جبريل . يقول تعالى : يسير جبريل والملائكة الذين معه من أهل مقامه مسيرة خمسين ألف سنة في يوم واحد من أيام الدنيا . وقوله : (إِلَيْهِ) يعني إلى المكان الذي أمرهم الله تعالى أن يرجوا إليه . وهذا كقول إبراهيم عليه الصلاة والسلام : « إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَاهِدِينَ » أراد أرض الشام . وقال تعالى : « وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَىٰ اللَّهِ » ^(٢) أي إلى المدينة . وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أَنَا نِي مَلِكٌ مِنْ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ بِرِسَالَةٍ ثُمَّ رَفَعَ رِجْلَهُ فَوَضَعَهَا فَوْقَ السَّمَاءِ وَالْأُخْرَىٰ عَلَى الْأَرْضِ لَمْ يَرْفَعْهَا بَعْدَ » .

قوله تعالى : ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾

قوله تعالى : (ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) أي علم ما غاب عن الخلق وما حضرهم . و « ذَلِكَ » بمعنى أنا . حسبما تقدم بيانه في أول البقرة . وفي الكلام معنى التهديد والوعيد ؛ أي اخلصوا أفعالكم وأقوالكم فإني أجازي عليها .

قوله تعالى : الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

(٢) راجع ج ١٥ ص ٩٨ .
(٤) راجع ج ١ ص ١٥٧ فما بعد .

(١) راجع ص ٨٧ و ٨٨ من هذا الجزء .
(٣) راجع ج ١٥ ص ٣٤٧ فما بعد .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر : « خَلَقَهُ » بإسكان اللام . وفتحها الباقون . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم طلبا لسهولتها . وهو فعل ماضٍ في موضع خفض نعت لـ « شيء » . والمعنى على ما روى عن ابن عباس : أحكم كل شيء خلقه ، أى جاء به على ما أراد ، لم يتغير عن إرادته . وقول آخر — أن كل شيء خلقه حسن ؛ لأنه لا يقدر أحد أن يأتي بمثله ؛ وهو دال على خالقه . ومن أسكن اللام فهو مصدر عند سيبويه ؛ لأن قوله : « أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ » يدل على : خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقًا ؛ فهو مثل : « صُنِعَ اللَّهُ ^(١) » و « كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ^(٢) » . وعند غيره منصوب على البديل من « كل » أى الذى أحسن خلق كل شيء . وهو مفعول ثانٍ عند بعض النحويين ، على أن يكون معنى : « أَحْسَنَ » أفهم وأعلم ؛ فيتعدى إلى مفعولين ، أى أفهم كل شى خلقه . وقيل : هو منصوب على التفسير ؛ والمعنى : أحسن كل شىء خلقا . وقيل : هو منصوب بإسقاط حرف الجر ، والمعنى : أحسن كل شىء فى خلقه . وروى معناه عن ابن عباس و ﴿ أَحْسَنَ ﴾ أى أتقن وأحكم ؛ فهو أحسن من جهة ما هو لمقاصده التى أريد لها . ومن هذا المعنى قال ابن عباس وكرمة : ليست أسأت القرد بحسنة ، ولكنها متقنة محكمة . وروى ابن أبى نجيع عن مجاهد « أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ » قال : أتقنه . وهو مثل قوله تبارك وتعالى : « الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ^(٣) » أى لم يخلق الإنسان على خلق البهيمة ، ولا خلق البهيمة [على] خلق الإنسان . ويجوز : « خلقه » بالرفع ؛ على تقدير ذلك خلقه . وقيل : هو عموم فى اللفظ خصوص فى المعنى ؛ والمعنى : حسن خلق كل شىء حسن . وقيل : هو عموم فى اللفظ والمعنى ، أى جعل كل شىء خلقه حسنا ، حتى جعل الكلب فى خلقه حسنا ؛ قاله ابن عباس . وقال قتادة : فى أسأت القرد حسنة .

قوله تعالى : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ يعنى آدم . ﴿ ثُمَّ جَعَلْ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ تقدم فى « المؤمنون » وغيرها . وقال الزجاج : « مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ » ضعيف .

(٢) راجع ج ٥ ص ١٢٠ .

(١) راجع ج ١٣ ص ٢٣٩ فابعد .

(٤) راجع ج ١٢ ص ١٠٩ .

(٣) راجع ج ١١ ص ٢٠٣ فابعد .

وقال غيره : « مَهِينٍ » لا خطر له عند الناس . (ثُمَّ سَوَّاهُ) رجع إلى آدم ، أى سَوَّى خلقه .
 (وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ) ثم رجع إلى ذرئته فقال : (وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ) .
 وقيل : ثم جعل ذلك الماء المَهِينِ خلقا معتدلا ، وركب فيه الروح وأضافه إلى نفسه تشريفا .
 وأيضا فإنه من فعله وخلقه كما أضاف العبد إليه بقوله : « عَبْدِي » . وعبر عنه بالنفخ لأن
 الروح في جنس الريح . وقد مضى هذا مَبِينًا في « النساء » وغيرها . (قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ)
 أى ثم أتم لا تشكرون بل تكفرون .

قوله تعالى : وَقَالُوا إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَأَنَّا لِنَبْنِي خَلْقٍ جَدِيدٍ
 بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : (وَقَالُوا إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ) هذا قول منكرو البعث ؛ أى هلكتنا
 وبطلنا وصرنا ترابا . وأصله من قول العرب : ضلَّ الماء في اللبن إذا ذهب . والعرب تقول
 للشئ غاب عليه غيره حتى خفى فيه أثره : قد ضلَّ . قال الأخطل :

كنت القذى في موج أكر مُزْبِد * قذفت الأتى به فضال ضلالا

وقال قُطْرُب : معنى ضَلَلْنَا غَبْنَا في الأرض . وأنشد قول النابغة الذبياني :

فأب مُضَلَّوه بعين جَلِيَّة * وغودر بالحولان حزم ونائل

وقرأ ابن مُحَيِّصن ويحيى بن يعمر : « ضَلَلْنَا » بكسر اللام ، وهى لغة . قال الجوهري :
 وقد ضللت أضل قال الله تعالى : « قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي » . فهذه لغة نجد
 وهى الفصيحة . وأهل العالية يقولون : « ضَلَلْتُ » — بكسر اللام — أضل . وهو ضال
 تال ، وهى الضلالة والتلالاة . وأضله أى أضاعه وأهلكه . يقال : أضلَّ الميت إذا
 دفن . قال :

* فأب مُضَلَّوه ... * البيت .

(٢) راجع ص ٣١٣ من هذا الجزء .

(١) راجع ج ٦ ص ٢٢ .

ابن السكيت . أضللت بعيرى إذا ذهب منك . وضللت المسجد والدار : إذا لم تعرف موضعهما . وكذلك كل شئ مقيم لا يتهدى له . وفي الحديث "لعلّ أضل الله" يريد أضل عنه ، أى أخفى عليه ، من قوله تعالى : « أَثَدَّا ضَلَّلْنَا فِي الْأَرْضِ » أى خفينا . وأضله الله فضّل ؛ تقول : إنك تهدى الضالّ ولا تهدى المتضال . وقرأ الأعمش والحسن : « ضَلَّلْنَا » بالصاد ؛ أى أَنْتَنَا . وهى قراءة على بن أبى طالب رضى الله عنه . النحاس : ولا يعرف فى اللغة صللتنا ولكن يقال : صلّ اللحم وأصل ، وخمّ وأخمّ إذا اتن . الجوهريّ : صلّ اللحم يصلّ - بالكسر - صلولا ، أى اتن ، مطبوخا كان أو نيئا . قال الخطيب :

ذَٰكَ فَتَىٰ يَبْذُلُ ذَا قَدْرِهِ * لَا يُفْسِدُ اللَّحْمَ لَدَيْهِ الصُّلُولُ

وأصل مثله . (إِنَّا لَنَبِيٍّ خَلَقِي جَدِيدٍ) أى نخلق بعد ذلك خلقا جديدا؟ ويقرأ : «أثنا» . النحاس : وفى هذا سؤال صعب من العربية ؛ يقال : ما العامل فى « إذا » ؟ و « إن » لا يعمل ما بعدها فيما قبلها . والسؤال فى الاستفهام أشد ؛ لأن ما بعد الاستفهام أجدر ؛ ألا يعمل فيما قبله من « إن » كيف وقد اجتمعا . فالجواب على قراءة من قرأ : « إنا » أن العامل « ضَلَّلْنَا » ، وعلى قراءة من قرأ : « أثنا » أن العامل مضمّر ، والتقدير أنبعث إذا متنا . وفيه أيضا سؤال آخر ، يقال : أين جواب « إذا » على القراءة الأولى لأن فيها معنى الشرط ؟ فالقول فى ذلك أن بعدها فعلا ماضيا ؛ فلذلك جاز هذا . (بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ) أى ليس لهم بحسود قدرة الله تعالى عن الإعادة ؛ لأنهم يعترفون بقدرته ولكنهم اعتقدوا أن لا حساب عليهم ، وأنهم لا يلحقون الله تعالى .

قوله تعالى : قُلْ يَتَوَفَّنَا مَلِكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ

رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾

فيه مسألتان :

(١) قوله : « إنا » قراءة نافع ، وعليها جرى المؤلف .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ ﴾ لما ذكر استبعادهم للبعث ذكر توفيقهم وأنه يعيدهم . ﴿ يَتَوَفَّاكُم ﴾ من توفى العدد والشئ إذا استوفاه وقبضه جميعا . يقال : توفاه الله أى استوفى روحه ثم قبضه . وتوفيت مالى من فلان أى استوفيته . ﴿ مَلَكَ الْمَوْتِ ﴾ واسمه عزرائيل ومعناه عبد الله ؛ كما تقدم في « البقرة » . وتصرفه كله بأمر الله تعالى وبخلقه واختراعه . وروى في الحديث أن « البهائم كلها يتوفى الله أرواحها دون ملك الموت » كأنه يعدم حياتها ؛ ذكره ابن عطية .

قلت : وقد روى خلافه ، وأن ملك الموت يتوفى أرواح جميع الخلائق حتى البرغوث والبعوضة . روى جعفر بن محمد عن أبيه قال : نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « ارفق بصاحبي فإنه مؤمن » فقال ملك الموت عليه السلام : « يا محمد ، طيب نفسا وقز عينا فإني بكل مؤمن رفيق . وأعلم أن ما من أهل بيت مدر ولا شعر في بر ولا بحر إلا وأنا أتصفحهم في كل يوم خمس مرات حتى لأنا أعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم . والله يا محمد لو أنى أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الأمر بقبضها » . قال جعفر بن علي : بلغني أنه يتصفحهم عند مواقيت الصلوات ؛ ذكره المساوردي . وذكر الخطيب أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي قال : حدثني أبو محمد الحسن بن محمد الخلال قال : حدثنا أبو محمد عبد الله بن عثمان الصقار قال حدثنا أبو بكر حامد المصري قال حدثنا يحيى بن أيوب العلاف قال حدثنا سليمان بن مهران الكلابي قال : حضرت مالك بن أنس رضي الله عنه فأتاه رجل فسأله : أبا عبد الله ، البراغيث أملك الموت يقبض أرواحها ؟ قال : فاطرق مالك طويلا ثم قال : أها أنفس ؟ قال نعم . قال : ملك الموت يقبض أرواحها ؛ « الله يتوفى الأنفس حين موتها » . قال ابن عطية بعد ذكره الحديث : وكذلك الأمر في بني آدم ، إلا أنه نوع شرف بتصرف ملك وملائكة معه في قبض أرواحهم . نخلق الله تعالى ملك

الموت وخلق على يديه قبض الأرواح ، واستلاها من الأجسام وإخراجها منها . وخلق الله تعالى جندا يكونون معه يعملون عمله بأمره ؛ فقال تعالى : « وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ »^(١) ، وقال تعالى : « تَوَفَّيْتَهُمْ رَسُولَنَا »^(٢) وقد مضى هذا المعنى في « الأنعام » . والبارئ خالق الكل ، الفاعل حقيقة لكل فعل ؛ قال الله تعالى : « اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا » . « الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ »^(٣) . « يُحْيِي وَيُمِيتُ » . فملك الموت يقبض والأعوان يعالجون والله تعالى يزهِق الروح . وهذا هو الجمع بين الآي والأحاديث ؛ لكنه لما كان ملك الموت متولى ذلك بالوساطة والمباشرة أضيف التوفى إليه كما أضيف الخلق للملك ؛ كما تقدم في « الحج »^(٤) . وروى عن مجاهد أن الدنيا بين يدي ملك الموت كالطست بين يدي الإنسان يأخذ من حيث شاء . وقد روى هذا المعنى مرفوعا ، وقد ذكرناه في (كتاب التذكرة) . وروى أن ملك الموت لما وكله الله تعالى بقبض الأرواح قال : رب جعلتني أذ كرسوء ويشتمني بنو آدم . فقال الله تعالى له : « إني أجعل للموت عللا وأسبابا من الأمراض والأسقام ينسبون الموت إليها فلا يذكرك أحد إلا بخير » . وقد ذكرناه في التذكرة مستوفى — وقد ذكرنا أنه يدعو الأرواح فتجيئه ويقبضها ، ثم يسلمها إلى ملائكة الرحمة أو العذاب — بما فيه شفاء لمن أراد الوقوف على ذلك .

الثانية — استدلل بهذه الآية بعض العلماء على جواز الوكالة من قوله : « وَكُلَّ يَوْمٍ »^(٥) أي بقبض الأرواح . قال ابن العربي : « وهذا أخذ من لفظه لامن معناه ، ولو أطرده ذلك لقلنا في قوله تعالى : « قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا » : إنها نيابة عن الله تبارك وتعالى ووكالة في تبليغ رسالته ، ولقلنا أيضا في قوله تبارك وتعالى : « وَأَتُوا الزَّكَاةَ »^(٤) إنه وكالة ؛ فإن الله تعالى ضمن الرزق لكل دابة وخص الأغنياء بالأغذية وأوعز إليهم بأن رزق الفقراء عندهم ، وأمر بتسليمه إليهم مقدارا معلوما في وقت معلوم ، دبره بعلمه ، وأنفذه

(١) راجع ج ٨ ص ٢٨ . (٢) راجع ج ٧ ص ٦ و ص ٩٩ . (٣) راجع ج ١٨ ص ٢٠٦ .

(٤) راجع ج ١٢ ص ٧ و ص ٩٩ . (٥) راجع ج ٧ ص ٣٠١ فما بعد .

من حكمه، وقدره بحكمته . والأحكام لا تتعلق بالألفاظ إلا أن ترد على موضوعاتها الأصلية في مقاصدها المطلوبة، فإن ظهرت في غير مقصدها لم تعلق عليها . ألا ترى أن البيع والشراء معلوم اللفظ والمعنى، وقد قال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ»^(١) ولا يقال: هذه الآية دليل على جواز مبايعة السيد لعبد، لأن المقصدين مختلفان . أما إنه إذا لم يكن بد من المعاني فيقال: إن هذه الآية دليل على أن للقاضي أن يستنبط من يأخذ الحق ممن هو عليه قسراً دون أن يكون له في ذلك فعل، أو يرتبط به رضا إذا وجد ذلك .

قوله تعالى: وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى: (وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ) ابتداء وخبر . قال الزجاج: والمخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم مخاطبة لأُمَّته . والمعنى: ولو ترى يا محمد منكى البعث يوم القيامة لرأيت العجب . ومذهب أبي العباس غير هذا، وأن يكون المعنى: يا محمد، قل للمجرم ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم لندمت على ما كان منك . « نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ » أى من الندم والحزى والحزن والذل والغم . « عِنْدَ رَبِّهِمْ » أى عند محاسبة ربهم وجزاء أعمالهم . « رَبَّنَا » أى يقولون ربنا . « أَبْصَرْنَا » أى أبصرنا ما كنا نكذب . « وَسَمِعْنَا » ما كنا ننكر . وقيل: « أَبْصَرْنَا » صدق وعيدك . « وَسَمِعْنَا » تصديق رسلك . أَبْصَرُوا حين لا ينفعهم البصر، وسمعوا حين لا ينفعهم السمع . « فَارْجِعْنَا » أى إلى الدنيا . « نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ » أى مصدقون بالبعث؛ قاله النقاش . وقيل: مصدقون بالذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم أنه حق؛ قاله يحيى بن سلام . قال سفيان الثوري: فأكذبهم الله تعالى فقال: (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)^(٢) . وقيل: معنى « إِنَّا مُوقِنُونَ » أى قد زالت عنا الشكوك الآن؛ وكانوا يسمعون ويبصرون في الدنيا، ولكن لم يكونوا

(١) راجع ج ٨ ص ٢٦٦ فابعد .

(٢) راجع ج ٦ ص ٤٠٩ فابعد .

يتدبرون ، وكانوا كمن لا يبصرون ولا يسمعون ، فلما تنبهوا في الآخرة صاروا حينئذ كأنهم سمعوا وأبصروا . وقيل : أى ربنا لك الحجة ، فقد أبصرنا رسلك ومعجائب خلقك فى الدنيا ، وسمعنا كلامهم فلا حجة لنا . فهذا اعتراف منهم ، ثم طلبوا أن يردوا إلى الدنيا ليؤمنوا .

قوله تعالى : وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ

مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٤﴾

قال محمد بن كعب القرظى : لما قالوا : « رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ » رد عليهم بقوله : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ يقول : لو شئت لهديت الناس جميعا فلم يختاف منهم أحد ﴿ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي ﴾ الآية ؛ ذكره ابن المبارك فى « رقائقه » فى حديث طويل . وقد ذكرناه فى « التذكرة » . النحاس : « وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا » فى معناه قولان : أحدهما — أنه فى الدنيا . والآخر — أن سياق الكلام يدل على أنه فى الآخرة ؛ أى لو شئنا لرددناهم إلى الدنيا والمحنة كما سألو . « وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » أى حق القول منى لأعدبن من عصانى بنار جهنم . وعلم الله تبارك وتعالى [أنه] لو ردهم لعادوا ؛ كما قال تعالى : « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ » .

وهذه الهداية معناها خلق المعرفة فى القلب . وتأويل المعتزلة : ولو شئنا لأكرهناهم على الهداية بإظهار الآيات الهائلة ، لكن لا يحسن منه فعله ؛ لأنه ينقض الغرض المجبرى بالتكليف إليه وهو الثواب الذى لا يُستحق إلا بما يفعله المكلف باختياره . وقالت الإمامية فى تأويلها : إنه يجوز أن يريد هداها إلى طريق الجنة فى الآخرة ولم يعاقب أحدا ، لكن حق القول منه أنه يملأ جهنم ، فلا يجب على الله تعالى عندنا هداية الكل إليها ؛ قالوا : بل الواجب هداية المعصومين ، فأما من له ذنب فخائر هدايته إلى النار جزاء على أفعاله . وفى جواز ذلك منع ؛ لقطعهم على أن المراد هداها إلى الإيمان . وقد تكلم

العلماء عليهم في هذين التأويلين بما فيه كفاية في أصول الدين . وأقرب ما لهم في الجواب أن يقال: فقد بطل عندنا وعندكم أن يهديهم الله سبحانه على طريق الإلحاء والإجبار والإكراه ، فصار يؤدى ذلك إلى مذهب الجبرية ، وهو مذهب رذل عندنا وعندكم ؛ فلم يبق إلا أن المهتدين من المؤمنين إنما هداهم الله تعالى إلى الإيمان والطاعة على طريق الاختيار حتى يصح التكليف فمن شاء آمن وأطاع اختيارا لا جبرا ؛ قال الله تعالى : « لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ »^(١) ، وقال : « فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا »^(٢) . ثم عقب هاتين الآيتين بقوله تعالى : « وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » . [فوقع إيمان المؤمنين بمشيئتهم ، ونفى أن يشاءوا إلا أن يشاء الله] ؛ ولهذا فترطت الحجة لما رأوا أن هدايتهم إلى الإيمان معذوق بمشيئة الله تعالى ، فقالوا : الخلق مجبورون في طاعتهم كلها ، التفاتاً إلى قوله : « وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » . وفترطت القدرية لما رأوا أن هدايتهم إلى الإيمان معذوق بمشيئة العباد ، فقالوا : الخلق خالقون لأفعالهم ، التفاتاً منهم إلى قوله تعالى : « لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ » . ومذهبنا هو الاقتصاد في الاعتقاد ؛ وهو مذهب بين مذهبي الحجة والقدرية ؛ وخير الأمور أوساؤها . وذلك أن أهل الحق قالوا : نحن نفرق بين ما اضطررنا إليه وبين ما اخترناه ، وهو أننا ندرك تفرقة بين حركة الارتعاش الواقعة في يد الإنسان بغير محاولته وإرادته ولا مقرونة بقدرته ، وبين حركة الاختيار إذا حرك يده حركة مماثلة لحركة الارتعاش ؛ ومن لا يفرق بين الحركتين : حركة الارتعاش وحركة الاختيار ، وهما موجودتان في ذاته ومحسوستان في يده بمشاهدته وإدراك حاسته — فهو معتوه في عقله ومختل في حسه ، وخارج من حزب العقلاء . وهذا هو الحق المبين ، وهو طريق بين طريق الإفراط والتفريط . و :

* كَلَّا طَرَفِي قَصْدَ الْأُمُورِ ذَمِيمٌ^(٤) *

(١) راجع ج ١٩ ص ٢٣٩ فما بعده ص ١٥٠ . (٢) ما بين المربعين ساقط من ج ، ك .

(٣) كذا في نسخ الأصل : « ولعلها مقرونة » . (٤) هذا معجز بيت وصدده :

* ولا تغل في شيء من الأمر واقصد *

وهذا الاعتبار اختار أهل النظر من العلماء أن سموا هذه المنزلة بين المنزلتين كسباً ، وأخذوا هذه التسمية من كتاب الله العزيز، وهو قوله سبحانه: «لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ»^(١) .

قوله تعالى : فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : (فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا) فيه قولان : أحدهما — أنه من النسيان الذي لا ذكر معه ؛ أي لم يعملوا لهذا اليوم فكانوا بمنزلة الناسين . والآخر — أن « نَسِيتُمْ » بما تركتم ، وكذا « إِنَّا نَسِينَاكُمْ » . واحتج محمد بن يزيد بقوله تعالى : « وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَسَى »^(٢) قال : والدليل على أنه بمعنى ترك أن الله عز وجل أخبر عن إبليس أنه قال : « مَا نَهَاكُمُ الرَّبُّ عَنِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا مَلَائِكِينَ »^(٣) فلو كان آدم ناسياً لكان قد ذكره . وأنشد :

كأنه خارجاً من جنب صفحته * سفود شرب نسوه عند مقتاد^(٤)

أى تركوه . ولو كان من النسيان لكان قد عملوا به مرة . قال الضحاك : « نَسِيتُمْ » أى تركتم أمرى . يحيى بن سلام : أى تركتم الإيمان بالبعث فى هذا اليوم . (نَسِينَاكُمْ) تركناكم من الخير ؛ قاله السدى . مجاهد : تركناكم فى العذاب . وفى استئناف قوله : « إِنَّا نَسِينَاكُمْ » وبناء الفعل على « إن » واسمها تشديد فى الانتقام منهم . والمعنى : فذوقوا هذا ؛ أى ما أتم فيه من نكس الرعوس والحزى والغم بسبب نسيان الله . أو ذوقوا العذاب الخلد ، وهو الدائم الذى لا انقطاع له فى جهنم . (بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) يعنى فى الدنيا من المعاصى . وقد يعبر بالذوق عما يطرأ على النفس وإن لم يكن مطعوماً ، لإحساسها به كإحساسها بذوق المطعوم . قال عمر بن أبى ربيعة :

فدق هجرها إن كنت تزعم أنها * فساد ألا يا رب ما كذب الزعم

(١) راجع ج ٣ ص ٤٢٤ فابعد . (٢) راجع ج ١١ ص ٢٥١ . (٣) راجع ج ٧ ص ١٧٧ فابعد .

(٤) السفود : حديدة يشوى عليها اللحم . الشرب (بالفتح) : جماعة القوم يشربون . والمقتاد : موضع النار الذى يشوى فيه . والبيت من معلقة النابغة الذبياني .

الجوهري : وَذُقْتُ مَا عِنْدَ فُلَانٍ ؛ أَي خَبَرْتَهُ . وَذُقْتُ الْقَوْسَ إِذَا جَذِبْتَ وَتَرَاهَا لِتَنْظُرَ مَا شَدَّتْهَا . وَأَذَاقَهُ اللَّهُ وَبَالَ أَمْرِهِ . قَالَ طُفَيْلٌ :

فَذَوْقُوا كَمَا ذُقْنَا ذَمًّا مُحَجَّرًا * مِنَ الْغَيْظِ فِي أَكْبَادِنَا وَالتَّحَوُّبِ
وَتَذَوَّقْتَهُ أَي ذُقْتَهُ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ . وَأَمْرٌ مُسْتَذَاقٌ أَي مُجْتَرَبٌ مَعْلُومٌ . قَالَ الشَّاعِرُ :

وَعَهْدُ الْغَائِيَاتِ كَعَهْدِ قَيْنٍ * وَنَتْ عَنْهُ الْجَمَائِلُ مُسْتَذَاقِ

وَالذَّوْقُ : الْمَلُولُ .

قوله تعالى : إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِعَآئِلَتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا

وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾

هذه تسليمة للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ أَي أَنَّهُمْ لِإِنْفِهِمُ الْكُفْرَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ؛ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِهِ
وَبِالْقُرْآنِ الْمُنْتَدِرُونَ لَهُ وَالْمُنْتَظَرُونَ بِهِ ، وَهُمْ الَّذِينَ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ ﴿ خَرُّوا سُجَّدًا ﴾
قال ابن عباس : رَكْعًا . قال المهدوي : وهذا على مذهب من يرى الركوع عند قراءة السجدة ؛
واستدل بقوله تبارك وتعالى : « وَخَرَّارًا كَعَمَّا وَأَنَابٌ » . وقيل : المراد به السجود ، وعليه
أكثر العلماء ؛ أَي خَرُّوا سُجَّدًا لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى وُجُوهِهِمْ تَعْظِيمًا لِآيَاتِهِ وَخَوْفًا مِنْ سَطْوَتِهِ وَعَذَابِهِ .
﴿ وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ أَي خَلَطُوا التَّسْبِيحَ بِالْحَمْدِ ؛ أَي نَزَّهَوْهُ وَحَمِدُوهُ ؛ فَقَالُوا فِي سَجُودِهِمْ :
سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ ، سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى وَبِحَمْدِهِ ؛ أَي تَنْزِيهِهَا لِلَّهِ تَعَالَى عَنْ قَوْلِ الْمُشْرِكِينَ .
وقال سفيان : « وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ » أَي صَلُّوا حَمْدًا لِرَبِّهِمْ . ﴿ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عَنْ
عبادته ؛ قاله يحيى بن سلام . النقاش : « لَا يَسْتَكْبِرُونَ » كَمَا اسْتَكْبَرُ أَهْلُ مَكَّةَ عَنِ السَّجُودِ .

قوله تعالى : تَجَبَّأْنَ فِي جُنُوبِهِمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا

وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ تَجَبَّأْنَ فِي جُنُوبِهِمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ أَي تَرْتَفِعُ وَتَتَبَوَّأُ عَنْ مَوَاضِعِ الْإِضْطِجَاعِ .

وهو في موضع نصب على الحال ؛ أَي مُتَجَابِئَةً جُنُوبَهُمْ . والمضاجع جمع مضجع ؛ وهي

مواضع النوم . ويحتمل عن وقت الاضطجاع ، ولكنه مجاز ، والحقيقة أولى . ومنه قول
عبد الله بن رَوَاحَة :

وفينا رسول الله يتلو كتابه * إذا انشق معروف من الصبح ساطع

بيت يحافي جنبه عن فراشه * إذا استنقلت بالمشركين المضاجع

قال الزجاج والرَّمَانِيّ : التجافي التنحي الى جهة فوق . وكذلك هو في الصبح عن المخطئ
في سَبِّ ونحوه . والجُنُوب جمع جنب . وفيما تتجافى جنوبهم عن المضاجع لأجله قولان :
أحدهما — لذكر الله تعالى ، إتما في صلاة وإما في غير صلاة ؛ قاله ابن عباس والضحاك .
الثاني — للصلاة . وفي الصلاة التي تتجافى جنوبهم لأجلها أربعة أقوال : أحدها — التنقل
بالليل ؛ قاله الجمهور من المفسرين وعليه أكثر الناس ، وهو الذي فيه المدح ، وهو قول مجاهد
والأوزاعي ومالك بن أنس والحسن بن أبي الحسن وأبي العالية وغيرهم . وبدل عليه قوله
تعالى : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » لأنهم جُوزُوا على ما أخفوا بما خفي .
والله أعلم . وسيأتي بيانه .

وفي قيام الليل أحاديث كثيرة ؛ منها حديث معاذ بن جبل أن النبي صلى الله عليه وسلم
قال له : « أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ : الصَّوْمِ جُنَّةً ، وَالصَّدَقَةِ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ
الْمَاءُ النَّارَ ، وَصَلَاةِ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ — قَالَ ثُمَّ تَلَا — « تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ
— حَتَّى يَبْلُغَ — يَعْمَلُونَ » » أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده والقاضي إسماعيل
ابن إسحاق وأبو عيسى الترمذي ، وقال فيه : حديث حسن صحيح . الثاني — صلاة العشاء
التي يقال لها العتمة ؛ قاله الحسن وعطاء . وفي الترمذي عن أنس بن مالك أن هذه الآية
« تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ » نزلت في انتظار الصلاة التي تُدْعَى الْعَتَمَةَ قال : هذا
حديث حسن غريب . الثالث — التنقل ما بين المغرب والعشاء ؛ قاله قتادة وعكرمة . وروى
أبو داود عن أنس بن مالك أن هذه الآية « تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا
وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » قال : كانوا يتنقلون ما بين المغرب والعشاء . الرابع — قال
الضحاك : تتجافى الجنب ، هو أن يصل الرجل العشاء والصبح في جماعة . وقاله أبو الدرداء وعبادة .

قلت : وهذا قول حسن ، وهو يجمع الأقوال بالمعنى . وذلك أن متيظر العشاء إلى أن يصلبها في صلاة وذكر لله جل وعز ؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : ” لا يزال الرجل في صلاة ما انتظر الصلاة “ . وقال أنس : المراد بالآية انتظار صلاة العشاء الآخرة ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يؤخرها إلى نحو ثلث الليل . قال ابن عطية : وكانت الجاهلية ينامون من أول الغروب ومن أي وقت شاء الإنسان ، بغاء انتظار وقت العشاء غربياً شاقاً . ومصلى الصبح في جماعة لا سيما في أول الوقت ؛ كما كان عليه السلام يصلبها . والعادة أن من حافظ على هذه الصلاة في أول الوقت يقوم سحرّاً يتوضأ ويصلى ويذكر الله عز وجل إلى أن يطلع الفجر ؛ فقد حصل التجافي أول الليل وآخره . يزيد هذا ما رواه مسلم من حديث عثمان بن عفان قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ” من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل ، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما قام الليل كله “ . ولفظ الترمذي وأبي داود في هذا الحديث : ” من شهد العشاء في جماعة كان له قيام نصف ليلة ، ومن صلى العشاء والفجر في جماعة كان له كقيام ليلة “ . وقد مضى في سورة « النور » عن كعب فيمن صلى بعد العشاء الآخرة أربع ركعات كن له بمنزلة ليلة القدر .^(١)

وجاءت آثار حسان في فضل الصلاة بين المغرب والعشاء وقيام الليل . ذكر ابن المبارك قال : أخبرنا يحيى بن أيوب قال حدثني محمد بن المجاج أو ابن أبي المجاج أنه سمع عبد الكريم يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” من ركع عشر ركعات بين المغرب والعشاء بُني له قصر في الجنة “ فقال له عمر بن الخطاب : إذا تكثرت قصورنا وبيوتنا يا رسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” الله أكبر وأفضل — أو قال — أطيب “ . وعن عبد الله بن عمرو بن العاصي قال : صلاة الأتوايين الخلوة التي بين المغرب والعشاء حتى تثوب الناس إلى الصلاة . وكان عبد الله بن مسعود يصلى في تلك الساعة ويقول : صلاة الغفلة بين المغرب والعشاء ؛ ذكره ابن المبارك . ورواه الثعلبي مرفوعاً عن ابن عمر قال قال

(١) راجع ج ١٢ ص ٣٠٨ .

النبي صلى الله عليه وسلم : ” من جَفَّتْ جنباه عن المضاجع ما بين المغرب والعشاء بُني له قصران في الجنة مسيرة عام ، وفيهما من الشجر ما لو نزلها أهل المشرق والمغرب لأوسعتهم فاكهة “ . وهي صلاة الأوابين وغفلة الغافلين . وإن من الدعاء المستجاب الذي لا يرد الدعاء بين المغرب والعشاء .

فصل في فضل التجاني — ذكر ابن المبارك عن ابن عباس قال : إذا كان يوم القيامة نادى مناد : ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم ؛ لِيُقِيمَ الحامدون لله على كل حال ، فيقومون فيسرحون إلى الجنة . ثم ينادى ثانية : ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم ؛ لِيُقِيمَ الذين كانت جنوبهم تتجافى عن المضاجع « يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » . قال : فيقومون فيسرحون إلى الجنة . قال : ثم ينادى ثالثة : ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم ؛ لِيُقِيمَ الذين كانوا « لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ » ، فيقومون فيسرحون إلى الجنة . ذكره الثعالبي مرفوعاً عن أسماء بنت يزيد قال النبي صلى الله عليه وسلم : ” إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة جاء منادٍ فنادى بصوت تسمعه الخلائق كلهم : سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم ، لِيُقِيمَ الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل ، ثم ينادى الثانية ستعلمون اليوم من أولى بالكرم لِيُقِيمَ الذين لا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ فيقومون ، ثم ينادى الثالثة ستعلمون اليوم من أولى بالكرم لِيُقِيمَ الحامدون لله على كل حال في السراء والضراء فيقومون وهم قليل فيسرحون جميعاً إلى الجنة ، ثم يحاسب سائر الناس “ . وذكر ابن المبارك قال أخبرنا معمر عن رجل عن أبي العلاء بن الشَّخِيرِ عن أبي ذر قال : ثلاثة يَضْحَكُ اللهُ إليهم ويستبشر الله بهم : رجل قام من الليل وترك فراشه ودينته ، ثم توضأ فأحسن الوضوء ، ثم قام إلى الصلاة ؛ فيقول الله لملائكته : ” ما حمل عبدى على ما صنع “ فيقولون : ربنا أنت أعلم به منا ؛ فيقول : ” أنا أعلم به ولكن أخبروني “ فيقولون : رَجَبِيته شيئاً فرجاه وخوفته نخافه . فيقول : ” أشهدكم أنى قد أمنتته مما خاف وأوجبت له ما رجاه “ قال : ورجل كان

في سرية فلقى العدو فانهزم أصحابه وثبت هو حتى يُقتل أو يفتح الله عليهم ؛ فيقول الله لملائكته مثل هذه القصة . ورجل سرى في ليلة حتى إذا كان في آخر الليل نزل هو وأصحابه ، فنام أصحابه وقام هو يصلي ؛ فيقول الله لملائكته ... « وذكر القصة .

قوله تعالى : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ في موضع نصب على الحال ؛ أي داعين . ويحتمل أن تكون صفة مستأنفة ؛ أي تُجافي جنوبهم وهم أيضا في كل حال يدعون ربهم ليلاهم ونهارهم . و ﴿ خَوْفًا ﴾ مفعول من أجله . ويجوز أن يكون مصدرا . ﴿ وَطَمَعًا ﴾ مثله ؛ أي خوفا من العذاب وطمعا في الثواب . ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ تكون « ما » بمعنى الذي وتكون مصدرا ، وفي كلا الوجهين يجب أن تكون منفصلة من « من » و « يُنْفِقُونَ » قيل : معناه الزكاة المفروضة . وقيل : النوافل ؛ وهذا القول أمدح .

قوله تعالى : فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً

بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

قرأ حمزة : ﴿ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ ﴾ بإسكان الياء . وفتحها الباقون . وفي قراءة عبد الله « مَا نُخْفِي » بالنون مضمومة . وروى المفضل عن الأعمش « مَا يُخْفِي لَهُمْ » بالياء المضمومة وفتح الفاء . وقرأ ابن مسعود وأبو هريرة : « من قُرَاتِ أَعْيُنٍ » . فمن أسكن الياء من قوله : « مَا أُخْفِيَ » فهو مستقبل وألفه ألف المتكلم . و « ما » في موضع نصب بـ « ما أخفى » وهي استفهام ، والجملة في موضع نصب لوقوعها موقع المفعولين ، والضمير العائد على « ما » محذوف . ومن فتح الياء فهو فعل ماضٍ مبنى للفعل . و « ما » في موضع رفع بالابتداء ، والخبر « أخفى » وما بعده ، والضمير في « أخفى » عائد على « ما » . قال الزجاج : ويقرأ « مَا أُخْفِيَ لَهُمْ » بمعنى ما أخفى الله لهم ؛ وهي قراءة محمد بن كعب ، و « ما » في موضع نصب . المهدي : ومن قرأ : « قُرَاتِ أَعْيُنٍ » فهو جمع قُرَّة ، وحسن الجمع فيه لإضافته إلى جمع ، والإفراد لأنه

مصدر ، وهو اسم للجئس . وقال أبو بكر الأنباري : وهذا غير مخالف للمصحف ؛ لأن تاء « قُزَّة » تكتب تاء على لغة من يجرى الوصل على الوقف ؛ كما كتبوا (رحمت الله) بالتاء . ولا يُستنكر سقوط الألف من « قُرَات » في الخط وهو موجود في اللفظ ؛ كما لم يستنكر سقوط الألف من السموات^(١) وهي ثابتة في اللسان والنطق . والمعنى المراد : أنه أخبر تعالى بما لهم من النعيم الذي لم تعلمه نفس ولا بشر ولا ملك . وفي معنى هذه الآية : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " قال الله عز وجل أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر - ثم قرأ هذه الآية - « نَتَجَاتِي جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمُضَاجِعِ - إلى قوله - بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » " أخرجه الصحيح من حديث مهمل بن سعد الساعدي . وقال ابن مسعود : في التوراة مكتوب : على الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وقال ابن عباس : الأمر في هذا أجل وأعظم من أن يُعرف تفسيره .

قلت : وهذه الكرامة إنما هي لأعلى أهل الجنة منزلاً ؛ كما جاء مبيناً في صحيح مسلم عن المغيرة بن شعبه يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " سأل موسى عليه السلام ربه فقال يارب ما أدنى أهل الجنة منزلة قال هو رجل يأتي بعدما يدخل أهل الجنة الجنة فيقال له ادخل الجنة فيقول أي رب كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم فيقال له أترضى أن يكون لك مثل ملك ملك من ملوك الدنيا فيقول رضيتُ رب فيقول لك ذلك ومثله ومثله معه ومثله ومثله ومثله ومثله فقال في الخامسة رضيتُ رب فيقال هذا لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتيت نفسك ولذت عينك فيقول رضيتُ رب قال رب فأعلاهم منزلة قال أولئك الذين أردتُ غرست^(٢) كرامتهم بيدي وختمتُ عليها فلم ترعين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر - قال - ومصدأقه من كتاب الله قوله تعالى : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ

(١) في بعض النسخ : « المسلمات » .

(٢) قال النووي : « أما أردت فبضم التاء ، ومعناه اخترت واصطفت . وأما غرست كرامتهم بيدي الخ فعناه اصطفتهم وتوليتهم فلا يتطرق إلى كرامتهم تغيير » .

مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ بَرَاءٍ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وقد روى عن المغيرة موقوفا قوله . وخرج مسلم أيضا عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” يقول الله تبارك وتعالى أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ذُرْخًا بَلَهَ مَا أَطَّلَعَكُمْ عَلَيْهِ — ثم قرأ — « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » . وقال ابن سيرين : المراد به النظر إلى الله تعالى . وقال الحسن : أخفى القوم أعمالا فأخفى الله تعالى لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت .

قوله تعالى : أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾ أى ليس المؤمن كالفاسق ؛ فهذا آتينا هؤلاء المؤمنين الثواب العظيم . قال ابن عباس وعطاء بن يسار : نزلت الآية فى علي بن أبي طالب والوليد بن عُقبَة بن أبي مُعَيْط ؛ وذلك أنهما تلاحيا فقال له الوليد : أنا أبسط منك لسانا وأحد سينانا وأرد للكتيبة — وروى وأملأ فى الكتيبة — جسدا . فقال له علي : اسكت ! فإنك فاسق ؛ فنزلت الآية . وذكر الزجاج والنحاس أنها نزلت فى علي وعقبَة بن أبي مُعَيْط . قال ابن عطية : وعلى هذا يلزم أن تكون الآية مكية ؛ لأن عقبَة لم يكن بالمدينة ، وإنما قُتل فى طريق مكة مُنصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدر . ويعترض القول الآخر بإطلاق أسم الفسق على الوليد . وذلك يحتمل أن يكون فى صدر إسلام الوليد لشيء كان فى نفسه ، أو لما روى من نقله عن بنى المُصْطَلِق ما لم يكن ، حتى نزلت فيه : « إِنَّ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبِيٍّ فَتَّبِعُونَاهُ » على ما يأتى فى الحجرات بيانه . ويحتمل أن تطلق الشريعة ذلك عليه ؛ لأنه كان على طرف مما يبغي ، وهو الذى شرب الخمر فى زمن

(١) بله : من أسماء الأفعال ، وهى مبنية على الفتح مثل كيف ، ومعناها : دع عنكم ما أطلعكم عليه ؛ فالذى

لم يطلعكم أعظم ؛ وكأنه أضرب عنه استقلاله فى جنب ما لم يطلع عليه . (شرح النووى) .

(٢) الملاحاة : المقابلة والمخاصمة . (٣) راجع ج ١٦ ص ٣١١ .

(٢) الملاحاة : المقابلة والمخاصمة .

عثمان رضى الله عنه ، وصلى الصبح بالناس ثم التفت وقال : أتريدون أن أزيدكم ، ونحو هذا مما يطول ذكره .

الثانية - لما قسم الله تعالى المؤمنين والفاسقين الذين فسقهم بالكفر - لأن التكذيب في آخر الآية يقتضى ذلك - اقتضى ذلك نفي المساواة بين المؤمن والكافر ؛ ولهذا منع القصاص بينهما ؛ إذ من شرط وجوب القصاص المساواة بين القاتل والمقتول . وبذلك احتج علماءنا على أبي حنيفة في قتله المسلم بالذمى . وقال : أراد نفي المساواة هاهنا في الآخرة في الثواب وفي الدنيا في العدالة . ونحن حملناه على عمومه ، وهو أصح ، إذ لا دليل يخصه ؛ قاله ابن العربي .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوُونَ ﴾ قال الزجاج وغيره : « مَنْ » يصلح للواحد والجمع . النحاس : لفظ « مَنْ » يؤدى عن الجماعة ؛ فلهذا قال : « لَا يَسْتَوُونَ » ؛ هذا قول كثير من النحويين . وقال بعضهم : « لَا يَسْتَوُونَ » لاثنين ؛ لأن الاثنين جمع ، لأنه واحد جمع مع آخر . وقاله الزجاج أيضا . والحديث يدل على هذا القول ؛ لأنه عن ابن عباس . وغيره قال : نزلت « أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا » في علي بن أبي طالب رضى الله عنه ، « كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا » في الوليد بن عتبة بن أبي معيط . وقال الشاعر :

ليس الموت بينهما سواء * إذا ماتوا وصاروا في القبور

قوله تعالى : أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيهِمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ ﴾ أخبر عن مقر الفريقين غدا ؛ فالمدومنين جنات المأوى ، أى ياوون إلى الجنات ؛ فأضاف الجنات إلى المأوى لأن ذلك

الموضع يتضمن جنات . (نُزُلًا) أى ضيافة . والنُّزْلُ : ما يُهَيَّأُ لِلنَّازِلِ وَالضَّيْفُ . وقد مضى في آخر « آل عمران » وهو نصب على الحال من الجنات ؛ أى لهم الجنات معدة ، ويجوز أن يكون مفعولا له . (وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا) أى خرجوا عن الإيمان إلى الكفر (فَأَوَاهُمُ النَّارُ) أى مقامهم فيها . (كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا) أى إذا دفعهم لهب النار إلى أعلاها رَدُّوا إِلَى مَوْضِعِهِمْ فِيهَا ، لأنهم يطمعون في الخروج منها . وقد مضى هذا في « الحج » . (وَقِيلَ لَهُمْ) أى يقول لهم خزنة جهنم . أو يقول الله لهم : (ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ) والذوق يُسْتَعْمَلُ مُحْسوسًا وَمَعْنَى . وقد مضى في هذه السورة بيانه .

قوله تعالى : وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : (وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى) قال الحسن وأبو العالية والضحاك وأبي بن كعب وإبراهيم النخعي : العذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها مما يُبْتَلَى بِهِ الْعَبِيدُ حَتَّى يَتَوَبُّوا ؛ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ . وَعَنْهُ أَيْضًا أَنَّهُ الْحُدُودُ . وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَالْحَسَنِ بْنُ عَلِيٍّ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَارِثِ : هُوَ الْقَتْلُ بِالسَّيْفِ يَوْمَ بَدْرٍ . وَقَالَ مِقَاتِلُ : الْجُوعُ سَبْعَ سِنِينَ بِمَكَّةَ حَتَّى أَكَلُوا الْجِيْفَ ؛ وَقَالَ مُجَاهِدٌ . وَعَنْهُ أَيْضًا : الْعَذَابُ الْأَدْنَى عَذَابُ الْقَبْرِ ؛ وَقَالَ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ . قَالُوا : وَالْأَكْبَرُ عَذَابُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ . قَالَ الْقَشِيرِيُّ : وَقِيلَ عَذَابُ الْقَبْرِ . وَفِيهِ نَظَرٌ لِقَوْلِهِ : « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » . قَالَ : وَمَنْ حَمَلَ الْعَذَابَ عَلَى الْقَتْلِ قَالَ : « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أى يرجع من بقى منهم . ولا خلاف أن العذاب الأكبر عذاب جهنم ؛ إلا ما روى عن جعفر بن محمد أنه نروج المهدي بالسيف . والأدنى غلاء السعير . وقد قيل : إن معنى قوله : « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » على قول مجاهد والبراء : أى لعلهم يريدون الرجوع ويطلبونه ؛

(٢) راجع ج ١٢ ص ٢٧ .

(١) راجع ج ٤ ص ٢٢١ .

(٣) راجع ص ٩٨ و ٩٩ من هذا الجزء .

كقوله: «فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا»^(١) . وَسُمِّيتْ لإرادة الرجوع رجوعاً كما سُمِّيتْ لإرادة القيام قياماً في قوله تعالى: «إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ»^(٢) . ويدل عليه قراءة من قرأ: «يُرْجَعُونَ» على البناء للفعول ؛ ذكره الزمخشري .

قوله تعالى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا^ج
إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى: (وَمَنْ أَظْلَمُ) أى لا أحد أظلم لنفسه . (مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ) أى بحججه وعلاماته . (ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا) بترك القبول . (إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ) لتكذيبهم وإعراضهم .

قوله تعالى: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ^ط وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ) أى فلا تكن يا محمد في شك من لقاء موسى ؛ قاله ابن عباس . وقد لقيه ليلة الإسراء . قتادة : المعنى فلا تكن في شك من أنك لقيته ليلة الإسراء . والمعنى واحد . وقيل : فلا تكن في شك من لقاء موسى في القيامة ، وستلقاه فيها . وقيل : فلا تكن في شك من لقاء موسى الكتاب بالقبول ؛ قاله مجاهد والزجاج . وعن الحسن أنه قال في معناه : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ » فأوذى وكذب ، فلا تكن في شك من أنه سيلقاك ما لقيه من التكذيب والأذى ؛ فالهاء عائدة على محذوف ، والمعنى من لقاء ما لاقى . النحاس : وهذا قول غريب ، إلا أنه من رواية عمرو

(٢) راجع ج ٦ ص ٨٠ فابعد .

(١) راجع ص ٩٥ من هذا الجزء .

ابن عبيد . وقيل في الكلام تقديم وتأخير؛ والمعنى : قل يتوفاكم ملك الموت الذى وُكِّلَ بكم فلا تكن في مِرية من لفائه ؛ بقاء معترضا بين « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ » وبين « وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ » . والضمير في « وَجَعَلْنَاهُ » فيه وجهان : أحدهما - جعلنا موسى ؛ قاله قتادة . الثانى - جعلنا الكتاب ؛ قاله الحسن . (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً) أى قادة وقُدوة يُقتدى بهم في دينهم . والكوفيون يقرءون « أُمَّةً » النحاس : وهو لحن عند جميع النحويين ؛ لأنه جمع بين همزتين في كلمة واحدة ، وهو من دقيق النحو .

وشرحه : أن الأصل « أُمَّةً » ثم ألقيت حركة الميم على الهمزة وأدغمت الميم ، وخففت الهمزة الثانية لئلا يجتمع همزتان ، والجمع بين همزتين في حرفين بعيد ؛ فأما في حرف واحد فلا يجوز إلا تخفيف الثانية نحو قولك : آدم وآخر . ويقال : هذا أوم من هذا وأيم ؛ بالواو والياء . وقد مضى هذا في « براءة » والله تعالى أعلم . (يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا) أى يدعون الخلق إلى طاعتنا . (بِأَمْرِنَا) أى أمرناهم بذلك . وقيل : « بِأَمْرِنَا » أى لأمرنا ؛ أى يهدون الناس لديننا . ثم قيل : المراد الأنبياء عليهم السلام ؛ قاله قتادة . وقيل : المراد الفقهاء والعلماء . (لَمَّا صَبَرُوا) قراءة العامة « لَمَّا » بفتح اللام وتشديد الميم وفتحها ؛ أى حين صبروا . وقرا يحيى وحمزة والكسائى وخلف ورويس عن يعقوب : « لَمَّا صَبَرُوا » أى لصبرهم جعلناهم أمة . واختاره أبو عبيد اعتبارا بقراءة ابن مسعود « بَمَّا صَبَرُوا » بالباء . وهذا الصبر صبر على الدين وعلى البلاء . وقيل : صبروا عن الدنيا . (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصَلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) أى يقضى ويحكم بين المؤمنين والكفار، فيجازى كلًّا بما يستحق . وقيل : يقضى بين الأنبياء وبين قومهم ؛ حكاة النقاش .

قوله تعالى : **أَوْ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَرَّ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ** ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي وقاتادة وأبو زيد عن يعقوب « نَهْدِ لَهُمْ » بالنون ؛ فهذه قراءة بينة . النحاس : وبالياء فيها إشكال ؛ لأنه يقال : الفعل لا يخلو من فاعل ، فأين الفاعل لـ « يهد » ؟ فتكلم النحويون في هذا ؛ فقال الفراء : « كَمْ » في موضع رفع بـ « يهد » . وهذا نقض لأصول النحويين في قولهم : إن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله ولا في « كَمْ » بوجه ؛ أعنى ما قبلها . ومذهب أبي العباس أن « يهد » يدل على الهدى ؛ والمعنى أولم يهد لهم الهدى . وقيل : المعنى أولم يهد الله لهم ؛ فيكون معنى الياء والنون واحدا ؛ أي أولم نُبِّئ لهم إهلاك القرون الكافرة من قبلهم . وقال الزجاج : « كَمْ » في موضع نصب بـ « أَهْلَكَا » . ﴿ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ ﴾ يحتمل الضمير في « يَمْشُونَ » أن يعود على المشاين في مساكن المهلكين ؛ أي وهؤلاء يمشون ولا يعتبرون . ويحتمل أن يعود على المهلكين فيكون حالا ؛ والمعنى : أهلكتهم ماشين في مساكنهم . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ آيات الله وعظاته فيتعظون .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ (٢٧)

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ أي أولم يعلموا كمال قدرتنا بسوقنا الماء إلى الأرض اليابسة التي لا نبات فيها لنحييها . الرَّحْمَشِيُّ : الجُرُزُ الأرض التي جُرِزَ نباتها ، أي قُطِعَ ؛ إما لعدم الماء وإما لأنه رُعي وأزيل . ولا يقال للتي لا تنبت كالسباخ جُرُز ؛ ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا ﴾ قال ابن عباس : هي أرض باليمن . وقال مجاهد : هي أبين . وقال عكرمة : هي الأرض الظمأى . وقال الضحاك : هي الأرض الميتة العطشى . وقال الفراء : هي الأرض التي لا نبات فيها . وقال الأصمعي : هي الأرض التي لا تنبت شيئا . وقال محمد بن يزيد : يبعد أن تكون لأرض بعينها لدخول الألف واللام ؛ إلا أنه يجوز على قول من قال : العباس والضحاك . والإسناد

عن ابن عباس صحيح لا مطعن فيه . وهذا إنما هو نعت والنعته للعرفة يكون بالألف واللام ، وهو مشتق من قولهم : رجل جروز إذا كان لا يبق شيئاً إلا أكله . قال الرازي :

خَبَّ جَرُوزٌ وَإِذَا جَاعَ بَكَى * وَيَأْكُلُ التَّمْرَ وَلَا يُلْقِي النَّوَى

وكذلك ناقة جروز : إذا كانت تأكل كل شيء تجده . وسيف جراز : أى قاطع ماض .
وجرّز الجراد الزرع : إذا استأصلته بالأكل . وحكى الفراء وغيره أنه يقال : أرض جرّز
وجرّز وجرّز وجرّز . وكذلك بخل ورغب ورهب ؛ فى الأربعة أربع لغات . وقد روى
أن هذه الأرض لا أنهار فيها ، وهى بعيدة من البحر ، وإنما يأتها فى كل عام ودان فيزرعون
ثلاث مرات فى كل عام . وعن مجاهد أيضا : أنها أرض النيل . (فَتُخْرَجُ بِهِ) أى بالماء .
(زَرَعَاتًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ) من الكلاب والحشيش . (وَأَنْفُسُهُمْ) من الحب والخضر
والفواكه . (أَفَلَا يَبْصُرُونَ) هذا فيعلمون أنا نقدر على إعادتهم . و « فَتُخْرَجُ » يكون
معطوفا على « تَسْوِقُ » أو منقطعا مما قبله . « تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ » فى موضع نصب
على النعت .

قوله تعالى : وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾

قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) « متى » فى موضع
رفع ، ويجوز أن يكون فى موضع نصب على الظرف . قال قتادة : الفتح القضاء . وقال
الفراء والقشيري : يعنى فتح مكة . وأولى من هذا ما قاله مجاهد ، قال : يعنى يوم القيامة .
ويروى أن المؤمنين قالوا : سيحكم الله عز وجل بيننا يوم القيامة فيثيب المحسن ويعاقب
المسيء . فقال الكفار على التهزىء : متى يوم الفتح ، أى هذا الحكم . ويقال للحاكم :
فاتح وفتاح ؛ لأن الأشياء تنفتح على يديه وتنفصل . وفى القرآن : « رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ

(١) قَوْمِنَا بِالْحَقِّ « وقد مضى هذا في « البقرة » وغيرها . (قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ) على الظرف .
وأجاز الفراء الرفع . (لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ) أى يؤخرون ويمهلون
للتوبة ؛ إن كان يوم الفتح يوم بدر أو فتح مكة . ففى بدر قُتلوا ، ويوم الفتح هربوا فلاحقهم
خالد بن الوليد فقتلهم .

قوله تعالى : فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَأَنْتَظِرُ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : (فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ) قيل : معناه فأعرض عن سفههم ولا تجهم
إلا بما أمرت به . (وَأَنْتَظِرُ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ) أى انتظر يوم الفتح ، يوم يحكم الله لك عليهم .
ابن عباس : « فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ » أى عن مشركى قريش مكة ، وأن هذا منسوخ بالسيف
فى « براءة » فى قوله : « فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ » . « وَأَنْتَظِرُ » أى موعدى
لك . قيل : يعنى يوم بدر . (إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ) أى ينتظرون بكم حوادث الزمان . وقيل :
الآية غير منسوخة ؛ إذ قد يقع الإعراض مع الأمر بالقتال كالهذنة وغيرها . وقيل : أعرض
عنهم بعد ما بلغت الحجة ، وانتظر إنهم منتظرون . إن قيل : كيف ينتظرون القيامة وهم
لا يؤمنون ؟ ففى هذا جوابان : أحدهما — أن يكون المعنى إنهم منتظرون الموت وهو من
أسباب القيامة ؛ فيكون هذا مجازا . والآخر — أن فيهم من يشك وفيهم من يؤمن بالقيامة ؛
فيكون هذا جوابا لهذين الصنفين . والله أعلم . وقرأ ابن السَّمِيعِ : « إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ » بفتح
الظاء . ورويت عن مجاهد وابن عُيَيْنِ . قال الفراء : لا يصح هذا إلا بإضمار ، مجازه : إنهم
منتظرون بهم . قال أبو حاتم : الصحيح الكسر ؛ أى أنتظر عذابهم إنهم منتظرون هلاكك .
وقد قيل : إن قراءة ابن السَّمِيعِ (بفتح الظاء) معناها : وانتظر هلاكهم فإنهم أحقاء
بأن يُنتظر هلاكهم ؛ يعنى أنهم هالكون لا محالة ، وانتظر ذلك فإن الملائكة فى السماء ينتظرونه ؛
ذكرة الزنجشبرى . وهو معنى قول الفراء . والله أعلم .

(١) راجع ج ٧ ص ٢٥٠ فابعد .

(٢) راجع ج ٢ ص ٣ فابعد .

(٣) فى ش : « همزوا » .

(٤) راجع ج ٧ ص ٧٢ .

سورة الأحزاب

مدنية في قول جميعهم . نزلت في المنافقين وإبذائهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وطعنهم فيه وفي مناكحته وغيرها . وهي ثلاث وسبعون آية . وكانت هذه السورة تعدل سورة البقرة . وكانت فيها آية الرجم : (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما الجبنة نكالا من الله والله عزيز حكيم) ؛ ذكره أبو بكر الأنباري عن أبي بن كعب . وهذا يجعله أهل العلم على أن الله تعالى رفع من الأحزاب إليه ما يزيد على ما في أيدينا ، وأن آية الرجم رفع لفظها . وقد حدثنا أحمد بن الهيثم بن خالد قال حدثنا أبو عبيد القاسم بن سلام قال حدثنا ابن أبي مريم عن ابن لميعة عن أبي الأسود عن عروة عن عائشة قالت : كانت سورة الأحزاب تعدل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مائتي آية ، فلما كتبت المصحف لم يقدر منها إلا على ما هي الآن . قال أبو بكر : فعنى هذا من قول أم المؤمنين عائشة : أن الله تعالى رفع إليه من سورة الأحزاب ما يزيد على ما عندنا .

قلت : هذا وجه من وجوه النسخ ، وقد تقدم في «البقرة» القول فيه مستوفى والحمد لله . وروى زر قال قال لي أبي بن كعب : كم تعدون سورة الأحزاب ؟ قلت : ثلاثا وسبعين آية ؛ قال : فوالذي يخلف به أبي بن كعب أن كانت لتعدل سورة البقرة أو أطول ، واقد قرأنا منها آية الرجم : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما الجبنة نكالا من الله والله عزيز حكيم . أراد أبي أن ذلك من جملة ما نسخ من القرآن . وأما ما يحكى من أن تلك الزيادة كانت في صحيفة في بيت عائشة فاكلتها الداجن فمن تأليف الملاحدة والروافض .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَالِمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

(١) راجع ج ٢ ص ٦١ فإ بعد .

قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ) حُتِّمَتْ «أى» لأنه نداء مفرد، والتنبيه لازم لها .
 و « النبي » نعت لأى عند النحويين ؛ إلا الأخفش فإنه يقول : إنه صيغة لأى . مكى :
 ولا يُعرف في كلام العرب اسم مفرد صيغة لشيء . النحاس : وهو خطأ عند أكثر النحويين ؛
 لأن الصيغة لا تكون إلا جملة ، والاحتيال له فيما قال أنه لما كان نعتا لازما سُمِّيَ صيغة ؛
 وهكذا الكوفيون يسمون نعت النكرة صيغة لها . ولا يجوز نصبه على الموضع عند أكثر
 النحويين . وأجازه المازنى ، جعله كقولك : يا زيد الظريف ، بنصب « الظريف » على
 موضع زيد . مكى : وهذا نعت يستغنى عنه ، ونعت « أى » لا يستغنى عنه فلا يحسن نصبه
 على الموضع . وأيضا فإن نعت « أى » هو المنادى في المعنى فلا يحسن نصبه . وروى أن
 رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة وكان يحب إسلام اليهود : قُرِظَةُ والنَّضِيرُ
 وبنى قَيْتُقَاعَ ؛ وقد تابعه ناس منهم على النفاق ، فكان يُلِين لهم جانبَه ؛ ويكرم صغيرهم وكبيرهم ،
 وإذا أتى منهم قبيح تجاوز عنه ، وكان يسمع منهم ؛ فنزلت . وقيل ؛ إنها نزلت فيما ذكر الواحدى
 والقشيري والثعلبي والمأوردى وغيرهم في أبي سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبي الأعور
 عمرو بن سفيان ، نزلوا المدينة على عبد الله بن أبي سلول رأس المنافقين بعد أحد ، وقد
 اعطاهم النبي صلى الله عليه وسلم الأمان على أن يكلموه ، فقام معهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح
 وطُعْمَةُ بن أُبَيْرِقٍ ، فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم وعنده عمر بن الخطاب : ارفض ذكر آلهتنا
 اللات والعزى ومناة ، وقل إن لها شفاعة ومنعة لمن عبدها ، وتدعك وربك . فشق على النبي
 صلى الله عليه وسلم ما قالوا . فقال عمر : يا رسول الله ائذن لي في قتلهم . فقال النبي صلى الله
 عليه وسلم : " إني قد أعطيتهم الأمان " فقال عمر : اخرجوا في لعنة الله وغضبه . فأمر النبي
 صلى الله عليه وسلم أن يخرجوا من المدينة ؛ فنزلت الآية . (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ) أى خَفِ اللَّهَ .
 (وَلَا تَطِيعِ الْكَافِرِينَ) من أهل مكة ؛ يعنى أبا سفيان وأبا الأعور وعكرمة . (وَالْمُنَافِقِينَ)
 من أهل المدينة ؛ يعنى عبد الله بن أبي وطُعْمَةُ وعبد الله بن سعد بن أبي سرح فيما نُهِيت عنه ،

(١) في جرك : « بابه » . (٢) في الأصول : « عمر » . (٣) في أسباب النزول : « ومنفعة » .

ولا تمل إليهم . (**إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا**) بكفرهم (**حَكِيمًا**) فيما يفعل بهم . الزمخشري : وروى أن أبا سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبا الأور السلمي قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم في الموادة التي كانت بينه وبينهم ، وقام معهم عبد الله بن أبي - ومعتب بن قشير والحد بن قيس ، فقالوا الرسول الله صلى الله عليه وسلم : ارفض ذكر آلهتنا . وذكر الخبر بمعنى ما تقدم . وأن الآية نزلت في نقض العهد ونبذ الموادة . « **وَلَا تَطِيعُ الْكَافِرِينَ** » من أهل مكة . « **وَالْمُنَافِقِينَ** » من أهل المدينة فيما طلبوا إليك . وروى أن أهل مكة دعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن يرجع عن دينه ويمطوه شطر أموالهم ، ويؤوجه شبيبة بن ربيعة بنته ، وخوفه منافقو المدينة أنهم يقتلونه إن لم يرجع ، فنزلت . النحاس : ودل بقوله « **إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا** » على أنه كان يميل إليهم استدعاء لهم إلى الإسلام ، أي لو علم الله عز وجل أن ميلك إليهم فيه منفعة لما نهاك عنه ، لأنه حكيم . ثم قيل : الخطاب له ولأمته .

قوله تعالى : **وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ** إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا

تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢٠﴾ **وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٢١﴾

قوله تعالى : (**وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ**) يعني القرآن . وفيه زجر عن اتباع مراسم الجاهلية ، وأمر بجهادهم ومنابتهم ، وفيه دليل على ترك اتباع الآراء مع وجود النص . والخطاب له ولأمته . (**إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**) قراءة العامة بتاء على الخطاب ، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم . وقرأ السلمي وأبو عمرو وابن أبي إسحاق : « **يَعْمَلُونَ** » بالياء على الخبر ، وكذلك في قوله : « **بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا** » . (**وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ**) أي اعتمد عليه في كل أحوالك ، فهو الذي يمنعك ولا يضررك من خذلك . (**وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا**) حافظا . وقال شيخ من أهل الشام : قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وفد من ثقيف فطلبوا منه أن يمتعهم باللات سنة - وهي الطاغية التي كانت ثقيف تعبدوها - وقالوا : لتعلم قريش . نزلنا عندك ، فهم

النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ، فنزلت « وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا » أى كافيًا لك ما تخافه منهم . و « بِاللَّهِ » فى موضع رفع لأنه الفاعل . و « وَكِيلًا » نصب على البيان أو الحال .

قوله تعالى : مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤١﴾
فيه خمس مسائل :

الأولى — قال مجاهد : نزلت فى رجل من قريش كان يدعى ذا القلبين من دهائه ، وكان يقول : إن لى فى جوفى قلبين ، أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل مجد . قال : وكان من فُهر . الواحدى والقشبرى وغيرهما : نزلت فى جميل بن معمر الفهري ، وكان رجلا حافظا لما يسمع . فقالت قريش : ما يحفظ هذه الأشياء إلا وله قلبان . وكان يقول : لى قلبان أعقل بهما أفضل من عقل مجد . فلما هُزم المشركون يوم بدر ومعهم جميل بن معمر ، رآه أبو سفيان فى العير وهو معلق إحدى نعليه فى يده والأخرى فى رجله ؛ فقال أبو سفيان : ما حال الناس ؟ قال انهزموا . قال : فما بال إحدى نعليك فى يدك والأخرى فى رجلك ؟ قال : ما شعرت إلا أنهما فى رجلى ؛ فعرفوا يومئذ أنه لو كان له قلبان لما نسى نعليه فى يده . وقال السهيلي : كان جميل بن معمر الجُمحى ، وهو ابن معمر ابن حبيب بن وهب بن حذافة بن جُمح ، واسم جمع : تيم ؛ وكان يدعى ذا القلبين فنزلت فيه الآية ، وفيه يقول الشاعر :

وكيف ثوائى بالمدينة بعد ما * قضى وطراً منها جميل بن معمر

قالت : كذا قالوا جميل بن معمر . وقال الزمخشري : جميل بن أسد الفهري . وقال ابن عباس : سبها أن بعض المنافقين قال : إن محمدا له قلبان ؛ لأنه ربما كان فى شىء فترع

في غيره نزعاً ثم عاد إلى شأنه الأول ؛ فقالوا ذلك عنه فأكذبهم الله عز وجل . وقيل : نزلت في عبد الله بن خَظَل . وقال الزهري وابن حبان : نزل ذلك تمثيلاً في زيد بن حارثة لما تبناه النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فالمعنى : كما لا يكون لرجل قبايا كذلك لا يكون ولد واحد لرجلين . قال النحاس : وهذا قول ضعيف لا يصح في اللغة ، وهو من منقطعات الزهري ، رواه معمر عنه . وقيل : هو مثل ضرب للظاهر ؛ أي كما لا يكون للرجل قبايا كذلك لا تكون امرأة المظاهر أمه حتى تكون له أمان . وقيل : كان الواحد من المنافقين يقول : لي قلب يأمرني بكذا ، وقلب يأمرني بكذا ؛ فالمنافق ذو قلبين ؛ فالمقصود رد النفاق . وقيل : لا يجتمع الكفر والإيمان بالله تعالى في قلب ، كما لا يجتمع قلبان في جوف ؛ فالمعنى : لا يجتمع اعتقادان متغايران في قلب . ويظهر من الآية بجماتها نفى أشياء كانت العرب تعتقدها في ذلك الوقت ، وإعلام بحقيقة الأمر ، والله أعلم .

الثانية - القلب بضعة صغيرة على هيئة الصنوبرة ، خلقها الله تعالى في آدمي وجعلها محلاً للعلم ، فيحصى به العبد من العلوم ما لا يسع في أسفار ، يكتبه الله تعالى فيه بالخط الإلهي ، ويضبطه فيه بالحفظ الزباني ، حتى يحصيه ولا ينسى منه شيئاً . وهو بين لمتين : لمة من الملك ، ولمة من الشيطان ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم . خرجه الترمذي ، وقد مضى في « البقرة » . وهو محل الخطرات والوساوس ومكان الكفر والإيمان ، وموضع الإصرار والإنابة ، ومجرى الانزعاج والطمأنينة . والمعنى في الآية : أنه لا يجتمع في القلب الكفر والإيمان ، والهدى والضلال ، والإنابة والإصرار ؛ وهذا نفى لكل ما توهمه أحد في ذلك من حقيقة أو مجاز ، والله أعلم .

الثالثة - أعلم الله عز وجل في هذه الآية أنه لا أحد بقلبين ، ويكون في هذا طعن على المنافقين الذين تقدم ذكرهم ؛ أي إنما هو قلب واحد ، فإذا فيه إيمان وإنما فيه كفر ؛ لأن

(١) البضعة (بالفتح وقد تكسر) القطعة من اللحم . (٢) اللمة (بالفتح) اللمة والخطرة تقع في القلب . (٣) راجع ج ١ ص ١٨٧ فما بعد . (٤) في بعض النسخ : « والطمأنينة والاعتدال » .

درجة النفاق كأنها متوسطة ، فنفاها الله تعالى وبين أنه قلب واحد . وعلى هذا النحو يستشهد الإنسان بهذه الآية ، متى نسى شيئاً أو وهم . يقول على جهة الاعتذار : ما جعل الله لرجل من قلوبين في جوفه .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ يعني قول الرجل لأمراته : أنتِ عليّ كظهور أمتي . وذلك مذكور في سورة « المجادلة » على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ أجمع أهل التفسير على أن هذا نزل في زيد بن حارثة . وروى الأئمة أن ابن عمر قال : ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد ابن محمد حتى نزلت : « أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ » وكان زيد فيما روى عن أنس ابن مالك وغيره مسيئاً من الشام ، سبته خيل من تهامة ، فأبتاعه حكيم بن حزام بن خويلد ، فوهبه لعمته خديجة فوهبته خديجة للنبي صلى الله عليه وسلم فأعتقه وتبناه ، فأقام عنده مائة ، ثم جاء عمه وأبوه يرغبان في فدائه ، فقال لهما النبي صلى الله عليه وسلم ذلك قبل البعث : « خَيْرَاهُ فَإِنْ آخْتَارَكَا فَهُوَ لِكَمَا دُونَ فِدَاءٍ » . فأختار الرق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على حرّيته وقومه ، فقال محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك : « يامعشر قريش اشهدوا أنه أبني يرثني وأرثه » وكان يطوف على حلق قريش يشهدهم على ذلك ، فرضى ذلك عمه وأبوه وانصرفا . وكان أبوه لما سبي يدور الشام ويقول :

بكيْتُ على زيدٍ ولم أدْرِ ما فعل * أحيّ فيرْجى أم أتى دونه الأجل

فوالله لا أدري وإني لسائل * أغالك بعدي السهل أم غالك الجبل

فيا ليت شعري ! هل لك الدهر أوبة * فحسبي من الدنيا رجوعك لي بجل^(٢)

تدكرني الشمس عند طلوعها * وتعرض ذكراه إذا غربها أقبل

وإن هبت الأرياح هيجن ذكراه * فياطول ما حزني عليه وما وجل

سأعمل نص العيس في الأرض جاهداً * ولا أسام التطواف أو تسام الإبل

حياتي أو تأتي علي منيتي * فكل أمرى فإن وإن غره الأمل

(١) راجع ج ١٧ ص ٢٧٩ فما بعد .

(٢) بجل : كنتم زنة ومعنى . وأبجله الشيء : كفاه .

فأخبر أنه بمكة ، فجاء إليه فهلك عنده . وروى أنه جاء إليه فخيّره النبي صلى الله عليه وسلم كما ذكرنا وأنصرف . وسيأتي من ذكره وفضله وشرفه شفاءً عند قوله : « فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَا كُهَا » ^(١) إن شاء الله تعالى . وقتل زيد بمؤتة من أرض الشام سنة ثمان من الهجرة ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم أمره في تلك الغزاة ، وقال : « إن قُتل زيد بجعفر فإن قتل جعفر فعبد الله بن راحة » . فقتل الثلاثة في تلك الغزاة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين . ولما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم نعي زيد وجعفر بكى وقال : « أخوأي وهؤنساى ومحدثاى » .

قوله تعالى : **أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا**
ءَآبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا
أَخْطَأْتُمْ بِهِء وَلَكِنْ مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٥﴾
فيه ست مسائل :

الأولى - قوله تعالى : **(أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ)** نزلت في زيد بن حارثة ، على ما تقدم بيانه . وفي قول ابن عمر : ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد ، دليل على أن التَّبَنِّي كان معمولا به في الجاهلية والإسلام ، يُتوارث به ويتناصر ، إلى أن نسخ الله ذلك بقوله : « **أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ** » أى أعدل . فرفع الله حكم التَّبَنِّي ومنع من إطلاق لفظه ، وأرشد بقوله إلى أن الأولى والأعدل أن يُنسب الرجل إلى أبيه نسباً ، فيقال : كان الرجل في الجاهلية إذا أعجبه من الرجل جلده وظرفه ضمه إلى نفسه ، وجعل له نصيب الذكر من أولاده من ميراثه ، وكان يُنسب إليه فيقال فلان بن فلان . وقال النحاس : هذه الآية ناسخة لما كانوا عليه من التَّبَنِّي ، وهو من نسخ السنة بالقرآن ، فأمر أن يدعوا من دعوا إلى أبيه المعروف ، فإن لم يكن له أب معروف نسبوه إلى ولائه ، فإن لم يكن له ولأء معروف قال له يا أُنحى ، يعنى فى الدين ، قال الله تعالى : « **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** » ^(٢) .

الثانية - لو نسبته إنسان إلى أبيه من التبني فإن كان على جهة الخطأ ، وهو أن يسبق لسانه إلى ذلك من غير قصد فلا إثم ولا . واخذة بقوله تعالى : « وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ » . وكذلك او دعوت رجلا إلى غير أبيه وأنت ترى أنه : هو فليس عليك بأس ؛ قاله قتادة . ولا يجرى هذا المجرى ما غاب عليه اسم التبني كالحال في المقداد بن عمرو فإنه كان غاب عليه نسب التبني ، فلا يكاد يعرف إلا بالمقداد بن الأسود ؛ فإن الأسود بن عبد يغوث كان قد تنبه في الجاهلية وعرف به . فلما نزلت الآية قال المقداد : أنا ابن عمرو ؛ ومع ذلك فبقى الإطلاق عليه . ولم يُسمع فيمن مضى من عصي مطاق ذلك عليه وإن كان متعمدا . وكذلك سالم مولى أبي حذيفة ، كان يدعى لأبي حذيفة . وغير هؤلاء ممن تُبني وأنسب لغير أبيه وشهر بذلك وغاب عليه . وذلك بخلاف الحال في زيد بن حارثة ؛ فإنه لا يجوز أن يقال فيه زيد بن محمد ، فإن قاله أحد متعمدا عصي لقوله تعالى : « وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ » أي فعليكم الجناح . والله أعلم . ولذلك قال بعده : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ أي « غفورا » للعمد ، و « رحيما » برفع إثم الخطأ .

الثالثة - وقد قيل : إن قول الله تبارك وتعالى : « وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ » مجمل ؛ أي وليس عليكم جناح في شيء أخطأتم ، وكانت فتيا عطاء وكثير من العلماء . على هذا إذا حلف رجل ألا يفارق غريمه حتى يستوفي منه حقه ، فأخذ منه ما يرى أنه جيد من دنانير فوجدها زيوفا أنه لاشيء عليه . وكذلك عنده إذا حلف ألا يسلم على فلان فسلم عليه وهو لا يعرفه أنه لا يحنث ؛ لأنه لم يتعمد ذلك . و « ما » في موضع خفض ردا على « ما » التي مع « أَخْطَأْتُمْ » . ويجوز أن تكون في موضع رفع على إضمار مبتدأ ؛ والتقدير : ولكن الذي تؤاخذون به ما تعمدت قلوبكم . قال قتادة وغيره : من نسب رجلا إلى غير أبيه ، وهو يرى أنه أبوه ، خطأ فذلك من الذي رفع الله فيه الجناح . وقيل : هو أن يقول له في المخاطبة : يا بني ؛ على غير تبني .

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ﴾ « بِأَفْوَاهِكُمْ » تأكيد لبطان القول ؛ أي أنه قول لا حقيقة له في الوجود ، إنما هو قول لسانى فقط . وهذا كما تقول : أنا أمشى

(١) في ش : « خطأ من الخطأ الذى ... » .

(٢) هذه المسألة هكذا وردت في جميع نسخ الأصل . وبلا حظ أنها مقحمة هنا وموضعها الآية السابقة .

إليك على قَدَمٍ؛ فإنما تريد بذلك المبرة . وهذا كثير . وقد تقدم هذا المعنى في غير موضع .
 ﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ ﴾ « الحق » نعت لمصدر محذوف؛ أى يقول القول الحق . و﴿ يَهْدِي ﴾
 معناه يبين؛ فهو يتعدى بغير حرف جرّ .

الخامسة - الأديعاء جمع الدعى، وهو الذى يدعى أبنا غير أبيه أو يدعى غير أبيه؛
 والمصدر الدعوة بالكسر؛ فأمر تعالى بدعاء الأديعاء إلى آباؤهم للصلب، لمن جهل ذلك فيه
 ولم تشتهر أنسابهم كان مولى وأخا فى الدين . وذكر الطبرى أن أبا بكره قرأ هذه الآية وقال :
 أنا ممن لا يعرف أبوه، فأنا أخوكم فى الدين ومولاكم . قال الراوى عنه : واوعلم - والله -
 أن أباه حمار لآنتى إليه . ورجال الحديث يقولون فى أبى بكره : نُفِّعَ بن الحارث .

السادسة - روى الصحيح عن سعد بن أبى وقاص وأبى بكره كلاهما قال : سَمِعْتُهُ
 أذناى ووعاه قلبى مجدأ^(٢) صلى الله عليه وسلم يقول : "من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه
 فالجنة عليه حرام" . وفى حديث أبى ذر أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول : "ليس من
 رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر" .

قوله تعالى : **الَّذِينَ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِن أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ
 وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
 وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ
 فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦١﴾**

فيه تسع مسائل :

الأولى - قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِن أَنفُسِهِمْ ﴾ هذه الآية أزال الله تعالى
 بها أحكاماً كانت فى صدر الإسلام؛ منها : أنه صلى الله عليه وسلم كان لا يصلّى على ميت

(١) راجع ج ٤ ص ٢٦٧ وج ٨ ص ١١٨ فما بعد .

(٢) قوله : « مجدأ » نصب على البدل من الضمير المنصوب فى قوله : « سمعته أذناى » .

عليه دين ، فلما فتح الله عليه الفتوح قال : ”أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن توفى وعليه دين فعلى قضاؤه ومن ترك مالا فلورثته“ أخرجه الصحيحان . وفيهما أيضا ”فأيكم ترك ديناً أو ضياعاً فأنا مولاه“ . قال ابن العربي : فانقلبت الآن الحال بالذنوب ، فإن تركوا مالا ضويق العصبية فيه ، وإن تركوا ضياعاً أسلموا إليه ؛ فهذا تفسير الولاية المذكورة في هذه الآية بتفسير النبي صلى الله عليه وسلم وتنبئيه ؛ (ولا عطر بعد عروس) . قال ابن عطية : وقال بعض العلماء العارفين هو أولى بهم من أنفسهم ؛ لأن أنفسهم تدعوهم إلى الهلاك ، وهو يدعوهم إلى النجاة . قال ابن عطية : ويؤيد هذا قوله عليه الصلاة والسلام : ”أنا آخذٌ بحُجَزِكُمْ عن النارِ وأتمُّ تفتحُمون فيها تفتحُم الفراش“ .

قلت : هذا قول حسن في معنى الآية وتفسيرها ، والحديث الذي ذكر أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ”إنما مثلى ومثلى أمتى كمثل رجل استوقد ناراً فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه وأنا آخذٌ بحُجَزِكُمْ وأتمُّ تفتحُمون فيه“ . وعن جابر مثله ؛ وقال : ”وأتمُّ تفلتُون من يدي“ . قال العلماء : الحُجَزَةُ للسراويل ، والمعقِد للإزار ؛ فإذا أراد الرجل إمساك من يخاف سقوطه أخذ بذلك الموضع منه . وهذا مثل لاجتماع نبينا عليه الصلاة والسلام في نجاتنا ، وحرصه على تخلصنا من الهلكات التي بين أيدينا ؛ فهو أولى بنا من أنفسنا ؛ ولجهلنا بقدر ذلك وغلبة شهواتنا علينا وظفر عدونا اللعين بناصرنا أحقر من الفراش وأذل من الفراش ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ! وقيل : أولى بهم أى أنه إذا أمر بشيء ودعت النفس إلى غيره كان أمر النبي صلى الله عليه وسلم أولى . وقيل : أولى بهم أى هو أولى بأن يحكم على المؤمنين فينفذ حكمه في أنفسهم ؛ أى فيما يحكون به لأنفسهم مما يخالف حكمه .

الثانية — قال بعض أهل العلم : يجب على الإمام أن يقضى من بيت المال دين الفقراء اقتداءً بالنبي صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه قد صرح بوجوب ذلك عليه حيث قال : ”فعلى قضاؤه“ . والضياع (بفتح الضاد) مصدر ضاع ، ثم جعل أسما لكل ما هو بصدد أن يضيع

(١) مرجع الضمير في هذه الرواية المستوردة المفهوم من الكلام .

من عيال وبنين لا كافل لهم، ومال لا قيم له . وسميت الأرض ضيعة لأنها معرضة للضياع،
وتجمع ضياعا بكسر الضاد .

الثالثة - قوله تعالى : ﴿ وَأَزْوَاجُهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ شرف الله تعالى أزواج نبيه صلى الله
عليه وسلم بأن جعلهن أمهات المؤمنين؛ أى فى وجوب التعظيم والمبرة والإجلال وحرمة النكاح
على الرجال، وهجهن رضى الله تعالى عنهن بخلاف الأمهات . وقيل : لما كانت شفقتهم
عليهم كشفقة الأمهات أنزل منزلة الأمهات ، ثم هذه الأمومة لا توجب ميراثا كأومة
التبني . وجاز تزويج بناتهن ، ولا يجعلن أخوات للناس . وسيأتى عدد أزواج النبي صلى الله
عليه وسلم فى آية التخيير إن شاء الله تعالى ^(١) .

واختلف الناس هل هن أمهات الرجال والنساء أم أمهات الرجال خاصة؛ على قولين :
فروى الشعبي عن مسروق عن عائشة رضى الله عنها أن امرأة قالت لها : يا أمة؛ فقالت لها :
لست لك بأم ، إنما أنا أم رجالكم . قال ابن العربي : وهو الصحيح .

قات : لا فائدة فى اختصاص الحصر فى الإباحة للرجال دون النساء ، والذى يظهر لى
أنهن أمهات الرجال والنساء ؛ تعظيماً لحقهن على الرجال والنساء . يدل عليه صدر الآية :
« النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ » ، وهذا يشمل الرجال والنساء ضرورة . ويدل على ذلك
حديث أبى هريرة وجابر ؛ فيكون قوله : « وَأَزْوَاجُهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ » عائدا إلى الجميع . ثم إن
فى مصحف أبى بن كعب « وَأَزْوَاجُهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ » . وقد رآ ابن عباس :
« من أنفسهم وهو أب [لهم] وَأَزْوَاجُهُمْ [أمهاتهم] » . وهذا كله يوهن ما رواه مسروق إن
صح من جهة الترجيح ، وإن لم يصح فيسقط الاستدلال به فى التخصيص ، وبقينا على الأصل
الذى هو العموم الذى يسبق إلى الفهوم . والله أعلم ^(٢) .

الرابعة - قوله تعالى : ﴿ وَأَوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ ﴾ قيل : إنه أراد بالمؤمنين الأنصار ، وبالمهاجرين قريشا . وفيه قولان :

(١) راجع ص ١٦٤ من هذا الجزء . (٢) ما بين المربعين زيادة يقتضيا السياق ، ليست فى نسخ الأصل .

(٣) كذا فى ج . وفى ك : « الفهم » . وفى ش : « المفهوم » .

أحدهما - أنه ناسخ للتوارث بالهجرة . حكى سعيد عن قتادة قال : كان نزل في سورة الأنفال « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَالَكُمْ مِنْ وَلَا يَتَّبِعُهُمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ^(١) » فتوارث المسلمون بالهجرة ، فكان لا يرث الأعرابي المسلم من قريبه المسلم المهاجر شيئاً حتى يهاجر ، ثم نسخ ذلك في هذه السورة بقوله : « وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ » . الثاني - أن ذلك ناسخ للتوارث بالحلف والمؤاخاة في الدين ؛ روى هشام بن عروة عن أبيه عن الزبير : « وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ » وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال لنا ، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان فأخيناهم فأورثونا وأورثناهم ؛ فأخى أبو بكر خارجة بن زيد ، وأخيت أنا كعب بن مالك ، فبغت فوجدت السلاح قد أثقله ؛ فوالله لقد مات عن الدنيا ما ورثه غيري ، حتى أنزل الله تعالى هذه الآية فرجعنا إلى مواسنا . وثبت عن عروة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخى بين الزبير وبين كعب بن مالك ، فأرثت كعب ^(٢) يوم أحد بفناء الزبير بقوده بزمام راحلته ؛ فلو مات يومئذ كعب عن الضح والريح لورثه الزبير ، فأنزل الله تعالى : « وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ » . فبين الله تعالى أن القرابة ^(٣) أولى من الحلف ، فتركت الوراثة بالحلف وورثوا بالقرابة . وقد مضى في « الأنفال » الكلام في توريث ذوى الأرحام . وقوله : « فِي كِتَابِ اللَّهِ » يحتمل أن يريد القرآن ، ويحتمل أن يريد اللوح المحفوظ الذى قضى فيه أحوال خلقه . و« مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » متعلق بـ « أَوْلَىٰ » لا بقوله : « وَأُولُو الْأَرْحَامِ » بالإجماع ؛ لأن ذلك كان يوجب تخصيصاً ببعض المؤمنين ، ولا خلاف في عمومها ، وهذا حل إشكالها ؛ قاله ابن العربي . النحاس : « وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ » يجوز أن يتعلق « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » بـ « أَوْلَىٰ » فيكون التفسير : وَأُولُو الْأَرْحَامِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ . ويجوز أن يكون المعنى أولى من المؤمنين . وقال المهدوي : وقيل إن معناه : وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ

(١) راجع ج ٨ ص ٥٥ فابعد . (٢) الارتثاء : أن يحمل الجريح من المعركة وهو ضعيف

قد أثنته الجراح . (٣) الضح (بالكسر) : ضوء الشمس إذا استمكن من الأرض . أراد لو مات عما طلعت

عابه الشمس وجرت عليه الريح ؛ وكفى بهما عن كثرة المسال . (٤) راجع ج ٨ ص ٥٩ .

بعض في كتاب الله إلا ما يجوز لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم أن يُدعين أمهات المؤمنين .
والله تعالى أعلم .

الخامسة — واختاف في كونهن كالأمهات في المحرم وإباحة النظر ؛ على وجهين :
أحدهما — هن محرم ، لا يحرم النظر إليهن . الثاني — أن النظر إليهن محرم ، لأن تحريم
نكاحهن إنما كان حفظاً لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهن ، وكان من حفظ حقه
تحريم النظر إليهن ؛ ولأن عائشة رضی الله عنها كانت إذا أرادت دخول رجل عليها أمرت^(١)
أختها أسماء أن ترضعه ليصير ابناً لأختها من الرضاعة ، فيصير محرماً يستباح النظر . وأما اللاتي
طلقهن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته فقد اختلف في ثبوت هذه الحرمة لمن على ثلاثة
أوجه : أحدها — ثبت لمن هذه الحرمة تغليبا لحرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم . الثاني —
لا يثبت لمن ذلك ، بل هن كسائر النساء ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أثبت عصمتهم ،
وقال : " أزواجي في الدنيا هن أزواجي في الآخرة " . الثالث — من دخل بها رسول الله صلى الله
عليه وسلم ممن ثبتت حرمتها وحرم نكاحها وإن طلقها ؛ حفظا لحرمة وحراسة خلواته ،
ومن لم يدخل بها لم تثبت لها هذه الحرمة ؛ وقد هم عمر بن الخطاب رضی الله تعالى عنه برجم
أمرأة فارقها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتزوجت فقالت : لم هذا ! وما ضرب علي
رسول الله صلى الله عليه وسلم حجاباً ولا سُميت أُم المؤمنين ؛ فكف عنها عمر رضی الله عنه ،
السادسة — قال قوم : لا يجوز أن يُسمى النبي صلى الله عليه وسلم ابناً لقوله تعالى :
« مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ » . ولكن يقال : مثل الأب للمؤمنين ؛ كما قال :
« إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم ... » الحديث . نرجه أبو داود . والصحيح أنه يجوز أن
يقال : إنه أب للمؤمنين ، أى في الحرمة ، وقوله تعالى : « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ »
أى في النسب . وسيأتي . وقرأ ابن عباس : « من أنفسهم وهو أب لهم وأزواجه » . وسمع عمر
هذه القراءة فأنكرها وقال : حكها يا غلام ؟ فقال : إنها في مصحف أبي ؛ فذهب إليه

(١) راجع ج ٥ ص ١٠٩ و ج ٤ ص ١٥٤ شرح الموطأ .

فسأله فقال له أبتى: إنه كان يلهينى القرآن ويلهيك الصَّفْقُ بالأسواق؟ وأغاظ لعمر . وقد قيل في قول لوط عليه السلام « هُوَلَاءِ بَنَاتِي »^(٢١) : إنما أراد المؤمنات ؛ أى تزوجوهن . وقد تقدم .

السابعة - قال قوم : لا يقال بناته أخوات المؤمنين ، ولا أخواتهن أخوات المؤمنين وخالاتهم . قال الشافعى رضى الله عنه : تزوج الزبير أسماء بنت أبى بكر الصديق وهى أخت مائسة ، ولم يقل هى خالة المؤمنين . وأطلق قوم هذا وقالوا : معاوية خال المؤمنين ؛ يعنى فى الحرمة لا فى النسب .

الثامنة - قوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا ﴾ يريد الإحسان فى الحياة ، والوصية عند الموت ؛ أى إن ذلك جائز ؛ قاله قتادة والحسن وعطاء . وقال محمد بن الحنفية ، نزلت فى إجازة الوصية لليهودى والنصرانى ؛ أى يفعل هذا مع الولي والقريب وإن كان كافرا ؛ فالمشرك ولي فى النسب لا فى الدين فيوصى له بوصية . واختاف العلماء هل يحمل الكافر وصياً ؛ بخوز بعض ومنع بعض . ورد النظر إلى السلطان فى ذلك بعض ؛ منهم مالك رحمه الله تعالى . وذهب مجاهد وابن زيد والرماني إلى أن المعنى : إلى أوليائكم من المؤمنين . ولفظ الآية يعضد هذا المذهب ، وتعميم الولي أيضاً حسن . وولاية النسب لا تدفع الكافر ، وإنما تدفع أن يلقى إليه بالموثة كولي الإسلام .

التاسعة - قوله تعالى : ﴿ كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ « الْكِتَابِ » يحتمل الوجهين المذكورين المتقدمين فى « كِتَابِ اللَّهِ » . و « مَسْطُورًا » من قولك سطرت الكتاب إذا أثبتته أسطارا . وقال قتادة : أى مكتوباً عند الله عز وجل ألا يرث كافر مسلماً . قال قتادة ؛ وفى بعض القراءة « كَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ مَكْتُوبًا » . وقال القرظي : كان ذلك فى التوراة .

قوله تعالى : وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَاطِبًا ﴿٧٦﴾

(١) الصفق : البايع .

(٢) راجع ج ٩ ص ٧٦ فما بعد .

قوله تعالى : « (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ) » أى عهدهم على الوفاء بما حملوا ، وأن يبشر بعضهم ببعض ، ويصدق بعضهم بعضا ؛ أى كان مسطورا حين كتب الله ما هو كائن ، وحين أخذ الله تعالى المواثيق من الأنبياء . (وَمِنْكَ) يا محمد (وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ) وإنما خص هؤلاء الخمسة وإن دخلوا في زمرة النبيين تفضيلا لهم . وقيل : لأنهم أصحاب الشرائع والكتب ، وأولو العزم من الرسل وأمة الأمم . ويحتمل أن يكون هذا تعظيما في قطع الولاية بين المسلمين والكافرين ؛ أى هذا مما لم تختلف فيه الشرائع ، أى شرائع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . أى كان في ابتداء الإسلام توارث بالهجرة ، والهجرة سبب متأكد في الديانة ، ثم توارثوا بالقرابة مع الإيمان وهو سبب وكيد ؛ فأما التوارث بين مؤمن وكافر فلم يكن في دين أحد من الأنبياء الذين أخذ عليهم المواثيق ؛ فلا تداهنوا في الدين ولا تماثوا الكفار . ونظيره : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا - إِلَى قَوْلِهِ - وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ » (١) . ومن ترك التفرق في الدين ترك موالاته الكفار . وقيل : أى النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم كان ذلك في الكتاب مسطورا وما خوذنا به المواثيق من الأنبياء . (وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا) أى عهدا وثيقا عظيما على الوفاء بما التزموا من تبليغ الرسالة ، وأن يصدق بعضهم بعضا . والميثاق هو اليمين بالله تعالى ؛ فالميثاق الثاني تأكيد للميثاق الأول باليمين . وقيل : الأول هو الإقرار بالله تعالى ، والثاني في أمر النبوة . ونظير هذا قوله تعالى : « وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي » (٢) الآية . أى أخذ عليهم أن يعلنوا أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويعلمن محمد صلى الله عليه وسلم أن لا نبي بعده . وقدم محمدا في الذكر لما روى قتادة عن الحسن عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن قوله تعالى « (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ) » قال : « كنت أولهم في الخلق وآخرهم في البعث » . وقال مجاهد : هذا في ظهر آدم عليه الصلاة والسلام .

(٢) راجع ج ٤ ص ١٢٤ فما بعده .

(١) راجع ج ١٦ ص ٩ فما بعده .

قوله تعالى : لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ

عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها - يسأل الأنبياء عن تبليغهم الرسالة إلى قومهم ؛ حكاة النقاش ، وفي هذا تنبيه ؛
أى إذا كان الأنبياء يُسألون فكيف من سواهم .

الثانى - يسأل الأنبياء عما أجابهم به قومهم ؛ حكاة على بن عيسى .

الثالث - يسأل الأنبياء عليهم السلام عن الوفاء بالميثاق الذى أخذه عليهم ؛ حكاة

ابن شجرة .

الرابع - يسأل الأفواه الصادقة عن القلوب المخلصة ، وفي التنزيل : « فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ

أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ » . وقد تقدم^(١) . وقيل : فائدة سؤالهم توبيخ الكفار ؛ كما قال
تعالى : « أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ »^(٢) . ﴿ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ وهو عذاب جهنم .

قوله تعالى : يَذَّابُنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ

إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ

بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾

يعنى غزوة الخندق والأحزاب وبني قريظة^(٣) ، وكانت حالا شديدة معقبة بنعمة ورخاء

وغبطة ، وتضمنت أحكاما كثيرة وآيات باهرات عزيزة ، ونحن نذكر من ذلك بعون الله

تعالى ما يكفى فى عشر مسائل :

الأولى - اختلاف فى أى سنة كانت ؛ فقال ابن إسحاق : كانت فى شوال من السنة

الخامسة . وقال ابن وهب وابن القمام عن مالك رحمه الله : كانت وقعة الخندق سنة أربع ،

(٢) راجع ج ٦ ص ٣٧٤ .

(١) راجع ج ٧ ص ١٦٤ .

(٣) سميت غزوة الخندق لأجل الخندق الذى حفر حول المدينة بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم . وأما تسميتها

بالأحزاب : فلا اجتماع طوائف من المشركين على حرب المسلمين ، وهم قريش وخطفان واليهود .

وهي وبنو قريظة في يوم واحد، وبين بنى قريظة والنضير أربع سنين . قال ابن وهب وسمعت مالكا يقول : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقتال من المدينة ، وذلك قوله تعالى : « إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ » . قال : ذلك يوم الخندق ، جاءت قريش من ها هنا واليهود من ها هنا والنجدية من ها هنا . يريد مالك : إن الذين جاءوا من فوقهم بنو قريظة ، ومن أسفل منهم قريش وغطفان . وكان سببها : أن نفرا من اليهود منهم كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وسلام بن أبي الحقيق وسلام ابن مشكم وحبي بن أخطب النضيريون وهوذبة بن قيس وأبو عمار من بنى وائل ، وهم كلهم يهود ، هم الذين حاربوا الأحزاب وألبوا وجمعوا ، خرجوا في نفر من بنى النضير ونفر من بنى وائل فأتوا مكة فدعوا إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وواعدوهم من أنفسهم بعون من أنتدب إلى ذلك ، فأجابهم أهل مكة إلى ذلك ، ثم خرج اليهود المذكورون إلى غطفان فدعوههم إلى مثل ذلك فأجابوهم ، فخرجت قريش يقودهم أبو سفيان بن حرب ، وخرجت غطفان وقائدهم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري على فزارة ، والحارث بن عوف المرري على بنى مرة ، ومسعود بن ربيعة على أشجع . فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم باجتماعهم وخرجهم شاور أصحابه ، فأشار عليه سلمان بحفر الخندق فرضى رأيه . وقال المهاجرون يومئذ : سلمان منا . وقال الأنصار : سلمان منا ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سلمان منا أهل البيت » . وكان الخندق أول مشهد شهده سلمان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . عليه وسلم وهو يومئذ حر . فقال : يا رسول الله ، إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا ، فعمل المسلمون في الخندق مجتهدين ، ونكص المنافقون وجمعوا يتسللون^(١) لوأذا فنزلت فيهم آيات من القرآن ذكرها ابن إسحاق وغيره . وكان من فرغ من المسلمين من حصته عاد إلى غيره ، حتى كمل الخندق . وكانت فيه آيات بيّنات وعلامات للنبوات .

قلت : ففى هذا الذى ذكرناه من هذا الخبر من الفقه وهى : —

(١) أى مستخفين ومستترين بعضهم ببعض .

الثانية - مشاورة السلطان أصحابه وخاصته في أمر القتال ؛ وقد مضى ذلك في « آل عمران ، والنمل » . وفيه التحصن من العدو بما أمكن من الأسباب واستعمالها ؛ وقد مضى ذلك في غير موضع . وفيه أن حفر الخندق يكون مقسوما على الناس ؛ فمن فرغ منهم عاون من لم يفرغ ، فالمسلمون يدُّ على من سواهم ؛ وفي البخارى ومسلم عن البراء بن عازب قال : لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيتُه ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني الغبار جِلْدَةً بطنه ، وكان كثير الشعر ، فسمعتُه يرتجز بكلمات ابن رواحة ويقول :

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا أَهْتَدِينَا * وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلِّينَا
فَانزِلْ سَكِينَةً عَلَيْنَا * وَثَبِّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَا قَيْنَا

وأما ما كان فيه من الآيات وهي : -

الثالثة - فروى النسائي عن أبي سسيمة رجلٍ من المحررين عن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق عرضت لهم صحرة حالت بينهم وبين الحفر ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ المعول ووضع رداءه ناحية الخندق وقال : « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا »^(٣) الآية ؛ فنذر^(٤) ثلث الحجر وسلمان الفارسي قائم ينظر ، فبرق مع ضربة رسول الله صلى الله عليه وسلم برقة ، ثم ضرب الثانية وقال : « وَتَمَّتْ » الآية ؛ فنذر الثلث الآخر ؛ فبرقت برقة فراها سلمان ، ثم ضرب الثالثة وقال : « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا » الآية ؛ فنذر الثلث الباقي ، ونحرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ رداءه وجلس . قال سلمان : يا رسول الله ، رأيتك حين ضربت ! ما تضرب ضربة إلا كانت معها برقة ؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رأيت ذلك يا سلمان ؟ » فقال : أى الذى بعثك بالحق يا رسول الله ! قال : « فإني حين ضربت الضربة الأولى رفعت لى مدائن كسرى وما حولها ومدائن كثيرة حتى رأيتها بعيني - قال له من حضره من أصحابه : يا رسول الله ،

(١) راجع ج ٤ ص ٢٤٩ فما بعد . وج ١٣ ص ١٩٤ . (٢) أى المعتق من النار .

(٤) نذر : سقط .

(٣) راجع ج ٧ ص ٧١ .

(١) ادع الله أن يفتحها علينا ويغنمنا ذراريهم ويخرب بأيدينا بلادهم ؛ فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم — ثم ضربتُ الضربة الثانية فرُفعت لى مدائن قيصر وما حولها حتى رأيتها بعيني — قالوا: يا رسول الله، ادع الله تعالى أن يفتحها علينا ويغنمنا ذراريهم ويخرب بأيدينا بلادهم؛ فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم — ثم ضربتُ الضربة الثالثة فرُفعت لى مدائن الحبشة وما حولها من القرى حتى رأيتها بعيني — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك: دعوا الحبشة ما ودعوكم وأتركوا الترك ما تركوكم . وخرجه أيضا عن البراء قال: لما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نحفر الخندق عرض لنا صخرة لا تأخذ فيها المعاول، فأشتكينا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فألقى ثوبه وأخذ المعول وقال: ”باسم الله“ فضرب ضربة فكسر ثلث الصخرة ثم قال: ”الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام والله إني لأبصر إلى قصورها الحمراء الآن من مكاني هذا“ قال: ثم ضرب أخرى وقال: ”باسم الله“ فكسر ثلثا آخر ثم قال: ”الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض“ . ثم ضرب الثالثة وقال: ”باسم الله“ فقطع الحجر وقال: ”الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن والله إني لأبصر باب صنعاء“ . صححه أبو محمد عبد الحق .

الرابعة — فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من حفر الخندق أقبلت قريش في نحو عشرة آلاف بمن معهم من كنانة وأهل تهامة ، وأقبلت غطفان بمن معها من أهل نجد حتى نزلوا إلى جانب أحد ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون حتى نزلوا بظهر سلع^(٢) في ثلاثة آلاف وضربوا عسكرهم والخندق بينهم وبين المشركين ، وأستعمل على المدينة ابن أم مكتوم — في قول ابن شهاب — وخرج عدو الله حُيَ بن أخطب النضري حتى أتى كعب بن أسد القرظي ، وكان صاحب عقدة بني قريظة ورئيسهم ، وكان قد وادع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاقده وعاهده ؛ فلما سمع كعب بن أسد حُيَ بن أخطب

(١) في النسائي: «ديارهم» . (٢) سلع: جبل بالمدينة .

أغلق دونه باب حصنه وأبى أن يفتح له ؛ فقال له : افتح لي يا أحمى ؛ فقال له : لا أفتح لك ، فإنك رجل مشنوم ، تدعوني إلى خلاف عهد وأنا قد عاقدته وعاهدته ، ولم أر منه إلا وفاءً وصدقاً ، فلست بناقض ما بيني وبينه . فقال حُيَّيٌّ : افتح لي حتى أكلمك وأنصرف عنك ؛ فقال : لا أفعل ؛ فقال : إنما تخاف أن آكل معك جشيشتك ؛ فغضب كعب وفتح له ؛ فقال : يا كعب ! إنما جئتك بهزّ الدهر ، جئتك بقريش وساداتها ، وغطفان وقادتها ؛ قد تعاقدوا على أن يستأصلوا محمداً ومن معه ؛ فقال له كعب : جئتني والله بذل الدهر ويجهم^(١) لا غيث فيه ! ويحك يا حُيَّيٌّ ؟ دَعْنِي فلستُ بفاعل ما تدعوني إليه ؛ فلم يزل حُيَّيٌّ يكعب يعده ويفزه حتى رجع إليه وعاقده على خذلان محمداً صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأن يسير معهم ، وقال له حُيَّيٌّ بن أخطب : إن انصرفت قريش وغطفان دخلت عندك بمن معي من اليهود . فلما انتهى خبر كعب وحُيَّيٌّ إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعث سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج ، وسيد الأوس سعد بن معاذ ، وبعث معهما عبد الله بن رواحة وخوات بن جبير ، وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " انطلقوا إلى بني قريظة فإن كان ما قيل لنا حقاً فآلحناؤنا لحناً ولا تفتروا في أعضاء الناس . وإن كان كذباً فأجهروا به للناس " فانطلقوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما قيل لهم عنهم ، ونالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : لا عهد له عندنا ؛ فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه ؛ وكانت فيه حدة فقال له سعد بن عبادة : دع عنك مشاتمهم ، فالذي بيننا وبينهم أكثر من ذلك ، ثم أقبل سعد وسعد حتى أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم في جماعة المسلمين فقالا : عَضَلُ والقارة - يعرضان بغدر عَضَلُ والقارة بأصحاب الرجيع خبيب وأصحابه - فقال النبي صلى الله عليه وسلم . " أبشروا يا معشر المسلمين " وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف ، وأتى المسلمين عدوهم من فوقهم ؛ يعني من فوق الوادي من قبل المشرق ، ومن أسفل منهم من بطن الوادي من قبل المغرب ، حتى ظنوا بالله الظنون ؛ وأظهر المنافقون كثيراً مما كانوا يسرون ، فمنهم من قال : إن بيوتنا عورة ، فلننصرف إليها ،

(١) الجهم : السحاب لا ماء فيه .

فإننا نخاف عليها ؛ ومن قال ذلك : أوس بن قَيْظى . ومنهم من قال : يَعِدنا مجد أن يفتح كنوز كسرى وقَيْصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه يذهب إلى الغائط ! ومن قال ذلك : مُعْتَب بن قُشير أحد بنى عمرو بن عوف . فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقام المشركون بضعا وعشرين ليلة قريبا من شهر لم يكن بينهم حرب إلا الرمي بالنبل والحصى . فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه اشتد على المسلمين البلاء بعث إلى عِيْنَةَ بنِ حِصْنِ القَزَارَى ، وإلى الحارث بن عوف المرى ، وهما قائدا غَطَفان ، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة لينصرفا بمن معهما من غَطَفان ويخذلا قريشا ويرجعا بقومهما عنهم . وكانت هذه المقالة سراوضة ولم تكن عقدا ؛ فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم منهما أنهما قد أنابا ورضيا أتى سعد بن معاذ وسعد بن عباد فذكرا ذلك لهما وأستشارهما فقالا : يا رسول الله ، هذا أمر تحبه فنصنعه لك ، أو شيء أمرك الله به فنسمع له ونطيع ، أو أمر تهمنه لنا؟ قال : ” بل أمر أصنعه لكم ، والله ما أصنعه إلا أنى قد رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ” فقال له سعد بن معاذ : يا رسول الله ، والله لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وما طمعوا قط أن ينالوا من ثمره إلا شرا أو قرى ، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك نعطيهم أموالنا ! والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم !! فسُرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك وقال : ” أنتم وذاك ” . وقال لعبيئة والحارث : ” انصرفا فليس لكما عندنا إلا السيف ” . وتناول سعد الصحيفة وليس فيها شهادة فحاجها .

الخامسة — فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون على حالهم ، والمشركون يحاصرونهم ولا قتال بينهم ؛ إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد ود العاصرى من بنى عامر بن أُمَيّ ، وعكرمة بن أبى جهل ، وهبيرة بن أبى وهب ، وضرار بن الخطاب الفهري ، وكانوا فرسان قريش وشجعانهم ، أقبلوا حتى وقفوا على الخندق ، فلما رأوه قالوا : إن هذه لمكيدة ، ما كانت العرب تكيدها . ثم تيمموا مكانا ضيقا من الخندق ، فضربوا خيلهم فاقتحمت بهم ، وجاوزوا الخندق وصاروا بين الخندق وبين سَلْع ، وخرج على بن أبى طالب

في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي آفتحموا منها ، وأقبلت الفرسان نحوهم ، وكان عمرو بن عبد ود قد أثبتته الجراح يوم بدر فلم يشهد أحدًا ، وأراد يوم الخندق أن يرى مكانه ، فلما وقف هو وخيله ، نادى : من يبارز ؟ فبرز له علي بن أبي طالب وقال له : يا عمرو ، إنك عاهدت الله فيما بلغنا أنك لا تُدعى إلى إحدى خلتين إلا أخذت احدهما ؟ قال نعم . قال : فإني أدعوك إلى الله والإسلام . قال : لا حاجة لي بذلك . قال : فادعوك إلى البراز . قال : يا بن أخي ، والله ما أحب أن أقتلك لما كان بيني وبين أبيك . فقال له علي : أنا والله أحب أن أقتلك . فخيم عمرو بن عبد ود ونزل عن فرسه ، فعقره وصار نحو علي ، فتنازلا وتجاولا وثار النقع بينهما حتى حال دونهما ، فما أنجلى النقع حتى رى علي علي صدر عمرو يقطع رأسه ، فلما رأى أصحابه أنه قد قتله علي آفتحموا بخيلهم الثغرة منهزمين هارين . وقال علي رضي الله عنه في ذلك :

(١) نصر المجارة من سفاهة رأيه * ونصرت دين محمد بضراب
(٢) نازلته فتركته متجدلاً * كالجدع بين دكادك وروابي
(٣) وعففت عن أنوابه ولو آنى * كنت المقطر بزني أنوابي
(٤) لا تحسبن الله خاذل دينه * ونبيّه يا معشر الأحزاب

قال ابن هشام : أكثر أهل العلم بالسيرة يشك فيها لعلي . قال ابن هشام : وألقى عكرمة ابن أبي جهل رجه يومئذ وهو منهزم عن عمرو ، فقال حسان بن ثابت في ذلك :

فتر وألقى لنا رُحْمَه * لعلك عكرم لم تفعل
ووليت تعدو كعدو الظل * يم ما إن تجور عن المعدل
ولم تلق ظهرك مستأنسا * كأن قفاك قفا فرعل

(١) في سيرة ابن هشام : « بصوابي » . (٢) في سيرة ابن هشام : « فصددت حين تركته ... » .
(٣) المتجدل : اللاصق بالأرض . والدكادك : جمع دكادك ، وهو الرمل اللين . والروابي : جمع رابية ، وهو ما ارتفع من الأرض . (٤) المقطر : الذي ألقى على أحد قطريه ، أى جنبه . ووزني : سلبني وجردني .
(٥) في سيرة ابن هشام : « بالشعر » .

قال ابن هشام : فرعل صغير الضباع . وكانت عائشة رضي الله عنها في حصن بني حارثة ،
 وأم سعد بن معاذ معها ، وعلى سعد درع مقلصة ^(١) قد خرجت منها ذراعه ، وفي يده حربته
 وهو يقول :

لَبَّثُ قَلِيلًا يَلْحَقُ الْهَيَّجًا جَمَلٌ * لا بأس بالموت إذا كان الأجل

ورمى يومئذ سعد بن معاذ بسهم فقطع منه الأكل ^(٢) . واختلف فيمن رماه ؛ فقيل :
 رماه حبان بن قيس ابن العرقعة ، أحد بني عامر بن لؤي ^(٣) ، فلما أصابه قال له : خذها وأنا
 ابن العرقعة . فقال له سعد : عرّق الله وجهك في النار . وقيل : إن الذي رماه خفاجة
 ابن عاصم بن حبان ^(٤) . وقيل : بل الذي رماه أبو أسامة الجشمي ، حليف بني مخزوم . ولحسان
 مع صفية بنت عبد المطلب خبر طريف يومئذ ؛ ذكره ابن إسحاق وغيره .

قالت صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها : كنا يوم الأحزاب في حصن حسان
 ابن ثابت ، وحسان معنا في النساء والصبيان ، والنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في نحر العدو
 لا يستطيعون الأنصراف إلينا ، فإذا يهودى يدور ، فقلت لحسان : أنزل إليه فاقتله ؛ فقال :
 ما أنا بصاحب هذا يابنة عبد المطلب ! فأخذت عمودا ونزلت من الحصن فقتلته ، فقلت :
 يا حسان ، انزل فاسلبه ، فلم يمتعني من سلّبه إلا أنه رجل . فقال : مالي بسلبه حاجة يابنة
 عبد المطلب ! قال : فنزلت فسلبته . قال أبو عمر بن عبد البر : وقد أنكر هذا عن حسان
 جماعة من أهل السير وقالوا : لو كان في حسان من الجبن ما وصفتم لهجاه بذلك الذين كان
 يهاجمهم في الجاهلية والإسلام ، ولم يجي بذلك ابنه عبد الرحمن ؛ فإنه كان كثيرا ما يهاجى الناس
 من شعراء العرب ؛ مثل النجاشي وغيره .

السادسة — وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعي

فقال : يا رسول الله ، إني قد أسلمت ولم يعلم قومي بإسلامي ، فمُرّني بما شئت ؛ فقال له رسول

(١) مقلصة : مجتمعة منضمة . (٢) الأكل : عرق في وسط الذراع . (٣) العرقعة (بفتح

العين وكسر الزاء) : أم حبان ، واسمها قلابة بنت سعيد بن سعد تكنى أم فاطمة ، وسُميت العرقعة لطيب ريحها ،

وهي جدّة خديجة . (٤) في الأصول : « جبارة » والتصويب من سيرة ابن هشام وشرح المواهب .

الله صلى الله عليه وسلم : ” إنما أنت رجل واحد من غطفان فلو خرجت فخذلت عنا إن استطعت كان أحب إلينا من بقائك معنا فأخرج فإن الحرب خدعة“ ^(١) . نخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة - وكان ينادمهم في الجاهلية - فقال : يا بني قريظة ، قد عرفتم وُدِّي إياكم ، وخاصة ما بيني وبينكم ؛ قالوا : قل فلست عندنا بهم ، فقال لهم : إن قريشا وغطفان ليسوا كأتم ، البلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونسأؤكم ، وإن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب مجد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه فإن رأوا نهمزة أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وختلوا بينكم وبين الرجل ، ولا طاقة لكم به ، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا . ثم خرج حتى أتى قريشا فقال لهم : قد عرفتم وُدِّي لكم معشر قريش ، وفراق مجدا ، وقد بلغني أمر أرى من الحق أن أبلغكموه نصحا لكم ، فاكتموا علي ؛ قالوا تفعل ؛ قال : تعلمون أن معشر يهود ، قد ندموا على ما كان من خذلانهم مجدا ، وقد أرسلوا إليه : إنا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ من قريش وغطفان [رجالا من أشرفهم فتعطيكمهم فتضرب] أعناقهم ، ثم نكون معك على ما بقي منهم حتى نستأصلهم . ثم أتى غطفان فقال مثل ذلك . فلما كان ليلة السبت وكان ذلك من صنع الله عز وجل لرسوله والمؤمنين ، أرسل أبو سفيان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان يقول لهم : إنا لسنا بدار مقام ، قد هلك الخيف والحافر ، فاغدوا صبيحة غدٍ للقتال حتى نناجز مجدا ؛ فأرسلوا إليهم : إن اليوم يوم السبت ، وقد علمتم ما نال منا من تعدى في السبت ، ومع ذلك فلا نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا ؛ فلما رجع الرسول بذلك قالوا : صدقنا والله نعيم بن مسعود ؛ فردوا

(١) في ك : « أن تقاتل معنا » . وفي ج : « مقامك » . قوله : « خدعة » في النهاية لابن الأثير : « يروى بفتح الخاء وضها مع سكون الدال ، وبضمها مع فتح الدال . فالأول معناه : أن الحرب ينقض أمرها بخدعة واحدة من الخداع ؛ أي أن المقاتل إذا خدع مرة واحدة لم تكن لها إقالة . وهي أفصح الروايات وأصحها . ومعنى الثاني : هو الاسم من الخداع . ومعنى الثالث : أن الحرب تخدع الرجال وتمنيم ولا تنفي لهم ، كما يقال : فلان رجل لعبة وضحكة ؛ أي كثير اللعب والضحك .

(٢) النهزة : الفرصة تجدها من صاحبك .

(٣) ما بين المربعين كذا ورد في ك . والذي في ج ، ش : « ... وغطفان رهنا رجالا ونسبهم » .

إليهم الرسل وقالوا : والله لا نعطيكم رهنا أبداً فخرجوا معنا إن شئتم وإلا فلا عهد بيننا وبينكم . فقال بنو قريظة : صدق والله نعيم بن مسعود . وخذل الله بينهم ، واختلفت كلمتهم ، وبعث الله عليهم ريحاً عاصفاً في ليالٍ شديدة البرد ، فجعلت الريح تقلب آيتهم وتكفأ قدورهم .

السابعة — فلما اتصل برسول الله صلى الله عليه وسلم اختلاف أمرهم ، بعث حذيفة ابن اليمان ليأتيه بخبرهم ، فاتاهم واستتر في غمارهم^(١) ، وسمع أبا سفيان يقول : يا معشر قريش ، ليعترف كل امرئ جليسه . قال حذيفة : فأخذت بيد جليسي وقلت : ومن أنت ؟ فقال : أنا فلان . ثم قال أبو سفيان : ويلكم يا معشر قريش ! إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، ولقد هلك الكراع والخلف^(٢) وأخلفتنا بنو قريظة ، واقينا من هذه الريح ماترون ، ما يستمسك لنا بناء ، ولا تثبت لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، فارتحلوا فإني مرتحل ؛ ووثب على جملة فما حل عقال يده إلا وهو قائم . قال حذيفة : ولولا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لي إذ بعثني ، قال لي : ” مرّ إلى القوم فأعلم ما هم عليه ولا تحديث شيئاً ” — لقتلته بسهم ؛ ثم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم عند رحيلهم ، فوجدته قائماً يصلي في مِرْطٍ لبعض نسائه مراجل — قال ابن هشام : المراجل ضرب من وشى اليمن — فأخبرته فحمد الله .

قلت : وخبر حذيفة هذا مذكور في صحيح مسلم ، وفيه آيات عظيمة ، رواه جرير عن الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال : كنا عند حذيفة فقال رجل لو أدركت رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتلت معه وأبليت . فقال حذيفة : أنت كنت تفعل ذلك ! لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الأحزاب وأخذتنا ريح شديدة وقتر . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” ألا رجل يأتيني بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة ” ؟ فسكنا فلم يجبه منا أحد ، ثم قال : ” ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة ” ؟ فسكنا فلم يجبه أحد . فقال : ” قم يا حذيفة فأتنا بخبر القوم ” فلم أجد بداً إذ دعاني بأسمى أن أقوم . قال : ” اذهب فأتني بخبر القوم ولا تدعهم علي ”^(٣) قال : فلما ولّيت من عنده جعلت كأنما

(١) مثل الغين . (٢) الكراع : اسم يجمع الخيل . والخلف : اسم يجمع الإبل .

(٣) الذعر : الفرع ، يريد لا تعلمهم بنفسك وأمش في خفية لئلا ينقروا منك ويقبلوا على .

أمشي في حمام حتى أتيتهم^(١)، فرأيت أبا سفيان يصلي ظهره بالنار، فوضعت سهما في كبد القوس فأردت أن أرميه، فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ولا تدعهم على» ولو رميته لأصبتة: فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمام، فلما أتيته فأخبرته بنجر القوم وفرغت قورت، فألبسني رسول الله صلى الله عليه وسلم من فضل عبادة كانت عليه يصلي فيها، فلم أزل نائما حتى أصبحت، فلما أصبحت قال: «قم يا نومان». ولما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ذهب الأحزاب، رجع إلى المدينة ووضع المسلمون سلاحهم، فأناه جبريل صلى الله عليه وسلم في صورة دحية بن خليفة الكلبي، على بغلة عليها قطيفة ديباج فقال له: يا محمد، إن كنتم قد وضعت سلاحكم فما وضعت الملائكة سلاحها. إن الله يأمرك أن تخرج إلى بني قريظة، وإني متقدم إليهم فنزلزل بهم حصونهم. فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي: —

الثامنة — مناديا فتأدى: لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة؛ فتخوف ناس فوت الوقت فصلوا دون بني قريظة. وقال آخرون: لا نصلي العصر إلا حيث أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن فاتنا الوقت. قال: فما عتف واحدا من الفريقين. وفي هذا من الفقه تصويب المجتهدين. وقد مضى بيانه في «الأنبياء»^(٢). وكان سعد بن معاذ إذ أصابه السهم دعا ربه فقال: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش فأبقني لها؛ فإنه لا قوم أحب أن أجاهدهم من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه. اللهم وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لي شهادة، ولا تُميتني حتى تفر عيني في بني قريظة. وروى ابن وهب عن مالك قال: بلغني أن سعد بن معاذ مر بعائشة رضي الله عنها ونساء معها في الأطم^(٣) (فارغ)، وعليه درع مقلصة مشتمر الكئين^(٤)، وبه أثر صفرة وهو يرتجز:

لَبَّثَ قَلِيلًا يُدْرِكُ الْهَيْجَابَ جَمَلٌ * لَا بَأْسَ بِالْمَوْتِ إِذَا حَانَ الْأَجَلُ

(١) يقول: كأنما أمشي في حر لم يصبني برد ولا من تلك الريح الشديدة شئ. ببركة توجبه النبي صلى الله عليه وسلم.
(٢) راجع ج ١١ ص ٣١١. (٣) الأطم: حصن مبني بحجارة. (٤) في الأصول: «في الأطم الذي فارغ». وفارغ حصن بالمدينة، يقال إنه حصن حسان بن ثابت. (٥) مقلصة: مجتمعة منضمة.

فقال عائشة رضي الله عنها : لست أخاف أن يصاب سعد اليوم إلا في أطرافه ؛ فأصيب في أتحله . وروى ابن وهب وابن القاسم عن مالك قالت عائشة رضي الله عنها : ما رأيت رجلاً أجمل من سعد بن معاذ حاشا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأصيب في أتحله ثم قال : اللهم إن كان حرب قريظة لم يبق منه شيء فاقبضني إليك ، وإن كان قد بقيت منه بقية فأبقني حتى أجاهد مع رسولك أعداءه ؛ فلما حُكِّم في بني قريظة تُوفِّيَ ؛ وفرح الناس وقالوا : نرجو أن يكون قد استجبت دعوته .

التاسعة - ولما خرج المسلمون إلى بني قريظة أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم الراية علي بن أبي طالب ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، ونهض علي وطائفة معه حتى أتوا بني قريظة ونازلوهم ، فسمعوا سب الرسول صلى الله عليه وسلم ، فانصرف علي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : يا رسول الله ، لا تبلغ إليهم ، وعرض له . فقال له : " أظنك سمعت منهم شتمى . لو رأوني لكفوا عن ذلك " ونهض إليهم فلما رأوه أمسكوا . فقال لهم : " نقضتم العهد يا إخوة القروء أخزاكم الله وأنزل بكم نعمته " فقالوا : ما كنت جاهلاً يا محمد فلا تجهل علينا ؛ ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فحاصرهم بضعا وعشرين ليلة . وعرض عليهم سيدهم كعب ثلاث خصال ليختاروا أيها شاءوا : إما أن يسلموا ويتبعوا محمداً على ما جاء به فيسلموا . قال : وتحرزوا أموالكم ونساءكم وأبناءكم ، فوالله إنكم لتعلمون أنه الذي تجدونهم مكتوباً في كتابكم . وإما أن يقتلوا أبناءهم ونساءهم ثم يتقدموا ؛ فيقاتلون حتى يموتوا من آخرهم . وإما أن يبيتوا المسلمين ليلة السبت في حين طمأنينتهم فيقتلوهم قتلاً . فقالوا له : أما الإسلام فلا نسلم ولا نخالف حكم التوراة ، وأما قتل أبنائنا ونسائنا فما جزاؤهم المساكين منا أن نقتلهم ، ونحن لا نتعدى في السبت . ثم بعثوا إلى أبي لبابة ، وكانوا حلفاء بني عمرو بن عوف وسائر الأوس ، فاتاهم فجمعوا إليه أبناءهم ونساءهم ورجالهم وقالوا له : يا أبا لبابة ، أترى أن تنزل على حكم محمد ؟ فقال نعم ، - وأشار بيده إلى حلقه - إنه الذبح إن فعلتم . ثم ندم أبو لبابة في الحين ، وعلم أنه خان الله ورسوله ، وأنه أمر لا يستر الله عليه عن نبيه صلى الله عليه وسلم .

فانطلق إلى المدينة ولم يرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فربط نفسه في سارية وأقسم ألا يبرح من مكانه حتى يتوب الله عليه فكانت امرأته تحلّه لوقت كل صلاة . قال ابن عيينة وغيره :
 فيه نزلت : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحُونُوا اللَّهَ وَالرُّسُولَ وَتَحُونُوا أَمَانَاتِكُمْ ^(١) » الآية . وأقسم ألا يدخل أرض بني قريظة أبداً مكاناً أصاب فيه الذنب . فلما بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم من فعل أبي لبابة قال : « أما إنه لو أتاني لاستغفرت له وأما إذ فعل ما فعل فلا أطلقه حتى يطلقه الله تعالى » فأنزل الله تعالى في أمر أبي لبابة : « وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ^(٢) » الآية . فلما نزل فيه القرآن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإطلاقه ، فلما أصبح بنو قريظة نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتواثب الأوس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا :
 يا رسول الله ، وقد علمت أنهم حلفاؤنا ، وقد أسعفت عبد الله بن أبي بن سلول في بني النضير ^(٣)
 حلفاء الخيـزرج ، فلا يكن حظنا أو كس وأنقص عندك من حظ غيرنا ، فهم موالينا . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا معشر الأوس ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم —
 قالوا بلى . قال — : — فذلك إلى سعد بن معاذ » . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد
 ضرب له خيمة في المسجد ، ليعوده من قريب في مرضه من جرحه الذي أصابه في الخندق .
 فخكم فيهم بأن تقتل المقاتلة ، وتُسبى الذرية والنساء ، وتقسم أموالهم . فقال له رسول الله
 صلى الله عليه وسلم : « لقد حكمت فيهم بحكم الله تعالى من فوق سبع أرفعة ^(٤) » . وأمر رسول
 الله صلى الله عليه وسلم فأخرجوا إلى موضع بسوق المدينة اليوم — زمن ابن إسحاق — فنخندق بها
 خنادق ، ثم أمر عليه السلام فضربت أعناقهم في تلك الخنادق ، وقتل يؤمئذ حيي بن أخطب
 وكعب بن أسد ، وكانا رأس القوم ، وكانوا من الستمائة إلى السبعمائة . وكان على حيي حلة فقاحية ^(٥)
 قد شققها عليه من كل ناحية كموضع الأعملة ، أعملة أعملة لثلاث يسابها . فلما نظر إلى رسول الله

(١) راجع ج ٧ ص ٣٩٤ . (٢) راجع ج ٨ ص ٢٤٢ .

(٣) الأسعاف : قضاء الحاجة . (٤) أرفعة جمع رقيق ، والرقيق السماء ؛ سميت بذلك لأنها رفعت بالنجوم .

(٥) أي بلون الورد حين أن يتفتح .

صلى الله عليه وسلم حين أتى به ويدها مجموعتان إلى عنقه بجبل قال : أما والله ما لمت نفسي في عداوتك .

* ولكنه من يخذل الله يخذل *

ثم قال : يأبها الناس ، لا بأس بأمر الله كتاب وقدر وملحمة^(١) كتبت على بنى إسرائيل ، ثم جلس فضربت عنقه . وقتل من نسائهم امرأة ، وهى بُسانة امرأة الحكم القرظي التي طرحت الرحي على خلاد بن سويد فقتلته . وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل كل من أنبت منهم وترك من لم يُنبت . وكان عطية القرظي ممن لم ينبت ، فاستحياه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو مذكور في الصحابة . ووهب رسول الله صلى الله عليه وسلم لثابت ابن قيس بن شماس ولد الزبير بن باطا فاستحياهم ؛ منهم عبد الرحمن بن الزبير أسلم وله صحبة . ووهب أيضا عليه السلام رفاعة بن سموع القرظي لأم المنذر سلمى بنت قيس ، أخت سليط ابن قيس من بنى النجار ، وكانت قد صلت إلى القبتين ؛ فأسلم رفاعة وله صحبة ورواية . وروى ابن وهب وابن القاسم عن مالك قال : أتى ثابت بن قيس بن شماس إلى ابن باطا — وكانت له عنده يد — وقال : قد استوهبتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليديك التي لك عندي ، قال : ذلك يفعل الكريم بالكريم ، ثم قال : وكيف يعيش رجل لا ولد له ولا أهل ؟ قال : فأتى ثابت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له ، فأعطاه أهله وولده ؛ فأتى فأعلمه فقال : كيف يعيش رجل لا مال له ؟ فأتى ثابت النبي صلى الله عليه وسلم فطلبه فأعطاه ماله ، فرجع إليه فأخبره ؛ قال : ما فعل ابن أبي الحقيق الذي كأن وجهه امرأة صينية ؟ قال : قتل . قال : فما فعل المجلسان ، يعنى بنى كعب بن قريظة وبنى عمرو ابن قريظة ؟ قال : قتلوا . قال : فما فعلت الفئتان ؟ قال : قتلنا . قال : برئت ذمتك ، ولن أصب فيها دلوا أبدا ، يعنى النخل ، فألحقني بهم ، فأبى أن يقتله فقتله غيره . واليد التي كانت لابن باطا عند ثابت أنه أسمره يوم بعث بخز ناصيته وأطلقه ،

(١) الملحمة : الواقعة العظيمة القتل .

العاشرة - وقسم صلى الله عليه وسلم أموال بني قريظة فأقسمهم للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهمًا . وقد قيل : للفارس سهمان وللراجل سهم . وكانت الخيل للمسلمين يومئذ ستة وثلاثين فرسا . ووقع للنبي صلى الله عليه وسلم من سبيهم ربحانة بنت عمرو بن جنانة (١) أحد بني عمرو بن قريظة ، فلم تزل عنده إلى أن مات صلى الله عليه وسلم . وقيل : إن غنيمة قريظة هي أول غنيمة قسّم فيها للفارس والراجل ، وأول غنيمة جعل فيها الخمس . وقد تقدّم أن أول ذلك كان في بعث عبد الله بن جحش ، فآله أعلم . قال : أبو عمر : وتهذيب ذلك أن تكون غنيمة قريظة أول غنيمة جرى فيها الخمس بعد نزول قوله : « وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ نَحْسَهُ وَلِلرَّسُولِ » (٢) الآية . وكان عبد الله بن جحش قد نحس قبل ذلك في بعثه ، ثم نزل القرآن بمثل ما فعله ، وكان ذلك من فضائله رحمة الله عليه .

وكان فتح قريظة في آخر ذي القعدة وأول ذى الحجة من السنة الخامسة من الهجرة . فلما تمّ أمر بني قريظة أجيبت دعوة الرجل الفاضل الصالح سعد بن معاذ ، فأنفجر بجرحه ، وانفتح عرقه ، فجرى دمه ومات رضى الله عنه . وهو الذى أتى الحديث فيه : « اهترّ لموته عرشُ الرحمن » يعنى سكان العرش من الملائكة فرحوا بقسود روحه واهترّوا له . وقال ابن القاسم عن مالك : حدّثنى يحيى بن سعيد قال : لقد نزل لموت سعد بن معاذ سبعون ألف ملك ، ما نزلوا إلى الأرض قبلها . قال مالك : ولم يستشهد يوم الخندق من المسلمين إلا أربعة أو خمسة .

قلت : الذى استشهد يوم الخندق من المسلمين ستة نفر فيما ذكر أهل العلم بالسيرة : سعد ابن معاذ أبو عمرو من بني عبد الأشهل ، وأنس بن أوس بن عتيك ، وعبد الله بن سهل ، وكلاهما أيضا من بني عبد الأشهل ، والطّفيّل بن النعمان ، وثعلبة بن غنمة ، وكلاهما من بني سلمة ، وكعب بن زيد من بني دينار بن النجار ، أصابه سهم غرب فقتله ، رضى الله عنهم .

(١) ويقال : فيه « خنافة » بانحاء المعجمة . (٢) راجع ج ٨ ص ١ . (٣) فى المواهب اللدنية والإصابة : « ثعلبة بن غنمة بفتح العين المهملة والنون » . (٤) قال ابن هشام : « سهم غرب ، ومهم ضرب (بإضافة وغير إضافة) وهو الذى لا يعرف من أين جاء ولا من رعى به » .

وقتل من الكفار ثلاثة : منبه بن عثمان بن عبيد بن السباق بن عبد الدار ، أصابه سهم مات منه بمكة . وقد قيل : إنما هو عثمان بن أمية بن منبه بن عبيد بن السباق . ونوفل بن عبد الله ابن المغيرة المخزومي ، اقتحم الخندق فتورط فيه فقتل ، وغلب المسلمون على جسده ؛ فروى عن الزهري أنهم أعطوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في جسده عشرة آلاف درهم فقال : « لا حاجة لنا بجسده ولا بتمنه » ، نقل بينهم وبينه . وعمرو بن [عبد] ود الذي قتله على مبارزة ، وقد تقدم . واستشهد يوم قريظة من المسلمين خلاد بن سويد بن ثعلبة بن عمرو من بني الحارث بن الخزرج ؛ طرحت عليه امرأة من بني قريظة رحي فقتلته . ومات في الحصار أبو سنان بن محصن بن حُرثان الأسدي ، أخو عكاشة بن محصن ، فدفنه رسول الله صلى الله عليه وسلم في مقبرة بني قريظة التي يتدفن فيها المسلمون السكان بها اليوم . ولم يُصب غير هذين ، ولم يغز كفار قريش المؤمنين بعد الخندق . وأسد الدارمي أبو محمد في مسنده : أخبرنا يزيد ابن هارون عن ابن أبي ذئب عن المقبري عن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري عن أبيه قال : حُبسنا يوم الخندق حتى ذهب هوى من الليل حتى كفيناه ؛ وذلك قول الله عز وجل : « وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا » فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بلائاً فأقام فصلى الظهر فأحسن كما كان يصلها في وقتها ، ثم أمره فأقام العصر فصلاها ، ثم أمره فأقام المغرب فصلاها ، ثم أمره فأقام العشاء فصلاها ، وذلك قبل أن ينزل : « فَإِنْ خِفْتُمْ فِرْجَالًا^(٢) أَوْ رُكْبَانًا » نرجه النسائي أيضا . وقد مضت هذه المسألة في « طه » . وقد ذكرنا في هذه الفقرة أحكاما كثيرة لمن تأملها في مسائل عشر . ثم نرجع إلى أول الآي وهي تسع عشرة آية تضمنت ما ذكرناه .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ ﴾ يعني الأحزاب . ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ﴾ قال مجاهد : هي الصبا ، أرسلت على الأحزاب يوم الخندق حتى ألقت قدورهم ونزعت فساطيطهم . قال : والجنود الملائكة ولم تقاتل يومئذ . وقال عكرمة : قالت الجنوب للشمال ليسلة الأحزاب :

(١) الهوى (بالفتح) : الزمان الطويل . (٢) راجع ج ٣ ص ٢٢٣ . (٣) راجع ج ١١ ص ١٨٠

(١)
انطلقى لنصرة النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالت الشمال : إن محمودة لا تسيرى بليل . فكانت الريح التي أرسلت عليهم الصبا . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور " . وكانت هذه الريح معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين كانوا قريباً منها ، لم يكن بينهم وبينها إلا عرض الخندق ، وكانوا في عافية منها ، ولا خبر عندهم بها . ﴿ وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ﴾ وقرئ بالياء ؛ أى لم يرها المشركون . قال المفسرون : بعث الله تعالى عليهم الملائكة فقلعت الأوتاد ، وقطعت أطناب الفساطيط ، وأطفأت النيران ، وأكفأت القدور ، وجالت الخيل بعضها في بعض ، وأرسل الله عليهم الرعب ، وكثر تكبير الملائكة في جوانب العسكر ، حتى كان سيد كل خباء يقول : يا بنى فلان هلم إلى - فإذا اجتمعوا قال لهم : النجاء النجاء ؛ لما بعث الله تعالى عليهم من الرعب . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ وقرئ : « يعملون » بالياء على الخبر ، وهى قراءة أبى عمرو . الباقون بالتاء ؛ يعنى من حفر الخندق والتحرز من العدو .

قوله تعالى : إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ

الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ « إذ » فى موضع نصب بمعنى واذكر . وكذا « وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ » . « مِنْ فَوْقِكُمْ » يعنى من فوق الوادى ، وهو أعلاه من قبل المشرق ، جاء منه عوف بن مالك فى بنى نصر ، وعيينة بن حصن فى أهل نجد ، وطليحة ابن خويلد الأسدى فى بنى أسد . « وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ » يعنى من بطن الوادى من قبل المغرب ، جاء منه أبو سفيان بن حرب على أهل مكة ، ويزيد بن بحش على قريش ، وجاء أبو الأعور السامى ومعه حبي بن أخطب اليهودى فى يهود بنى قريظة مع عامر بن الطفيل من وجه الخندق . ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ ﴾ أى شخضت . وقيل : مالت ؛ فلم تلتفت إلا إلى

(١) محمودة : من أسماء الشمال ؛ لأنها تحمى السحاب وتذهب بها ، وهى معرفة لا تنصرف ، ولا تدخلها ألف ولا ميم .

عدوها دَهْشًا من فرط الهول . (وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ) أى زالت عن أماكنها من الصدور حتى بلغت الحناجر وهى الحلاقيم ، واحدها حنجرة ؛ فلولا أن الحلوقة ضاقت عنها لخرجت ؛ قاله قتادة . وقيل : هو على معنى المبالغة على مذهب العرب على إضمار كاد ؛ قال :

إذا ما غَضِبْنَا غَضَبَةً مُضَرِّيَةً * هتكا حجاب الشمس أو قطرت دَمًا

أى كادت تقطر . ويقال : إن الرئة تنفتح عند الخوف فيرتفع القلب حتى يكاد يبلغ الحنجرة مثلاً ؛ ولهذا يقال للجبان : انتفخ سحره . وقيل : إنه مثل مضر وب في شدة الخوف ببلوغ القلوب الحناجر وإن لم تزل عن أماكنها مع بقاء الحياة . قال معناه عكرمة . روى حماد ابن زيد عن أبوب عن عكرمة قال : بلغ فزعها . والأظهر أنه أراد اضطراب القلب وضربانه ، أى كأنه لشدة اضطرابه بلغ الحنجرة . والحنجرة والحنجور (بزيادة النون) حرف الحلق . (وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا) قال الحسن : ظن المنافقون أن المسلمين يُستأصلون ، وظن المؤمنون أنهم يُنصرون . وقيل : هو خطاب للمنافقين ؛ أى قلم هلك مجد وأصحابه . وأختلف القراء في قوله تعالى : « الظُّنُونًا ، والرسول ، والسبيل » آخر السورة ؛ فأثبت ألقامها في الوقف والوصل نافع وابن عامر . وروى عن أبي عمرو والكسائي تمسكا بخط المصحف ، مصحف عثمان ، وجميع المصاحف في جميع البلدان . وأختره أبو عبيد ؛ إلا أنه قال : لا ينبغي للقارئ أن يدرج القراءة بعدهن لكن يقف عليهن . قالوا : ولأن العرب تفعل ذلك في قوافي أشعارهم ومصاريحها ؛ قال :

نحن جلبنا القترح القوافلًا * تستنفر الأواخر الأوائلا^(٢٢)

وقرأ أبو عمرو والمجدي ويعقوب وحمزة بحدفها في الوصل والوقف معاً . قالوا : هى زائدة فى الخط كما زادت الألف فى قوله تعالى : « وَلَا أَوْضَعُوا^(٢٣) خِلالَكُمْ » فكاتبوها كذلك ، وغير هذا . وأما الشعر فموضع ضرورة ، بخلاف القرآن فإنه أفصح اللغات ولا ضرورة فيه . قال ابن الأنبارى : ولم يخالف المصحف من قرأ . « الظنون ، والسبيل . والرسول » بغير ألف

(١) القائل هو شاربن برد . (٢) القرح : جمع القارج ، وهى النانة أول ما تحمل .

(٣) هذا يدل على أن رسم المصحف : « وَلَا أَوْضَعُوا » بزيادة ألف .

في الحروف الثلاثة ، وخطهن في المصحف بألف لأن الألف التي في « أطعنا » والداخله في أول « الرسول . والظنون . والسبيل » كفى من الألف المتطرفة المتأخرة كما كَفَتْ أَلْفُ أَبِي جَادٍ مِنْ أَلْفِ هَوَازٍ . وفيه حجة أخرى : أن الألف أنزلت منزلة الفتحة وما يلحق دِعَامَةً للحركة التي تسبق والنية فيه السقوط ؛ فلما نُحْمَلُ على هذا كانت الألف مع الفتحة كالشيء الواحد يوجب الوقف سقوطهما ويعمل على أن صورة الألف في الخط لا توجب موضعاً في اللفظ ، وأنها كالألف في « سُحْرَانِ » وفي « فِطْرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » وفي « وَعَدْنَا مُوسَى » وما يشبهن مما يُحذف من الخط وهو موجود في اللفظ ، وهو مسقط من الخط . وفيه حجة ثالثة هي أنه كتب على لغة من يقول لقيت الرجال . وقرئ على لغة من يقول : لقيت الرجل ، بغير ألف . أخبرنا أحمد بن يحيى عن جماعة من أهل اللغة أنهم رَوَوْا عن العرب قام الرَّجُلُ ، بواو ، ومررت بالرجلي ، بياء ، في الوصل والوقف . ولقيت الرجال ؛ بألف في الحالتين كليهما . قال الشاعر :

أَمَانَةٌ عُمَيْرَةٌ عَنْ أَبِيهَا * خَلَالَ الْجَيْشِ تَعْتَرِفُ الرَّكَابُ^(١)

فأثبت الألف في « الركاب » بناء على هذه اللغة . وقال الآخر :

إِذَا الْجَوْزَاءُ أُرْدِفَتِ الثَّرِيَا * ظَنَنْتِ بَالِ فَاطِمَةَ الظَّنُونَا

وعلى هذه اللغة بنى نافع وغيره . وقرأ ابن كثير وابن محيصن والكسائي بإثباتها في الوقف وحذفها في الوصل . قال ابن الأنباري : ومن وصل بغير ألف ووقف بألف فخائر أن يحتاج بأن الألف احتاج إليها عند السكت حرصاً على بقاء الفتحة ، وأن الألف تدعمها وتقويها .

قوله تعالى : هُنَالِكَ آتُوبُ إِلَى الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾

« هنا » للقريب من المكان . و « هنالك » للبعيد . و « هناك » للوسط . ويشار به إلى الوقت ؛ أي عند ذلك اختبر المؤمنون ليقين المخلص من المنافق . وكان هذا الابتلاء بالخوف والقتال والجوع والحصر والنزال . (وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا) أي حرّكوا تحريكاً .

(١) في الأصول : « وهو موجود في اللفظ ويثبت في اللفظ وهو ... » .

(٢) البيت لبشر بن أبي خازم . واعترف القوم : سألمهم .

قال الزجاج : كل مصدر من المضاعف على فعلال يجوز فيه الكسر والفتح ، نحو قفلقنته قفلا قفلا وقفلا ، وزلزلوا زلزلا وزلزالا . والكسر أجود ؛ لأن غير المضاعف على الكسر نحو دحرجته دحرجا . وقراءة العامة بكسر الزاي . وقرأ عاصم والبخدري « زلزلا » بفتح الزاي . قال ابن سلام : أى حرّكوا بالخوف تحريكا شديدا . وقال الضحاك : هو إزاحتهم عن أماكنهم حتى لم يكن لهم إلا موضع الخندق . وقيل : لأنه اضطرابهم عما كانوا عليه ؛ فمنهم من اضطرب في نفسه ومنهم من اضطرب في دينه . و « هنالك » يجوز أن يكون العامل فيه « أبتلي » فلا يوقف على « هنالك » . ويجوز أن يكون « وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا » فيوقف على « هنالك » .

قوله تعالى : وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾

قوله تعالى : (وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) أى شك ونفاق . (مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا) أى باطلا من القول . وذلك أن طُعْمَةَ بن أَبِيرِقٍ ومُعْتَبِ بن قُشَيْرٍ وجماعة نحو من سبعين رجلا قالوا يوم الخندق : كيف يعدنا كنوز كسرى وقبصر ولا يستطيع أحدنا أن يتبرز ؟ وإنما قالوا ذلك لما فشا في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من قوله عند ضرب الصخرة ، على ما تقدم في حديث النسائي ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَعِذُّنَ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾

قوله تعالى : (وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا) الطائفة نفع على الواحد فما فوقه . وعنى به هنا أوس بن قَيْظِيّ - والد عرابة بن أوس ؛ الذى يقول فيه الشماخ :
إذا ما رايةً رُفِعَتْ لمجد * تلقاها عرابة باليمن

و «يَثْرِب» هي المدينة؛ وسمّاها رسول الله صلى الله عليه وسلم طَيْبَةً وطَابَةَ . وقال أبو عبيدة : يَثْرِب اسم أرض ، والمدينة ناحية منها . السَّهْبِيُّ : وسميت يَثْرِب لأن الذي نزلها من العمالق اسمه يَثْرِب بن عميل بن مهلائيل بن عوض بن عملاق بن لاوذ بن إرم . وفي بعض هذه الأسماء اختلاف ^(١) . وبنو عميل هم الذين سكنوا الجُحْفَةَ فأجحفت بهم السيول فيها . وبها سميت الجحفة . (لَا مُقَامَ لَكُمْ) بفتح الميم قراءة العامة . وقرأ حفص والسلمي والمجدي وأبو حيوة : بضم الميم ؛ يكون مصدرا من أقام يقيم ، أى لا إقامة ، أو موضعا يقيمون فيه . ومن فتح فهو اسم مكان ؛ أى لا موضع لكم تقيمون فيه . (فَارْجِعُوا) أى إلى منازلكم . أمرهم بالهروب من عسكر النبي صلى الله عليه وسلم ، قال ابن عباس : قالت اليهود لعبد الله بن أبيّ ابن سلول وأصحابه من المنافقين : ما الذى يملككم على قتل أنفسكم بيد أبي سفيان وأصحابه ! فارجعوا إلى المدينة فإننا مع القوم فأنتم آمنون .

قوله تعالى : (وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ) فى الرجوع إلى منازلهم بالمدينة ، وهم بنو حارثة ابن الحارث ، فى قول ابن عباس . وقال يزيد بن رومان : قال ذلك أوس بن قبيط عن ملا من قومه . (يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ) أى سائبة ضائعة ليست بحصينة ، وهى مما يلي العدو . وقيل : مُمكنة للسراق لخلوها من الرجال . يقال : دارٌ مُعَوْرَةٌ وذات عَوْرَةٍ إذا كان يسهل دخولها . يقال : عَور المكان عَوْرًا فهو عَوْر . وبيوت عَوْرَة . وأعور فهو مُعَوْر . وقيل : عَوْرَة ذات عَوْرَة . وكل مكان ليس بممنوع ولا مستور فهو عَوْرَة ؛ قاله الهروي . وقرأ ابن عباس وعكرمة ومجاهد وأبو رجاء العطاردي : «عَوْرَة» بكسر الواو ؛ يعنى قصيرة الجدران فيها خلل . تقول العرب : دار فلانٍ عَوْرَة إذا لم تكن حصينة . وقد أعور الفارس إذا بدأ فيه خلل للضرب والطعن ؛ قال الشاعر :

متى تلقهـم لم تلق في البيت مُعَوْرًا * ولا الضيف مفعوجاً ولا الجار مُرْمِلاً

(١) فى كتاب معجم البلدان لياقوت : « يَثْرِب بن قانوة بن مهلائيل بن إرم عييل بن عوض بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام » . (٢) فى معجم البلدان : « وقال الكلبي : إن العمالق أخرجوا بنى عقيل وهم إخوة عاد فنزلوا الجحفة ... » .

الجوهري: والعورة كل خلل يتخوف منه في نعر أو حرب . النحاس : يقال أعور المكان إذا تبين في عورة، وأعور الفارس إذا تبين فيه موضع الخلل . المهدي: ومن كسر الواو في «عورة» فهو شاذ؛ ومثله قولهم : رجل عور؛ أى لاشىء له ، وكان القياس أن يعلّ فيقال : عار؛ كيوم راج ، ورجل مال؛ أصلهما روح ومويل . ثم قال تعالى : (وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ) تكذيباً لهم وردا عليهم فيما ذكروه . (إِنَّ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا) أى ما يريدون إلا الهرب . قيل : من القتل . وقيل : من الدين . وحكى النقاش أن هذه الآية نزلت في قبيلتين من الأنصار : بنى حارثة وبنى سلبية؛ وهما أن يتركوا سراكرهم يوم الخندق ، وفيهم أنزل الله تعالى : « إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا » الآية . فلما نزلت هذه الآية قالوا : والله ما ساءنا ما كنا هممنا به ؛ إذ الله ولينا . وقال السدي : الذى استأذنه منهم رجلان من الأنصار من بنى حارثة أحدهما — أبو عرابة بن أوس ، والآخر أوس بن قبيظى . قال الضحاك : ورجع ثمانون رجلاً بغير إذنه .

قوله تعالى : وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَأَنتَوَهَا وَمَا تَلَبَّسُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾

قوله تعالى : (وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا) وهى البيوت أو المدينة ؛ أى من نواحيها وجوانبها ، الواحد قُطر ، وهو الجانب والناحية . وكذلك القُتر لغة فى القُطر . (ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لِأَنتَوَهَا) أى لجأوها ؛ هذا على قراءة نافع وابن كثير بالقصر . وقرأ الباقون بالمد ؛ أى لأعطوها من أنفسهم ، وهو اختيار أبى عبيد وأبى حاتم . وقد جاء فى الحديث : أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يعدُّون فى الله ويسألون الشرك ، فكل أعطى ما سأله إلا بلالاً . وفيه دليل على قراءة المد ، من الإعطاء . ويبدل على قراءة القصر قوله : « وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ »

(١) اضطربت الأصول هنا ؛ فقد ذكر فى ش : « رجل أعور أى لاشىء له » . وفى ج : « رجل عور كور ... » بالكاف . وفى ك : « رجل عور لور ... » باللام . ولعل الكلمة الأخيرة اتباع ؛ على أننا لم نجدها فى مظاهها .

(٢) أى ذورج وذومال . (٣) راجع ج ٤ ص ١٨٥ .

لَا يُؤْتُونَ الْأَدْبَارَ» ؛ فهذا يدل على «لَا تَوَهَّأ» مقصورا . وفي «الفتنة» هنا وجهان : أحدهما — سئلوا القتال في العصبية لأمرعوا إليه ؛ قاله الضحاك . الثاني — ثم سئلوا الشرك لأجابوا إليه مسرعين ؛ قاله الحسن . (وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا) أى بالمدينة بعد إعطاء الكفر إلا قليلا حتى يهلكوا ؛ قاله السُّدِّيُّ والقُتَيْبِيُّ والحسن والفراء . وقال أكثر المفسرين : أى وما احتبسوا عن فتنة الشرك إلا قليلا ولأجابوا بالشرك مسرعين ؛ وذلك لضعف نياتهم ولفسرت نفاقهم ؛ فلو اختلطت بهم الأحزاب لأظهروا الكفر .

قوله تعالى : وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤْتُونَ الْأَدْبَارَ^ع

وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾

قوله تعالى : (وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ) أى من قبل غزوة الخندق وبعد بدر . قال قتادة : وذلك أنهم غابوا عن بدر ورأوا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة والنصر ، فقالوا ائن شهدنا الله قتالا لنقاتلن . وقال يزيد بن رومان : هم بنو حارثة ، هموا يوم أحد أن يفشلوا مع بنى سَلَمَةَ ، فلما نزل فيهم منازل عاهدوا الله ألا يعودوا لمثلها فذكر الله لهم الذى أعطوه من أنفسهم . (وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا) أى مسئولا عنه . قال مقاتل والكَلْبِيُّ : هم سبعون رجلا بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وقالوا : اشترط لنفسك ولربك ما شئت . فقال : ” اشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا واشترط لنفسى أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأموالكم وأولادكم ” فقالوا : فمالنا إذا فعلنا ذلك يا نبي الله ؟ قال : ” لكم النصر فى الدنيا والجنة فى الآخرة ” . فذلك قوله تعالى : « وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا » أى أن الله ليسألم عنه يوم القيامة .

قوله تعالى : قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ

وَإِذَا لَا تُنْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ ﴾ (أى من حضر أجله مات أو قتل ؛ فلا ينفع الفرار . ﴿ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾) أى فى الدنيا بعد الفرار إلى أن تنقضى آجالكم ؛ وكل ما هو آتٍ فقريب . وروى الساجى عن يعقوب الحضرمي « وَإِذَا لَا يُمْتَعُونَ » بياء . وفى بعض الروايات « وَإِذَا لَا تُمْتَعُوا » نصب بـ « إِذَا » والرفع بمعنى ولا تمتعون . و« إِذَا » ملغاة ، ويجوز إعمالها . فهذا حكمها إذا كان قبلها الواو والفاء . فإذا كانت مبتدأة نصبت بها فقلت : إِذَا أَكْرَمَكَ .

قوله تعالى : قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾
قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ (أى يمنعكم منه . ﴿ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا ﴾) أى هلاكاً . ﴿ أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾) أى خيراً ونصراً وعافية . ﴿ وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾) أى لا قريباً ينفعهم ولا ناصراً ينصرهم .

قوله تعالى : قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ ﴾ (أى المعترضين منكم لأن يصتدوا الناس عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وهو مشتق من عاقى عن كذا أى صرفنى عنه . وعوق ، على التكثير ﴿ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾) على لغة أهل الحجاز . وغيرهم يقولون : « هَلِّمُوا » للجماعة ، وهلمى للراءة ؛ لأن الأصل : « ها » التى للتنبيه صُمت إليها « لَمْ » ثم حذفت الألف استخفافاً وبُنيت على الفتح . ولم يجر فيها الكسر ولا الضم لأنها لا تنصرف . ومعنى « هَلِّم » أقبل ؛ وهؤلاء طائفتان ؛ أى منكم من يثبط ويعوق . والعوق المنع والصرف ؛ يقال : عاقه يعوقه عوقاً ، وعوقه واعتاقه بمعنى واحد . قال مقاتل : هم عبد الله بن أبي وأصحابه المنافقون .

« وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ » فيهم ثلاثة أقوال : أحدها — أنهم المنافقون ؛ قالوا للمسلمين : ما مجد وأصحابه إلا أكلة رأس ، وهو هالك ومن معه ، فهلم إلينا . الثاني — أنهم اليهود من بنى قريظة ؛ قالوا لإخوانهم من المنافقين : هلم إلينا ؛ أى تعالوا إلينا وشاركوا معنا فإنه هالك ، وإن أبا سفيان إن ظفر لم يبق منكم أحدا . والثالث — ما حكاه ابن زيد : أن رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بين الرماح والسيوف ؛ فقال أخوه — وكان من أمه وأبيه — : هلم إلى ، قد تبع بك وبصاحبك ؛ أى قد أحيط بك وبصاحبك . فقال له : كذبت ، والله لأخبرنه بأمرك ؛ وذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخبره ، فوجده قد نزل عليه جبريل عليه السلام بقوله تعالى : « قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا » . ذكره الماوردي والثعلبي أيضا . ولفظه : قال ابن زيد هذا يوم الأحزاب ، انطلق رجل من عند النبي صلى الله عليه وسلم فوجد أخاه بين يديه رغيف وشواء ونبيذ ؛ فقال له : أنت في هذا ونحن بين الرماح والسيوف ؟ فقال : هلم إلى هذا فقد تبع لك ولأصحابك ، والذي تحلف به لا يستقل بها مجد أبدا . فقال : كذبت . فذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم يخبره فوجده قد نزل عليه جبريل بهذه الآية . (وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا) خوفا من الموت . وقيل : لا يحضرون القتال إلا رياءً وسُمتة .

قوله تعالى : أَشِحَّةٌ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُومٌ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾

قوله تعالى : (أَشِحَّةٌ عَلَيْكُمْ) أى بخلاء عليكم ؛ أى بالحفر في الخندق والنفقة في سبيل الله ؛ قاله مجاهد وقتادة . وقيل : بالقتال معكم . وقيل : بالنفقة على فقرائكم ومساكينكم .

(١) أى هم قليل يشبههم رأس واحد ؛ وهو جمع أكل .

وقيل : أشحّة بالفنائم إذا أصابوها ؛ قاله السدي . وانتصب على الحال . قال الزجاج :
ونصبه عند الفراء من أربع جهات : إحداها - أن يكون على الذم ؛ ويجوز أن يكون
عنده نصبا بمعنى يعوقون أشحّة . ويجوز أن يكون التقدير : والفائلين أشحّة . ويجوز عنده
[« وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا » أشحّة ؛ أي أنهم يأتونه أشحّة على الفقراء بالغنيمة ^(١)] . النحاس :
ولا يجوز أن يكون العامل فيه « المعوقين » ولا « الفائلين » ؛ لئلا يفرق بين الصلوة
والموصول . ابن الأنباري : « إِلَّا قَلِيلًا » غير تام ؛ لأن « أَشْحَتَهُ » متعلق بالأول ، فهو
ينتصب من أربعة أوجه : أحدها - أن تنصبه على القطع من « المعوقين » كأنه قال :
قد يعلم الله الذين يعوقون عن القتال ويشجون عن الإنفاق على فقراء المسلمين . ويجوز أن
يكون منصوبا على القطع من « الفائلين » أي وهم أشحّة . ويجوز أن تنصبه على القطع مما
في « يأتون » ؛ كأنه قال : ولا يأتون البأس إلا جبنا بخلاء . ويجوز أن تنصب « أشحّة » على
الذم . فن هذا الوجه الرابع يحسن أن تقف على قوله : « إِلَّا قَلِيلًا » . « أَشْحَتَهُ عَلَيْكُمْ »
وقف حسن . ومثله « أَشْحَتَهُ عَلَى الْخَيْرِ » حال من المضمرفي « سَلَقُوكُمْ » وهو العامل فيه .
(فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ) وصفهم
بالجن ؛ وكذا سبيل الجبان ينظر يمينا وشمالا محمدا بصره ، وربما غشى عليه . وفي « الْخَوْفُ »
وجهان : أحدهما - من قتال العدو إذا أقبل ؛ قاله السدي . الثاني - الخوف من النبي
صلى الله عليه وسلم إذا غاب ؛ قاله ابن شجرة . « رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ » خوفا من القتال على
القول الأول . ومن النبي صلى الله عليه وسلم على الثاني . « تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ » لذهاب عقولهم
حتى لا يصح منهم النظر إلى جهة . وقيل : لشدة خوفهم حذرا أن يأتهم القتل من كل جهة .
(فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ) وحكى الفراء « صَلَقُوكُمْ » بالصاد . وخطيب
مِصْلَاقٍ وَمِصْلَاقٍ إِذَا كَانَ بَلِيغًا . وأصل الصلأق الصوت ؛ ومنه قول النبي صلى الله عليه
وسلم : « لعن الله الصالقة والخالقة والشاقّة » . قال الأعشى :

(١) ما بين المربعين من كتاب النحاس وهو واضح . وعبرة الأصول : « ولا يأتون البأس إلا قليلا ، يأتونه
أشحّة ؛ أي أشحّة على الفقراء بالغنيمة جبنا » .

فيهم المجد والسماحة والنج. * مَدَّةٌ فِيهِمْ وَالخَاطِبُ السَّلَاقُ^(١)

قال قتادة : ومعناه بسطوا ألسنتهم فيكم في وقت قسمة الغنيمة ، يقولون : أعطنا أعطنا ، فإننا قد شهدنا معكم . فعند الغنيمة أشخ قويم وأبسطهم لسانا ، ووقت البأس أجبن قويم وأخوفهم . قال النحاس : هذا قول حسن ؛ لأن بعده « أَشِحَّةٌ عَلَى الْخَيْرِ » . وقيل : المعنى بالغوا في محاصمتكم والاحتجاج عليكم . وقال القتيبي : المعنى آذوكم بالكلام الشديد . السلق : الأذى . ومنه قول الشاعر :

ولقد سلقنا هوازنا * بنواهلٍ حتى انحنينا

« أَشِحَّةٌ عَلَى الْخَيْرِ » أى على الغنيمة ؛ قاله يحيى بن سلام . وقيل : على المال أن ينفقوه في سبيل الله ؛ قاله السدي . « أَوْلَيْكَ لَمْ يُؤْمِنُوا » يعنى بقلوبهم وإن كان ظاهرهم الإيمان ؛ والمنافق كافر على الحقيقة لوصف الله عز وجل لهم بالكفر . (فَأَحْبَبَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ) أى لم يثبهم عليها ؛ إذا لم يقصدوا وجه الله تعالى بها . (وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا) يحتمل وجهين : أحدهما - وكان نفاقهم على الله هينا . الثانى - وكان إحباط عملهم على الله هينا .

قوله تعالى : **يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا** ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : (**يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا**) أى لجنهم ؛ يظنون الأحزاب لم ينصرفوا وكانوا انصرفوا ، ولكنهم لم يتباعدوا في السير . (**وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ**) أى وإن يرجع الأحزاب إليهم للقتال . (**يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ**) تمنوا أن يكونوا مع الأعراب حذرا من القتل وتربصا للدوائر . وقرا طلحة بن مصرف « **لَوْ أَنَّهُمْ بُدِي فِي الْأَعْرَابِ** » ؛ يقال : **بادٍ وبُدِي** ؛ مثل غازٍ وغزى . ويمد مثل صائم وصوام . بدا فلان يبدو إذا خرج

(١) ويروى : « السلاق » . (٢) فى الأصول : « أشخه عليكم » .

(٣) عبارة الأصول : « لوصف الله عز وجل بالكفر » وهو خطأ .

إلى البادية . وهى البداوة والبداوة ؛ بالكسر والفتح . وأصل الكلمة من البَدُو وهو الظهور .
 ﴿ يَسْأَلُونَ ﴾ وقرأ يعقوب فى رواية رُويس « يتساءلون عن أنباءكم » أى عن أخبار النبىِّ
 صلى الله عليه وسلم . يتحدثون : أما هلك عهد وأصحابه ! أما غلب أبو سفيان وأحزابه ! أى
 يودوا لو أنهم بادون سائلون عن أنباءكم من غير مشاهدة القتال لقرط جبنهم . وقيل : أى
 هم أبداً لجبنهم يسألون عن أخبار المؤمنين ، وهل أصيبوا . وقيل : كان منهم فى أطراف
 المدينة من لم يحضر الخندق ، جعلوا يسألون عن أخباركم ويتمنون هزيمة المسلمين . ﴿ وَأَوْكَانُوا
 فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً ﴾ أى رمياً بالنبل والحجارة على طريق الرياء والسمعة ؛ ولو كان ذلك
 لله لكان قليله كثيراً .

قوله تعالى : لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ
 يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾
 فيه مسألان .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ هذا عتاب للتخلفين
 عن القتال ؛ أى كان لكم قدوة فى النبىِّ صلى الله عليه وسلم حيث بذل نفسه لنصرة دين الله
 فى خروجه إلى الخندق . والأسوة القدوة . وقرأ عاصم « أسوة » بضم الهمزة . الباقون
 بالكسر ؛ وهما لغتان . والجمع فيهما واحد عند الفراء . والعلّة عنده فى الضم على لغة من كسر
 فى الواحدة : الفرق بين ذوات الواو وذوات الياء ؛ فيقولون كِسْوَةٌ وكُسَاءٌ ، ولِحِيَةٌ ولِحَىٌّ .
 الجوهريّ : والأسوة والإسوة بالضم والكسر لغتان . والجمع أُسَىٌّ وإِسَىٌّ . وروى عقبه
 ابن حسان الهجرى عن مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ
 أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ » قال : فى جوع النبىِّ صلى الله عليه وسلم ؛ ذكره الخطيب أبو بكر أحمد وقال :
 تفرد به عقبه بن حسان عن مالك ، ولم أكتبه إلا بهذا الإسناد .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ أُسْوَةٌ ﴾ الأسوة القدوة . والأسوة ما يتأسى به ؛ أى يتعزى به .
 فيقتدى به فى جميع أفعاله ويتعزى به فى جميع أحواله ؛ فلقد شجَّ وجهه ، وكسرت رباعيته ،

وَقُتِلَ عَمَّهُ حَمْزَةً « وَجَاعَ بَطْنُهُ ، وَلَمْ يُلَفَّ إِلَّا صَابِرًا مُحْتَسِبًا ، وَشَاكَرًا رَاضِيًا . وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ أَبِي طَلْحَةَ قَالَ : شَكُونَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْجُوعَ وَرَفَعْنَا [عَنْ بَطُونِنَا] ^(١) عَنْ تَجَرِّحِجْرٍ ، فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ حَجْرَيْنِ . خَرَجَهُ أَبُو عَيْسَى التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ فِيهِ : حَدِيثٌ غَرِيبٌ . وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَا سُئِلَ : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » ، وَقَدْ تَقَدَّمَ . ﴿ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ : الْمَعْنَى لِمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ بِإِيمَانِهِ وَيَصَدَّقُ بِالْبَعْثِ الَّذِي فِيهِ جَزَاءُ الْأَفْعَالِ . وَقِيلَ : أَيْ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو ثَوَابَ اللَّهِ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ . وَلَا يَجُوزُ عِنْدَ الْحَذَاقِ مِنَ النَّحْوِيِّينَ أَنْ يَكْتُبَ « يَرْجُو » إِلَّا بِغَيْرِ أَلْفٍ إِذَا كَانَ لِوَاحِدٍ ؛ لِأَنَّ الْعِلَّةَ الَّتِي فِي الْجَمْعِ لَيْسَتْ فِي الْوَاحِدِ . ﴿ وَذَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا ﴾ خَوْفًا مِنْ عِقَابِهِ ، وَرَجَاءً لِثَوَابِهِ . وَقِيلَ : إِنْ « لِمَنْ » بَدَلَ مِنْ قَوْلِهِ : « لَكُمْ » وَلَا يَجِيزُهُ الْبَصْرِيُّونَ ؛ لِأَنَّ الْغَائِبَ لَا يَبْدَلُ مِنَ الْمَخَاطَبِ ، وَإِنَّمَا اللَّامُ مِنْ « لِمَنْ » مُتَعَلِّقَةٌ بِ« حَسَنَةً » ، وَ« أُسْوَةً » اسْمُ « كَانَ » وَ« لَكُمْ » الْخَبَرُ . وَأَخْتَلَفَ فِيمَنْ أُرِيدُ بِهَذَا الْخَطَابِ عَلَى قَوْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا — الْمُنَافِقُونَ ؛ عَطْفًا عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ خَطَابِهِمْ . الثَّانِي — الْمُؤْمِنُونَ ؛ لِقَوْلِهِ : « لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ » .

وَأَخْتَلَفَ فِي هَذِهِ الْأُسْوَةِ بِالرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، هَلْ هِيَ عَلَى الْإِيجَابِ أَوْ عَلَى الْاسْتِحْبَابِ ؛ عَلَى قَوْلَيْنِ : ﴿ أَحَدُهُمَا — عَلَى الْإِيجَابِ حَتَّى يَقُومَ دَلِيلٌ عَلَى الْاسْتِحْبَابِ . الثَّانِي — عَلَى الْاسْتِحْبَابِ حَتَّى يَقُومَ دَلِيلٌ عَلَى الْإِيجَابِ . وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَجْمَلَ عَلَى الْإِيجَابِ فِي أُمُورِ الدِّينِ ، وَعَلَى الْاسْتِحْبَابِ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا .

قَوْلُهُ تَعَالَى : وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ ﴾ وَمِنَ الْعَرَبِ مَنْ يَقُولُ : « رَأَى » عَلَى الْقَلْبِ . ﴿ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ ﴾ يُرِيدُ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ

(١) زِيَادَةٌ عَنْ سَنَنِ التِّرْمِذِيِّ .

تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ^(١)» الآية . فلما رأوا الأحزاب يوم الخندق قالوا : « هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ » ، قاله قتادة . وقول ثانٍ رواه كثير بن عبد الله بن عمرو المزني عن أبيه عن جده قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم عام ذكرت الأحزاب فقال : « أخبرني جبريل عليه السلام أن أمتي ظاهرة عليها — يعني على قصور الحيرة ومدائن كسرى — فأبشروا بالنصر » فاستبشر المسلمون وقالوا : الحمد لله ، موعد صادق ؛ إذ وعدنا بالنصر بعد الحصر . فطلعت الأحزاب فقال المؤمنون : « هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ » ذكره الماوردي . و « مَا وَعَدَنَا » إن جعلت « ما » بمعنى الذي فالهاء محذوفة . وإن جمعتها مصدرًا لم تحتاج إلى عائد (وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا) قال الفراء : وما زادهم النظر إلى الأحزاب . وقال علي بن سليمان : « رأى » يدل على الرؤية ، وتأنيث الرؤية غير حقيقي ، والمعنى : ما زادهم الرؤية إلا إيمانًا بالرب وتسليمًا للقضاء ، قاله الحسن ، ولو قال : ما زادوهم لحاز . ولما أشتد الأمر على المسلمين وطال المقام في الخندق ، قام عليه السلام على التل الذي عليه مسجد الفتح في بعض الليالي ، وتوقع ما وعده الله من النصر وقال : « من يذهب ليأتينا بنجرهم وله الجنة » فلم يجبه أحد . وقال ثانياً وثالثاً فلم يجبه أحد ، فنظر إلى جانبه وقال : « من هذا ؟ » فقال حذيفة . فقال : « ألم تسمع كلامي منذ الليلة ؟ » قال حذيفة : فقلت يا رسول الله ، منغى أن أجيبك الضرّ والقُرّ . قال : « انطلق حتى تدخل في القوم فتسمع كلامهم وتأينني بنجرهم . اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله حتى ترده إلى » ، انطلق ولا يتحدث شيئاً حتى تأتيني » . فانطلق حذيفة بسلاحه ، ورفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده يقول : « يا صريح المكروبين ويا مجيب المضطرين اكشف همي وغمي وكربي فقد ترى حالي وحال أصحابي » . فنزل جبريل وقال : « إن الله قد سمع دعوتك وكفالك هول عدوك » فخر رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبته وبسط يديه وأرغى عينيه وهو يقول : « شكراً شكراً كما رحمتني ورحمت أصحابي » . وأخبره جبريل أن الله تعالى مرسل عليهم ريحاً ، فبشر أصحابه بذلك ،

قال حذيفة : فاتتهت إليهم وإذا نيرانهم تُتقد؛ فأقبلت ريح شديدة فيها حصباء فما تركت لهم نارا إلا أطفأتها ولا بناء إلا طرحته، وجعلوا يترسون من الحصباء . وقام أبو سفيان إلى راحلته وصاح في قريش : النجاء النجاء ! وفعل كذلك عيينة بن حصن والحارث بن عوف والأقرع ابن حابس . وتفترقت الأحزاب ، وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاد إلى المدينة وبه من الشعث ما شاء الله ، بخاءته فاطمة بغسول فكانت تغسل رأسه ، فاتاه جبريل فقال : "وضعت السلاح ولم تضعه أهل السماء، ما زلت أتبعهم حتى جاوزت بهم الروحاء - ثم قال - انهض إلى بنى قريظة" . وقال أبو سفيان : ما زلت أسمع قعقة السلاح حتى جاوزت الروحاء .

قوله تعالى : **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبُهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّا اللَّهُ كَانُ غُفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾**

قوله تعالى : **(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ)** رفع بالابتداء، وصلح الابتداء بالنكرة لأن «صَدَقُوا» في موضع النعت . **(فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبُهُ)** . «مَن» في موضع رفع بالابتداء . وكذا «وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ» والخبر في المجرور . والنَّجْبُ : النذر والعهد؛ تقول منه : نَجَبْتُ أَنْجَبْتُ ؛ بالضم . قال الشاعر :

وإذا نجبت كلبٌ على الناس إنهم * أحق بتاج الماجد المتكرم

وقال آخر :

* قد نحب المجد علينا نحباً^(١) *

وقال آخر :

* أنحب فيقضى أم ضلال وباطل^(٢) *

(١) قبله : * باعمر ورويان الأكرمين ندبا *

(٢) هذا بجزيت للبيد، وصدده : * ألا تسألان المرء ماذا يجاول *

وروى البخاري ومسلم والترمذي عن أنس قال : قال عمي أنس بن النضر — سُميت به — ولم يشهد بدرًا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكُبر عليه فقال : أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبتُ عنه ، أما والله لئن أراني الله مشهدًا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بعد ليرين الله ما أصنع . قال : فهاب أن يقول غيرها ؛ فشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحد من العام القابل ، فاستقبله سعد بن مالك فقال : يا أبا عمرو أين ؟ قال : وأهل الجنة^(١) ! أجدها دون أُحد ؛ فقاتل حتى قُتل ، فوجد في جسده بضع وثمانون ما بين ضربة وطعنة ورمية . فقالت عمتي الربيع بنت النضر : فما عرفت أني إلا بئتانه ، ونزلت هذه الآية « رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا » لفظ الترمذي ، وقال : هذا حديث حسن صحيح . وقالت عائشة رضي الله عنها في قوله تعالى « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ » الآية : منهم طلحة بن عبيد الله ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أصيبت يده ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أوجب طلحة الجنة » . وفي الترمذي عنه : أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا للأعرابي جاهل : سألته عن قضى نجبته من هو ؟ وكانوا لا يجترئون على مسألته ، يوقرونه ويهابونه ؛ فسأله الأعرابي فأعرض عنه ، ثم سأله فأعرض عنه ؛ ثم إنني أطلعت من باب المسجد وعلى ثياب خضر ، فلما رأني النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أين السائل عن قضى نجبته ؟ » قال الأعرابي : أنا يا رسول الله . قال : « هذا ممن قضى نجبته » قال : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث يونس بن بكير . وروى البيهقي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انصرف من أُحد ، مرَّ على مصعب بن عمير وهو مقتول على طريقه ، فوقف عليه ودعا له ، ثم تلا هذه الآية : « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَجْبَهُ — إلى — تَبْدِيلًا » ثم قال رسول الله صلى الله عليه

(١) هذه الكلمة توضع موضع الإعجاب بالشيء .

(٢) أوجب الرجل : إذا فعل فعلاً وجبت له به الجنة أو النار .

وسلم : " أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة فأتوهم وزورهم والذي نفسى بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه " . وقيل : النحب الموت ؛ أى مات على ما عاهد عليه ؛ عن ابن عباس . والنحب أيضا الوقت والمدة . يقال : قضى فلان نحبه إذا مات . وقال ذو الرقة :

عِشِيَّةَ فَرَّ الْحَارِثِيُّونَ بَعْدَ مَا * قَضَى نَحْبَهُ فِي مَلْتَقَى الْخَيْلِ هُوَ بَرٌّ

والنحب أيضا الحاجة والهمة ؛ يقول قائلهم : مالى عندهم نحب ؛ وليس المراد بالآية . والمعنى فى هذا الموضع بالنحب النذر كما قدمنا أولا ؛ أى منهم من بذل جهده على الوفاء بعهده حتى قتل ؛ مثل حمزة وسعد بن معاذ وأنس بن النضر وغيرهم . ومنهم من ينتظر الشهادة وما بدلوا عهدهم ونذرهم . وقد روى عن ابن عباس أنه قرأ « فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمِنْهُمْ مَنْ بَدَّلَ تَبْدِيلًا » . قال أبو بكر الأنبارى : وهذا الحديث عند أهل العلم مردود ؛ لخلافه الإجماع ، ولأن فيه طعنا على المؤمنين والرجال الذين مدحهم الله وشرفهم بالصدق والوفاء ؛ فما يعرف فيهم مغير وما وجد من جماعتهم مبتدل ؛ رضى الله عنهم . ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ أى أمر الله بالجهاد ليجزى الصادقين فى الآخرة بصدقهم . ﴿ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ ﴾ فى الآخرة ﴿ إِنْ شَاءَ ﴾ أى إنا شاء أن يعذبهم لم يوفقهم للتوبة ؛ وإن لم يشأ أن يعذبهم تاب عليهم قبل الموت . ﴿ إِنْ أَلَّكَ اللَّهُ كَفَرًا ﴾ .

قوله تعالى : وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى

اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ﴾ قال محمد بن عمرو يرفعه

إلى عائشة : قالت « الَّذِينَ كَفَرُوا » هاهنا أبو سفيان وعيينة بن بدر ، رجع أبو سفيان إلى تهامة ، ورجع عيينة إلى نجد . ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ بأن أرسل عليهم ريحا وجنودا حتى رجعوا ورجعت بنو قريظة إلى صياصبيهم ؛ فكفى أمر قريظة بالربح . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا ﴾ أمره ﴿ عَزِيمًا ﴾ لا يُغَاب .

قوله تعالى : وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾
 وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : (وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ) يعنى الذين عاونوا الأحزاب : قريشا وخطفان ، وهم بنو قريظة . وقد مضى خبرهم . (مِنْ صَيَاصِيهِمْ) أى حصونهم ؛ واحدا صيصة . قال الشاعر :

فأصبحت الثيران صرعى وأصبحت * نساء تميم يتدزن الصياصيا^(١)

ومنه قيل لشوكة الحائك التى بها يسوى السداة والخمعة : صيصة . قال دريد بن الصمة :

لجئت إليه والراح تنوشه * كوقع الصياصى فى النسيج المتمد

ومنه : صيصة الديك التى فى رجله . وصياصى البقر قرونها ؛ لأنها تمنع بها . وربما كانت تركب فى الرماح مكان الأسنة ؛ ويقال : جد الله صيصته ؛ أى أصله . (وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ) وهم الرجال . (وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا) وهم النساء والذرية ؛ على ما تقدم . (وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْعُوهَا) بعد . قال يزيد ابن رومان وابن زيد ومقاتل : يعنى حنين ؛ ولم يكونوا نالوها ، فوعدهم الله إياها . وقال قتادة : كما نتحدث أنها مكة . وقال الحسن : هى فارس والروم . وقال عكرمة : كل أرض تفتح إلى يوم القيامة . (وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا) فيه وجهان : أحدهما — على ما أراد بعباده من نقمة أو عفوقدير ؛ قاله محمد بن إسحاق . الثانى — على ما أراد أن يفتحه

(١) البيت لعبد بنى الحساس ، وقد أورده صاحب اللسان شاهدا على أن صياصى البقر قرونها ؛ وروايته فى البيت :

فأصبحت الثيران غرق وأصبحت * نساء تميم يلتظن الصياصيا

أى يلتظن القرون لينسجن بها ، يريد لكثرة المطر غرق الوحش .

من الحصون والقرى قدير؛ قاله النقاش . وقيل : « وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ عَاصِمًا » مما وعدكموه « قَدِيرًا » لا ترد قدرته ولا يجوز عليه العجز تعالى . ويقال : تأسرون وتأسرون (بكسر السين وضمها) حكاة الفراء .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأَسْرِحْكِنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

فيه ثمانى مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ) قال علماءنا : هذه الآية متصلة بمعنى ما تقدم من المنع من إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وكان قد تأذى ببعض الزوجات . قيل : سألته شيئاً من عرض الدنيا . وقيل : زيادة فى النفقة . وقيل : أذنبه بغيرة بعضهن على بعض . وقيل : أمر صلى الله عليه وسلم بتلاوة هذه الآية عليهن وتخييرهن بين الدنيا والآخرة . وقال الشافعى رحمه الله تعالى : إن من ملك زوجة فليس عليه تخييرها . أمر صلى الله عليه وسلم أن يخير نساءه فأخترته . وجملة ذلك أن الله سبحانه خير النبي صلى الله عليه وسلم بين أن يكون نبياً ملكاً وعرض عليه مفاتيح خزائن الدنيا ، وبين أن يكون نبياً مسكيناً ؛ فشاور جبريل فأشار عليه بالمسكنة فاخترها ؛ فلما اختارها وهى أعلى المنزلتين ، أمره الله عز وجل أن يخير زوجاته ؛ فربما كان فيهن من يكره المقام معه على الشدة تنزيهاً له . وقيل : إن السبب الذى أوجب التخيير لأجله ، أن امرأة من أزواجه سألته أن يصوغ لها حلقة من ذهب ، فصاغ لها حلقة من فضة وطلاها بالذهب — وقيل بالزعفران — فأبت إلا أن تكون من ذهب ؛ فترأت آية التخيير فخبرهن ، فقلن اخترنا الله ورسوله . وقيل : إن واحدة منهن اختارت الفراق . فأنه أعلم . روى البخارى ومسلم — واللفظ لمسلم — عن جابر بن عبد الله قال : دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، فوجد الناس جلوساً ببابه لم يؤذن لأحد منهم ، قال : — فأذن لأبي بكر فدخل ، ثم جاء عمر فاستأذن فأذن له ، فوجد النبي صلى الله عليه وسلم جالسا حوله نساؤه واجماً ساكناً — قال : — فقال والله لأقولن شيئاً أضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، لو رأيت بنت خارقة سألتني النفقة فقمتُ إليها فوجأتُ عنقها ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : ” هن حولي كما ترى يسألنني النفقة ” فقام أبو بكر إلى عائشة ينجأ عنقها ، وقام عمر إلى حفصة ينجأ عنقها ، كلاهما يقول : تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده ! ! فقلن : والله لا نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً أبداً ليس عنده . ثم اعترطن شهراً أو تسعاً وعشرين . ثم نزلت عليه هذه الآية : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ — حتى بلغ — لَلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا » . قال : فبدأ بعائشة فقال : ” يا عائشة ، إني أريد أن أعرض عليك أمراً أحبُّ ألا تعجلي فيه حتى تستشيرى أبويك ” قالت : وما هو يا رسول الله ؟ فتلا عليها الآية . قالت : أفيك يا رسول الله أستشير أبوي ! بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة ، وأسألك ألا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت . قال : ” لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها ، إن الله لم يبعثني معتناً ولا مُتعتناً ولكن بعثني معلماً ميسراً ” . وروى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتخيير أزواجه بدأ بي فقال : ” يا عائشة ، إني ذاكر لك أمراً فلا عليك ألا تستعجلي حتى تستأمرى أبويك ” قالت : وقد علم أن أبوي لم يكونا ليأمراني بفراقه ، قالت ثم قال : ” إن الله يقول : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا — حتى بلغ — لَلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا » ” فقلت : أفى هذا أستأمر أبوي ! فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة ، وفعل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم مثل ما فعلت . قال : هذا حديث حسن صحيح . قال العلماء : وأما أمر النبي صلى الله عليه وسلم عائشة أن تشاور أبويها لأنه كان يحبها ، وكان يخاف أن يحملها فرط الشباب على أن تختار فراقه ، ويعلم من أبويها أنها لا يشيران عليها بفراقه .

الثانية - قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ ﴾ كان للنبي صلى الله عليه وسلم أزواج ، منهن من دخل بها ، ومنهن من عقد عليها ولم يدخل بها ، ومنهن من خطبها فلم يتم نكاحه معها .
 فأولهن : خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب . وكانت قبله عند أبي هالة واسمه زرارة بن النباش الأسدي ، وكانت قبله عند عتيق بن عائذ ، ولدت منه غلاما اسمه عبد مناف . وولدت من أبي هالة هند بن أبي هالة ، وعاش إلى زمن الطاعون فمات فيه . ويقال : إن الذي عاش إلى زمن الطاعون هند بن هند ، وسمعت نادبته تقول حين مات : واهند بن هنداه ، واربيب رسول الله . ولم يتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم على خديجة غيرها حتى ماتت . وكانت يوم تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنت أربعين سنة ، وتوفيت بعد أن مضى من النبوة سبع سنين ، وقيل : عشر . وكان لها حين توفيت خمس وستون سنة . وهي أول امرأة آمنت به . وجميع أولاده منها غير إبراهيم . قال حكيم بن حزام : توفيت خديجة فخرجنا بها من منزلها حتى دفناها بالنجفون ؛ ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في حفرتها ، ولم تكن يومئذ سنة الجنازة الصلاة عليها .

ومنهن : سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس العاصرية ، أسلمت قديما وبايعت ، وكانت عند ابن عم لها يقال له السكران بن عمرو ؛ وأسلم أيضا ، وهاجرا جميعا إلى أرض الحبشة في الهجرة الثانية ، فلما قدما مكة مات زوجها . وقيل : مات بالحبشة ؛ فلما حلت خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتزوجها ودخل بها بمكة ، وهاجرها إلى المدينة ؛ فلما كبرت أراد طلاقها فسألته ألا يفعل وأن يدعها في نسائه ، وجعلت ليلتها لعائشة - حسبما هو مذكور في الصحيح - فأمسكها ، وتوفيت بالمدينة في شوال سنة أربع وخمسين .

ومنهن : عائشة بنت أبي بكر الصديق ، وكانت مسماة بلحبير بن مطيم ، فخطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال أبو بكر : يا رسول الله ، دعني أسألك من جبير سلا رقيقا ؛ فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قبل الهجرة بستين ، وقيل بثلاث سنين ؛ وبني بها بالمدينة

(١) في كتب الصحابة أقوال فيمن كان قبل .

وهي بنت تسع ، وبقيت عنده تسع سنين ، ومات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي بنت ثمان عشرة ، ولم يتزوج بكرا غيرها ، وماتت سنة تسع وخمسين ، وقيل ثمان وخمسين .

ومنهن : حفصة بنت عمر بن الخطاب القرشية العدوية ، تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم طلقها ، فأناه جبريل فقال : " إن الله يأمرك أن تراجع حفصة فإنها صوامة قوامة " فراجعها . قال الواقدي : وتوفيت في شعبان سنة خمس وأربعين في خلافة معاوية ، وهي ابنة ستين سنة . وقيل : ماتت في خلافة عثمان بالمدينة .

ومنهن : أم سلمة ، واسمها هند بنت أبي أمية المخزومية — واسم أبي أمية سهيل — تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليال بقين من شوال سنة أربع ، زوجها منه أنها سلمة على الصحيح ، وكان عمرُ ابنها صغيرا ، وتوفيت في سنة تسع وخمسين . وقيل : سنة ثنتين وستين ، والأول أصح . وصلى عليها سعيد بن زيد . وقيل أبو هريرة . وقُبرت بالبقيع وهي ابنة أربع وثمانين سنة .

ومنهن ، أم حبيبة ، واسمها رَملة بنت أبي سفيان . بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ، ليخطب عليه أم حبيبة فزوجه إياها ، وذلك سنة سبع من الهجرة ، وأصدق النجاشي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين ديناراً ، وبعث بها مع شرحبيل بن حسنة ، وتوفيت سنة أربع وأربعين . وقال الدارقطني : كانت أم حبيبة تحت عبيد الله بن جحش فمات بأرض الحبشة على النصرانية ، فزوجه النجاشي النبي صلى الله عليه وسلم ، وأمهرها عنه أربعة آلاف ، وبعث بها إليه مع شرحبيل بن حسنة .

ومنهن : زينب بنت جحش بن رثاب الأسدية ، وكان اسمها برة فسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب ، وكان اسم أبيها برة ، فقالت : يا رسول الله ، بدل اسم أبي فإن البرة حقيرة ، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : " لو كان أبوك مؤمنا سميناها باسم رجل منا أهل البيت ولكني قد سميتها جحشا وجحش من البرة " ذكر هذا الحديث الدارقطني . تزوجه

رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة في سنة خمس من الهجرة ، وتوفيت سنة عشرين ،
وهي بنت ثلاث وخمسين .

ومنهنّ : زينب بنت خُديمة بن الحارث [بن عبد الله] بن عمرو بن عبد مناف بن هلال
ابن عامر بن صعصعة الهلالية ، كانت تسمى في الجاهلية أمّ المساكين ، لإطعامها إياهم .
تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان على رأس واحد وثلاثين شهرا من الهجرة ،
فمكثت عنده ثمانية أشهر ، وتوفيت في حياته في آخر ربيع الأول على رأس تسعة وثلاثين
شهرا ، ودفنت بالبقيع .

ومنهنّ : جُويرة بنت الحارث بن أبي ضرار الخُزاعية المُصطَلِقيّة ، أصابها في غزوة بني
المُصطَلِق فوقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس فكاتبها ؛ فقتل رسول الله صلى الله عليه
وسلم كتابتها وتزوجها ، وذلك في شعبان سنة ست ، وكان اسمها برة فسماها رسول الله صلى
الله عليه وسلم جُويرة ، وتوفيت في ربيع الأول سنة ست وخمسين . وقيل : سنة خمسين ،
وهي ابنة خمس وستين .

ومنهنّ : صفية بنت حُيَيّ بن أخطب الهارونية ، سبها النبي صلى الله عليه وسلم يوم خيبر
واصطفها لنفسه ، وأسلمت وأعتقها ، وجعل عتقها صداقها . وفي الصحيح : أنها وقعت
في سهم دحية الكلبي فاشتراها رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبعة أرؤس ، وماتت في سنة
خمسین . وقيل : سنة اثنتين وخمسين ، ودفنت بالبقيع .

ومنهنّ : ریحانة بنت زيد بن عمرو بن خُنافة من بني النضير ، سبها رسول الله صلى الله
عليه وسلم وأعتقها ، وتزوجها في سنة ست ، وماتت مَرَجَعَه من حجة الوداع ، فدفنها بالبقيع .
وقال الواقديّ : ماتت سنة ست عشرة وصلى عليها عمر . قال أبو الفرج الجوزيّ : وقد
سمعت من يقول : إنه كان يطؤها يملك اليمين ولم يعتقها .

قلت : ولهذا والله أعلم لم يذكرها أبو القاسم عبد الرحمن السهيلي في عداد أزواج النبي
صلى الله عليه وسلم .

ومنهن : ميمونة بنت الحارث الهلالية ، تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بسيرف على عشرة أميال من مكة ، وذلك في سنة سبع من الهجرة في عمرة القضيّة ، وهي آخر امرأة تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقدّر الله تعالى أنها ماتت في المكان الذي بنى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بها ، ودفنت هناك ، وذلك في سنة إحدى وستين . وقيل : ثلاث وستين . وقيل ثمان وستين .

فهؤلاء المشهورات من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، وهنّ اللاتي دخل بهن ؛ رضى الله عنهن .

فأما من تزوجهن ولم يدخل بهن ؛ فمنهن : الكلابية . واختلفوا في أسمها ؛ فقيل فاطمة . وقيل عمرة . وقيل العالية . قال الزهري : تزوج فاطمة بنت الضحاك الكلابية فاستعادت منه فطلقها ، وكانت تقول : أنا الشقيّة . تزوجها في ذي القعدة سنة ثمان من الهجرة ، وتوفيت سنة ستين .

ومنهن : أسماء بنت النعمان بن الحنّون بن الحارث الكنديّة ، وهي الجونية . قال قتادة : لما دخل عليها دعاها فقالت : تعال أنت ، فطلقها . وقال غيره : هي التي استعادت منه . وفي البخاري قال : تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أمية بنت شراحيل ، فلما أدخلت عليه بسط يده إليها فكأنها كرهت ذلك ، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين . وفي لفظ آخر قال أبو أسيد : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجونية ، فلما دخل عليها قال : ” هي لي نفسك ” فقالت : وهل تهب الملكة نفسها للسوقة ! فأهوى بيده ليضعها عليها لتسكن ؛ فقالت : أعوذ بالله منك ! فقال : ” قد عدت بعماد ” ثم خرج علينا فقال : ” يا أبا أسيد ، أكسها رازقين وألحقها بأهلها ” .^(١)

ومنهنّ : قتيبة بنت قيس ، أخت الأشعث بن قيس ، تزوجها إياه الأشعث ، ثم أنصرف إلى حصر موت ، فحملها إليه فبلغه وفاة النبي صلى الله عليه وسلم . فردّها إلى بلاده ، فارتد

(١) قوله « رازقين » بالنثية ، صفة موصوف محذوف للعلم . في رواية « رازقين » والرازقية : ثياب من

كان بيض طوال .

وارتدت معه . ثم تزوجها عكرمة بن أبي جهل ، فوجد من ذلك أبو بكر وجداً شديداً .
فقال له عمر : إنها والله ما هي من أزواجه ، ماخيرها ولا حجبها . ولقد برأها الله منه^(١)
بالارتداد . وكان عروة ينكر أن يكون تزوجها .

ومنهن : أم شريك الأزدية ، واسمها غزيرة بنت جابر بن حكيم^(٢) ، وكانت قبله عند أبي بكر
ابن أبي سلمى ، فطلقها النبي صلى الله عليه وسلم ولم يدخل بها . وهي التي وهبت نفسها .
وقيل : إن التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم خولة بنت حكيم .

ومنهن : خولة بنت الهذيل بن هبيرة ، تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهلكت
قبل أن تصل إليه .

ومنهن : شراف بنت خليفة ، أخت دحية ، تزوجها ولم يدخل بها .

ومنهن : ليلى بنت الحطيم ، أخت قيس ، تزوجها وكانت غيورا فاستقانتها فأقالها .

ومنهن : عمرة بنت معاوية الكندية ، تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم . قال الشعبي :
تزوج امرأة من كندة فجاء بها بعد ما مات .

ومنهن : ابنة جندب بن ضمرة الجندعية . قال بعضهم : تزوجها رسول الله صلى الله
عليه وسلم . وأنكر بعضهم وجود ذلك .

ومنهن : الغفارية . قال بعضهم : تزوج امرأة من غفار ، فأمرها فتزعت ثيابها فرأى
بياضا فقال : « الحقيقى بأهلك » . ويقال : إنما رأى البياض بالكلابية . فهؤلاء اللاتي
عقد عليهن ولم يدخل بهن ؛ صلى الله عليه وسلم .

فأما من خطبهن فلم يتم نكاحه معهن ؛ ومن وهبت له نفسها :

فمنهن : أم هانئ بنت أبي طالب ، واسمها فاختة . خطبها النبي صلى الله عليه وسلم
فقالت : إني امرأة مُصْبِيَةٌ واعتذرت إليه فعذرها .^(٣)

(١) كذا في الأصول وأسد الغابة ، وعبارته : « ولقد برأها الله بالردة » والذي في شرح المواهب :
« ... وارتدت مع أخيها فبرئت من الله ورسوله ... الخ » . (٢) في المواهب : « جابر بن عوف » .
(٣) أي ذات صيدان .

ومنهنّ : ضباعة بنت عامر .

ومنهنّ : صفية بنت بشامة بن نضلة ، خطبها النبيّ صلى الله عليه وسلم وكان أصحابها سيّاء ، فخيرها النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : ” إن شئت أنا وإن شئت زوجك “ ؟ قالت : زوجي . فأرسلها ؛ فلعننها بنو تميم ؛ قاله ابن عباس .

ومنهنّ : أم شريك . وقد تقدّم ذكرها .

ومنهنّ : ليلى بنت الحطيم ؛ وقد تقدّم ذكرها .

ومنهنّ : خولة بنت حكيم بن أمية ؛ وهبت نفسها للنبيّ صلى الله عليه وسلم فأرجأها ، فتروّجها عثمان بن مظعون .

ومنهنّ : بجمرة بنت الحارث بن عوف المزني ؛ خطبها النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال أبوها : إن بها سوءاً ولم يكن بها ، فرجع إليها أبوها وقد برّصت ، وهى أم شبيب بن البرصاء الشاعر .

ومنهنّ : سودة القرشية ؛ خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت مصيبة . فقالت : أخاف أن يَضغُو صَبِيَّتِي عند رأسك . فخمدتها ودعا لها .

ومنهنّ : امرأة لم يُذكر اسمها . قال مجاهد : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة فقالت : أستامر أبى . فلقيت أباها فأذن لها ، فلقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : ” قد التحفنا لحافاً غيرك “ .

فهؤلاء جميع أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وكان له من السّراري سُرَّيتان : مارية القبطية ، ورِيحانة ؛ في قول قتادة . وقال غيره : كان له أربع : مارية ، ورِيحانة ، وأخرى جميلة أصابها في السَّبِي ، وجارية وهبتها له زينب بنت جحش .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ إِن كُنتن تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهُنَّ ﴾ « إن » شرط ، وجوابه « فتعالين » ؛ فعلق التخيير على شرط . وهذا يدل على أن التخيير والطلاق المعلقين على شرط صحيحان ، فينغذان ويمضيان ؛ خلافاً للجهاال المبتدعة الذين يزعمون أن الرجل إذا قال لزوجته : أنت طالق إن دخلت الدار ، أنه لا يقع الطلاق إن دخلت الدار ؛ لأن الطلاق الشرعي هو المنجز في الحال لا غير .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ فتعالين ﴾ هو جواب الشرط ، وهو فعل جماعة النساء ، من قولك تعالى ؛ وهو دعاء إلى الإقبال إليه يقال : تعال بمعنى أقبل ، وُضع لمن له جلالة ورفعة ، ثم صار في الاستعمال لكل داع إلى الإقبال ، وأما في هذا الموضع فهو على أصله ؛ فإن الداعي هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . ﴿ أمتعن ﴾ قد تقدم الكلام في المتعة في « البقره » . وقرئ « أمتعن » بضم العين . وكذا « وأمرحكن » بضم الحاء على الاستئناف . والسراح الجميل : هو أن يكون طلاقاً للسنة من غير ضرار ولا منع واجب لها .

الخامسة — اختلف العلماء في كيفية تخيير النبي صلى الله عليه وسلم أزواجه على قولين : الأول — أنه خيرهن بإذن الله تعالى في البقاء على الزوجية أو الطلاق ، فاخترن البقاء ؛ قاله عائشة ومجاهد وعكرمة والشعبي وأبن شهاب وربيعه . ومنهم من قال : إنما خيرهن بين الدنيا فيفارقهن ، وبين الآخرة فيمسكهن ؛ لتكون لهن المنزلة العليا كما كانت لزوجهن ؛ ولم يخيرهن في الطلاق ؛ ذكره الحسن وقتادة . ومن الصحابة على - فيما رواه عنه أحمد بن حنبل أنه قال : لم يخير رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه إلا بين الدنيا والآخرة .

قلت : القول الأول أصح ؛ لقول عائشة رضى الله عنها لما سئلت عن الرجل يخير امرأته فقالت : قد خيرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أفكان طلاقاً ! في رواية : فاخترناه فلم يعد طلاقاً . ولم يثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا التخيير للمأور بين البقاء والطلاق ؛ لذلك قال : « يا عائشة إنى ذا كركِ امرأاً فلا عليك ألا تعجلى فيه حتى تستأمرى

أبويك“ الحديث . ومعلوم أنه لم يرد الاستئثار في اختيار الدنيا وزينتها على الآخرة . فثبت أن الاستئثار إنما وقع في الفرقة ، أو النكاح . والله أعلم .

السادسة - اختلف العلماء في المخيرة إذا اختارت زوجها ؛ فقال جمهور العلماء من السلف وغيرهم وأئمة الفتوى : إنه لا يلزمه طلاق ، لا واحدة ولا أكثر ؛ هذا قول عمر ابن الخطاب وعليّ وآبن مسعود وزيد بن ثابت وآبن عباس وعائشة . ومن التابعين عطاء ومسروق وسليمان بن يسار وربيعة وآبن شهاب . وروى عن عليّ وزيد أيضا : إن آختارت زوجها فواحدة بائنة ؛ وهو قول الحسن البصرىّ والليث ، وحكاها الخطابي والنقاش عن مالك . وتعلقوا بأن قوله : اختارى ، كناية عن إيقاع الطلاق ، فإذا أضافه إليها وقعت طلاقه ؛ كقوله : أنتِ بائن . والصحيح الأول ؛ لقول عائشة : خيرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخترناه فلم يعده علينا طلاقا . أخرجه الصحيحان . قال ابن المنذر : وحديث عائشة يدل على أن المخيرة إذا آختارت زوجها لم يكن ذلك طلاقا ، ويدل على أن آختيارها نفسها يوجب الطلاق ، ويدل على معنى ثالث ؛ وهو أن المخيرة إذا آختارت نفسها أنها تطليقة يملك زوجها رجعتها ؛ إذ غير جائز أن يطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم بخلاف ما أمره الله . وروى هذا عن عمر وابن مسعود وابن عباس . وبه قال ابن ليلي والثورىّ والشافعىّ . وروى عن عليّ أنها إذا آختارت نفسها أنها واحدة بائنة . وهو قول أبى حنيفة وأصحابه . ورواه ابن خُوَيْرِمَنَدَاد عن مالك . وروى عن زيد بن ثابت أنها إذا آختارت نفسها أنها ثلاث . وهو قول الحسن البصرىّ ، وبه قال مالك والليث ؛ لأن الملك إنما يكون بذلك . وروى عن عليّ رضى الله عنه أنها إذا آختارت نفسها فليس بشيء . وروى عنه أنها إذا آختارت زوجها فواحدة رجعية .

السابعة - ذهب جماعة من المدنيين وغيرهم إلى أن التملك والتخير سواء ، والقضاء ما قضت فيهما جميعا ؛ وهو قول عبد العزيز بن أبى سلمة . قال ابن شعبان : وقد آختره كثير من أصحابنا ، وهو قول جماعة من أهل المدينة . قال أبو عمر : وعلى هذا القول أكثر

الفقهاء . والمشهور من مذهب مالك الفرق بينهما ؛ وذلك أن التملك عند مالك هو قول الرجل لامرأته : قد ملكك ؛ أى قد ملكك ما جعل الله لى من الطلاق واحدة أو اثنتين أو ثلاثا ؛ فلما جاز أن يملكها بعض ذلك دون بعض وادعى ذلك ، كان القولُ قوله مع يمينه إذا نكحها . وقالت طائفة من أهل المدينة : له المناكحة فى التملك وفى التخيير سواء فى المدخول بها . والأقول قول مالك فى المشهور ، وروى ابن خُوَيْرِمْ نَدَاد عن مالك أن للزوج أن يناكر الخيرة فى الثلاث ، وتكون طلقة بائنة كما قال أبو حنيفة . وبه قال أبو الجهم . قال سُحُنُون : وعليه أكثر أصحابنا .

وتحصيل مذهب مالك : أن الخيرة إذا اختارت نفسها وهى مدخول بها فهو الطلاق كله ، وإن أنكر زوجها فلا نكحة له . وإن اختارت واحدة فليس بشيء ، وإنما الخيار البتات ، إما أخذته وإما تركته ؛ لأن معنى التخيير التسريح ؛ قال الله تعالى فى آية التخيير : ﴿ فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعَنَّ وَأَسْرَحَنَّ سَرَاْحًا جَمِيْلًا ﴾ (١) فمعنى التسريح البتات ، قال الله تعالى : « الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيْحٌ بِإِحْسَانٍ » . والتسريح بإحسان هو الطلقة الثالثة ؛ روى ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم كما تقدم . ومن جهة المعنى أن قوله : اختارنى أو اختارى نفسك يقتضى ألا يكون له عليها سبيل إذا اختارت نفسها ، ولا يملك منها شيئا ؛ إذ قد جعل لإيها أن تخرج ما يملكه منها أو تقيم معه إذا اختارته ، فإذا اختارت البعض من الطلاق لم تعمل بمقتضى اللفظ ، وكانت بمنزل من خير بين شيئين فاختر غيرهما . وأما التى لم يدخل بها فله مناكرتها فى التخيير والتملك إذا زادت على واحدة ؛ لأنها تبين فى الحال .

الثامنة — اختلفت الرواية عن مالك متى يكون لها الخيار ؛ فقال مرة : لها الخيار ما دامت فى المجلس قبل القيام أو الأشتغال بما يدل على الإعراض . فإن لم تختبر ولم تقض شيئا حتى أفرقا من مجلسهما بطل ما كان من ذلك لإيها ؛ وعلى هذا أكثر الفقهاء . وقال مرة : لها الخيار أبدا ما لم يعلم أنها تركت ؛ وذلك يعلم بأن تمكنه من نفسها بوطء أو مباشرة ؛ فعلى هذا إن منعت نفسها ولم تختبر شيئا كان له رفعها إلى الحاكم لتوقع أو تسقط ، فإن أبت أسقط

الحاكم تملكها . وعلى القول الأول إذا أخذت في غير ذلك من حديث أو عمل أو مشى أو ما ليس في التخيير بشيء كما ذكرنا سقط تخييرها . واحتج بعض أصحابنا لهذا القول بقوله تعالى : « فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَجُوزُوا فِي حَدِيثِ غَيْرِهِ »^(١) . وأيضا فإن الزوج أطلق لها القول ليعرف الخيار منها ، فصار كالعقد بينهما ، فإن قبلته وإلا سقط ؛ كالذى يقول : قد وهبت لك أو بايعتك ، فإن قبل وإلا كان الملك باقيا بحاله . هذا قول الثوري والكوفيين والأوزاعي والليث والشافعي وأبي ثور ، وهو اختيار ابن القاسم . ووجه الرواية الثانية أن ذلك قد صار في يدها وملكته على زوجها بملكها إياها فلما ملكت ذلك وجب أن يبقى في يدها كبقائه في يد زوجها .

قلت : وهذا هو الصحيح لقوله عليه السلام لعائشة : ” إني ذاكر لك أمرا فلا عليك ألا تستعجلي حتى تستأمرى أبويك “ رواه الصحيح ، وخرجه البخاري ، وصححه الترمذي . وقد تقدم في أول الباب . وهو حجة لمن قال : إنه إذا خير الرجل امرأته أو ملكها أن لها أن تقضى في ذلك وإن أفتقا من مجلسهما ؛ روى هذا عن الحسن والزهرى ، وقاله مالك في إحدى روايته . قال أبو عبيد : والذي عندنا في هذا الباب ، أتباع السنة في عائشة في هذا الحديث ، حين جعل لها التخيير إلى أن تستأمر أبويها ، ولم يجعل قيامها من مجلسهما خروجاً من الأمر . قال المروزي : هذا أصح الأقاويل عندي ، وقاله ابن المنذر والطحاوي .

قوله تعالى : يٰنِسَاءَ النَّبِيِّ مَنِ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣١﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ قَدْ آفَسَ نَفْسَهُ وَلِلَّهِ عِزُّ الْقَوْلِ إِنَّ اللَّهَ لَكَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٢﴾ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ إِيمَانِهِ سَاءَ مَا يَحْكُمُ اللَّهُ بِهِ لِمَنْ كَفَرَ بَعْدَ إِيمَانِهِ وَلِلَّهِ عِزُّ الْقَوْلِ إِنَّ اللَّهَ لَكَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٣﴾

رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قال العلماء: لما آختر نساء النبي صلى الله عليه وسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم شكرهن الله على ذلك فقال تكريمة لهن : « لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ ^(١) » الآية . وبين حكهن عن غيرهن فقال : وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا ^(١) . وجعل ثواب طاعتهم وعقاب معصيتهم أكثر مما لغيرهن فقال : « يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ » . فأخبر تعالى أن من جاء من نساء النبي صلى الله عليه وسلم بفاحشة — والله عاصم رسوله عليه السلام من ذلك كما مر في حديث الإفك ^(٢) — يضاعف لها العذاب ضعفين ؛ لشرف منزلتهم وفضل درجاتهم ، وتقدمهن على سائر النساء أجمع . وكذلك بينت الشريعة في غير ما موضع حسبا تقدم بيانه غير مرة — أنه كلما تضاعفت الحرمت فهتكت تضاعفت العقوبات ؛ ولذلك ضوعف حد الحرز على العبد واليتيم على البكر . وقيل : لما كان أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في مهبط الوحي وفي منزل أوامر الله ونواهيه ، قوي الأمر عليهم ولزمهم بسبب مكانتهم أكثر مما يلزم غيرهن ؛ فضوعف لهن الأجر والعذاب . وقيل ، إنما ذلك لعظم الضرر في جرأتهن بإيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فكانت العقوبة على قدر عظم الجريمة في إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وقال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ^(٣) » . واختار هذا القول السيكا الطبرى .

الثانية — قال قوم: لو قدر الزنى من واحدة منهن — وقد أعادهن الله من ذلك — لكانت مُحدّ حدين لعظم قدرها ، كما يزداد حد الحرمة على الأمة . والعذاب بمعنى الحد ، قال الله تعالى : « وَلَيَشْهَدَنَّ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ ^(٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ^(٣) » . وعلى هذا فمعنى الضعفين معنى المثليين أو المرتين . وقال أبو عبيدة : ضعف الشيء شيئان حتى يكون ثلاثة . وقاله أبو عمرو فيما

(١) راجع ص ٢١٩ وص ٢٢٨ وص ٢٣٧ من هذا الجزء .

(٢) راجع ج ١٢ ص ١٩٧ فما بعد وص ١٦٦ . (٣) راجع ج ١٢ ص ١٦٢ .

حكى الطبري عنه؛ فيضاف إليه عذابان مثله فيكون ثلاثة أعذبة . وضعفه الطبري . وكذلك هو غير صحيح وإن كان له باللفظ تعلق الاحتمال . وكون الأجر مرتين مما يفسد هذا القول ؛ لأن العذاب في الفاحشة بإزاء الأجر في الطاعة ؛ قاله ابن عطية . وقال النحاس : فرق أبو عمرو بين « يُضَاعَفُ وَيُضَعَّفُ » قال : « يُضَاعَفُ » للرار الكثيرة . و « يُضَعَّفُ » مرتين . وقرأ « يُضَعَّفُ » لهذا . وقال أبو عبيدة : « يُضَاعَفُ لَهَا الْعَذَابُ » يجعل ثلاثة أعذبة . قال النحاس : التفريق الذي جاء به أبو عمرو وأبو عبيدة لا يعرفه أحد من أهل اللغة علمته ، والمعنى في « يُضَاعَفُ وَيُضَعَّفُ » واحد ؛ أى يجعل ضعفين ؛ كما تقول : إن دفعت إلى درهما دفعت إليك ضعفيه ؛ أى مثليه ؛ يعنى درهمين . ويدل على هذا « نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ » ولا يكون العذاب أكثر من الأجر . وقال في موضع آخر « آتَاهُمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ » أى مثلين . وروى معمر عن قتادة « يُضَاعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ » قال : عذاب الدنيا وعذاب الآخرة . قال القشيري أبو نصر : الظاهر أنه أراد بالضعفين المثلين ؛ لأنه قال : « نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ » . فأما في الوصايا ، لو أوصى لإنسان بضعفى نصيب ولده فهو وصية بأن يعطى مثل نصيبه ثلاث مرات ؛ فإن الوصايا تجرى على العرف فيما بين الناس ، وكلام الله يرد تفسيره إلى كلام العرب ، والضعف في كلام العرب المثل إلى ما زاد ، وليس بمقصود على مثلين . يقال : هذا ضعف هذا ؛ أى مثله . وهذا ضعفاه ، أى مثلاه ؛ فالضعف في الأصل زيادة غير محصورة ؛ قال الله تعالى : « قَاوَلْتِكَ لَهْمُ جَزَاءُ الضَّعْفِ » ولم يرد مثلاً ولا مثلين . كل هذا قول الأزهرى . وقد تقدم في « النور » الاختلاف في حد من قذف واحدة منهن ؛ والحمد لله .

الثالثة — قال أبو رافع : كان عمر رضى الله عنه كثيراً ما يقرأ سورة يوسف وسورة الأحزاب في الصبح ، وكان إذا بلغ « يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ » رفع بها صوته ؛ فقيل له في ذلك فقال : « أذكرهن العهد » . قرأ الجمهور : « مَنْ يَأْتِ » بالياء . وكذلك « مَنْ يَقْنُتْ » حملاً على لفظ

(١) «مَن» . والقنوت الطاعة؛ وقد تقدم . وقرأ يعقوب : «مَن تَأْتِ» و «تَقْنَتُ» بالتاء من فوق ، حملا على المعنى . وقال قوم : الفاحشة إذا وردت معرفة فهي الزنى واللواط . وإذا وردت منكورة فهي سائر المعاصي . وإذا وردت منعوتة فهي عقوق الزوج وفساد عشرته . وقالت فرقة : بل قوله «فَاحِشَةٍ مَّيِّنَةٍ» تعم جميع المعاصي . وكذلك الفاحشة كيف وردت . وقرأ ابن كثير «مَيِّنَةٍ» بفتح الياء . وقرأ نافع وأبو عمرو بكسرها . وقرأت فرقة : «يُضَاعَفُ» بكسر العين على إسناد الفعل إلى الله تعالى . وقرأ أبو عمرو فيما روى خارجة «نُضَاعِفُ» بالنون المضمومة ونصب «العذاب» وهذه قراءة ابن مُحَيِّصٍ . وهذه مفاعلة من واحد ؛ كطارقت النعل وعاقبت اللص . وقرأ نافع وحزمة والكسائي «يُضَاعَفُ» بالياء وفتح العين ، «العذاب» رفعا . وهي قراءة الحسن وابن كثير وعيسى . وقرأ ابن كثير وابن عامر «نُضَعَّفُ» بالنون وكسر العين المشددة ، «العذاب» نصبا . قال مقاتل : هذا التضعيف في العذاب إنما هو في الآخرة ؛ لأن إيتاء الأجر مرتين أيضا في الآخرة . وهذا حسن ؛ لأن نساء النبي صلى الله عليه وسلم لا يأتين بفاحشة توجب حداً . وقد قال ابن عباس : ما بَغَت امرأة نبي قط ، وإنما خانت في الإيمان والطاعة . وقال بعض المفسرين : العذاب الذي تُوعَدُن به «ضعفين» هو عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ؛ فكذلك الأجر . قال ابن عطية : وهذا ضعيف ، اللهم إلا أن يكون أزواج النبي صلى الله عليه وسلم لا ترفع عنهن حدود الدنيا عذاب الآخرة ، على ما هي حال الناس عليه ؛ بحكم حديث عبادة بن الصامت ^(٢) . وهذا أمر لم يُرو في أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ولا حفظ تقرره . وأهل التفسير على أن الرزق الكريم الجنة ؛ ذكره النحاس .

(١) راجع ج ٢ ص ٨٦ و ج ٣ ص ٢١٣ .

(٢) لفظ الحديث كما في كتاب البخارى في تفسير سورة المنتحة : « قال : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ” أتبايعوننى على ألا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تسرقوا — وقرأ آية النساء (بأيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك — فن وفى منكم فأجره على الله . ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فهو كفارة له . ومن أصاب منها شيئا من ذلك فستره الله فهو إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفرله) » .

قوله تعالى : **يٰۤاَيُّهَا النَّبِيُّ لَسْتَ مِنْ اَلنِّسَاءِ اِنَّ اَتَّقِيْنَ^ج وَرُؤَسَاۤءَ**
فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : (**يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ اِنَّ اَتَّقِيْنَ**) (١) بمعنى في الفضل والشرف .
وقال : « **كَأَحَدٍ** » ولم يقل كواحدة ؛ لأن أحدا نفي من المذكر والمؤنث والواحد والجماعة .
وقد يقال على ما ليس بأدمي ؛ يقال : ليس فيها أحد ، لاشاة ولا بعير . وإنما خصص النساء
بالذكر لأن فيمن تقدم آسية ومريم . وقد أشار إلى هذا قتادة ؛ وقد تقدم في « آل عمران »
الاختلاف في التفضيل بينهما ، فتأمله هناك . ثم قال : « **اِنَّ اَتَّقِيْنَ** » أي خفتن الله . فبين
أن الفضيلة إنما تم لمن بشرط التقوى ؛ لما منحهن الله من صحبة الرسول وعظيم المحل منه ،
ونزول القرآن في حقهن .

قوله تعالى : (**فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ**) في موضع جزم بالنهي ؛ إلا أنه مبنى كما بنى الماضي ،
هذا مذهب سيويه ؛ أي لا تلتن القول . أمرهن الله أن يكون قولهن جزلا وكلامهن فصلا ،
ولا يكون على وجه يُظهر في القلب علاقة بما يُظهر عليه من اللين ؛ كما كانت الحال عليه في نساء
العرب من مكالمة الرجال بترخيم الصوت ولينه ؛ مثل كلام المربيات والمومسات . فهناهن
عن مثل هذا .

قوله تعالى : (**فَيَطْمَعَ**) بالنصب على جواب النهي . (**الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ**) أي شك
ونفاق ؛ عن قتادة والسدي . وقيل : تشوف لفجور ، وهو الفسق والغزل ؛ قاله صكرمة .
وهذا أصوب ، وليس للنفاق مدخل في هذه الآية . وحكى أبو حاتم أن الأعرج قرأ
« **فَيَطْمَعَ** » بفتح الياء وكسر الميم . النحاس : أحسب هذا غلطا ، وأن يكون قرأ « **فَيَطْمَعَ** »
بفتح الميم وكسر العين بمطفه على « **تَخْضَعْنَ** » فهذا وجه جيد حسن . ويجوز « **فَيَطْمَعَ** »
بمعنى فيطمع الخضوع أو القول .

(٢) راجع ج ٤ ص ٨٢

(١) كذا في الأصول ؛ يريد أنه نفي عام للمذكر والمؤنث .

(٣) في الأصول : « بفتح الياء » .

قوله تعالى : (وَقُلْنَا قَوْلًا مَعْرُوفًا) قال ابن عباس : أمرهن بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . والمرأة تندب إذا خاطبت الأجانب وكذا المحترّات عليها بالمصاهرة إلى الغلظة في القول من غير رفع صوت ؛ فإن المرأة مأمورة بخفض الكلام . وعلى الجملة فالقول المعروف : هو الصواب الذي لا تنكره الشريعة ولا النفوس .

قوله تعالى : وَقُرْنٌ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ
وَأَقْنِ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ
لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : (وَقُرْنٌ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى) فيه أربع مسائل :

الأولى - قوله تعالى (وَقُرْنٌ) قرأ الجمهور « وقرن » بكسر القاف . وقرأ عاصم ونافع بفتحها . فأما القراءة الأولى فتحتمل وجهين : أحدهما - أن يكون من الوقار ؛ تقول : وقرَ بقرَ وقرأ أي سكن ، والأمر قر ، وللنساء قرن ، مثل عدن وزن . والوجه الثاني - وهو قول المبرد ، أن يكون من القرار ؛ تقول : قررت بالمكان (بفتح الراء) أقرت ، والأصل أقرن ، بكسر الراء ، فحذفت الراء الأولى تخفيفاً ؛ كما قالوا في ظلمات : ظلت ، ومسست : مست ، ونقلوا حركتها إلى القاف ، واستغنى عن ألف الوصل لتحرك القاف . قال أبو علي : بل على أن أبدلت الراء ياء كراهة التضعيف ؛ كما أبدلت في قيراط ودينار ، وبصير للياء حركة الحرف المبدل منه ؛ فالتقدير : إقرن ، ثم تلتق حركة الياء على القاف كراهة تحرك الياء بالكسر ، فتسقط الياء لاجتماع الساكنين ، وتسقط همزة الوصل لتحرك ما بعدها فيصير « قرن » . وأما قراءة أهل المدينة وعاصم ، فعلى لغة العرب : قررت في المكان إذا أقمت فيه (بكسر الراء) أقرت (بفتح القاف) ؛ من باب حمد يحمّد ، وهي لغة أهل الحجاز ذكراها أبو عبيد في « الغريب المصنف » عن الكسائي ، وهو من أجل مشايخه ، وذكراها الزجاج وغيره ، والأصل « إقرن »

حذفت الراء الأولى لتقل التضعيف ، وأقيت حركتها على القاف فتقول : قَرْن . قال الفراء : هو كما تقول : أَحَسَّتْ صاحبك ؛ أى هل أَحَسَّست . وقال أبو عثمان المازني : قَرَّرت به عينا (بالكسر لا غير) ، من قُوَّة العين . ولا يجوز قَرَّرت في المكان (بالكسر) وإنما هو قَرَّرت (بفتح الراء) ، وما أنكره من هذا لا يقدر في القراءة إذا ثبتت عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فيستدل بما ثبت عنه من القراءة على صحة اللغة . وذهب أبو حاتم أيضا أن « قَرْن » لا مذهب له في كلام العرب . قال النحاس : وأما قول أبي حاتم : « لا مذهب له » فقد خولف فيه ، وفيه مذهبان : أحدهما ما حكاه اليكساني ، والآخر ما سمعت علي بن سليمان يقول ، قال : وهو من قَرَّرتُ به عينا أَقرَّ ، والمعنى : وأقررن به عينا في بيوتكن . وهو وجه حسن ؛ إلا أن الحديث يدل على أنه من الأول . كما روى أن عمارا قال لعائشة رضی الله عنها : إن الله قد أمرك أن تَقَرِّي في منزلك ؛ فقالت : يا أبا اليقظان ، ما زلت قولا بالحق ؛ فقال : الحمد لله الذي جعلني كذلك على لسانك . وقرأ ابن أبي عبلة « وأقررن » بألف وصل وراءين ، الأولى مكسورة .

الثانية — معنى هذه الآية الأمر بلزوم البيت ، وإن كان الخطاب للنساء النبي صلى الله عليه وسلم فقد دخل غيرهن فيه بالمعنى . هذا لو لم يرد دليل يخص جميع النساء ؛ كيف والشريعة طالفة بلزوم النساء بيوتهن ، والآنكفاف عن الخروج منها إلا لضرورة ؛ على ما تقدم في غير موضع . فأمر الله تعالى نساء النبي صلى الله عليه وسلم بملازمة بيوتهن ، وخاطبهن بذلك تشريفا لهن ، ونهاهن عن التبرج ، وأعلم أنه فعل الجاهلية الأولى فقال : ((وَلَا تَبْرَجْنَ تَبْرَجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى)) . وقد تقدم معنى التبرج في « النور » . وحقيقته إظهار ما ستره أحسن ؛ وهو ما أخذ من السعة ، يقال : في أسنانه بَرَج إذا كانت متفرقة ؛ قاله المبرد . واختلاف الناس في « الجاهلية الأولى » ؛ فقيل : هي الزمن الذي ولد فيه إبراهيم عليه السلام ، كانت المرأة تلبس الدرع من اللؤلؤ ، فتمشى وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال . وقال الحكيم بن عيينة : ما بين آدم ونوح ،

(٢) راجع ج ١٢ ، ص ٣٠٩ .

(١) في ج ، رش ، وك : « زم » .

وهي ثمانمائة سنة ، وحُكيت لهم سيرة ذميمة . وقال ابن عباس : ما بين نوح وإدريس . الكلبى : ما بين نوح وإبراهيم . قيل : إن المرأة كانت تلبس الدرع من اللؤلؤ غير مخيطة الجانبين ، وتلبس الثياب الرقاق ولا توارى بدنهما . وقالت فرقة : ما بين موسى وعيسى . الشمي : ما بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم . أبو العالية : هي زمان داود وسليمان ؛ كان فيه للمرأة قميص من الدر غير مخيطة الجانبين . وقال أبو العباس المبرد : والجاهلية الأولى كما تقول الجاهلية الجهلاء ، قال : وكان النساء في الجاهلية الجهلاء يظهرن ما يقبح إظهاره ، حتى كانت المرأة تجلس مع زوجها و^(١)خلها ، فينفرد ^(١)خلها بما فوق الإزار إلى الأعلى ، وينفرد زوجها بما دون الإزار إلى الأسفل ، وربما سأل أحدهما صاحبه البذل . وقال مجاهد : كان النساء يتمشين بين الرجال ، فذلك التبرج . قال ابن عطية : والذي يظهر عندي أنه أشار للجاهلية التي لحقنها ، فأمرن بالنقلة عن سيرتهن فيها ، وهي ما كان قبل الشرع من سيرة الكفرة ؛ لأنهم كانوا لا غيرة عندهم ، وكان أمر النساء دون حجاب ، وجعلها أولى بالنسبة ^(٢)إلى ما كنت عليه ؛ وليس المعنى أن تم جاهلية أخرى . وقد أوقع اسم الجاهلية على تلك المدة التي قبل الإسلام ، فقالوا : جاهلي في الشعراء . وقال ابن عباس في البخارى : سمعت أبي في الجاهلية يقول ؛ إلى غير هذا .

قلت : وهذا قول حسن . ويعترض بأن العرب كانت أهل قشف وضنك في الغالب ، وأن التعم وإظهار الزينة إنما جرى في الأزمان السابقة ، وهي المراد بالجاهلية الأولى ، وأن المقصود من الآية مخالفة من قبلهن من المشية على تغنيج وتكسير وإظهار المحاسن للرجال ، إلى غير ذلك مما لا يجوز شرعا . وذلك يشمل الأقوال كلها ويعمها فيلزم البيوت ، فإن مست الحاجة إلى الخروج فليكن على تبدل ^(٣)وتستر تام . والله الموفق .

الثالثة — ذكر الثعلبي وغيره : أن عائشة — رضى الله عنها — كانت إذا قرأت هذه الآية تبكى حتى تبلى نمارها . وذكر أن سودة قيل لها : لم لا تحججين ولا تعتمرين كما يفعل

(١) في ش : « خلها » والخلم (بالكسر) : الصديق الخالص . (٢) في الأصول : « حجة » .

(٣) التبذل : ترك الزين والتهبؤ بالهيئة الحسننة الجميلة على جهة التواضع .

أخوانك؟ فقالت: قد حججت واعتمرت، وأمرني الله أن أقتر في بيتي. قال الراوي: فوالله ما خرجت من باب حجرتها حتى أخرجت جنازتها. رضوان الله عليها! قال ابن العربي: لقد دخلت نيفاً على ألف قرية، فما رأيت نساء أصون عيالا ولا أعف نساء من نساء نابلس، التي رُمى بها الخليل صلى الله عليه وسلم بالنار؛ فإني أقمت فيها فما رأيت امرأة في طريق نهارا إلا يوم الجمعة فإنهم يخرجون إليها حتى يمتلئ المسجد منهم، فإذا قضيت الصلاة وانقلبوا إلى منازلهم لم تقع عيني على واحدة منهم إلى الجمعة الأخرى. وقد رأيت بالمسجد الأقصى عفاف ما خرجن من معتكفهن حتى استشهدن فيه.

الرابعة — قال ابن عطية: بكاء عائشة رضي الله عنها إنما كان بسبب سفرها أيام الجمل، وحينئذ قال لها عمار: إن الله قد أمرك أن تقرى في بيتك. قال ابن العربي: تعلق الرافضة — لعنهم الله — بهذه الآية على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها إذ قالوا: إنها خالفت أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرجت تقود الجيوش، وتباشر الحروب، وتقتحم مازق الطعن والضرب فيما لم يفرض عليها ولا يجوز لها. قالوا: ولقد حُصر عثمان، فلما رأت ذلك أمرت برواحلها فقربت لتخرج إلى مكة؛ فقال لها مروان: أقيمى هنا يا أم المؤمنين، وردى هؤلاء الزعاع؛ فإن الإصلاح بين الناس خير من حجاجك. قال ابن العربي قال علماؤنا رحمة الله عليهم: إن عائشة رضي الله عنها، نذرت الحج قبل الفتنة، فلم تر التخلف عن نذرها؛ ولو خرجت في تلك الثائرة لكان ذلك صوابا لها. وأما خروجها إلى حرب الجمل فما خرجت لحرب، ولكن تعلق الناس بها، وشكروا إليها ما صاروا إليه من عظيم الفتنة وتهاجر الناس، ورجوا بركتها، وطعموا في الاستحياء منها إذا وفقت إلى الخلق، وظنت هي ذلك [نخرجت] مقتدية بالله في قوله: «لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ»^(٢)، وقوله: «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا»^(٣). والأمر بالإصلاح مخاطب به جميع الناس من ذكر وأنثى؛ حر

(١) زيادة عن ابن العربي. (٢) راجع ج ٥ ص ٣٨٢. (٣) راجع ج ١٦ ص ٣١٥.

أو عبد . فلم يرد الله تعالى بسابق قضائه ونافذ حكمه أن يقع إصلاح ، ولكن جرت مطاعنات وجراحات حتى كاد يفنى الفريقان ، فعمد بعضهم إلى الجمل فعرقبه ، فلما سقط الجمل لجنبه أدرك محمد بن أبي بكر عائشة رضي الله تعالى عنها ، فاحتملها إلى البصرة ، وخرجت في ثلاثين امرأة ، قرَّهنَّ علىَّ بها حتى أوصلوها إلى المدينة برةً تقيّةً مجتهدة ، مصيبة مثابة فيما تأوّلت ، ماجورة فيما فعلت ؛ إذ كل مجتهد في الأحكام مصيب . وقد تقدّم في « النحل »^(١) اسم هذا الجمل ، وبه يعرف ذلك اليوم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي فيما أمر ونهى .
 ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ قال الزجاج : قيل يراد به نساء النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : يراد به نساؤه وأهله الذين هم أهل بيته ؛ على ما يأتي بيانه بعد .
 و « أَهْلَ الْبَيْتِ » نصب على المدح . قال : وإن شئت على البذل . قال : ويجوز الرفع والخفض . قال النحاس : إن خفض على أنه بدل من الكاف والميم لم يجز عند أبي العباس محمد بن يزيد ، قال لا يبدل من المخاطبة ولا من المخاطب ؛ لأنهما لا يحتاجان إلى تبين .
 ﴿ وَيُطَهِّرْكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ مصدر فيه معنى التوكيد .

قوله تعالى : ﴿ وَأَذْكُرَنَّ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾^ج
 فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَذْكُرَنَّ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ هذه الألفاظ تعطى أن أهل البيت نساؤه . وقد اختلف أهل العلم في أهل البيت ، من هم ؟ فقال عطاء وعكرمة وابن عباس : هم زوجاته خاصة ، لا رجل معهن . وذهبوا إلى أن البيت أريد به مساكن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَأَذْكُرَنَّ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ . وقالت فرقة منهم الكلبي : هم علي وفاطمة والحسن والحسين خاصة ؛ وفي هذا أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرْكُمْ ﴾

بالميم ، ولو كان للنساء خاصة لكان « عنكن ويظهركن » ؛ إلا أنه يحتمل أن يكون خرج على لفظ الأهل ؛ كما يقول الرجل لصاحبه : كيف أهلك ؛ أى أمرأتك ونسائك ؛ فيقول : هم بخير ؛ قال الله تعالى : « أَتَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ^(١) » .
والذى يظهر من الآية أنها عامة في جميع أهل البيت من الأزواج وغيرهم . وإنما قال : « وَيُطَهِّرُكُمْ » لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلياً وحسناً وحسيناً كان فيهم ، وإذا اجتمع المذكور والمؤنث غلب المذكور ؛ فاقترضت الآية أن الزوجات من أهل البيت ، لأن الآية فيهن ، والمخاطبة لهن ، يدل عليه سياق الكلام . والله أعلم . أما أن أم سلمة قالت : نزلت هذه الآية في بيتي ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً ، فدخل معهم تحت كساء خيبري وقال : « هؤلاء أهل بيتي » — وقرأ الآية — وقال : « اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » فقالت أم سلمة : وأنا معهم يا رسول الله ؟ قال : « أنتِ على مكانك وأنتِ على خير » أخرجه الترمذى وغيره وقال : هذا حديث غريب . وقال القشيري : وقالت أم سلمة أدخلت رأسي في الكساء وقلت : أنا منهم يا رسول الله ؟ قال : « نعم » . وقال الثعلبي : هم بنو هاشم ، فهذا يدل على أن البيت يراد به بيت النسب ، فيكون العباس وأعمامه وبنو أعمامه منهم . وروى نحوه عن زيد بن أرقم رضى الله عنهم أجمعين . وعلى قول الكلبي يكون قوله : « وَأَذْكُرَنَّ » ابتداء مخاطبة الله تعالى ، أى مخاطبة أمر الله عز وجل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، على جهة الموعظة وتعدد النعمة بذكر ما يتلى في بيوتهن من آيات الله تعالى والحكمة . قال أهل العلم بالتأويل : « آيَاتِ اللَّهِ » القرآن . « وَالْحِكْمَةِ » السنة . والصحيح أن قوله : « وَأَذْكُرَنَّ » منسوق على ما قبله . وقال « عنكم » لقوله « أهل » فالأهل مذكر ؛ فسأهن — وإن كنت إناثا — باسم التذكير فلذلك صار « عنكم » . ولا اعتبار بقول الكلبي وأشباهه ، فإنه توجد له أشياء في هذا التفسير ما لو كان في زمن السلف الصالح لمنعه من ذلك وحجروا عليه . فالآيات كلها من قوله : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ — إلى قوله — إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا » منسوق بعضها على بعض ،

فكيف صار في الوسط كلاماً منفصلاً لغيره؟! وإنما هذا شيء جرى في الأخبار أن النبي عليه السلام لما نزلت عليه هذه الآية دعا علياً وفاطمة والحسن والحسين ، فعمد النبي صلى الله عليه وسلم إلى كساء فلقها عليهم ، ثم أوى بيده إلى السماء فقال : ” اللهم هؤلاء أهل بيتي اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا “ . فهذه دعوة من النبي صلى الله عليه وسلم لهم بعد نزول الآية ، أحب أن يدخلهم في الآية التي خوطب بها الأزواج ، فذهب الكلبي ومن وافقه فصيرها لهم خاصة ، وهي دعوة لهم خارجة من التنزيل .

الثانية — لفظ الذِّكْرُ يحتمل ثلاثة معان : أحدها — أى أذكرن موضع النعمة ، إذ صيركن الله في بيوت تُتلى فيها آيات الله والحكمة . الثانى — أذكرن آيات الله وأقدرن قدرها ، وفكرن فيها حتى تكون منكن على بالٍ لتتعظن بمواعظ الله تعالى ، ومن كان هذا حاله ينبغي أن تحسن أفعاله . الثالث — «أذكرن» بمعنى أحفظن وأقرأن والزمنه الأسنه ، فكأنه يقول : أحفظن أوامر الله تعالى ونواهيه ، وذلك هو الذى يُتلى في بيوتكن من آيات الله . فأمر الله سبحانه وتعالى أن يخبرن بما ينزل من القرآن في بيوتهن ، وما يرين من أفعال النبي عليه الصلاة والسلام ، ويسمعن من أقواله حتى يبلغن ذلك إلى الناس ، فيعملوا ويقتدوا . وهذا يدل على جواز قبول خبر الواحد من الرجال والنساء في الدين .

الثالثة — قال ابن العربي : في هذه الآية مسألة بدعيّة ، وهى أن الله تعالى أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بتبليغ ما أنزل عليه من القرآن ، وتعليم ما علمه من الدين ، فكان إذا قرأ على واحد أو ما اتفق سقط عنه الفرض ، وكان على من سمعه أن يبلغه إلى غيره ، ولا يلزمه أن يذكره لجميع الصحابة ، ولا كان عليه إذا علم ذلك أزواجه أن يخرج إلى الناس فيقول لهم نزل كذا ولا كان كذا ؛ ولهذا قلنا : يجوز العمل بخبر ^(١)بصرة في إيجاب الوضوء من مس الذكر ؛ لأنها روت ما سمعت وبلغت ما وعت . ولا يلزم أن يبلغ ذلك الرجال ، كما قال أبو حنيفة ، على أنه قد نقل عن سعد بن أبى وقاص وأبن عمر .

(١) هى بصرة بنت صفوان بن نوفل ؛ روت عن النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
وَالْقَنَاتِ وَالْقَنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ
وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّابِغِينَ
وَالصَّابِغَاتِ وَالْحَافِظِينَ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا
وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٥﴾

فيه مسألتان :

الأولى - روى الترمذى عن أم عمارة الأنصارية أنها أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت :
ما أرى كل شيء إلا للرجال ، وما أرى النساء يذكرن بشيء ! فنزلت هذه الآية : « إِنَّ الْمُسْلِمِينَ
وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ » الآية . هذا حديث حسن غريب . و « الْمُسْلِمِينَ » اسم
« إِنْ » . « وَالْمُسْلِمَاتِ » عطف عليه . ويجوز رفعهن عند البصريين ، فأما الفراء فلا يجوز
عنده إلا فيما لا يتبين فيه الإعراب .

الثانية - بدأ تعالى في هذه الآية بذكر الإسلام الذى يعم الإيمان وعمل الجوارح ،
ثم ذكر الإيمان تخصيصاً له وتنبها على أنه عظم الإسلام ودعامته . والقانت : العابد المطيع .
والصادق : معناه فيما عوهد عليه أن يفى به . والصابر عن الشهوات وعلى الطاعات فى المكروه
والمُنشَطُ^(١) . والخاشع : الخائف لله . والمتصدق بالفرض والنفل . وقيل : بالفرض خاصة ؛
والأقول أمدح . والصائم كذلك . (والحافظين فزوجهم والحافظات) أى عمما لا يحل من
الزنى وغيره . وفى قوله : « وَالْحَافِظَاتِ » حذف يدل عليه المتقدم ، تقديره : والحافظاتها ،
فاكتفى بما تقدم . وفى « الذَّاكِرَاتِ » أيضاً مثله ، ونظيره قول الشاعر :

(١) المكروه (بفتح الميم) : المكروه . والمنشط : وهو الأمر الذى تنشط له وتخف إليه وتؤثر فعله ؛ وهو مصدر

بمعنى النشاط .

وَكُنَّا مُدْمَاءَ كَأَنَّ مَتُونَهَا * جرى فوقها واستشعرت لَوْنٌ مُذْهِبٌ^(١)

وروى سيبويه : « لَوْنٌ مُذْهِبٌ » بالنصب . وإنما يجوز الرفع على حذف الهاء ، كأنه قال : واستشعرت به فيمن رفع لونا . والذا كرقيل في أدبار الصلوات وَغُدُّوا وَعَشِيًّا ، وفي المضاجع وعند الانبأه من النوم . وقد تقدم هذا كله مفصلاً في مواضعه ، وما يترتب عليه من الفوائد والأحكام ، فأغنى عن الإعادة^(٢) . والحمد لله رب العالمين . قال مجاهد : لا يكون ذا كرا لله تعالى كثيراً حتى يذكره قائماً وجالساً ومضطجعاً . وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : من أيقظ أهله بالليل وصلياً أربع ركعات كتبنا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿٣١﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — روى قتادة وابن عباس ومجاهد في سبب نزول هذه الآية : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب زينب بنت جحش ، وكانت بنت عمته ، فظننت أن الخطبة لنفسه ، فلما تبين أنه يريد لها زيدا ، كرهت وأبت وامتنعت ، فنزلت الآية . فأذعنت زينب حينئذ وتزوجته . في رواية : فامتنعت وامتنع أخوها عبد الله لنفسها من قريش ، وأن زيدا كان بالأمس عبداً ، إلى أن نزلت هذه الآية ، فقال له أخوها : مُرْنِي بِمَا شِئْتِ ، فزوجها من زيد . وقيل : لأنها نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، وكانت وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم ، فزوجها من زيد بن حارثة ، فكرهت ذلك هي وأخوها وقالوا : إنما أردنا رسول

(١) الكت : جمع أكت ، وهي حمرة تضرب إلى السواد . والمدماء : شديدة الحمرة مثل الدم . والمتون : جمع متن ، وهو الظهر . واستشعرت : جعلت شعارها . والمذهب : الموه بالذهب . والبيت لطفيل الغنوي (عن سيبويه والمعنى) .

(٢) راجع ج ١ ص ٣٣١ وج ٤ ص ٨٢ و ٣١٠ .

الله صلى الله عليه وسلم فزوجنا غيره؛ فنزلت الآية بسبب ذلك، فأجابا إلى تزويج زيد، قاله ابن زيد. وقال الحسن: ليس لئومن ولا مؤمنة إذا أمر الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم بأمر أن يمصياه.

الثانية - لفظة «ما كان، وما ينبغي» ونحوهما، معناها الحظر والمنع. فتجىء لحظر الشيء والحكم بأنه لا يكون؛ كما في هذه الآية. وربما كان امتناع ذلك الشيء عقلا كقوله تعالى: «مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا»^(١). وربما كان العلم بامتناعه شرعا كقوله تعالى: «مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ»^(٢)، وقوله تعالى: «وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ»^(٣). وربما كان في المندوبات؛ كما تقول: ما كان لك يا فلان أن تترك النوافل، ونحو هذا.

الثالثة - في هذه الآية دليل بل نص في أن الكفاءة لا تعتبر في الأحساب وإنما تعتبر في الأديان؛ خلافا لمالك والشافعي والمغيرة ومُخَنُونَ. وذلك أن الموالى تزوجت في قريش؛ تزوج زيد زينب بنت جحش. وتزوج المقداد بن الأسود ضباعة بنت الزبير. وتزوج أبو حذيفة سالما من فاطمة بنت الوليد بن عتبة. وتزوج بلال أخت عبد الرحمن بن عوف. وقد تقدم هذا المعنى في غير موضع^(٤).

الرابعة - قوله تعالى: «أَنْ يَكُونَ»^(٥) «أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْحَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ»^(٦) قرأ الكوفيون: «أَنْ يَكُونَ» بالياء. وهو اختيار أبي عبيد؛ لأنه قد فرق بين المؤنث وبين فعله. الباقون بالتاء؛ لأن اللفظ مؤنث [فتأنيث] فعله حمسن. والتذكير على أن الحيرة بمعنى التخيير؛ فالحيرة مصدر بمعنى الاختيار. وقرأ ابن السَّمِيقِ «الْحَيْرَةُ» بإسكان الياء. وهذه الآية في ضمن قوله تعالى: «النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ»^(٦). ثم توعد تعالى وأخبر أن من يعص الله ورسوله فقد ضل.

(١) راجع ج ١٣ ص ٢٢١ . (٢) راجع ج ٤ ص ١٢١ . (٣) راجع ج ١٦ ص ٥٣ .

(٤) في الأصول وابن العربي: «هند» والنصيب عن كتب الصحابة . (٥) راجع ج ٣ ص ٦٩ .

وج ١٣ ص ٢٧٨ . (٦) راجع ص ١٢١ من هذا الجزء .

وهذا أدل دليل على ما ذهب إليه الجمهور من فقهاءنا، وفقهاء أصحاب الإمام الشافعي وبعض الأصويين، من أن صيغة « أفعل » للوجوب في أصل وضعها ؛ لأن الله تبارك وتعالى نفى خيرة المكلف عند سماع أمره وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم أطلق على من بقيت له خيرة عند صدور الأمر اسم المعصية ، ثم طلق على المعصية بذلك الضلال ، فلزم حمل الأمر على الوجوب . والله أعلم .

قوله تعالى : **وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٧٧﴾**

فيه تسع مسائل :

الأولى — روى الترمذي قال : حدثنا علي بن حجر قال حدثنا داود بن الزبير قال عن داود بن أبي هند عن الشعبي عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتما شيئا من الوحي لكتم هذه الآية : **(وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ)** يعني بالإسلام **(وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ)** بالعتق فأعتقته . **(أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ —** إلى قوله — **وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا)** وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تزوجها قالوا : تزوج حليلة أبته ، فأنزل الله تعالى : **« مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ »** . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم تبناه وهو صغير، فلبث حتى صار رجلا يقال له زيد بن محمد، فأنزل الله تبارك وتعالى **« آدَعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ »**

فلان مولى فلان ، وفلان أخو فلان ، هو أقسط عند الله [يعنى أعدل^(١)] . قال أبو عيسى : هذا حديث [غريب^(١)] قد روى عن داود بن أبي هند عن الشعبي عن مسروق عن عائشة رضى الله عنها . قالت : لو كان النبي صلى الله عليه وسلم كاتماً شيئاً من الوحي لكتّم هذه الآية « وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ » هذا الحرف لم يرو بطوله .

قلت : هذا القدر هو الذى أخرجه مسلم فى صحيحه ، وهو الذى صححه الترمذى فى جامعه . وفى البخارى عن أنس بن مالك أن هذه الآية « وَنُحِفِّي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ » نزلت فى شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة . وقال عمر وابن مسعود وعائشة والحسن : ما أنزل الله على رسوله آية أشد عليه من هذه الآية . وقال الحسن وعائشة : لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتماً شيئاً من الوحي لكتّم هذه الآية لشدتها عليه . وروى فى الخبر أنه : أمسى زيد فأوى إلى فراشه ، قالت زينب : ولم يستطعنى زيد ، وما أمتنع منه غير ما منعه الله منى ، فلا يقدر على . هذه رواية أبى عصمة نوح بن أبى مرجم ، رفع الحديث إلى زينب أنها قالت ذلك . وفى بعض الروايات : أن زيدا توزم ذلك منه حين أراد أن يقربها ، فهذا قريب من ذلك . وجاء زيد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن زينب تؤذيني بلسانها وتفعل وتفعل ! وإنى أريد أن أطلقها ، فقال له : « أمسك عليك زوجك وآتق الله » الآية . فطلقها زيد فنزلت : « وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ » الآية .

واختلف الناس فى تأويل هذه الآية ، فذهب قتادة وابن زيد وجماعة من المفسرين ، منهم الطبرى وغيره — إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم وقع منه استحسان لزينب بنت جحش ، وهى فى عصمة زيد ، وكان حريصاً على أن يطلقها زيد فيتزوجها هو ، ثم إن زيدا لما أخبره بأنه يريد فراقها ، ويشكو منها غلظة قول وعصيان أمر ، وأذى باللسان وأعظمًا بالشرف ، قال له : « آتق الله — أى فيما تقول عنها — وأمسك عليك زوجك » وهو يخفى الحرص على طلاق زيد إياها . وهذا الذى كان يخفى فى نفسه ، ولكنه لزم ما يجب من الأمر بالمعروف .

(١) زيادة عن صحيح الترمذى .

وقال مقاتل : زوج النبي صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش من زيد فمكثت عنده حيناً ، ثم إنه عليه السلام أتى زيدا يودا يطلبه ، فأبصر زينب قائمة ، كانت بيضاء جميلة جسيمة من أتم نساء قریش ، فهويها وقال : " سبحان الله مقلب القلوب " ! فسمعت زينب بالتسبيحة فذكرتها لزيد ، ففطن زيد فقال : يا رسول الله ، ائذن لي في طلاقها ، فإن فيها كبراً ، تعظم على وتؤذي بالسانها ، فقال عليه السلام : " أمسك عليك زوجك واتق الله " . وقيل : إن الله بعث ريحا فرفعت الستور زينب متفضلة في منزلها ، فرأى زينب فوقع في نفسه ، ووقع في نفس زينب أنها وقعت في نفس النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك لما جاء يطلب زيدا ، فخاف زيدا فأخبرته بذلك ، فوقع في نفس زيد أن يطلقها . وقال ابن عباس : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ ﴾ الحب لها . ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ ﴾ أى تستحييهم . وقيل : تخاف وتكره لائمة المسلمين لو قلت طلقها ، ويقولون أمر رجلا بطلاق امرأته ثم نكحها حين طلقها . ﴿ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ في كل الأحوال . وقيل : والله أحق أن تستحي منه ، ولا تأمر زيدا بإمساك زوجته بعد أن أعلمك الله أنها ستكون زوجتك ، فعاتبه الله على جميع هذا . وروى عن علي بن الحسين : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد أوحى الله تعالى إليه أن زيدا يطلق زينب ، وأنه يتزوجها بتزويج الله إياها ، فلما تشكى زيد للنبي صلى الله عليه وسلم خلق زينب ، وأنها لا تطيعه ، وأعلمه أنه يريد طلاقها ، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم على جهة الأدب والوصية : " اتق الله في قولك وأمسك عليك زوجك " وهو يعلم أنه سيفارقها ويتزوجها ، وهذا هو الذى أخفى في نفسه ، ولم يرد أن يأمره بالطلاق لما علم أنه سيتزوجها ، وخشى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلحقه قول من الناس في أن يتزوج زينب بعد زيد ، وهو مولاه ، وقد أمره بطلاقها ، فعاتبه الله تعالى على هذا القدر من أن خشى الناس في شيء قد أباحه الله له ، بأن قال : « أَمْسِكْ » مع علمه بأنه يطلق . وأعلمه أن الله أحق بالخشية ، أى في كل حال . قال علماءنا رحمته الله عليهم : وهذا القول أحسن ما قيل في تأويل هذه الآية ، وهو الذى

(١) تفضلت المرأة : لبست ثياب مهنتها . أو كانت في ثوب واحد .

عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين ؛ كالزهري^(١) والقاضي بكر بن العلاء القشيري ، والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم . والمراد بقوله تعالى : « وَتَخْشَى النَّاسَ » إنما هو إرجاف المنافقين بأنه نهى عن تزويج نساء الأبناء وتزوج بزوجة آبنه . فأما ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم هوى زينب امرأة زيد - وربما أطلق بعض المجان لفظ عشق - فهذا إنما يصدر عن جاهل بعصمة النبي صلى الله عليه وسلم عن مثل هذا ، أو مستخف بجرمته . قال الترمذي الحكيم في نوادر الأصول ، وأسند إلى علي بن الحسين قوله : فعلى بن الحسين جاء بهذا من خزانة العلم جوهرًا من الجواهر ، ودُرًا من الدرر ، أنه إنما عتب الله عليه في أنه قد أعلمه أن ستكون هذه من أزواجك ، فكيف قال بعد ذلك لزيد : « أمسك عليك زوجك » وأخذتك خشية الناس أن يقولوا : تزوج امرأة آبنه ؛ والله أحق أن تخشاه . وقال النحاس : قال بعض العلماء : ليس هذا من النبي صلى الله عليه وسلم خطيئة ؛ ألا ترى أنه لم يؤمر بالتوبة ولا بالاستغفار منه . وقد يكون الشيء ليس بخطيئة إلا أن غيره أحسن منه ، وأخفى ذلك في نفسه خشية أن يفتتن الناس .

الثانية - قال ابن العربي : فإن قيل لأى معنى قال له : « أمسك عليك زوجك » وقد أخبره الله أنها زوجته . قلنا : أراد أن يختبر منه ما لم يعلمه الله من رغبته فيها أو رغبته عنها ؛ فأبدى له زيد من الثفرة عنها والكراهة فيها ما لم يكن علمه منه في أمرها . فإن قيل : كيف يأمره بالتمسك بها وقد علم أن الفراق لا بد منه ؟ وهذا تناقض . قلنا : بل هو صحيح للقاصد الصحيحة ؛ لإقامة الحجج ومعرفة العاقبة ؛ ألا ترى أن الله تعالى يأمر العبد بالإيمان وقد علم أنه لا يؤمن ، فليس في مخالفة متعلق الأمر لمتعلق العلم ما يمنع من الأمر به عقلا وحكما . وهذا من نفيس العلم فتيقنوه وتقبلوه وقوله : « وَأَتَّقِ اللَّهَ » أى في طلاقها ، فلا تطلقها . وأراد نهى تزويجها لا نهى تحريمها ، لأن الأولى ألا يطلق . وقيل : « أَتَّقِ اللَّهَ » فلا تدممها بالنسبة

(١) هو القاضي بكر بن محمد بن العلاء القشيري ، الفقيه المالكي ولي قضاء العراق . له كتاب في الأحكام والرد على المنزى والأشربة ، ورد فيه على الطحاوى ، وكتاب في الأصول ، والرد على القدرية والرد على الشافعى . توفي سنة ٣٤٣ هـ (الروافى بالوفيات للصفدى) .

إلى الكبروأذى الزوج . « وَتُخْنِي فِي نَفْسِكَ » قيل تعلق قلبه . وقيل : مفارقة زيد لإياها .
وقيل : علمه بأن زيدا سيطلقها ؛ لأن الله قد أعلمه بذلك .

الثالثة - روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لزيد : "ما أجد في نفسي أوثق منك فأخطب زينب علي" قال : فذهبت ووليتها ظهري توقيرا للنبي صلى الله عليه وسلم ، وخطبتها ففرحت وقالت : ما أنا بصانعة شيئا حتى أوامر ربي^(١) ، فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن ، فتروجها النبي صلى الله عليه وسلم ودخل بها .

قلت : معنى هذا الحديث ثابت في الصحيح ، وترجم له النسائي (صلاة المرأة إذا خطبت واستخارتها ربها) روى الأئمة - واللفظ لمسلم - عن أنس قال : لما انقضت عدة زينب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد : "فاذكرها علي" قال : فانطلق زيد حتى أتتها وهي تُحَمَّرُ عَجِينَهَا . قال : فلما رأيتها عظمت في صدري ، حتى ما أستطيع أن أنظر إليها ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها فوليتها ظهري ، ونكصت علي عقيبى ، فقلت : يا زينب ، أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك ؛ قالت : ما أنا بصانعة شيئا حتى أوامر ربي ؛ فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن . وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها بغير إذن . قال : فقال ولقد رأيتنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أطعمنا الخبز واللحم حين امتد النهار... الحديث . في رواية "حتى تركوه" . وفي رواية عن أنس أيضا قال : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أو لم علي امرأة [من نسائه]^(٢) ما أو لم علي زينب ؛ فإنه ذبح شاة . قال علماؤنا : فقولاه عليه السلام لزيد : "فاذكرها علي" أي أخطبها ؛ كما بينه الحديث الأول . وهذا امتحان لزيد واختبار له ، حتى يظهر صبره وانقياده وطوعه .

قلت : وقد يستنبط من هذا أن يقول الإنسان لصاحبه : اخطب علي فلانة ، لوجه المطلقة منه ، ولا حرج في ذلك . والله أعلم .

(١) أمره في أمره ، ورامره واستأمره : شارره .

(٢) زيادة من مسلم .

الرابعة - لما وَكَات أمرها إلى الله وصَحَّ تفويضها إليه تولى الله إنكاحها ؛ ولذلك قال : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَا كَهَا ﴾ . وروى الإمام جعفر بن محمد عن آبائه عن النبي صلى الله عليه وسلم « وَطَرًا زَوَّجْتُهَا » . ولما أعلمه الله بذلك دخل عليها بغير إذن ، ولا تجديد عقد ولا تقرير صداق ، ولا شيء مما يكون شرطاً في حقوقنا^(١) ومشروعاً لنا . وهذا من خصوصياته صلى الله عليه وسلم ، التي لا يشاركه فيها أحد بإجماع من المسلمين . ولهذا كانت زينب تفاحر نساء النبي صلى الله عليه وسلم وتقول : زوجكنَّ أبأؤكنَّ وزوجني الله تعالى . أخرجہ النسائي عن أنس بن مالك قال : كانت زينب تَفَخَّرَ على نساء النبي صلى الله عليه وسلم تقول : إن الله عز وجل أنكحني من السماء . وفيها نزلت آية الحجاب ؛ وسيأتي .

الخامسة - المُنْعَم عليه في هذه الآية هو زيد بن حارثة ، كما بيناه ؛ وقد تقدم خبره في أول السورة . وروى أن عمه لقيه يوماً وكان قد ورد مكة في شغل له ، فقال : ما أسمك يا غلام ؟ قال : زيد ؛ قال : ابن من ؟ قال : ابن حارثة . قال ابن من ؟ قال : ابن شراحيل الكلبي . قال : فما اسم أمك ؟ قال : سَعْدَى ، وكنت في أخوالي طي ؛ فضمته إلى صدره . وأرسل إلى أخيه وقومه لحضروا ، وأرادوا منه أن يقيم معهم ؛ فقالوا : لمن أنت ؟ قال : لمحمد ابن عبد الله ؛ فأتوه وقالوا : هذا أبنا فردّه علينا . فقال : ” أَعْرِضْ عليه فإن اختاركم نخذوا بيده ” فبعث إلى زيد وقال : ” هل تعرف هؤلاء ” ؟ قال نعم ! هذا أبي ، وهذا أخي ، وهذا عمي . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ” فأى صاحب كنتُ لك ” ؟ فسكى وقال : لم سألتني عن ذلك ؟ قال : ” أخيرك فإن أحببت أن تلحق بهم فألحق وإن أردت أن تقيم فأنا من قد عرفت ” فقال : ما اختار عليك أحدا . فغذبه عمه وقال : يا زيد ، اخترت العبودية على أبيك وعمك ! فقال : أى والله العبودية عند محمد أحب إلى من أن أكون عندكم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” اشهدوا أنى وارث وموروث ” . فلم يزل يقال : زيد بن محمد إلى أن نزل قوله تعالى : « ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ » ونزل « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ » .

(١) في ش : « حقوقنا » . (٢) راجع ص ١١٨ من هذا الجزء .

السادسة — قال الإمام أبو القاسم عبد الرحمن السَّهْبَلِيُّ رضى الله عنه : كان يقال زيد بن محمد حتى نزل « ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ » فقال : أنا زيد بن حارثة . وحرَمَ عليه أن يقول : أنا زيد بن محمد . فلما نُزِعَ عنه هذا الشرف وهذا الفخر ، وعلم الله وحشته من ذلك شرفه بِمُخَصَّصَةٍ لم يكن يُخَصُّ بها أحدا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وهى أنه سماه في القرآن ؛ فقال تعالى : « فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا » يعنى من زَيْدٍ . ومن ذكره الله تعالى باسمه في الذكر الحكيم حتى صار اسمه قرآناً يُتلى في المحاريب ، نوه به غاية التنويه ؛ فكان في هذا تأنيس له وعِوض من الفخر بأبوة محمد صلى الله عليه وسلم له . ألا ترى إلى قول أبي ابن كعب حين قال له النبي صلى الله عليه وسلم : ” إن الله أمرني أن أقرأ عليك سورة كذا ” فبكى وقال : أَوَدُّ كَرْتُ هُنَالِكَ ؟ وكان بكاءه من الفرح حين أخبر أن الله تعالى ذكره ؛ فكيف بمن صار اسمه قرآناً يُتلى مَخْلَدًا لا يبيد ، يتلوه أهل الدنيا إذا قرءوا القرآن ، وأهل الجنة كذلك أبدا ، لا يزال على السنة المؤمنين ، كما لم يزل مذكورا على الخصوص عند رب العالمين ؛ إذ القرآن كلام الله القديم ، وهو باق لا يبيد ؛ فاسم زيد هذا في الصحف المكتومة المرفوعة المطهرة ، تذكره في التلاوة السَّفَرَةُ الكرام البررة . وليس ذلك لاسم من أسماء المؤمنين إلا لنبي من الأنبياء ، ولزيد بن حارثة تعويضا من الله تعالى له مما نُزِعَ عنه . وزاد في الآية أن قال : « وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ » أى بالإيمان ؛ فدَلَّ على أنه من أهل الجنة ، علم ذلك قبل أن يموت ، وهذه فضيلة أخرى .

السابعة — قوله تعالى : (وَطَرًا) الوَطْرُ كُلُّ حاجة للسرء له فيها هممة ؛ والجمع الأوطار . قال ابن عباس : أى بلغ ما أراد من حاجته ؛ يعنى الجماع . وفيه إضمار ؛ أى لما قضى وطره منها وطلقها « زَوْجُنَا كَمَا » . وقراءة أهل البيت « زَوْجُنَا كَمَا » . وقيل : الوطر عبارة عن الطلاق ؛ قاله قتادة .

الثامنة — ذهب بعض الناس من هذه الآية ، ومن قول شعيب : « إِيَّيْ أُرِيدُ أَنْ أُنَكِّحَكَ » إلى أن ترتيب هذا المعنى في المهور ينبغى أن يكون : « أنكحه إياها » فتقدم

(١) في الأصول : « ... وهذا الفخر منه » بزيادة لفظة « منه » .

(٢) لفظة « اسمه » ساقطة من الأصل المطبوع . (٣) راجع ج ١٣ ص ٢٧١ .

ضمير الزوج كما في الآيتين . وكذلك قوله عليه السلام لصاحب الرداء " اذهب فقد أنكحتكما بما معك من القرآن " . قال ابن عطية : وهذا غير لازم ؛ لأن الزوج في الآية مخاطب بحسن تقديمه ، وفي المهور الزوجان [سواء] ، فقدم من شئت ، ولم يبق ترجيح إلا بدرجة الرجال ، وأنهم القوامون .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ زَوْجَنَا كَهَا ﴾ دليل على ثبوت الولي في النكاح ؛ وقد تقدم الخلاف في ذلك . روى أن عائشة وزينب تفاخرتا ، فقالت عائشة : أنا التي جاء بي المَلَك إلى النبي صلى الله عليه وسلم في سرقة^(٢) من حرير فيقول : " هذه أمرأتك " نخرجه الصحيح . وقالت زينب : أنا التي زوجني الله من فوق سبع سموات . وقال الشعبي : كانت زينب تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنى لأدب عليك بثلاث ، ما من نسائك امرأة تدل بهن — : إن جدى وجدك واحد ، وإن الله أنكحك إياى من السماء ، وإن السفير في ذلك جبريل . وروى عن زينب أنها قالت : لما وقعت في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستطعنى زيد ، وما أمتنع منه غير ما يمنعه الله تعالى منى فلا يقدر على .

قوله تعالى : مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ قوله تعالى : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ﴾ هذه مخاطبة من الله تعالى لجميع الأمة .

أعلمهم أن هذا ونحوه هو السنن الأقدم في الأنبياء أن ينالوا ما أحله لهم ؛ أى سن محمد صلى الله عليه وسلم التوسعة عليه في النكاح سنة الأنبياء الماضية ؛ كداود وسليمان . فكان لداود مائة امرأة وثلاثمائة سرية ، وسليمان ثلاثمائة امرأة وسبعمائة سرية . وذكر الثعلبي عن مقاتل وابن الكلبي أن الإشارة إلى داود عليه السلام ؛ حيث جمع الله بينه وبين من فتن بها .

(١) راجع ج ٣ ص ٧٢ فما بعدها . (٢) المرق (بفتحين) : شقق الحرير الأبيض .

و « سُنَّةٌ » نصب على المصدر؛ أى سَنَّ الله له سُنَّةٌ واسعة . و « الَّذِينَ خَلَوْا » هم الأنبياء؛
بديل وصفهم بعد بقوله : « الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ » .

قوله تعالى : مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ
وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمًا ﴿٤٠﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — لما تزوج زينب قال الناس : تزوج امرأة ابنه ؛ فنزلت الآية ؛ أى ليس
هو بأبنته حتى تحرم عليه حليلته ، ولكنه أبو أمته فى التبجيل والتعظيم ، وأن نساءه عليهم حرام .
فاذهب الله بهذه الآية ما وقع فى نفوس المنافقين وغيرهم ، وأعلم أن محمداً لم يكن أباً أحد من
الرجال المعاصرين له فى الحقيقة . ولم يقصد بهذه الآية أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن
له ولد ، فقد ولد له ذكور : إبراهيم ، والقاسم ، والطيب ، والمطهر ؛ ولكن لم يعش له ابن حتى
يصير رجلاً . وأما الحسن والحسين فكانا طفلين ، ولم يكونا رجلين معاصرين له .

الثانية — قوله تعالى : (وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ) قال الأخفش والفراء : أى ولكن
كان رسول الله . وأجازا « ولكن رسول الله وخاتم » بالرفع . وكذلك قرأ ابن أبى عمير
وبعض الناس « ولكن رسول الله » بالرفع ؛ على معنى هو رسول الله وخاتم النبیین . وقرأت
فرقة « ولكن » بتشديد النون ، ونصب « رسول الله » على أنه اسم « لكن » والخبر محذوف .
« وَخَاتَمٌ » قرأ عاصم وحده بفتح التاء ، بمعنى أنهم به ختموا ؛ فهو كالتام والطابع لهم .
وقرأ الجمهور بكسر التاء بمعنى أنه ختمهم ؛ أى جاء آخرهم . وقيل : الخاتم والخاتم لغتان ؛
مثل طابع وطابع ، ودائق ودائق ، وطابق من اللحم وطابق .

الثالثة — قال ابن عطية : هذه الألفاظ عند جماعة علماء الأئمة خلقت سلفاً متلقاةً^(١)
على العموم التام مقتضية نصاً أنه لا نبى بعده صلى الله عليه وسلم ، وما ذكره القاضى أبو الطيب
فى كتابه المسمى بالهداية : من تجويز الاحتمال فى ألفاظ هذه الآية ضعيف . وما ذكره الغزالي

(١) فى ج، ش : « الأئمة » .

في هذه الآية ، وهذا المعنى في كتابه الذي سماه بالافتصاد ، إلحاد عندي ، وتطرق خبيث إلى تشويش عقيدة المسلمين في ختم عهد صلى الله عليه وسلم النبوة ؛ فالحذر الحذر منه ! والله الهادي برحمته .

قلت : وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا نبوة بعدى إلا ما شاء الله " . قال أبو عمر : يعني الرؤيا - والله أعلم - التي هي جزء منها ؛ كما قال عليه السلام : " ليس يبقى بعدى من النبوة إلا الرؤيا الصالحة " . وقرأ ابن مسعود « من رجالكم ولكن نبياً ختم النبيين » . قال الرَّمَّانِي : ختم به عليه الصلاة والسلام الاستصلاح ، فمن لم يصلح به فيئوس من صلاحه .

قلت : ومن هذا المعنى قوله عليه السلام : " بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " . وفي صحيح مسلم عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَثَلُ وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا فَأَتَمَّهَا وَأَكْمَلَهَا إِلَّا مَوْضِعَ لَبْنَةٍ بَجَعَلَ النَّاسَ يَدْخُلُونَهَا وَيَتَعَجَّبُونَ مِنْهَا وَيَقُولُونَ لَوْلَا مَوْضِعُ اللَّبْنَةِ ! - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - فأنا موضع اللبنة جئت فختمت الأنبياء " . ونحوه عن أبي هريرة ، غير أنه قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين " .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾

أمر الله تعالى عباده بأن يذكروه ويشكروه ، ويكثرُوا من ذلك على ما أنعم به عليهم . وجعل تعالى ذلك دون حدٍّ لسهولته على العبد . ولعظم الأجر فيه قال ابن عباس : لم يُعذر أحد في ترك ذكر الله إلا من غلب على عقله . وروى أبو سعيد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : " أكثرُوا ذكر الله حتى يقولوا مجنون " . وقيل : الذكر الكثير ما جرى على الإخلاص من القلب ، والقليل ما يقع على حكم النفاق كالذكر باللسان .

قوله تعالى : وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾

أى اشغلوا أنفسكم في معظم أحوالكم بالتسبيح والتهليل والتحميد والتكبير . قال مجاهد : وهذه كلمات يقولهن الطاهر والمحدث والجنب . وقيل : أدعوه . قال جرير :

فلا تنس تسبيح الضحى إن يوسفًا * دعآ ربّه فاختره حين سبّحًا

وقيل : المراد صلّوا لله بكرة وأصيلًا ؛ والصلاة تسمى تسبيحًا . وخص الفجر والمغرب والعشاء بالذكر لأنها أحق بالتحريض عليها ، لاتصالها بأطراف الليل^(١) . وقال قتادة والطبري : الإشارة إلى صلاة الغداة وصلاة العصر . والأصيل : العشيّ وجمعه أصائل . والأصل بمعنى الأصيل ، وجمعه أصال ؛ قاله المبرد . وقال غيره : أصل جمع أصيل ؛ كغيف ورغف . وقد تقدم .^(٢)

مسألة - هذه الآية مدنيّة ، فلا تعاقبها لمن زعم أن الصلاة إنما فرضت أولاً صلاتين في طرفي النهار . والرواية بذلك ضعيفة فلا التفات إليها ولا معول عليها . وقد مضى الكلام في كيفية فرض الصلاة وما للعلماء في ذلك في « سبحان »^(٣) والحمد لله .

قوله تعالى : هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : (هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ) قال ابن عباس : لما نزل « إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ » قال المهاجرون والأنصار : هذا لك يا رسول الله خاصّة ، وليس لنا فيه شيء ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية .

قلت : وهذه نعمة من الله تعالى على هذه الأمة من أكبر النعم ؛ ودليل على فضلها على سائر الأمم . وقد قال : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ »^(٤) . والصلاة من الله على العبد هي رحمته له وبركته لديه . وصلاة الملائكة : دعاؤهم للمؤمنين واستغفارهم لهم ؛ كما قال : « وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا »^(٥) وسيأتي . وفي الحديث : أن بنى إسرائيل سألوا موسى عليه السلام : أيصلي ربك جل وعز ؟ فأعظم ذلك ؛ فأوحى الله جل وعز : « إن صلاتي بأن رحمتي سبقت غضبي » ذكره النحاس . وقال ابن عطية : وروت فرقة أن النبي صلى الله عليه وسلم

(١) في ك : « بأطراف النهار » . (٢) راجع ج ٧ ص ٣٥٥ (٣) راجع ج ١٠ ص ٢١٠

(٤) في ١ ، ج ، ش : « فضيلتها » . (٥) راجع ج ٤ ص ١٧٠ (٦) راجع ج ١٥ ص ٢٩٣ فما بعد .

قيل له : يا رسول الله ، كيف صلاة الله على عباده . قال : «سُبُوحٌ قُدُّوسٌ - رحمتي سبقت غضبي» . واختلف في تأويل هذا القول ؛ فقيل : إنه كلمة من كلام الله تعالى وهي صلواته على عباده . وقيل سُبُوحٌ قُدُّوسٌ من كلام محمد صلى الله عليه وسلم ، وقدمه بين يدي نطقه باللفظ الذي هو صلاة الله وهو «رحمتي سبقت غضبي» من حيث فهم من السائل أنه توهم في صلاة الله على عباده وجهاً لا يليق بالله عز وجل ؛ فقدم التنزيه والتعظيم بين يدي إخباره . قوله تعالى : ﴿ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ أي من الضلالة إلى الهدى . ومعنى هذا التثبيت على الهداية ؛ لأنهم كانوا في وقت الخطاب على الهداية . ثم أخبر تعالى برحمته بالمؤمنين تأنيساً لهم فقال : ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ (٤٤)

اختلف في الضمير الذي في « يلقونه » على من يعود ؛ فقيل على الله تعالى ، أي كان بالمؤمنين رحيمًا ، فهو يؤمنهم من عذاب الله يوم القيامة . وفي ذلك اليوم يلقونه . و﴿ تَحِيَّتُهُمْ ﴾ أي تحية بعضهم لبعض . ﴿ سَلَامٌ ﴾ أي سلامة لنا ولكم من عذاب الله . وقيل : هذه التحية من الله تعالى ؛ المعنى : فيسلمهم من الآفات ، أو يبشرهم بالأمن من المخافات ﴿ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ ﴾ أي يوم القيامة بعد دخول الجنة . قال معناه الزجاج ؛ واستشهد بقوله جل وعز : ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ . وقيل : « يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ » أي يوم يلقون ملك الموت ؛ وقد ورد أنه لا يقبض روح مؤمن إلا سلم عليه . روى عن البراء بن عازب قال : « تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ » فيسلم ملك الموت على المؤمن عند قبض روحه ، لا يقبض روحه حتى يسلم عليه .

قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (٤٥)

﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ (٤٦)

هذه الآية فيها تأنيس للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، وتكريم لجميعهم . وهذه الآية تضمنت من أسمائه صلى الله عليه وسلم ستة أسماء ولنبينا صلى الله عليه وسلم أسماء كثيرة وسمات جليلة ، ورد ذكرها في الكتاب والسنة والكتب المتقدمة . وقد سماه الله في كتابه مجداً وأحمد . وقال صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه الثقات العَدُول : « لِي نَحْمَدُ أَسْمَاءَ أَنَا مَجْدٌ وَأَنَا أَحْمَدٌ وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِى الْكُفْرَ وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يَحْشُرُ النَّاسَ عَلَى قَدَمِي وَأَنَا الْعَاقِبُ » . وفي صحيح مسلم من حديث جُبَيْرِ بْنِ مُطَيْمٍ : « وَقَدْ سَمَاهُ اللَّهُ « رَعُوفًا رَحِيمًا » . وفيه أيضاً عن أبي موسى الأشعري قال : « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُسَمِّي لَنَا نَفْسَهُ أَسْمَاءً ، فَيَقُولُ : « أَنَا مَجْدٌ وَأَحْمَدٌ وَالْمُقَفَّى وَالْحَاشِرُ وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ » . وقد تتبع القاضى أبو الفضل عياض فى كتابه المسمى (بالشفا) ما جاء فى كتاب الله وفى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومما نقل فى الكتب المتقدمة^(١) ، وإطلاق الأمة أسماء كثيرة وصفات عديدة ، قد صدقت عليه صلى الله عليه وسلم مسماياتها ، ووجدت فى معانيها . وقد ذكر القاضى أبو بكر بن العربى فى أحكامه فى هذه الآية من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم سبعة وستين اسماً . وذكر صاحب (وسيلة المتعبدين إلى متابعة سيد المرسلين) عن ابن عباس أن لمحمد صلى الله عليه وسلم مائة وثمانين اسماً ، من أرادها وجدها هناك . وقال ابن عباس : لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً ومعاذاً ، فبعثهما إلى اليمن ، وقال : « اذْهَبَا فَبَشِّرَا وَلَا تُنْفَرَا ، وَيَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا فَإِنَّهُ قَدْ أَنْزَلَ عَلَيَّ ... » . وقرأ هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿ شَاهِدًا ﴾ قال سعيد عن قتادة : « شَاهِدًا » على أُمَّتِهِ بِالتَّبْلِيغِ إِلَيْهِمْ ، وَعَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ بِتَبْلِيغِ أَنْبِيَائِهِمْ ؛ وَنَحْوَ ذَلِكَ . ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ معناه للمؤمنين برحمة الله وبالجنة . ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ معناه للعصاة والمكذبين من النار وعذاب الخلد . ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ ﴾ الدَّعَاءُ إِلَى اللَّهِ هُوَ تَبْلِيغُ التَّوْحِيدِ وَالْأَخْذُ بِهِ ، وَمُكَافَحَةُ الْكُفْرِ . ﴿ بِإِذْنِهِ ﴾ هنا معناه : بِأَمْرِهِ إِيَّاكَ ، وَتَقْدِيرِهِ ذَلِكَ فِي وَقْتِهِ وَأَوَانِهِ . ﴿ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ هنا استعارة للنور الذى يتضمنه شرعه .

(١) فى ارش : « القديمة » .

وقيل : « وَسِرَاجًا » أى هاديا من ظلم الضلالة ؛ وأنت كالمصباح المضيء . ووصفه بالإنارة لأن من السُّرُج ما لا يضيء ، إذا قَلَّ سَلِيْطُهُ وَدَقَّتْ فَنِيْلَتُهُ ^(١) . وفى كلام بعضهم : ثلاثة تُضِيءُ : رسول بطيء ، وسراج لا يضيء ، ومائدة ينتظر لها من يجىء . وسئل بعضهم عن الموحشين فقال : ظلام سائر وسراج فاتر ، وأسند النحاس قال : حدثنا محمد بن إبراهيم الرازى قال حدثنا عبد الرحمن بن صالح الأزدي قال حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي عن شيبان النحوى قال حدثنا قتادة عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما نزلت « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . وَدَاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا » دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا ومعاذا فقال : « انطلقا فبشرا ولا تعسرا فإنه قد نزل على الليلة آية يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا — من النار — وداعيا إلى الله — قال — شهادة أن لا إله إلا الله — بإذنه — بأمره — وسراجا منيرا — قال — بالقرآن » . وقال الزجاج : « وَسِرَاجًا » أى وذا سراج منير ؛ أى كتاب نير . وأجاز أيضا أن يكون بمعنى : وتاليا كتاب الله .

قوله تعالى : وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾
وَلَا تُطِيعِ الْكٰفِرِينَ وَالْمُنٰفِقِينَ وَدَعِ اٰذَنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكُنْ
بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) الواو عاطفة جملة على جملة ؛ والمعنى منقطع من الذى قبله . أمره تعالى أن يبشر المؤمنين بالفضل الكبير من الله تعالى . وعلى قول الزجاج : ذا سراج منير ، أو وتاليا سراجا منيرا ، يكون معطوفا على الكاف لا فى « أَرْسَلْنَاكَ » . قال ابن عطية : قال لنا أبى رضى الله عنه : هذه من أرحى آية عندى فى كتاب الله تعالى ؛ لأن الله عز وجل قد أمر نبيه أن يبشر المؤمنين بأن لهم عنده فضلا كبيرا ؛ وقد بين تعالى الفضل الكبير فى قوله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ

عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ^(١) . فالآية التي في هذه السورة خبر ، والتي في « حَمَّ . عَسَقَ » تفسير لها . (وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ) أي لا تطعمهم فيما يشيرون عليك من المداهنة في الدين ولا تمائمهم . « الْكَافِرِينَ » : أبي سفيان وعكرمة وأبي الأعور السامبي ؛ قالوا : يا محمد ، لا تذكر آلهتنا بسوء تتبعك . « وَالْمُنَافِقِينَ » : عبد الله بن أبيّ وعبد الله ابن سعد وطعمة بن أبيرق ، حثوا النبي صلى الله عليه وسلم على إجابتهم بتعلة المصلحة . (وَدَعَّ أَذَاهُمْ) أي دع أن تؤذيتهم مجازاة على إذايتهم إياك . فأمره تبارك وتعالى بترك معاقبتهم ، والصفح عن زلهم ؛ فالمصدر على هذا مضاف إلى المفعول . ونسخ من الآية على هذا التأويل ما يخص الكافرين ، وناسخه آية السيف . وفيه معنى ثانٍ : أي أعرض عن أقوالهم وما يؤذونك ، ولا تشتغل به ؛ فالمصدر على هذا التأويل مضاف إلى الفاعل . وهذا تأويل مجاهد ، والآية منسوخة بآية السيف . (وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) أمره بالتوكل عليه وآنسه بقوله : (وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا) وفي قوة الكلام وعد بنصر . والوكيل : الحافظ القائم على الأمر .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ
مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمِنْ تَعَوُّهُنَّ
وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَّاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ) لما جرت قصة زيد وتطلقه زينب ، وكانت مدخولاً بها ، وخطبها النبي صلى الله عليه وسلم بعد انقضاء عدتها — كما بيناه — خاطب الله المؤمنين بحكم الزوجة تطلق قبل البناء ، وبين ذلك الحكم للأمة ؛ فالمطلقة إذا لم تكن ممسوسة لا عدّة عليها بنص الكتاب وإجماع الأمة على ذلك . فإن دخل بها فعليها العدة لإجماعا .

(١) راجع ج ١٦ ص ٢٠ (٢) في الأصول : « على إذايتك إياهم » .

الثانية - النكاح حقيقة في الوطاء، وتسمية العقد نكاحاً ملائمة له من حيث إنه طريق إليه . ونظيره تسميتهم الخمر إثمًا^(١) لأنه سبب في إقتراف الإثم . ولم يرد لفظ النكاح في كتاب الله إلا في معنى العقد، لأنه في معنى الوطاء، وهو من آداب القرآن، الكفاية عنه بلفظ : الملامسة والمماساة والقربان والتغشى والإتيان .

الثالثة - استدل بعض العلماء بقوله تعالى : « ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ » وبمهلة « ثُمَّ » على أن الطلاق لا يكون إلا بعد نكاح، وأن من طلق المرأة قبل نكاحها وإن عيَّنهما، فإن ذلك لا يلزمه . وقال هذا نيف على ثلاثين من صاحب وتابع وإمام . سمي البخاري منهم اثنين وعشرين^(٢) . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم "لا طلاق قبل نكاح" ومعناه : أن الطلاق لا يقع حتى يحصل النكاح . قال حبيب بن أبي ثابت : سئل علي بن الحسين رضي الله عنهما عن رجل قال لامرأة : إن تزوجتك فأنت طالق ؟ فقال : ليس بشيء، ذكرك الله عز وجل النكاح قبل الطلاق . وقالت طائفة من أهل العلم : إن طلاق المعينة الشخص أو القبيلة أو البلد لازم قبل النكاح، منهم مالك وجميع أصحابه، وجمع عظيم من علماء الأمة . وقد مضى في «براءة»^(٣) الكلام فيها ودليل الفريقين . والحمد لله . فإذا قال : كل امرأة أتزوجها [طالق] وكل عبد أشتريه حرًا لم يلزمه شيء . وإن قال : كل امرأة أتزوجها إلى عشرين سنة ، أو إن تزوجت من بلد فلان أو من بني فلان فهي طالق ، لزمه الطلاق ما لم يخف العنت على نفسه في طول السنين ، أو يكون عمره في الغالب لا يبلغ ذلك ، فله أن يتزوج . وإنما لم يلزمه الطلاق إذا عمم لأنه ضيق على نفسه المناكح، فلو منعناه ألا يتزوج الحرج وخيف عليه العنت . وقد قال بعض أصحابنا : إنه إن وجد ما يتسرر به لم ينكح، وليس بشيء ، وذلك أن الضرورات والأعذار ترفع الأحكام، فيصير هذا من حيث الضرورة كمن لم يخاف، قاله ابن خويزمندان .

(١) الخمر : توث وتذكر، والتأنيث أكثر . (٢) الذي سماه البخاري في (باب لا طلاق قبل

النكاح) أربعة وعشرون . (٣) راجع ج ٨ ص ٢١١ (: حرج : أم .

الرابعة - استدلّ داود - ومن قال بقوله - ان المطلقة الرجعية إذا راجعها زوجها قبل أن تنقضى عدتها ثم فارقتها قبل أن يمسه، أنه ليس عليها أن تم عدتها ولا عدّة مستقبلية؛ لأنها مطلقة قبل الدخول بها . وقال عطاء بن أبي رباح وفرقة : تمضى في عدتها من طلاقها الأول - وهو أحد قولى الشافعى - ؛ لأن طلاقه لها إذا لم يمسه في حكم من طلقها في عدتها قبل أن يراجعها . ومن طلق امرأته في كل طهر مرّة بنت ولم تستأنف . وقال مالك : إذا فارقتها قبل أن يمسه إنها لا تبني على ما مضى من عدتها ، وإنما تنشىء من يوم طلقها عدّة مستقبلية . وقد ظلم زوجها نفسه وأخطأ إن كان آرجعها ولا حاجة له بها . وعلى هذا أكثر أهل العلم ؛ لأنها في حكم الزوجات المدخول بهن في النفقة والسكنى وغير ذلك ؛ ولذلك تستأنف العدّة من يوم طلقت ، وهو قول جمهور فقهاء البصرة والكوفة ومكة والمدينة والشام . وقال الثورى : أجمع الفقهاء عندنا على ذلك .

الخامسة - فلو كانت بائنة غير مبتوتة فترؤجها في العدّة ثم طلقها قبل الدخول فقد اختلفوا في ذلك أيضا ، فقال مالك والشافعى وزفر وعثمان البتّى : لها نصف الصداق وتم بقية العدّة الأولى . وهو قول الحسن وعطاء وعكرمة وابن شهاب . وقال أبو حنيفة وأبو يوسف والثورى والأوزاعى : لها مهر كامل للنكاح الثانى وعدّة مستقبلية . جعلوها في حكم المدخول بها لاعتدادها من مائه . وقال داود : لها نصف الصداق ، وليس عليها بقية العدّة الأولى ولا عدّة مستقبلية . والأولى ما قاله مالك والشافعى ، والله أعلم .

السادسة - هذه الآية مخصصة لقوله تعالى : « وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ » ، ولقوله : « وَاللَّائِي يَتَّبِعْنَ مِنَ الْحَيْضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ » .^(١) وقد مضى في « البقرة » ، ومضى فيها الكلام في المتعة ، فأغنى عن الإعادة هنا . (وسرّحوهنّ سراحاً جميلاً) فيه وجهان : أحدهما - أنه دفع المتعة بحسب الميسرة والعُسرة ، قاله

(٢) راجع ج ٣ ص ١١٢ فابدء ، و ص ٢٠٠ فابدء .

(١) راجع ج ١٨ ص ١٦٢

ابن عباس . الثاني - أنه طلاقها طاهرا من غير جماع؛ قاله قتادة . وقيل : فسرحوهن بعد الطلاق إلى أهلهن ، فلا يجتمع الرجل والمطلقة في موضع واحد .

السابعة - قوله تعالى : ﴿ فَتَّوَهُنَّ ﴾ قال سعيد : هي منسوخة بالآية التي في البقرة ، وهي قوله : « وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنَصِفُ مَا فَرَضْتُمْ » أي فلم يذكر المتعة . وقد مضى الكلام في هذا في « البقرة » مستوفى . وقوله : « وَسَرَّحُوهُنَّ » طلقوهن . والتسريح كناية عن الطلاق عند أبي حنيفة ، لأنه يستعمل في غيره فيحتاج إلى النية . وعند الشافعي صريح . وقد مضى في « البقرة » القول فيه فلا معنى للإعادة . (جَمِيلًا) سُنَّة ، غير بدعة .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَأُمَّرَاءَ مَوْمِنَةٍ إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يُكَونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٥﴾

فيه تسعة عشرة مسألة :

الأولى - روى السدي عن أبي صالح عن أم هاني بنت أبي طالب قالت : خطبني رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتذرت إليه فعذرني ؛ ثم أنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ

(١) راجع ج ٣ ص ٢٠٤ وص ١٢٥ (٢) قالت : إني امرأة مصيبة (ذات صبيان) . وفي بعض الروايات : قالت يا رسول الله ، لآنت أحب إلي من سمعي وبصري وحق الزوج عظيم . فأخشي أن أضيع حق الزوج .

عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ) قالت : فلم أكن أحل له ، لأنى لم أهاجر ، كنت من الطلقاء . خرجه أبو عيسى وقال : هذا حديث حسن لا يعرفه إلا من هذا الوجه . قال ابن العربي : وهو ضعيف جدا ، ولم يأت هذا الحديث من طريق صحيح يُحتج بها .

الثانية - لما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه فاخترته ، حرم عليه التزوج بغيرهن والاستبدال بهن ، مكافأة لمن على فعلهن . والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ ﴾ الآية . وهل كان يحل له أن يطلق واحدة منهن بعد ذلك ؟ فقيل : لا يحل له ذلك جزاء لمن على اختيارهن له . وقيل : كان يحل له ذلك كغيره من الناس ولكن لا يتزوج بدلها . ثم نسخ هذا التحريم فأباح له أن يتزوج بمن شاء عليهن من النساء ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ ﴾ والإحلال يقتضى تقدم حظر . وزوجاته اللاتي في حياته لم يكن محرمات عليه ، وإنما كان حرم عليه التزوج بالأجنبيات فانصرف الإحلال إليهن ، ولأنه قال في سياق الآية ﴿ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ ﴾ الآية . ومعلوم أنه لم يكن تحتها أحد من بنات عمه ولا من بنات عماته ولا من بنات خاله ولا من بنات خالاته ، فثبت أنه أحل له التزوج بهذا ابتداء . وهذه الآية وإن كانت مقدمة في التلاوة فهي متأخرة النزول على الآية المنسوخة بها ، كما ترى الوفاة في « البقرة »^(١) .

وقد اختلف الناس في تأويل قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ ﴾ فقيل : المراد بها أن الله تعالى أحل له أن يتزوج كل امرأة يؤتيها مهرها ، قاله ابن زيد والضحاك . فعلى هذا تكون الآية مبيحة لجميع النساء حاشا ذوات المحارم . وقيل : المراد أحل لنا لك أزواجك ، أى الكائنات عندك ، لأنهن قد اخترتك على الدنيا والآخرة ، قاله الجمهور من العلماء . وهو الظاهر ، لأن قوله : « آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ » ماضٍ ، ولا يكون الفعل الماضى بمعنى الاستقبال إلا بشروط . ويحىء الأمر على هذا التأويل ضيقاً على النبي صلى الله عليه وسلم . ويؤيد هذا التأويل ما قاله

ابن عباس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتزوج في أيّ الناس شاء ، وكان يشقّ ذلك على نسائه ، فلما نزلت هذه الآية وحرم عليه بها النساء إلا من سُمِّيَ ، سرّت نساؤه بذلك .

قلت : والقول الأول أصح لما ذكرناه . ويدل أيضا على صحته ماخرجه الترمذى عن عطاء قال : قالت عائشة رضى الله عنها : ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحلّ الله تعالى له النساء . قال : هذا حديث حسن صحيح .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ أحلّ الله تعالى السرارى لنبيه صلى الله عليه وسلم ولأتمته مطلقا ، وأحلّ الأزواج لنبيه عليه الصلاة والسلام مطلقا ، وأحلّه للخلق بعدد . وقوله : ﴿ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ﴾ أى رده عليك من الكفار . والغنيمة قد تسمى فيثاء ، أى مما أفاء الله عليك من النساء بالماخوذ على وجه القهر والغلبة .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ ﴾ أى أحللنا لك ذلك زائدا من الأزواج اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك ، على قول الجمهور ؛ لأنه لو أراد أحللنا لك كل امرأة تزوجت وآتيت أجرها ، لما قال بعد ذلك : « وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ » لأن ذلك داخل فيما تقدم .

قلت : وهذا لا يلزم ، وإنما خص هؤلاء بالذكر تشريفا ، كما قال تعالى : « فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرَمَانٌ » . والله أعلم .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ الْأَلْيَانِ هَاجِرُونَ مَعَكَ ﴾ فيه قولان : الأول — لا يحلّ لك من قرابتك كبنات عمك العباس وغيره من أولاد عبد المطلب ، وبنات أولاد بنات عبد المطلب ، وبنات الخلال من ولد بنات عبد مناف بن زهرة إلا من أسلم ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله تعالى عنه » . الثانى — لا يحلّ لك منهن إلا من هاجر إلى المدينة ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ

مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يَهْجُرُوا^(١)) ومن لم يهاجر لم يَكُنْ ، ومن لم يَكُنْ لم يصلح للنبي صلى الله عليه وسلم الذي كُنْ وشُرْفٌ وعَظْمٌ ، صلى الله عليه وسلم .

السادسة — قوله تعالى : (مَعَكَ) المَعِيَّةُ هُنَا الاشتراك في الهجرة لافي الصحبة فيها ؛ فن هاجر حل له ، كان في صحبته إذ هاجر أو لم يكن . يقال : دخل فلان معي وخرج معي ؛ أى كان عمله كعملى وإن لم يقترن فيه عملكما . ولو قلت : خرجنا معا لاقتضى ذلك المعنيين جميعا : الاشتراك في الفعل ، والاقتران [فيه] .

السابعة — ذكر الله تبارك وتعالى العمَّ قَرْدًا والعمَّاتِ جميعا . وكذلك قال : « خَالِكَ » ، « وَخَالَاتِكَ » والحكمة فى ذلك : أن العمَّ والخال فى الإطلاق اسم جنس كالشاعر والراجز ؛ وليس كذلك العممة والخالعة . وهذا عُرِفَ لغوى ، بجاء الكلام عليه بغاية البيان لرفع الإشكال ، وهذا دقيق فتأملوه ؛ قاله ابن العربى .

الثامنة — قوله تعالى : (وَأَمْرًاؤُا مُؤْمِنَةً) عطف على « أَحَلَّلْنَا » . المعنى وأحللنا لك امرأة تهب نفسها من غير صداق . وقد اختلف فى هذا المعنى ؛ فروى عن ابن عباس أنه قال : لم تكن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة إلا بعقد نكاح أو ملك يمين . فأما الهبة فلم يكن عنده منهن أحد . وقال قوم : كانت عنده موهوبة .

قلت : والذي فى الصحيحين يقوى هذا القول ويَضُدُّه ؛ روى مسلم عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأقول : أما تستحى امرأة تهب نفسها لرجل ! حتى أنزل الله تعالى « تُرْجَىٰ مِنْ نِسَاءٍ مِنْهُنَّ وَتُؤْوَىٰ إِلَيْكَ مِنْ نِسَاءٍ » فقلت : والله ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك . وروى البخارى عن عائشة أنها قالت : كانت خولة بنت حكيم من اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فدل هذا على أنهن كن غير واحدة . والله تعالى أعلم . الزَّخَّشَرِيُّ : وقيل الموهبات أربع : ميمونة بنت الحارث ، وزينب بنت خزيمة أم المساكين الأنصارية ، وأم شريك بنت جابر ، وخولة بنت حكيم .

قلت : وفي بعض هذا اختلاف . قال قتادة : هي ميمونة بنت الحارث . وقال الشعبي : هي زينب بنت خزيمه أم المساكين امرأة من الأنصار . وقال علي بن الحسين والضحاك ومقاتل : هي أم شريك بنت جابر الأسدي . وقال عمرو بن الزبير : أم حكيم بنت الأوقص السلمية .

التاسعة - وقد اختلف في اسم الواهبة نفسها ؛ فقيل هي أم شريك الأنصارية ، اسمها غُزَيَّة . وقيل غُزَيْلَة . وقيل ليلي بنت حكيم . وقيل : هي ميمونة بنت الحارث حين خطبها النبي صلى الله عليه وسلم ، فجاءها الخاطب وهي على بعيرها فقالت : البعير وما عليه لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : هي أم شريك العامرية ، وكانت عند أبي العكر الأزدي . وقيل عند الطفيل بن الحارث فولدت له شريكا . وقيل : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجها ؛ ولم يثبت ذلك . والله تعالى أعلم ؛ ذكره أبو عمر بن عبد البر . وقال الشعبي وعمرو : هي زينب بنت خزيمه أم المساكين . والله تعالى أعلم .

العاشرة - قرأ جمهور الناس « إِنَّ وَهَبَتْ » بكسر الألف ، وهذا يقتضى استئناف الأمر ؛ أى إن وقع فهو حلال له . وقد روى عن ابن عباس ومجاهد أنهما قالوا : لم يكن عند النبي صلى الله عليه وسلم امرأة موهوبة ؛ وقد دللنا على خلافه . وروى الأئمة من طريق سهل وغيره في الصحاح : أن امرأة قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : جئت أهب لك نفسى ، فسكت حتى قام رجل فقال : زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة . فلو كانت هذه الهبة غير جائزة لما سكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه لا يقتر على الباطل إذا سمعه ؛ غير أنه يحتمل أن يكون سكوته منتظرا بيانا ؛ فنزلت الآية بالتحليل والتخيير ، فاختار تركها وزوجها من غيره . ويحتمل أن يكون سكت ناظرا في ذلك حتى قام الرجل لها طالبا . وقرأ الحسن البصرى وأبى بن كعب والشعبي « أَنْ » بفتح الألف . وقرأ الأعمش « وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً وَهَبَتْ » . قال النحاس : وكسر « إِنَّ » أجمع للعاني ؛ لأنه قيل إنهن نساء . وإذا فتح كان المعنى على واحدة بعينها ؛ لأن الفتح على البدل من امرأة ، أو بمعنى لأن .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ مُؤْمِنَةٌ ﴾ يدل على أن الكافرة لا تحل له . قال إمام الحرمين : وقد اختلف في تحريم الحرة الكافرة عليه . قال ابن العربي : والصحيح عندي تحريمها عليه . وبهذا يتميز علينا ؛ فإنه ما كان من جانب الفضائل والكرامة فحظه فيه أكثر ، وما كان من جانب النقائص بخائبه عنها أطهر ؛ بخوز لنا نكاح الخرائر الكتابيات ، وقصر هو صلى الله عليه وسلم لجلالته على المؤمنات . وإذا كان لا يحل له من لم تهجر لنقصان فضل الهجرة فأحرى ألا تحل له الكافرة الكتابية لنقصان الكفر .^(١)

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا ﴾ دليل على أن النكاح عقد معاوضة على صفات مخصوصة ، قد تقدمت في « النساء » وغيرها . وقال الزجاج : معنى « إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ » حلت . وقرأ الحسن : « أن وهبت » بفتح الهمزة . و « أن » في موضع نصب . قال الزجاج : أى لأن . وقال غيره : « أن وهبت » بدل اشتمال من « امرأة » .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا ﴾ أى إذا وهبت المرأة نفسها وقبلها النبي صلى الله عليه وسلم حلت له ، وإن لم يقبلها لم يلزم ذلك . كما إذا وهبت لرجل شيئا فلا يجب عليه القبول ؛ بيد أن من مكارم أخلاق نبينا أن يقبل من الواهب هبته . ويرى الأكارم أن ردها هجينة في العادة ، ووصمة على الواهب وأذية لقلبه ؛ فبين الله ذلك في حق رسوله صلى الله عليه وسلم وجعله قرآنا يتلى ؛ ليرفع عنه الحرج ، ويبطل بطل الناس في عاداتهم وقولهم .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ خَالِصَةً لَكَ ﴾ أى هبة النساء أنفسهم خالصة ومزية لا تجوز ؛ فلا يجوز أن تهب المرأة نفسها لرجل . ووجه الخاصية أنها لو طلبت فرض المهر قبل الدخول لم يكن لها ذلك . فأما فيما بيننا فالمفوضة طلب المهر قبل الدخول ، ومهر المثل بعد الدخول .

(١) في ابن العربي « الحرة » . (٢) راجع ج ٥ ص ١٢٧ فإبعد .

الخامسة عشرة — أجمع العلماء على أن هبة المرأة نفسها غير جائز^(١)، وأن هذا اللفظ من الهبة لا يتم عليه نكاح ؛ إلا ما روى عن أبي حنيفة وصاحبيه فإنهم قالوا : إذا وهبت فأشهد هو على نفسه بمهر فذلك جائز . قال ابن عطية : فليس في قولهم إلا تجوز العبارة ولفظة الهبة ، وإلا فالأفعال التي اشترطوها هي أفعال النكاح بعينه ، وقد تقدمت هذه المسألة في «القصص» مستوفاة^(٢) . والحمد لله .

السادسة عشرة — خص الله تعالى رسوله في أحكام الشريعة بمعان لم يشاركه فيها أحد — في باب الفرض والتحریم والتحليل — مزية على الأمة وهبت له ، ومرتبة خص بها ؛ وفرضت عليه أشياء ما فرضت على غيره ، وحرمت عليه أفعال لم تحرم عليهم ، وحلت له أشياء لم تحل لهم ؛ منها متفق عليه ومختلف فيه .

فأما ما فرض عليه فتسعة : الأول — التهجيد بالليل ؛ يقال : إن قيام الليل كان واجبا عليه إلى أن مات ؛ لقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ قُمِ اللَّيْلَ » الآية . والمنصوص أنه كان واجبا عليه ثم نسخ بقوله تعالى : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ » وسيأتي . الثاني — الضحَا . الثالث — الأضحى . الرابع — الوتر ؛ وهو يدخل في قسم التهجد . الخامس — السواك . السادس — قضاء دين من مات معسرا . السابع — مشاوردة ذوى الأحلام في غير الشرائع . الثامن — تخيير النساء . التاسع — إذا عمل عملا أثبته . زاد غيره : وكان يجب عليه إذا رأى منكرا أنكره وأظهره ، لأن إقراره لغيره على ذلك يدل على جوازه ، ذكره صاحب البيان . وأما ما حرم عليه فحملته عشرة : الأول — تحريم الزكاة عليه وعلى آله . الثاني —

صدقة التطوع عليه ، وفي آله تفصيل باختلاف . الثالث — خاتنة الأعين ، وهو أن يظهر خلاف ما يضمر ، أو ينخدع عما يجب . وقد ذم بعض الكفار عند إذنه ثم ألان له القول

(١) أى أمر غير جائز . (٢) راجع ج ١٣ ص ٢٧٢ (٣) فى ابن العربى : « وهبته له » .

(٤) راجع ج ١٩ ص ٣٠ (٥) راجع ج ١٠ ص ٣٠٧ (٦) الخاتنة بمعنى الخيانة ، وهى من

المصادر التى جاءت على لفظ الفاعلة كالعافية ؛ فاذا كفى الإنسان لسانه وأرما بعينه فقد خان ، وإذا كان ظهور تلك الحالة من قبل العين سميت خاتنة الأعين .

(١) عند دخوله . الرابع — حرم الله عليه إذا لبس لأتمته أن يخلعها عنه أو يحكم الله بينه وبين محاربه . الخامس — الأكل متكثًا . السادس — أكل الأطعمة الكريهة الرائحة . السابع — التبديل بأزواجه ؛ وسيأتي . الثامن — نكاح امرأة تكره صحبتته . التاسع — نكاح الحرة الكتابية . العاشر — نكاح الأمة .

وحرم الله عليه أشياء لم يحرمها على غيره تنزيها له وتطهيرا . فحرم الله عليه الكتابة وقول الشعر وتعليمه ؛ تأكيد المجتهه وبيانا لمعجزته ؛ قال الله تعالى : « وَمَا كُنْتَ تَلْمُوزُ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَحُطُّهُ بِمِثْنِكَ » . وذكر النقاش أن النبي صلى الله عليه وسلم ما مات حتى كتب ؛ والأول هو المشهور . وحرم عليه أن يمد عينيه إلى ما متع به الناس ؛ قال الله تعالى : « وَلَا تُمَدِّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعَنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ » الآية .

وأما ما أحل له صلى الله عليه وسلم بفحلمته ستة عشر : الأول — صفي المغنم . الثاني — الاستبداد بخمس أو الخمس . الثالث — الوصال . الرابع — الزيادة على أربع نسوة . الخامس — النكاح بالفظ الهبة . السادس — النكاح بغير ولي . السابع — النكاح بغير صداق . الثامن — نكاحه في حالة الإحرام . التاسع — سقوط القسم بين الأزواج عنه ؛ وسيأتي . العاشر — إذا وقع بصره على امرأة وجب على زوجها طلاقها ؛ وحل له نكاحها . قال ابن العربي : هكذا قال إمام الحرمين ، وقد مضى ما للعلماء في قصة زيد من هذا المعنى . الحادي عشر — أنه أعتق صفيّة وجعل عتقها صداقها . الثاني عشر — دخوله مكة بغير إحرام ، وفي حقا فيه اختلاف . الثالث عشر — القتال بمكة . الرابع عشر — أنه لا يورث . وإنما ذكر هذا في قسم التحليل لأن الرجل إذا قارب الموت بالمرض زال عنه أكثر ملكه ، ولم يبق له إلا الثالث خالصا ، وبقى ملك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على ما تقرّر بيانه في آية المواريث ، وسورة « صريم » بيانه أيضا . الخامس عشر — بقاء زوجيته من بعد

(١) راجع كتاب البخاري وسلم (باب الأدب) . (٢) اللأمة (وقد يترك هزها) : الدرع . وقيل السلاح .

(٤) راجع ج ١١ ص ٢٦١ .

(٣) راجع ج ١٣ ص ٣٥١ .

(٦) راجع ج ١١ ص ١٨ .

(٥) راجع ج ٥ ص ٥٩ .

الموت . السادس عشر — إذا طلق امرأة تبتقى حرمتها عليها فلا تنكح . وهذه الأقسام الثلاثة تقدم معظمها مفصلاً في مواضعها . وسيأتى إن شاء الله تعالى .

[وأبيح له عليه الصلاة والسلام أخذ الطعام والشراب من الجائع والعطشان ، وإن كان من هو معه يخاف على نفسه الهلاك ، لقوله تعالى : « النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ » . وعلى كل أحد من المسلمين أن يبقَى النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه . وأبيح له أن يحيى لنفسه . وأكرمه الله بتحايل الغنائم . وجعلت الأرض له ولأئمة مسجداً وطهوراً . وكان من الأنبياء [مَنْ] لا تصح صلاتهم إلا في المساجد . ونُصِر بالرُّعب ؛ فكان يخافه العدو من مسيرة شهر . وبُعث إلى كافة الخلق ، وقد كان من قبله من الأنبياء يُبعث الواحد إلى بعض الناس دون بعض . وجُعِلت معجزاته كمعجزات الأنبياء قبله وزيادة . وكانت معجزة موسى عليه السلام العصا وانفجار الماء من الصخرة . وقد أنشق القمر للنبي صلى الله عليه وسلم ، وخرج الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم . وكانت معجزة عيسى صلى الله عليه وسلم إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص . وقد سبَّح الحصى في يد النبي صلى الله عليه وسلم ، وحنَّ الجذع إليه ؛ وهذا أبلغ . وفضله الله عليهم بأن جعل القرآن معجزة له ، وجعل معجزته فيه باقية إلى يوم القيامة ، ولهذا جعلت نبوته مؤبدة لا تُنسخ إلى يوم القيامة ^(١)] .

السابعة عشر — قوله تعالى : (أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا) أى ينكحها ، يقال : نكح واستنكح ؛ مثل نكح واستعجب ، وعجّل واستعجل . ويجوز أن يرد الاستنكاح بمعنى طلب النكاح ، أو طلب الوطء ، و « خَالِصَةً » نصب على الحال ، قاله الزجاج . وقيل : حال من ضمير متصل بفعل مضمر دل عليه المضمرة ، تقديره : أحللتنا لك أزواجك ، وأحللتنا لك امرأة مؤمنة أحللتناها خالصة ، بلفظ الهبة وبغير صداق وبغير ولي .

الثامنة عشرة — قوله تعالى : (مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ) فائدته أن الكفار وإن كانوا مخاطبين بفروع الشريعة عندنا فليس لهم في ذلك دخول ، لأن تصريح الأحكام إنما يكون فيهم على تقدير الإسلام .

(١) ما بين المربعين ساقط من ج وك . (٢) في ش : « بنفسه » بالباء بدل اللام ؛ والجملة غير ظاهرة .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ ﴾ أى ما أوجبنا على المؤمنين ، وهو ألا يتزوجوا إلا أربع نسوة بمهر و بينة و ولى . قال معناه أبى بن كعب وقتادة وغيرهما .
 التاسعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ﴾ أى ضيق فى أمر أنت فيه محتاج إلى السعة ، أى بيننا هذا البيان و شرحنا هذا الشرح « لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ » .
 فـ « لِكَيْلَا » متعلق بقوله : « إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ » أى فلا يضيق قلبك حتى يظهر منك أنك قد أئمت عند ربك فى شىء . ثم آانس تعالى جميع المؤمنين بغفرانه ورحمته فقال تعالى :
 ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

قوله تعالى : تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُعْوَِيْ إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ أَبْتَغَيْتِ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقْرَءِ عَمِيْنَهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾

فيه إحدى عشرة مسألة .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ ﴾ قرئ مهموزا و غير مهموز ، وهما لغتان ، يقال : أرجيت الأمر وأرجأته إذا أخرته . ﴿ وَتُعْوَِيْ ﴾ تَضُمُّ ، يقال : آوى إليه (ممدودة الألف) ضمَّ إليه . وآوى (مقصورة الألف) انضمَّ إليه .

الثانية — وأختلف العلماء فى تأويل هذه الآية ، وأصح ما قيل فيها . التوسعة على النبي صلى الله عليه وسلم فى ترك القسم ، فكان لا يجب عليه القسم بين زوجاته . وهذا القول هو الذى يناسب ما مضى ، وهو الذى ثبت معناه فى الصحيح عن عائشة رضى الله عنها ؛ قالت : كنت أغار على اللأئى وهبن أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأقول : أوتهب المرأة نفسها لرجل ؟ فلما أنزل الله عز وجل « تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُعْوَِيْ إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ أَبْتَغَيْتِ مِمَّنْ عَزَلْتَ » قالت : قلت والله ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك . قال

أبن العربي : هذا الذي ثبت في الصحيح هو الذي ينبغي أن يعول عليه . والمعنى المراد : هو أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مخيراً في أزواجه ، إن شاء أن يقسم قسم ، وإن شاء أن يترك القسم ترك . فخص النبي صلى الله عليه وسلم بأن جعل الأمر إليه فيه ؛ لكنه كان يقسم من قبل نفسه دون أن فرض ذلك عليه ، تطيباً لنفوسهن ، وصوتاً لهن عن أقوال الفئرة التي تؤدي إلى ما لا ينبغي . وقيل : كان القسم واجباً على النبي صلى الله عليه وسلم ثم نسخ الوجوب عنه بهذه الآية . قال أبو رزين : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد هم بطلاق بعض نسائه فقلن له : اقسام لنا ماشئت . فكان من آوى عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب ، فكان قسمتهن من نفسه وماله سواء بينهن . وكان ممن أرجى سودة وجويرية وأم حبيبة وميمونة وصفية ؛ فكان يقسم لهن ماشاء . وقيل : المراد الواهبات . روى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة في قوله : « تُرْجَى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ » قالت : هذا في الواهبات أنفسهن . قال الشعبي : هن الواهبات أنفسهن ؛ تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم منهن وترك منهن . وقال الزهري : ما علمنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرجأ أحداً من أزواجه ، بل آواههن كلهن . وقال ابن عباس وغيره : المعنى في طلاق من شاء ممن حصل في عصمته ، وإمساك من شاء . وقيل غير هذا . وعلى كل معنى فالآية معناها التوسعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم والإباحة . وما اخترناه أصح والله أعلم .

الثالثة — ذهب هبة الله في الناسخ والمنسوخ إلى أن قوله : « تُرْجَى مَنْ تَشَاءُ » الآية ، ناسخ لقوله : « لَا يَجِلُّ لَكَ الذَّسَاءُ مِنْ بَعْدُ » الآية . وقال : ليس في كتاب الله ناسخ تقدم المنسوخ سوى هذا . وكلامه يضعف من جهات . وفي « البقرة » مدة المتوفى عنها أربعة أشهر وعشر ، وهو ناسخ للحول وقد تقدم عليه .^(١)

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أبتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ ﴾ « أبتغيت » طلبت ، والابتغاء الطلب . و « عَزَلْتَ » أزلت ، والعزلة الإزالة ، أى إن أردت أن تؤوى إليك امرأة ممن

عن لهن من القسمة وتضمها إليك فلا بأس عليك في ذلك . وكذلك حكم الإرجاء ، فدل
أحد الطرفين على الثاني .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ أي لا ميل ، يقال : جنحت السفينة
أي مالت إلى الأرض . أي لا ميل عليك باللوم والتوبيخ .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ آدَتِي أَنْ تَقْرَأَعَيْنَهُنَّ ﴾ قال قتادة وغيره : أي ذلك
التخيير الذي خيرناك في صحبتهم أدنى إلى رضاهن إذ كان من عندنا ؛ لأنهن إذا علمن أن
الفعل^(١) من الله قرت أعينهن بذلك ورضين ؛ لأن المرء إذا علم أنه لا حق له في شيء كان
راضيا بما أوتي منه وإن قل . وإن علم أن له حقا لم يقنعه ما أوتي منه ، واشتدت خيبرته
عليه وعظم حرصه فيه . فكان ما فعل الله لرسوله من تفويض الأمر إليه في أحوال أزواجه
أقرب إلى رضاهن معه ، وإلى استقرار أعينهن بما يسمح به لهن ، دون أن تتعلق قلوبهن
بأكثر منه . وقرئ : « تُقَرَّ أعينهن » بضم التاء ونصب الأعين . « وتُقَرَّ أعينهن » على البناء
للفعل . وكان عليه السلام مع هذا يشدد على نفسه في رعاية النسوية بينهن ، تطيبا لقلوبهن —
كما قدمناه — ويقول : « اللهم هذه قدرتي فيما أملك فلا تلهني فيما تملك ولا أملك » يعني
قلبه ؛ لإيثاره عائشة رضي الله عنها دون أن يكون يظهر ذلك في شيء من فعله . وكان في مرضه
الذي توفي فيه يطاف به مجولا على بيوت أزواجه ، إلى أن استأذنه أن يقيم في بيت عائشة .
قالت عائشة : أول ما اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت ميمونة ، فاستأذن أزواجه
أن يمرض في بيتها — يعني بيت عائشة — فأذن له ... الحديث ، نرجه الصحيح . وفي الصحيح
أيضا عن عائشة رضي الله عنها قالت : إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتفقد^(٢) ،

(١) في شوك : « السدل » . (٢) كذا في شوك ، والذي في البخاري : لينعذر

قال القسطلاني : « بالعين المهملة والذال المعجمة ؛ أي يطلب العذر فيما يحاوله من الانتقال إلى بيت عائشة . وعند
القاسمي « ينقذر » بالقاف والذال المهملة ؛ أي يسأل عن قدر ما بقي إلى يومها ليهون عليه بعض ما يجد ، لأن المرء
يجد عند بعض أهله ما لا يجده عند بعض من الأئس والسكون » .

يقول : " أين أنا اليوم أين أنا غدا " استبطاء ليوم عائشة رضي الله عنها . قالت : فلما كان يومى قبضه الله تعالى بين سحري ونحري ؛ صلى الله عليه وسلم .

السابعة — على الرجل أن يعدل بين نسائه لكل واحدة منهن يوماً وليلة ؛ هذا قول عامة العلماء . وذهب بعضهم إلى وجوب ذلك في الليل دون النهار . ولا يُسقط حق الزوجة مرضها ولا حيضها ، ويلزمه المقام عندها في يومها وليلتها . وعليه أن يعدل بينهن في مرضه كما يفعل في صحته ؛ إلا أن يعجز عن الحركة فيقيم حيث غلب عليه المرض ، فإذا صح استأنف القسم . والإماء والحرائر والكتابيات والمسلمات في ذلك سواء . قال عبد الملك : للحرة ليلتان وللأمة ليلة . وأما السرارى فلا قسم بينهن وبين الحرائر ، ولا حظ لهن فيه .

الثامنة — ولا يجمع بينهن في منزل واحد إلا برضاهن ، ولا يدخل لإحداهن في يوم الأخرى وليلتها لغير حاجة . واختلف في دخوله لحاجة وضرورة ؛ فالأكثر على جوازه ؛ مالك وغيره . وفي كتاب ابن حبيب منعه . وروى ابن بكير عن مالك عن يحيى بن سعيد أن معاذ بن جبل كانت له امرأتان ، فإذا كان يوم هذه لم يشرب من بيت الأخرى الماء . قال ابن بكير : وحدثنا مالك عن يحيى بن سعيد أن معاذ بن جبل كانت له امرأتان ماتتا في الطاعون . فأمهم بينهما أيهما تدلى أول .

التاسعة — قال مالك : ويعدل بينهن في النفقة والكسوة إذا كن معتدلات الحال ، ولا يلزم ذلك في المختلفات المناصب . وأجاز مالك أن يفضل إحداهما في الكسوة على غير وجه الميل . فأما الحُبّ والبغض فخارجان عن الكسب فلا يتأني العدل فيهما ، وهو المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم في قسمه . " اللهم هذا فعلى فيما أملك فلا تلني فيما تملك ولا أملك " . أخرجه النسائي وأبو داود عن عائشة رضي الله عنها . وفي كتاب أبي داود « يعنى القلب » ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : « وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ » ، وقوله تعالى : « وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ » . وهذا هو وجه تخصيصه بالذكر هنا ، تنبيها منه لنا على أنه يعلم

(١) تريد بين جنبي وصدري . والسحر : الرقة ، فأطلقت على الجنب مجازا ، من باب تسمية المحل باسم الحال

فيه . والنحر : الصدر . (٢) راجع ج ٥ ص ٤٠٧ .

ما في قلوبنا من ميل بعضنا إلى بعض من عندنا من النساء دون بعض ، وهو العالم بكل شيء
 « لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ » ^(١) « يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى » ^(٢) لكنه سمح في ذلك ،
 إذ لا يستطيع العبد أن يصرف قلبه عن ذلك الميل ، وإلى ذلك يعود قوله : « وَكَانَ اللَّهُ
 غَفُورًا رَحِيمًا » . وقد قيل في قوله : « ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقْرَأَ آيَاتِهِنَّ » وهي :

العاشرة - أى ذلك أقرب ألا يحزن إذا لم يجمع إحداهن مع الأخرى ويعاين الأثره
 والميل . وروى أبو داود عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من كانت له
 امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل » . (وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَنَّ كُلَّهُنَّ)
 توكيد للضمير ، أى ويرضين كلهن . وأجاز أبو حاتم والزجاج « وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَنَّ كُلَّهُنَّ »
 على التوكيد للضمير الذى فى « آتَيْتَنَّ » . والفراء لا يبيزه ، لأن المعنى ليس عليه ، إذ كان
 المعنى وترضى كل واحدة منهن ، وليس المعنى بما أعطيتن كلهن . النحاس : والذى قاله حسن .

الحادية عشرة - قوله تعالى : (وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ) خبر عام ، والإشارة إلى
 ما فى قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من محبة شخص دون شخص . وكذلك يدخل فى المعنى
 أيضا المؤمنون . وفى البخارى عن عمرو بن العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه على
 جيش ذات السلاسل ، فأتيته فقلت : أى الناس أحب إليك ؟ فقال : « عائشة » فقلت :
 من الرجال ؟ قال : « أبوها » قلت : ثم من ؟ قال : « عمر بن الخطاب ... » فعد رجالا .
 وقد تقدم القول فى القلب بما فيه كفاية فى أول « البقرة » ، وفى أول هذه السورة ^(٤) .
 يروى أن لقمان الحكيم كان عبدا نجارا قال له سيده : اذبح شاة وائتنى بأطيبها بضعتين ،
 فأتاه باللسان والقلب . ثم أمره بذبح شاة أخرى فقال له : ألق أخبثها بضعتين ، فألقى اللسان
 والقلب . فقال : أمرتك أن تأتيني بأطيبها بضعتين فأتيتنى باللسان والقلب ، وأمرتك أن
 تلقى بأخبثها بضعتين فألقيت اللسان والقلب ! ؟ فقال : ليس شيء أطيب منهما إذا طابا ،
 ولا أخبث منهما إذا خبثا .

(٢) راجع ج ١١ ص ١٦٥ فما بعد .

(٤) ص ١١٧ من هذا الجزء .

(١) راجع ج ٤ ص ٦ فما بعد .

(٣) راجع ج ١ ص ١٨٧ .

قوله تعالى : لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴿٥٢﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى - اختلف العلماء في تأويل قوله : « لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ » على

أقوال سبعة :

الأولى - أنها منسوخة بالسنة ، والناسخ لها حديث عائشة ، قالت : ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحل له النساء . وقد تقدم ^(١) .

الثاني - أنها منسوخة بآية أخرى ، روى الطحاوي عن أم سلمة قالت : لم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء من شاء ، إلا ذات محرم ، وذلك قوله عز وجل : « تُرْجَى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوَى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ » . قال النحاس : وهذا والله أعلم أولى ما قيل في الآية ، وهو قول عائشة واحد في النسخ . وقد يجوز أن تكون عائشة أرادت أحل له ذلك بالقرآن . وهو مع هذا قول علي بن أبي طالب وابن عباس وعلي بن الحسين والضحاك . وقد عارض بعض فقهاء الكوفيين فقال : محال أن تنسخ هذه الآية يعني « تُرْجَى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ » « لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ » وهي قبلها في المصحف الذي أجمع عليه المسلمون . ورجح قول من قال نسخت بالسنة . قال النحاس : وهذه المعارضة لا تلزم وقائلها غلط ؛ لأن القرآن بمنزلة سورة واحدة ، كما صح عن ابن عباس : أنزل الله القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في شهر رمضان . ويبين لك أن اعتراض هذا [المعترض] لا يلزم [أن] قوله عز وجل « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ » منسوخة على قول أهل التأويل - لا نعلم بينهم

خلافا — بالآية التي قبلها « وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنكُمْ وَيُذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا » :

الثالث — أنه صلى الله عليه وسلم حظر عليه أن يتزوج على نسائه ؛ لأنهن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة ؛ هذا قول الحسن وابن سيرين وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ابن هشام . قال النحاس : وهذا القول يجوز أن يكون هكذا ثم نسخ .

الرابع — أنه لما حرم عليهن أن يتزوجن بعده حرم عليه أن يتزوج غيرهن ؛ قاله أبو أمامة بن سهل بن حنيف .

الخامس — « لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ » أى من بعد الأصناف التي سُميت ؛ قاله أبي بن كعب وعكرمة وأبو رزين ، وهو اختيار محمد بن جرير . ومن قال إن الإباحة كانت له مطابقة قال هنا : « لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ » معناه لا تحل لك اليهوديات ولا النصرانيات . وهذا تأويل فيه بُعد . وروى عن مجاهد وسعيد بن جبيرة وعكرمة أيضا . وهو القول السادس . قال مجاهد : لئلا تكون كافرة أمّا للمؤمنين . وهذا القول يبعد ؛ لأنه يقدره : من بعد المسلمات ، ولم يحرم للمسلمات ذكر . وكذلك قدر « وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بَيْنَ » أى ولا أن تطلق مسلمة لتستبدل بها كتابية .

السابع — أن النبي صلى الله عليه وسلم كان له حلال أن يتزوج من شاء ثم نسخ ذلك . قال : وكذلك كانت الأنبياء قبله صلى الله عليه وعليهم وسلم ؛ قاله محمد بن كعب القرظي .

الثانية — قوله تعالى : « وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بَيْنَ مِنْ أَزْوَاجٍ » قال ابن زيد : هذا شيء كانت العرب تفعله ، يقول أحدهم : خذ زوجتي وأعطني زوجتك ، روى الدارقطني عن أبي هريرة قال : كان البدل في الجاهلية أن يقول الرجل للرجل : انزل لي عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتي وأزيدك ؛ فأنزل الله عز وجل « وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بَيْنَ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ » قال : فدخل عيينة بن حصن الفزاري على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده

عائشة ، فدخل بغير إذن ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” يا عيينة فأين الاستئذان ؟ ” فقال : يا رسول الله ، ما استأذنت على رجل من مضر منذ أدركت . قال : من هذه الحميراء إلى جنبك ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” هذه عائشة أم المؤمنين ” قال : أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق . فقال : ” يا عيينة ، إن الله قد حرّم ذلك ” . قال فلما نرج قالت عائشة : يا رسول الله ، من هذا ؟ قال : ” أحق مطاع وإنه على ما ترين لسيد قومك ” . وقد أنكر الطبري والنحاس وغيرهما ما حكاه ابن زيد عن العرب ، من أنها كانت تبادل بأزواجها . قال الطبري : وما فعلت العرب قط هذا ، وما روى من حديث عيينة بن حصن من أنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده عائشة ... الحديث ، فليس بتبديل ، ولا أراد ذلك ، وإنما آحقر عائشة لأنها كانت صبية فقال هذا القول .

قلت : وما ذكرناه من حديث زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة من أن البديل كان في الجاهلية يدلّ على خلاف ما أنكر من ذلك ، والله أعلم . قال المسبرد : وقرئ «لَا يَجِلُّ» بالياء والتاء . فنقرأ بالتاء فعلى معنى جماعة النساء ، وبالياء من تحت على معنى جميع النساء . وزعم القراء قال : اجتمعت القراء على أن القراءة بالياء ، وهذا فلفظ ، وكيف يقال : اجتمعت القراء وقد قرأ أبو عمرو بالتاء بلا اختلاف عنه !

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حَسَنُهَا ﴾ قال ابن عباس : نزل ذلك بسبب أسماء بنت عميس ، أعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مات عنها جعفر بن أبي طالب حسنها ، فأراد أن يتزوجها ، فنزلت الآية ، وهذا حديث ضعيف قاله ابن العربي .

الرابعة — في هذه الآية دليل على جواز أن ينظر الرجل إلى من يريد زواجها . وقد أراد المغيرة بن شعبه زواج امرأة ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ” انظر إليها فإنه أجد أن يؤدم بينكما ” . وقال عليه السلام لآخر : ” انظر إليها فإن في أعين الأنصار شيئا ” أخرجه الصحيح . قال الحميدى وأبو الفرج الجوزي . يعني صفراء أوزرقاء . وقيل رمصاء .^(٢)

(١) أى أحرى أن تدوم المودة بينكما . يقال : آدم الله بينهما يادم أدما ؛ أى ألف ووفق .

(٢) الرمص (بالتحريك) : وضح يجتمع في الموق ؛ فإن سال فهو غصص ، وإن جد فهو رمصص .

الخامسة — الأمر بالنظر إلى المخطوبة إنما هو على جهة الإرشاد إلى المصلحة؛ فإنه إذا نظر إليها فلعله يرى منها ما يرغبه في نكاحها . ومما يدل على أن الأمر على جهة الإرشاد ما ذكره أبو داود من حديث جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر منها إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل" . فقوله : "فإن استطاع فليفعل" لا يقال مثله في الواجب . وبهذا قال جمهور الفقهاء مالك والشافعي والكوفيون وغيرهم وأهل الظاهر . وقد ذكره ذلك قوم لا مبالاة بقولهم ؛ للأحاديث الصحيحة ؛ وقوله تعالى : « **وَلَوْ أَنجَبَكَ حُسْنًا** » . وقال سهل بن أبي حنمة : رأيت محمد بن مسلمة يطارد ثبيته بنت الضحاك على إجار من أجاجير المدينة فقالت له : أتفعل هذا ؟ فقال نعم ! قال النبي صلى الله عليه وسلم : "إذا ألقى الله في قلب أحدكم خطبة امرأة فلا بأس أن ينظر إليها" . الإجار : السطح ، بلغة أهل الشام والحجاز . قال أبو عبيد : وجمع الإجار أجاجير وأجاجرة .

السادسة — اختلف فيما يجوز أن ينظر منها ؛ فقال مالك : ينظر إلى وجهها وكفها ، ولا ينظر إلا بإذنها . وقال الشافعي وأحمد : بإذنها وبغير إذنها إذا كانت مستترة . وقال الأوزاعي : ينظر إليها ويحتهد وينظر مواضع اللحم منها . قال داود : ينظر إلى سائر جسدها ؛ تمسكاً بظاهر اللفظ . وأصول الشريعة ترد عليه في تحريم الاطلاع على العورة . والله أعلم .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ **إِلَّا مَا مَلَكَت يَمِينُكَ** ﴾ اختلف العلماء في إحلال الأمانة الكافرة للنبي صلى الله عليه وسلم على قولين : تحل لعموم قوله : « **إِلَّا مَا مَلَكَت يَمِينُكَ** » ؛ قاله مجاهد وسعيد بن جبيرة وعطاء والحكم . قالوا : قوله تعالى « **لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ** » أى لا تحل لك النساء من غير المسلمات ، فأما اليهوديات والنصرانيات والمشركات فحرام عليك ؛ أى لا يحل لك أن تتزوج كافرة فتكون أمًّا للؤمنين ولو أعجبك حسننها ؛ إلا ما ملكت يمينك ، فإن له أن يتسرى بها . القول الثاني — لا تحل ؛ تنزيهاً لقدره عن مباشرة الكافرة ، وقد قال الله تعالى : « **وَلَا تَمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفِرِ** » ^(١) فكيف به صلى الله عليه وسلم .

و « ما » في قوله : « إِلَّا مَا مَلَكَت يَمِينُكَ » في موضع رفع بدل من « النساء » . ويجوز أن يكون في موضع نصب على استثناء ، وفيه ضعف . ويجوز أن تكون مصدرية ، والتقدير : إلا ملك يمينك ، وملك بمعنى مملوك ، وهو في موضع نصب لأنه استثناء من غير الجففس الأول .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَٰكِنِ إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَعْسِفِينَ لِحَدِيثِ ^ج إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحِيهِ مِنْكُمْ ^ب وَاللَّهُ لَا يَسْتَحِيهِ مِنْ الْحَقِّ ^ج وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ^ج وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَزْوَاجَهُ ^ج مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا ^ج إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾

فيه ست عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ « أن » في موضع نصب على معنى : إلا بأن يؤذن لكم ، ويكون الاستثناء ليس من الأول . ﴿ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَظِيرٍ إِنَّهُ ﴾ نصب على الحال ، أى لا تدخلوا في هذه الحال . ولا يجوز في « غير » الخفض على النعت للطعام ، لأنه لو كان نعتا لم يكن بد من إظهار الفاعلين ، وكان يقول : غير ناظرين إناه أتم . ونظير هذا من النحو : هذا رجلٌ مع رجلٍ ملازمٌ له ، وإن شئت قلت : هذا رجلٌ مع رجلٍ ملازمٍ له هو .

وهذه الآية تضمنت قصتين : إحداهما — الأدب في أمر الطعام والجلوس . والثانية — أمر الحجاب . وقال حماد بن زيد : هذه الآية نزلت في الثقلاء . فأما القصة الأولى فالجمهور

من المفسرين على أن : سببها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تزوج زينب بنت جحش امرأة زيد أولم عليها ، فدعا الناس ، فلما طعموا جالس طوائف منهم يتحدثون في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجته مولىة وجهها إلى الحائط ، فثقلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال أنس : فما أدري أنا أخبرت النبي صلى الله عليه وسلم أن القوم قد خرجوا أو أخبرني . قال : فأنطلق حتى دخل البيت ، فذهبت أدخل معه فألقى الستر بيني وبينه ونزل الحجاب . قال : ووعظ القوم بما وعضوا به ، وأنزل الله عز وجل « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ — إِلَى قَوْلِهِ — إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا » أخرجه الصحيح . وقال قتادة ومقاتل في كتاب الثعلبي : إن هذا السبب جرى في بيت أم سلمة . والأقول الصحيح ، كما رواه الصحيح . وقال ابن عباس : نزلت في ناس من المؤمنين كانوا يقيمون طعام النبي صلى الله عليه وسلم فيدخلون قبل أن يدرك الطعام ، فيقعدون إلى أن يدرك ، ثم يأكلون ولا يخرجون . وقال إسماعيل بن أبي حكيم : وهذا أدب أدب الله به الثقلاء . وقال ابن أبي عاصم في كتاب الثعلبي : حسبك من الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم . وأما قصة الحجاب فقال أنس بن مالك وجماعة : سببها أمر القعود في بيت زينب ، القصة المذكورة آنفا . وقالت عائشة رضي الله عنها وجماعة : سببها أن عمر قال قلت : يا رسول الله ، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر ، فلو أمرتهن أن يحتجبن ، فنزلت الآية . وروى الصحيح عن ابن عمر قال : قال عمر وافقت ربي في ثلاث : في مقام إبراهيم ، وفي الحجاب ، وفي أسارى بدر . هذا أصح ما قيل في أمر الحجاب ، وما عدا هذين القولين من الأقوال والروايات فواهية ، لا يقوم شيء منها على ساق ، وأضعفها ما روى عن ابن مسعود : أن عمر أمر نساء النبي صلى الله عليه وسلم بالحجاب ، فقالت زينب بنت جحش : يا بن الخطاب ، إنك تغار علينا والوحي ينزل في بيوتنا ! فأنزل الله تعالى : « وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ » وهذا باطل ، لأن الحجاب نزل يوم البناء بزینب ، كما بيناه . أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم . وقيل : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يطعم ومعه بعض

(١) أى التى كانت امرأة زيد ثم طلقها وانقضت نكحتها منه .

أصحابه ، فأصاب يَدُ رجل منهم يدَ عائشة ، فكره النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت آية الحجاب . قال ابن عطية : وكانت سيرة القوم إذا كان لهم طعام وليمة أو نحوه أن يبكر من شاء إلى الدعوة ينتظرون طبخ الطعام ونُضِجَه . وكذلك إذا فرغوا منه جلسوا كذلك ، فنهى الله المؤمنين عن أمثال ذلك في بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، ودخل في النهي سائر المؤمنين ، والترم الناس أدب الله تعالى لهم في ذلك ، فمنعهم من الدخول إلا بإذن عند الأكل ، لاقبله لانتظار نُضِجِ الطعام .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ بُيُوتَ النَّبِيِّ ﴾ دليل على أن البيت للرجل ، ويحكم له به ، فإن الله تعالى أضافه إليه . فإن قيل : فقد قال الله تعالى : « وَأَذْكُرَنَّ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا »^(١) قلنا : إضافة البيوت إلى النبي صلى الله عليه وسلم إضافة ملك ، وإضافة البيوت إلى الأزواج إضافة محل ، بدليل أنه جعل فيها الإذن للنبي صلى الله عليه وسلم ، والإذن إنما يكون للمالك .

الثالثة — واختلف العلماء في بيوت النبي صلى الله عليه وسلم إذ كان يسكن فيها أهله بعد موته ، هل هي ملك لمن أم لا على قولين : فقالت طائفة : كانت ملكا لمن ، بدليل أنهم سكن فيها بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم إلى وفاتهم ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم وهب ذلك لمن في حياته . الثاني — أن ذلك كان إسكانا كما يسكن الرجل أهله ولم يكن هبة ، وتمادى سكاهاً بها إلى الموت . وهذا هو الصحيح ، وهو الذي ارتضاه أبو عمر بن عبد البر وابن العربي وغيرهم ، فإن ذلك من مئوتهم التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم استثنائها لمن ، كما استثنى لمن نفقاتهم حين قال : « لا تَقْسَمَ ورثتي ديناراً ولا درهماً ، ما تركت بعد نفقة أهلي ومثونة عامل فهو صدقة » . هكذا قال أهل العلم ، قالوا : ويدل على ذلك أن مساكنهم لم يرثها عنهم وورثتهم . قالوا : ولو كان ذلك ملكا لمن كان لا شك قد ورثه عنهم وورثتهم . قالوا : وفي ترك وورثتهم ذلك دليل على أنها لم تكن لمن ملكا ، وإنما كان لمن

(١) راجع ص ١٨٢ من هذا الجزء .

سكنى حياتهن ، فلما توفين جعل ذلك زيادة في المسجد الذي يعم المسلمين نفعه ، كما جعل ذلك الذي كان لهم من النفقات في تركة رسول الله صلى الله عليه وسلم لما مضين لسبيلهن ، فزيد إلى أصل المال فصرف في منافع المسلمين مما يعم جميعهم نفعه . والله الموفق .

قوله تعالى : (غَيْرَ نَاطِرِينَ إِنَاءُ) أى غير منتظرين وقت نُضَجِه . و « إِنَاءُ »

مقصور ، وفيه لغات : « إِنَى » بكسر الهمزة . قال الشيبانى :

وَكَثْرَى إِذ تَقَسَّمَهُ بَنُوهُ * بِأَسْيَافٍ كَمَا أَقْتَسِمَ اللَّحْمُ

تَمَخَّضَتِ الْمَنُونُ لَهُ بِيَوْمٍ * أَنَى وَلِكُلِّ حَامِلَةٍ تَمَامٌ

وقرأ ابن أبى عبلة : « غَيْرِ نَاطِرِينَ إِنَاءُ » مجرورا صفة لـ « طعام » . الزمخشري : وليس بالوجه ، لأنه جرى على غير ما هوله ، فمن حق ضمير ما هوله أن يبرز إلى اللفظ ، فيقال : غير ناظرين إناه أتم ، كقولك : هندٌ زيدٌ ضاربتة هى . وأنى (بفتحها) ، وأناء (بفتح الهمزة والمد) قال الخطيئة :

وَأَحْرَتِ الْعَشَاءَ إِلَى سُهَيْلٍ * أَوْ الشَّعْرَى فَطَالِ بِي الْأِنَاءُ

يعنى إلى طلوع سهيل . وإناه مصدر أى الشيء يأنى إذا فرغ وحن وأدرك .

الرابعة - قوله تعالى : (وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا) فأكّد المنع ،

وخصّ وقت الدخول بأن يكون عند الإذن على جهة الأدب ، وحفظ الحضرة الكريمة من المباشطة المكروهة . قال ابن العربى : وتقدير الكلام : ولكن إذا دعيتم وأذن لكم فى الدخول فأدخلوا ، وإلا فنفس الدعوة لا تكون إذنا كافيا فى الدخول . والفاء فى جواب « إذا » لازمة لما فيها من معنى المجازاة .

الخامسة - قوله تعالى : (فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا) أمر تعالى بعد الإطعام بأن

يتفرق جميعهم وينتشروا . والمراد لإزام الخروج من المنزل عند انقضاء المقصود من الأكل . والدليل على ذلك أن الدخول حرام ، وإنما جاز لأجل الأكل ، فإذا انقضى الأكل زال السبب المبيح وعاد التحريم إلى أصله .

(١) « أنى » هنا فعل ماض ، بمعنى أدرك وبلغ ؛ كما فى اللسان وشرح القاموس .

السادسة - في هذه الآية دليل على أن الضيف يأكل على ملك المضيف لا على ملك نفسه ؛ لأنه قال : « فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَأَنْتَشِرُوا » فلم يجعل له أكثر من الأكل ، ولا أضاف إليه سواه ، وبقى الملك على أصله .^(١)

السابعة - قوله تعالى : (وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ) عطف على قوله : « غَيْرِ نَاطِرِينَ » و « غَيْرَ » منصوبة على الحال من الكاف والميم في « لكم » أى غير ناظرين ولا مستأنسين ؛ والمعنى المقصود : لا تمكثوا مستأنسين بالحديث كما فعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في وليمة زينب . (إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ) أى لا يمتنع من بيانه وإظهاره . ولما كان ذلك يقع من البشر لعلة الاستحياء نفى عن الله تعالى العلة الموجبة لذلك في البشر . وفي الصحيح عن أم سلمة قالت : جاءت أم سليم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إن الله لا يستحي من الحق ، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا رأت الماء » .

الثامنة - قوله تعالى : (وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا) الآية . روى أبو داود الطيالسي عن أنس بن مالك قال قال عمر : وافقت ربي في أربع ... ؛ الحديث . وفيه : قلت يا رسول الله ، لو ضربت على نسائك الحجاب ، فإنه يدخل عليهن البر والفاجر ؛ فأنزل الله عز وجل : « وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ » .

واختلف في المتاع ؛ فقليل : ما يمتنع به من العواري^(٢) . وقيل فتوى . وقيل صحف القرآن . والصواب أنه عام في جميع ما يمكن أن يطلب من المواعين وسائر المرافق للدين والدنيا .

التاسعة - في هذه الآية دليل على أن الله تعالى أذن في مسألتهن من وراء حجاب في حاجة تعرض ، أو مسألة يُستفتين فيها ؛ ويدخل في ذلك جميع النساء بالمعنى ، وبما تضمنته أصول الشريعة من أن المرأة كلها عورة ، بدنها وصوتها ؛ كما تقدم ، فلا يجوز كشف ذلك إلا للحاجة كالشهادة عليها ، أو داء يكون ببدنها ، أو سؤالها عما يعرض وتعين عندها .

(١) في ح ، ش : « إليهم » . (٢) العواري : جمع العارية ، ما تداولوه بينهم .

العاشرة — استدلل بعض العلماء بأخذ الناس عن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم من وراء حجاب على جواز شهادة الأعمى ، وبأن الأعمى يطأ زوجته بمعرفته بكلامها . وعلى إجازة شهادته أكثر العلماء ، ولم يجزها أبو حنيفة والشافعي وغيرهما . قال أبو حنيفة : تجوز في الأنساب . وقال الشافعي : لا تجوز إلا فيما رآه قبل ذهاب بصره .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ يريد من الخواطر التي تعرض للرجال في أمر النساء ، وللنساء في أمر الرجال ؛ أي ذلك أنفي للريبة وأبعد للتهمة وأقوى في الحماية . وهذا يدل على أنه لا ينبغي لأحد أن يثق بنفسه في الخلوة مع من لا تحل له ؛ فإن مجانبة ذلك أحسن لحاله وأحصن لنفسه وأتم لعصمته .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ﴾ الآية . هذا تكرار للعلامة وتأكيد لحكمها ؛ وتأكيد العلل أقوى في الأحكام .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُنَّ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا ﴾ روى إسماعيل ابن إسحاق قال حدثنا محمد بن عبيد قال حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن قتادة أن رجلاً قال : لو قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وتزوجت عائشة ؛ فأنزل الله تعالى : « وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ » الآية . ونزلت : « وَأَزْوَاجُهُنَّ مِنْ بَعْدِهِمْ » . وقال القشيري أبو نصر عبد الرحمن : قال ابن عباس قال رجل من سادات قريش من العشرة الذين كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على حراء — في نفسه — لو توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم لتزوجت عائشة ، وهي بنت عمي . قال مقاتل : هو طلحة بن عبيد الله . قال ابن عباس : وندم هذا الرجل على ما حدث به في نفسه ، فمشى إلى مكة على رجليه وحمل على عشرة أفراس في سبيل الله ، وأعتق رقيقاً فكفر الله عنه . وقال ابن عطية : روى أنها نزلت بسبب أن بعض الصحابة قال : لو مات رسول الله صلى الله عليه وسلم لتزوجت عائشة ؛ فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأذى به ؛ هكذا كتني عنه ابن عباس ببعض الصحابة . وحكى مكى عن معمر أنه قال : هو طلحة بن عبيد الله .

قلت : وكذا حكى النحاس عن معمر أنه طلحة ؛ ولا يصح . قال ابن عطية : لله دَر ابن عباس ! وهذا عندي لا يصح على طلحة بن عبيد الله . قال شيخنا الإمام أبو العباس : وقد حكى هذا القول عن بعض فضلاء الصحابة ، وحاشاهم عن مثله ! والكذب في نقله ؛ وإنما يليق مثل هذا القول بالمنافقين الجهال . يروى أن رجلا من المنافقين قال حين تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سلمة بمد أبي سلمة ، وحفصة بمد حُنين بن حذافة : ما بال محمد يتزوج نساءنا ! والله لو قدمنا لأجلنا السهام على نساته ؛ فنزلت الآية في هذا ؛ فحرم الله نكاح أزواجه من بعده ، وجعل لمن حكم الأمهات . وهذا من خصائصه تمييزاً لشرفه وتبنيها على مرتبته صلى الله عليه وسلم . قال الشافعي رحمه الله : وأزواجه صلى الله عليه وسلم اللاتي مات عنهن لا يحل لأحد نكاحهن ، ومن استحل ذلك كان كافراً ؛ لقوله تعالى : « وَءَاكَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَيْنِهِ أَبَدًا » . وقد قيل : إنما منع من التزوج بزوجاته ؛ لأنهن أزواجه في الجنة ، وأن المرأة في الجنة لآخر أزواجها . قال حذيفة لأمرأته : إن سرك أن تكوني زوجتي في الجنة إن جمعنا الله فيها فلا تزوجي من بعدى ؛ فإن المرأة لآخر أزواجها . وقد ذكرنا ما للعلماء في هذا في (كتاب التذكرة) من أبواب الجنة .

الرابعة عشرة — اختلف العلماء في أزواج النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته ؛ هل بقين أزواجا أم زال النكاح بالموت ، وإذا زال النكاح بالموت فهل عليهن عدة أم لا ؟ فقيل : عليهن العدة ؛ لأنه توفى عنهن ، والعدة عبادة . وقيل : لا عدة عليهن ؛ لأنها مدة تربص لا ينتظر بها الإباحة . وهو الصحيح ؛ لقوله عليه السلام : « ما تركت بعد نفقة عيالي » وروى « أهلي » وهذا اسم خاص بالزوجية ؛ فأبقى عليهن النفقة والسكنى مدة حياتهن لكونهن نساءه ، وحرمن على غيره ؛ وهذا هو معنى بقاء النكاح . وإنما جعل الموت في حقه عليه السلام لمن بمنزلة المنيب في حق غيره ؛ لكونهن أزواجه في الآخرة قطعا بخلاف سائر

(١) في ش : « وحاشاهم عن مثله ... وإنما ... والكذب في نقله » وموضع النقط في الأصل بياض .

وفى ك : « وحاشاهم عن مثله وإنما الكذب في نقله » .

الناس ؛ لأن الرجل لا يعلم كونه مع أهله في دار واحدة ، فربما كان أحدهما في الجنة والآخر في النار ؛ فهذا انقطع السبب في حق الخلق وبقى في حق النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وقد قال عليه السلام : ” زوجاتي في الدنيا هن زوجاتي في الآخرة “ . وقال عليه السلام : ” كل سبب ونسب ينقطع إلا سببي ونسبي فإنه باق إلى يوم القيامة “ .

فرع - فأما زوجاته عليه السلام اللاتي فارقهن في حياته مثل الكلبية وغيرها ؛ فهل كان يحمل لغيره نكاحهن ؟ فيه خلاف . والصحيح جواز ذلك ؛ لما روى أن الكلبية التي فارقها رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجها عكرمة بن أبي جهل على ما تقدم . وقيل : إن الذي تزوجها الأشعث بن قيس الكندي . قال القاضي أبو الطيب : الذي تزوجها مهاجر بن أبي أمية ، ولم ينكر ذلك أحد ؛ فدل على أنه لإجماع .

الخامسة عشرة - قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ يعني أذية رسول الله صلى الله عليه وسلم أو نكاح أزواجه ؛ بفعل ذلك من جملة الكبائر ولا ذنب أعظم منه .

السادسة عشرة - قد بينا سبب نزول الحجاب من حديث أنس وقول عمر ، وكان يقول لسودة إذا خرجت وكانت امرأة طويلة : قد رأيناك يا سودة ، حرصا على أن ينزل الحجاب ، فأنزل الله آية الحجاب . ولا بُد في نزول الآية عند هذه الأسباب كلها - والله أعلم - بيد أنه لما ماتت زينب بنت جحش قال : لا يشهد جنازتها إلا ذو محرم منها ؛ مراعاة للحجاب الذي نزل بسببها . فدلته أسماء بنت عميس على سترها في النعش في القبة ، وأهلمته أنها رأت ذلك في بلاد الحبشة فصنعه عمر . وروى أن ذلك صنع في جنازة فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ خُفُّوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٤٥ ﴾

البارئ سبحانه وتعالى عالم بما بدا وما خفي وما كان وما لم يكن ، لا يخفى عليه ما مضى تقضى ، ولا مستقبل يأتي . وهذا على العموم تمدح به ، وهو أهل المدح والحمد . والمراد به هاهنا التوبيخ والوعيد لمن تقدم التعريض به في الآية قبلها ، من أشير إليه بقوله : « ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ » ، ومن أشير إليه في قوله : « وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ

تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا» فقيل لهم في هذه الآية : إن الله تعالى يعلم ما تخفونه من هذه المعتقدات والحواطر المكروهة ويجازيكم عليها . فصارت هذه الآية منعطفة^(١) على ما قبلها مبينة لها . والله أعلم .

قوله تعالى : لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيءِ آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَآتَيْنَ اللَّهُ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ونحن أيضا نكلمهن من وراء حجاب ؟ فنزلت هذه الآية .

الثانية — ذكر الله تعالى في هذه الآية من يحل للمرأة البروز له ، ولم يذكر العم والخال لأنهما يجريان مجرى الوالدين . وقد يسمى العم أبا ، قال الله تعالى : « نَبِيذُ إِلَهِكَ وَإِلَهُ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ »^(٢) وإسماعيل كان العم . قال الزجاج : العم والخال ربما يصفان المرأة لولديهما ، فان المرأة تحل لابن العم وابن الخال فكره لها الرؤية . وقد كره الشعبي وعكرمة أن تضع المرأة نحرها عند عمها أو خالها . وقد ذكر في هذه الآية بعض المحارم وذكر الجميع في سورة « النور » ، فهذه الآية بعض تلك ، وقد مضى الكلام هناك مستوفى^(٣) ، والحمد لله .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَ اللَّهُ ﴾ لما ذكر الله تعالى الرخصة في هذه الأصناف وانجزمت الإباحة ، عطف بأمرهن بالتقوى عطف جملة . وهذا في غاية البلاغة والإيجاز ، كأنه قال : اقتصرن على هذا واتقين الله فيه أن لتعدينه إلى غيره . وخص النساء بالذكر وعيّنهن في هذا الأمر ، لقلّة تحفظهن وكثرة استرسالهن . والله أعلم . ثم توعد تعالى بقوله : ﴿ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ .

(٢) راجع ج ٢ ص ١٣٨ .

(١) في ابن العربي « منقطة » وهو تحريف .

(٣) راجع ج ١٢ ص ٢٢٦ .

قوله تعالى : **إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴿٥٦﴾

هذه الآية شرف الله بها رسوله عليه السلام حياته وموته ، وذكر منزلته منه ، وطهرها سوء فعل من استصحب في جهته فكرة سوء ، أو في أمر زوجاته ونحو ذلك . والصلاة من الله رحمته ورضوانه ، ومن الملائكة الدعاء والاستغفار ، ومن الأمة الدعاء والتعظيم لأمره . مسألة — واختاف العلماء في الضمير في قوله : « يُصَلُّونَ » فقالت فرقة : الضمير فيه لله والملائكة ؛ وهذا قول من الله تعالى شرف به ملائكته ، فلا يصحبه الاعتراض الذي جاء في قول الخطيب : من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بئس الخطيب أنت ، قل ومن يعص الله ورسوله » أخرجه الصحيح . قالوا : لأنه ليس لأحد أن يجمع ذكر الله تعالى مع غيره في ضمير ، والله أن يفعل في ذلك ما يشاء . وقالت فرقة : في الكلام حذف ، تقديره إن الله يصلي وملائكته يصلون ، وليس في الآية اجتماع في ضمير ، وذلك جائز للبشر فعله . ولم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم « بئس الخطيب أنت » لهذا المعنى ، وإنما قاله لأن الخطيب وقف على ومن يعصهما ، وسكت سكتة . واستدلوا بما رواه أبو داود عن عدى بن حاتم أن خطيبا خطب عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : من يطع الله ورسوله ومن يعصهما . فقال : « قم — أو اذهب — بئس الخطيب أنت » . إلا أنه يحتمل أن يكون لما خذاه في وقفه وقال له : « بئس الخطيب » أصلح له بعد ذلك جميع كلامه ، فقال : « قل ومن يعص الله ورسوله » كما في كتاب مسلم . وهو يؤيد القول الأول بأنه لم يقف على « ومن يعصهما » . وقرأ ابن عباس : « وملائكته » بالرفع على موضع اسم الله قبل دخول « إن » . والجمهور بالنصب عطفًا على المكتوبة .

قوله تعالى : **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)** فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » أمر الله تعالى عباده بالصلاة على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم دون أنبيائه تشريفا له ، ولا خلاف في أن

الصلاة عليه فرض في العمر مرة ، وفي كل حين من الواجبات وجوب السنن المؤكدة التي لا يسع تركها ولا يغفلها إلا من لاخيره . الزمخشري : فإن قلت الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم واجبة أم مندوب إليها ؟ قلت : بل واجبة . وقد اختلفوا في حال وجوبها ، فمنهم من أوجبها كلها جرى ذكره . وفي الحديث : ” من ذكركم عنده فلم يصل على فدخل النار فأبعده الله “ . ويروى أنه قيل له : يا رسول الله ، أرأيت قول الله عز وجل : « إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ » فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ” هذا من العلم الممكن ولولا أنكم سألتوني عنه ما أخبرتكم به إن الله تعالى وكل بي ملكين فلا أذكر عند مسلم فيصل على إلا قال ذلك الملكان غفر الله لك وقال الله تعالى وملائكته جواباً لدينك الملكين آمين . ولا أذكر عند عبد مسلم فلا يصل على إلا قال ذلك الملكان لا غفر الله لك وقال الله تعالى وملائكته لدينك الملكين آمين “ . ومنهم من قال : تجب في كل مجلس مرة وإن تكرر ذكره ، كما قال في آية السجدة وتشميت العاطس . وكذلك في كل دعاء في أوله وآخره ومنهم من أوجبها في العمر . وكذلك قال في إظهار الشهادتين . والذي يقتضيه الاحتياط : الصلاة عند كل ذكر ، لما ورد من الأخبار في ذلك

الثانية - واختلفت الآثار في صفة الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم ، فروى مالك عن أبي مسعود الأنصاري قال : أنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن في مجلس سعد ابن عباد ، فقال له بشير بن سعد : أمرنا الله أن نصلي عليك يا رسول الله ، فكيف نصلي عليك ؟ قال : فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تمنينا أنه لم يسأله ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد والسلام كما قد علمتم “ . ورواه النسائي عن طلحة مثله ، بإسقاط قوله : ” في العالمين “ وقوله : ” والسلام كما قد علمتم “ . وفي الباب عن كعب بن عُجرة وأبي حميد الساعدي وأبي سعيد الخدري وعلي بن أبي طالب وأبي هريرة وبريدة الخزاعي وزيد بن خارجه ،

ويقال ابن حارثة . أخرجه أئمة أهل الحديث في كتبهم . وصحح الترمذى حديث كعب ابن عُجْرَةَ . خرّجه مسلم في صحيحه مع حديث أبي حميد الساعدي . قال أبو عمر : روى شُعبة والثوري عن الحكم بن عبد الرحمن بن أبي ليلي عن كعب بن عُجْرَةَ قال : لما نزل قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، هذا السلام عليك قد عرفناه فكيف الصلاة ؟ فقال : " قل اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد " وهذا لفظ حديث الثوري لا حديث شعبة ، وهو يدخل في التفسير المسند إليه لقول الله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » فبين كيف الصلاة عليه وعلهم في التحيات كيف السلام عليه ، وهو قوله : " السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته " . وروى المسعودي عن عون ابن عبد الله عن أبي فاخنة عن الأسود عن عبد الله أنه قال : إذا صليت على النبي صلى الله عليه وسلم فأحسنوا الصلاة عليه ؛ فإنكم لا تدرّون لعل ذلك يعرض عليه . قالوا فاعلمنا ؛ قال : " قولوا اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيّد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين محمد عبديك ونبيك ورسولك إمام الخير وقائد الخير ورسول الرحمة . اللهم أبعثه مقامًا محمودًا يغبطه به الأولون والآخرون . اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد " . وروينا بالإسناد المتصل في كتاب (الشفا) للقاضي عياض عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : عذهن في يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " عذهن في يدي جبريل وقال هكذا أنزلت من عند رب العزة اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم وترحم على محمد وعلى آل محمد كما ترحم على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم وتحنن على محمد

وعلى آل محمد كما تحننت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك عبد مجيد“ . قال ابن العربي : من هذه الروايات صحيح ومنها سقيم ، وأصحها ما رواه مالك فاعتمده . ورواية غير مالك من زيادة الرحمة مع الصلاة وغيرها لا يقوى ، وإنما على الناس أن ينظروا في أديانهم نظرهم في أموالهم ، وهم لا يأخذون في البيع دينارا معيبا ، وإنما يختارون السالم الطيب ، كذلك لا يؤخذ من الروايات عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا ما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم سنده ، لئلا يدخل في حيز الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبينما هو يطلب الفضل إذا به قد أصاب النقص ، بل ربما أصاب الخسران المبين .

الثالثة - في فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشرا “ . وقال سهل بن عبد الله : الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم أفضل العبادات ، لأن الله تعالى تولاهما هو وملائكته ، ثم أمر بها المؤمنين ، وسائر العبادات ليس كذلك . قال أبو سليمان الداراني : من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم يسأل الله حاجته ، ثم يختم بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن الله تعالى يقبل الصلواتين وهو أكرم من أن يرد ما بينهما . وروى سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : الدعاء يُحجَّب دون السماء حتى يصل على النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا جاءت الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم رفع الدعاء . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : ” من صلى على في كتاب لم تزل الملائكة يصلون عليه ما دام اسمي في ذلك الكتاب “ .

الرابعة - واختلف العلماء في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة ؛ فالذى عليه الجَم الغفير والجمهور الكثير : أن ذلك من سنن الصلاة ومستحباتها . قال ابن المنذر : يستحب ألا يصل أحد صلاة إلا صلى فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن ترك ذلك تارك فصلاته مجزية في مذهب مالك وأهل المدينة وسفيان الثوري وأهل الكوفة من أصحاب الرأي وغيرهم . وهو قول جُل أهل العلم . وحكى عن مالك وسفيان أنها في التشهد الأخير

مستحبة ، وأن تاركها في التشهد مسيء . وشذَّ الشافعيّ - فأوجب على تاركها في الصلاة الإعادة . وأوجب إسحاق الإعادة مع تعدد تركها دون النسيان . وقال أبو عمر : قال الشافعيّ - إذا لم يصلّ على النبيّ - صلى الله عليه وسلم في التشهد الأخير بعد التشهد وقبل التسليم أعاد الصلاة . قال : وإن صلّى عليه قبل ذلك لم تجزه . وهذا قول حكاه عنه حرّملة بن يحيى ، لا يكاد يوجد هكذا عن الشافعيّ - إلا من رواية حرّملة عنه ، وهو من كبار أصحابه الذين كتبوا كتبه . وقد تقلّده أصحاب الشافعيّ - ومالوا إليه وناظروا عليه ، وهو عندهم تحصيل مذهبه . وزعم الطحاويّ - أنه لم يقل به أحد من أهل العلم غيره . وقال الخطّابي وهو من أصحاب الشافعيّ - : وليست بواجبة في الصلاة ، وهو قول جماعة الفقهاء إلا الشافعيّ - ، ولا أعلم له فيها قدوة . والدليل على أنها ليست من فروض الصلاة عمل الساف الصالح قبل الشافعيّ - وإجماعهم عليه ، وقد شُنع عليه في هذه المسألة جدا . وهذا تشهد ابن مسعود الذي اختاره الشافعيّ - وهو الذي علّمه النبيّ - صلى الله عليه وسلم ، ليس فيه الصلاة على النبيّ - صلى الله عليه وسلم ، وكذلك كل من روى التشهد عنه صلى الله عليه وسلم . وقال ابن عمر : كان أبو بكر يعلمنا التشهد على المنبر كما تعلمون الصبيان في الكتاب . وعلّمه أيضا على المنبر عمر ، وليس فيه ذكر الصلاة على النبيّ - صلى الله عليه وسلم .

قلت : قد قال بوجوب الصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم في الصلاة محمد بن المواز من أصحابنا فيما ذكر ابن القصار وعبد الوهاب ، واختاره ابن العربيّ - للحديث الصحيح : إن الله أمرنا أن نصلى عليك فكيف نصلى عليك ؟ فعلم الصلاة ووقتها فتعينت كيفية ووقتها . وذكر الدارقطنيّ - عن أبي جعفر محمد بن عليّ بن الحسين أنه قال : أو صليت صلاة لم أصل فيها على النبيّ - صلى الله عليه وسلم ولا على أهل بيته لرأيت أنها لا تتم . وروى مرفوعا عنه عن ابن مسعود عن النبيّ - صلى الله عليه وسلم . والصواب أنه قول أبي جعفر ، قاله الدارقطنيّ - .

الخامسة - قوله تعالى : ﴿ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ قال القاضي أبو بكر بن بكير : نزلت هذه الآية على النبيّ صلى الله عليه وسلم فأمر الله أصحابه أن يسلموا عليه . وكذلك من بعدهم امروا

أن يسلموا عليه عند حضورهم قبره وعند ذكره . وروى النسائي عن عبد الله بن أبي طلحة عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ذات يوم والبشرى في وجهه ، فقالت : إنا لنرى البشرى في وجهك ! فقال : ” إنه أتاني الملك فقال يا محمد إن ربك يقول أما يرضيك إنه لا يوصلى عليك أحد إلا صليت عليه عشرا ولا يسلم عليك أحد إلا سلمت عليه عشرا ” . وعن محمد بن عبد الرحمن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” ما منكم من أحد يسلم عليّ إذا متُّ إلا جاءني سلامه مع جبريل يقول يا محمد هذا فلان بن فلان يقرأ عليك السلام فأقول وعليه السلام ورحمة الله وبركاته ” وروى النسائي عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني من أمتي السلام ” . قال القشيري : والتسليم قولك : سلام عليك .

قوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا** ﴿٥٧﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — اختلف العلماء في أذية الله بماذا تكون ؟ فقال الجمهور من العلماء : معناه بالكفر ونسبة الصحابة والولد والشريك إليه ، ووصفه بما لا يليق به ؛ كقول اليهود لعنهم الله : وقالت اليهود يد الله مغلولة . والنصارى : المسيح ابن الله . والمشركون : الملائكة بنات الله والأصنام شركاؤه . وفي صحيح البخارى قال الله تعالى : ” كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتني ولم يكن له ذلك ... ” الحديث . وقد تقدم في سورة « مریم » ^(١) . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال الله تبارك وتعالى : ” يؤذيني ابن آدم يقول يا خيبة الدهر فلا يقولن أحدكم يا خيبة الدهر فلاني أنا الدهر أقلب ليله ونهاره فإذا شئت قبضتهما ” . هكذا جاء هذا الحديث موقوفا على أبي هريرة في هذه الرواية . وقد جاء مرفوعا عنه ” يؤذيني ابن آدم

(١) راجع ج ١١ ص ١٥٩

يُسَبِّ الدهر وأنا الدهر أقلب الليل والنهار“ أخرجه أيضا مسلم . وقال عكرمة : معناه بالتصوير والتعرض لفعل ما لا يفعله إلا الله بنحت الصور وغيرها ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” لعن الله المصوّرين “ . قلت : وهذا مما يقوى قول مجاهد في المنع من تصوير الشجر وغيرها ؛ إذ كل ذلك صفة اختراع وتشبه بفعل الله الذي انفرد به سبحانه وتعالى . وقد تقدم هذا في سورة « التَّمَلُّلُ »^(١) والحمد لله . وقالت فرقة : ذلك على حذف مضاف ، تقديره : يؤذون أولياء الله . وأما أذية رسوله صلى الله عليه وسلم فهي كل ما يؤذيه من الأقوال في غير معنى واحد ، ومن الأفعال أيضا . أما قولهم : « فساخر . شاعر . كاهن مجنون . وأما فعلهم : فكسر رباعيته وشج وجهه يوم أحد ، وبمكة إلقاء السِّلَى على ظهره وهو ساجد » إلى غير ذلك . وقال ابن عباس : نزلت في الذين طعنوا عليه حين آتخذ صفية بنت حِجَى . وأطلق إيذاء الله ورسوله وقيد إيذاء المؤمنين والمؤمنات ، لأن إيذاء الله ورسوله لا يكون إلا بغير حق أبدا . وأما إيذاء المؤمنين والمؤمنات فنه . . ومنه . .

الثانية — قال علماءنا : والطعن في تأمير أسامة بن زيد أذية له عليه السلام . روى الصحيح عن ابن عمر قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثا وأمر عليهم أسامة ابن زيد فطعن الناس في إمرته ؛ فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ” إن تطعنوا في إمرته فقد كنتم تطعنون في إمره أبيه من قبل وأيم الله إن كان خليقا للإمارة وإن كان لئن أحب الناس إلى وإن هذا لمن أحب الناس إلى بعده “ . وهذا البعث — والله أعلم — هو الذي جهزه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أسامة وأمره عليهم وأمره أن يغزوا « أُبَيَّ » وهي القرية التي عند مُؤَتَةَ ، الموضع الذي قُتل فيه زيد أبوه مع جعفر بن أبي طالب وعبد الله ابن رَوَاحَةَ . فأمره أن يأخذ بثأر أبيه فطعن من في قلبه ريب في إمرته ؛ من حيث إنه كان من الموالي ، ومن حيث إنه كان صغير السن ؛ لأنه كان إذ ذاك ابن ثمان عشرة سنة ؛ فمات النبي صلى الله عليه وسلم وقد برز هذا البعث عن المدينة ولم ينفصل بعد عنها ؛ فنفذه أبو بكر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الثالثة - في هذا الحديث أوضح دليل على جواز إمامة المَوْتَى والمفضول على غيرها ما عدا الإمامة الكبرى . وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم سالماً مولى أبي حذيفة على الصلاة بقباء ، فكان يؤتمهم وفيهم أبو بكر وعمر وغيرهم من كبار قريش . وروى الصحيح عن عامر بن وائلة أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بمسغان ، وكان عمر يستعمله على مكة فقال : من استعملت على هذا الوادي ؟ قال : ابن أزي . قال : ومن ابن أزي ؟ قال : مولى من موالينا . قال : فأستخلفت عليهم مولى ! قال : إنه لقارئ لكتاب الله وإنه لعالم بالفرائض - قال - أما إن نبيكم قد قال : "إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين" .

الرابعة - كان أسامة رضى الله عنه الحب ابن الحب وبذلك كان يدعى ، وكان أسوداً شديداً السواد ، وكان زيد أبوه أبيض من القطن . هكذا ذكره أبو داود عن أحمد بن صالح . وقال غير أحمد : كان زيد أزهر اللون وكان أسامة شديداً الأدمة . ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يُحسِّن أسامة وهو صغير ويمسح مغطاه ، وينتقى أنفه ويقول : "لو كان أسامة جارية لزيته وجهزناه وحببناه إلى الأزواج" . وقد ذكر أن سبب ارتداد العرب بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه لما كان عليه السلام في حجة الوداع بجبل عرفة عشية عرفة عند النفر ، احتبس النبي صلى الله عليه وسلم قليلاً بسبب أسامة إلى أن أتاه ، فقالوا : ما احتبس إلا لأجل هذا ! تحقيراً له . فكان قولهم هذا سبب ارتدادهم . ذكره البخارى في التاريخ بمعناه . والله أعلم .

الخامسة - كان عمر رضى الله عنه يفرض لأسامة في العطاء خمسة آلاف ، ولابنه عبد الله ألفين ، فقال له عبد الله : فضلت على أسامة وقد شهدت ما لم يشهد ! فقال : إن أسامة كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك ، وأباه كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبيك ، ففضل رضى الله عنه محبوب رسول الله صلى الله عليه وسلم على محبوبه . وهكذا يجب أن يُحِبَّ ما أحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويُبغض من أبغض . وقد قابل مروان هذا الحب بنقيضه ، وذلك أنه مرَّ بأسامة بن زيد وهو يصلى عند باب بيت

النبي صلى الله عليه وسلم فقال له مروان : إنما أردت أن نرى مكانك ، فقد رأينا مكانك ، فعل الله بك ! وقال قولاً قبيحاً . فقال له أسامة : إنك آذيتني ، وإنك فاحش متفحش ، وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله تعالى يفيض الفاحش المتفحش " . فانظر ما بين الفعلين وقس ما بين الرجلين ، فقد آذى بنو أمية النبي صلى الله عليه وسلم في أحبابه ، وناقضوه في محابه .

قوله تعالى : (لَعَنَهُمُ اللَّهُ) معناه أبعدها من كل خير . واللعن في اللغة : الإبعاد ، ومنه اللعان . (وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا) تقدم معناه في غير موضع . والحمد لله رب العالمين .
قوله تعالى : وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا آكْتَسَبُوا
فَقَدْ أَحْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾

أذية المؤمن والمؤمنات هي أيضا بالأفعال والأقوال القبيحة ، كالبهتان والتكذيب الفاحش المختلق . وهذه الآية نظير الآية التي في النساء : « وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ^(١) » كما قال هنا . وقد قيل : إن من الأذية تعبيره بحسب مذموم ، أو حرفه مذمومة ، أو شيء يثقل عليه إذا سمعه ، لأن أذاه في الجملة حرام . وقد ميز الله تعالى بين أذاه وأذى الرسول وأذى المؤمنين بفعل الأول كفرًا والثاني كبيرة ، فقال في أذى المؤمنين : (فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا) وقد بيناه . وروى أن عمر بن الخطاب قال لأبي بن كعب : قرأت البارحة هذه الآية ففزعت منها « وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا آكْتَسَبُوا » الآية ، والله إني لأضربهم وأنهرهم . فقال له أبي : يا أمير المؤمنين ، لست منهم ، إنما أنت معلم ومقوم . وقد قيل : إن سبب نزول هذه الآية أن عمر رأى جارية من الأنصار فضربها وكره ما رأى من زينتها ، فخرج أهلها فأذوا عمر باللسان ، فأنزل الله هذه الآية . وقيل : نزلت في علي ، فإن المنافقين كانوا يؤذونه ويكذبون عليه . رضى الله عنه .

(٢) راجع ج ٥ ص ٣٨٠ .

(١) في الأصول : « وفعل قولاً ... » .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْرِينَهُنَّ عَلَىٰ هُنَّ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَذْنِي أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِنَنَّ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٩﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (قُلْ لِأَزْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ) قد مضى الكلام في تفضيل أزواجه واحدة واحدة . قال قتادة : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تسع . خمس من قريش : عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وسودة ، وأم سلمة . وثلاث من سائر العرب : ميمونة ، وزينب بنت جحش ، وجويرية . وواحدة من بني هارون : صفية . وأما أولاده فكان للنبي صلى الله عليه وسلم أولاد ذكور وإناث .

فالذكور من أولاده : القاسم ، أمه خديجة ، وبه كان يُكنى صلى الله عليه وسلم ، وهو أول من مات من أولاده ، وعاش سنتين . وقال عروة : ولدت خديجة للنبي صلى الله عليه وسلم القاسم والظاهر وعبد الله والطيب . وقال أبو بكر البرقي : ويقال إن الظاهر هو الطيب وهو عبد الله . وإبراهيم أمه مارية القبطية ، ولد في ذي الحجة سنة ثمان من الهجرة ، وتوفي ابن ستة عشر شهرا ، وقيل ثمانية عشر ، ذكره الدارقطني . ودفن بالقيع . وقال صلى الله عليه وسلم : " إن له مرضعا تيم رضاعه في الجنة " . وجميع أولاد النبي صلى الله عليه وسلم من خديجة سوى إبراهيم . وكل أولاده ماتوا في حياته غير فاطمة .

وأما الإناث من أولاده فمنهن : فاطمة الزهراء بنت خديجة ، ولدتها وقريش تبنى البيت قبل النبوة بخمس سنين ، وهي أصغر بناته ، وتزوجها علي رضي الله عنهما في . . . ثانية من الهجرة في رمضان ، وبني بها في ذي الحجة . وقيل : تزوجها في رجب ، وتوفيت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بيسير ، وهي أول من لحقه من أهل بيته . رضي الله عنها .

(١) راجع ص ١٦٢ فما بعد من هذا الجزء .

ومنهن : زينب — أمها خديجة — تزوجها ابن خالتها أبو العاصي بن الربيع ، وكانت أم العاصي هالة بنت خويلد أخت خديجة . وأمهم أبي العاصي لقيط . وقيل هاشم . وقيل هُشيم . وقيل مقسم . وكانت أكبر بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتوفيت سنة ثمان من الهجرة ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في قبرها .

ومنهن : رُقِيَّة — أمها خديجة — تزوجها عتبة بن أبي لهب قبل النبوة ، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ^(١) » قال أبو لهب لابنه : رأسى من رأسك حرام إن لم تطلق أبنته ، ففارقها ولم يكن بئى بها . وأسلمت حين أسلمت أمها خديجة ، وبايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم هي وأخواتها حين بايعه النساء ، وتزوجها عثمان بن عفان ، وكانت نساء قريش يقلن حين تزوجها عثمان :

أحسنُ شخصين رأى إنسانُ * رُقِيَّةٌ وبعها عثمانُ

وهاجرت معه إلى أرض الحبشة الهجرتين ، وكانت قد أسقطت من عثمان سقطاً ^(٢) ، ثم ولدت بعد ذلك عبد الله ، وكان عثمان يُكنى به في الإسلام ، وبلغ ست سنين فنقره ديك في وجهه فمات ، ولم تلد له شيئاً بعد ذلك . وهاجرت إلى المدينة ومرضت ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتجهز إلى بدر فخلف عثمان عليها ، فتوفيت ورسول الله صلى الله عليه وسلم ببدر ، على رأس سبعة عشر شهراً من الهجرة . وقدم زيد بن حارثة بشيراً من بدر ، فدخل المدينة حين سوى التراب على رُقِيَّة . ولم يشهد دفنها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنهن : أم كلثوم — أمها خديجة — تزوجها عتبة بن أبي لهب — أخو عتبة — قبل النبوة ، وأمره أبوه أن يفارقها للسبب المذكور في أمر رُقِيَّة ، ولم يكن دخل بها ، فلم تزل بمكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأسلمت حين أسلمت أمها ، وبايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أخواتها حين بايعه النساء ، وهاجرت إلى المدينة حين هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما توفيت رُقِيَّة تزوجها عثمان ، وبذلك سمى ذا النورين . وتوفيت

(١) راجع ج ٢٠ ص ٢٣٤ . (٢) السقط : بتليت السين ؛ والكسر أكثر .

في حياة النبي صلى الله عليه وسلم في شعبان سنة تسع من الهجرة . وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبرها، ونزل في حفرتها على والفضل وأسامة . وذكر الزبير بن بكار أن أكبر ولد النبي صلى الله عليه وسلم : القاسم ، ثم زينب ، ثم عبد الله ، وكان يقال له الطيب والطاهر ، وولد بعد النبوة ومات صغيرا . ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة ، ثم رقية . فمات القاسم بمكة ثم مات عبد الله .

الثانية — لما كانت عادة العربيات التبذل ، وكنّ يكشفن وجوههن كما يفعل الإماء ، وكان ذلك داعية إلى نظر الرجال إليهن ، وتشعب الفكرة فيهن ، أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يأمرهن بإرخاء الجلابيب عليهن إذا أردن الخروج إلى حوائجهن ، وكنّ يتبرزن في الصحراء قبل أن تتخذ الكنف — فيقع الفرق بينهن وبين الإماء ، فتعرف الحرائر بسترهن ، فيكف عن معارضتهن من كان عذبا أو شابا . وكانت المرأة من نساء المؤمنين قبل نزول هذه الآية تتبرز للحاجة فيتعرض لها بعض الفجار يظن أنها أمة ، فتصيح به فيذهب ، فشكوا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم . ونزلت الآية بسبب ذلك . قال معناه الحسن وغيره .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ جَلَابِيبٍ ﴾ الجلابيب جمع جلباب ، وهو ثوب أكبر من الخمار . وروى عن ابن عباس وابن مسعود أنه الرداء . وقد قيل : إنه القناع . والصحيح أنه الثوب الذي يستر جميع البدن . وفي صحيح مسلم عن أم عطية قلت : يا رسول الله ، إحدانا لا يكون لها جلباب ؟ قال : " لتُلبسها أختها من جلبابها " .

الرابعة — واختلف الناس في صورة إرخائه ، فقال ابن عباس وعبيدة السلماني : ذلك أن تلويه المرأة حتى لا يظهر منها إلا عين واحدة تبصر بها . وقال ابن عباس أيضا وقتادة : ذلك أن تلويه فوق الجبين وتشده ، ثم تعطفه على الأنف ، وإن ظهرت عيناها لكنه يستر الصدر ومعظم الوجه . وقال الحسن : تغطي نصف وجهها .

الخامسة — أمر الله سبحانه جميع النساء بالستر ، وأن ذلك لا يكون إلا بما لا يصف جلدتها ، إلا إذا كانت مع زوجها فلها أن تلبس ما شاءت ؛ لأن له أن يستمتع بها كيف شاء .

ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم امتيقظ ليلة فقال : "سبحان الله ماذا أنزل الليلة من الفتن وماذا فتح من الخزائن من يوقظ صواحب الحجر رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة" .
وروى أن دحية الكلبي لما رجع من عند هيرقل فأعطاه النبي صلى الله عليه وسلم قبضة ، فقال : "اجعل صديماً لك قميصاً وأعط صاحبك صديماً تختمر به" . والصدع النصف .
ثم قال له : "مرها تجعل تحتها شيئاً لئلا يصف" . وذكر أبو هريرة رقة الثياب للنساء فقال :
الكاسيات العاريات الناعمات الشقيات . ودخل نسوة من بنى تميم على عائشة رضي الله عنها^(١)
عليهن ثياب رفاق ، فقالت عائشة : إن كنتن مؤمنات فليس هذا بلباس المؤمنات ، وإن
كنتن غير مؤمنات فتمتعينه . وأدخلت امرأة عروس على عائشة رضي الله عنها وعليها نمار قبضية^(٢)
معضفر ، فلما رأتها قالت : لم تؤمن بسورة « النور » امرأة تلبس هذا . وثبت عن النبي صلى
الله عليه وسلم أنه قال : "نساء كاسيات عاريات مائلات مُمِيلَات رءوسهن مثل أسنمة البُحْت
لا يدخان الجنة ولا يجذَن ريجها" . وقال عمر رضي الله عنه : ما يمنع المرأة المسلمة إذا كانت
لها حاجة أن تخرج في أطيارها^(٣) أو أطمار جارتها مستخفية ، لا يعلم بها أحد حتى ترجع إلى بيتها .
السادسة - قوله تعالى : (ذَلِكَ أدنى أَن يُعْرَفَن) أى الحرائر ، حتى لا يختلطن
بالإماء ، فإذا عُرفن لم يقابلن بأدنى من المعارضة مراقبة لرتبة الحرية ، فنقطع الأطماع عنهن .
وليس المعنى أن تُعرف المرأة حتى تُعلم من هي . وكان عمر رضي الله عنه إذا رأى أمة قد
تفتعت ضربها بالدرّة ، محافظة على زى الحرائر . وقد قيل : إنه يجب الستر والتقنع الآن
في حق الجميع من الحرائر والإماء . وهذا كما أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منعوا النساء
المساجد بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قوله : " لا تمنعوا إماء الله مساجد الله "
حتى قالت عائشة رضي الله عنها : لو عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى وقتنا هذا لمنعهن
من الخروج إلى المساجد كما منعت نساء بنى إسرائيل . (وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) تأنيس
للنساء في ترك الحلايب قبل هذا الأمر المشروع .

(١) في ح : « المنعمات » . (٢) وردت هذه الكلمة محترفة في نسخ الأصل ، ولعلها « فتمتنع به » .

(٣) الأطمار : جمع الطمر (بكسر الطاء وسكون الميم) وهو الثوب الخلق .

قوله تعالى : لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦١﴾
مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقُفُوا أُخْذُوا وَقُتِلُوا نَقْتِيلًا ﴿٦٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا
مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٣﴾
فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ) الآية . أهل التفسير على أن الأوصاف
الثلاثة لشيء واحد ؛ كما روى سفيان بن سعيد عن منصور عن أبي رزين قال : « الْمُنَافِقُونَ
وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ » قال : هم شيء واحد ، يعني أنهم قد جمعوا
هذه الأشياء . والواو مقحمة ، كما قال :

إلى الملك القرم وابن الهمام * وليت الكتبية في المزدحم

أراد إلى الملك القرم ابن الهمام ليت الكتبية ، وقد مضى في « البقرة » ^(١) . وقيل : كان
منهم قوم يُرجفون ، وقوم يتبعون النساء للريبة ، وقوم يشككون المسلمين . قال عكرمة وشهر
ابن حوشب : « الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » يعني الذين في قلوبهم الزنى . وقال طاوس :
نزلت هذه الآية في أمر النساء . وقال سلمة بن كهيل : نزلت في أصحاب الفواحش ، والمعنى
متقارب . وقيل : المنافقون والذين في قلوبهم مرض شيء واحد ، عبر عنهم بلفظين ؛ دليله
آية المنافقين في أول سورة « البقرة » ^(١) . والمرجفون في المدينة قوم كانوا يخبرون المؤمنين
بما يسوءهم من عدوهم ، فيقولون إذا خرجت سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنهم قد
قتلوا أو هزموا ، وإن العدو قد أمانكم ، قاله قتادة وغيره . وقيل كانوا يقولون : أصحاب
الصفة قوم عزاب ، فهم الذين يتعزضون للنساء . وقيل : هم قوم من المسلمين ينطقون
بالأخبار الكاذبة حباً للفتنة . وقد كان في أصحاب الإفك قوم مسامون ولكنهم خاضوا حباً

للفتنة . وقال ابن عباس : الإرجاف التماس الفتنة ، والإرجاف : إشاعة الكذب والباطل للاعتماد^(١) به . وقيل : تحريك القلوب ، يقال : رجفت الأرض - أى تحزكت وتزلزلت - ترجف رجفا . والرجفان : الاضطراب الشديد . والرجاف : البحر ، سُمي به لاضطرابه . قال الشاعر :

المطعمون اللحم كلَّ عشية * حتى تغيب الشمس في الرجاف^(٢)

والإرجاف : واحد أراجيف الأخبار . وقد أرجفوا في الشيء ، أى خاضوا فيه .

قال الشاعر :

فإنا وإن صيرتمونا بقتله * وأرجف بالإسلام باغ وحاسد

وقال آخر :

أبالأراجيف يابن اللؤم توعدني * وفي الأراجيف خلت اللؤم والخور^(٣)

فالإرجاف حرام ، لأن فيه إذابة . فدلّت الآية على تحريم الإيذاء بالإرجاف .

الثانية - قوله تعالى : (لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ) أى لنسلطنك عليهم فتسناصلهم بالقتل .

وقال ابن عباس : لم ينتهوا عن إيذاء النساء وأن الله عز وجل قد أغراه بهم . ثم إنه قال

عز وجل : « وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ »^(٤) ، وإنه أمره بلعنهم ،

وهذا هو الإغراء ؛ وقال محمد بن يزيد : قد أغراه بهم في الآية التي تلى هذه مع اتصال

الكلام بها ، وهو قوله عز وجل : « أَيْنَمَا تُقِفُوا أَخِذُوا وَقْتًا ثَقِيلًا » . فهذا فيه معنى الأمر

(١) في ز : « الاهتمام » وفي ش : الإغمام . (٢) قال ابن بري : البيت لمطروذ بن كعب الخزاعي

يرث عبد المطلب جد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وقوله :

يأيها الرجل المحول رحله * هلا تزلت بال عبد مناف

(٣) البيت للعين المنقرى يهجو به العجاج أورؤية . والرواية المعروفة فيه :

أبالأراجيز يابن اللؤم توعدني * وفي الأراجيز خلت اللؤم والخور

والأراجيز : جمع أرجوزة بمعنى الرجز ، وهو بحر من بحور الشعر . وجاء به علماء النحو شاهدا على أن « خلت »

من الأفعال التي يلغى عملها لتوسطها بين مفعولها . ولو نصبت قوله « اللؤم والخور » على المفعولية لجاز . (راجع

كتاب سيبويه ج ١ ص ٦١ وباب ظن وأخواتها في كتب النحو) . (٤) راجع ج ٨ ص ٢١٨ .

بقتلهم وأخذهم ؛ أى هذا حكمهم إذا كانوا مقيمين على النفاق والإرجاف . وفى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : « خمس يُقتلن فى الحِلِّ والحَرَمِ » . فهذا فيه معنى الأمر كالأية سواء . النحاس : وهذا من أحسن ما قيل فى الآية . وقيل : إنهم قد انتهوا عن الإرجاف فلم يُغربهم . ولام « لَتُغْرِبَنَّكَ » لام القسم ، واليمين واقعة عليها ، وأدخلت اللام فى « إن » توطئة لها .
الثالثة — قوله تعالى : (ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا) أى فى المدينة . (إِلَّا قَلِيلًا) نصب على الحال من الضمير فى « يُجَاوِرُونَكَ » ، فكان الأمر كما قال تبارك وتعالى ؛ لأنهم لم يكونوا إلا أقلاء . فهذا أحد جوابى الفراء ، وهو الأولى عنده ، أى لا يجاورونك إلا فى حال قتلهم . والجواب الآخر — أن يكون المعنى إلا وقتنا قليلا ، أى لا يبقون معك إلا مدة يسيرة ، أى لا يجاورونك فيها إلا جوارا قليلا حتى يهلكوا ، فيكون نعتا لمصدر أو ظرف محذوف . ودل على أن من كان معك ساكنا بالمدينة فهو جار . وقد مضى فى « النساء » .^(١)

الرابعة — قوله تعالى : (مَلْعُونِينَ) هذا تمام الكلام عند محمد بن يزيد ، وهو منصوب على الحال . وقال ابن الأنبارى : « قَلِيلًا مَلْعُونِينَ » وقف حسن . النحاس : ويجوز أن يكون التمام « إِلَّا قَلِيلًا » وتنصب « مَلْعُونِينَ » على الشتم . كما قرأ عيسى بن عمر : « وَأَمْرَاتُهُ حَمَالَةَ الْحَطَبِ » . وقد حكى عن بعض النحويين أنه قال : يكون المعنى أينما نُقِفُوا أخذوا ملعونين . وهذا خطأ لا يعمل ما [كان] مع المجازاة فيما قبله . وقيل : معنى الآية إن أصرّوا على النفاق لم يكن لهم مقام بالمدينة إلا وهم مطرودون ملعونون . وقد فعل بهم هذا ، فإنه لما نزلت سورة « براءة » جمعوا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « يَا فُلَانُ قُمْ فَانْحَرِجْ فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ وَيَا فُلَانُ قُمْ » فقام إخوانهم من المسلمين وتولّوا إخراجهم من المسجد .

الخامسة — قوله تعالى : (سُنَّةَ اللَّهِ) نصب على المصدر ؛ أى سنّ الله جل وعزّ . فيمن أرجف بالأنبياء وأظهر نفاقه أن يؤخذ ويُقتل . (وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا) أى تحويلا وتغيرا ، حكاة النقاش . وقال السدى : يعنى أن من قُتِلَ بِحَقِّ فُلَانٍ عَلَى قَاتِلِهِ .

(٢) زيادة عن النحاس .

(١) راجع ج ٥ ص ١٨٣ فابعد .

المهدوي : وفي الآية دليل على جواز ترك إنفاذ الوعيد ، والدليل على ذلك بقاء المنافقين معه حتى مات . والمعروف من أهل الفضل إتمام وعدم وتأخير وعيدهم ، وقد مضى هذا في « آل عمران »^(١) وفيها .

قوله تعالى : **يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ اللَّهِ**^ج
وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾

قوله تعالى : **(يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ)** هؤلاء المؤذنون لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما تَوَعَّدُوا بالعذاب سألوا عن الساعة ، استبعادا وتكديبا ، موهمين أنها لا تكون . **(قُلْ إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ اللَّهِ)** أى أجبههم عن سؤالهم وقل علمها عند الله ، وليس فى إخفاء الله وقتها عنى ما يبطل نبوتى ، وليس من شرط النبى أن يعلم الغيب بغير تعليم من الله جل وعز . **(وَمَا يُدْرِيكَ)** أى ما يعلمك . **(لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا)** أى فى زمان قريب . وقال صلى الله عليه وسلم : " بُعثت أنا والساعة كهاتين " وأشار إلى السبابة والوسطى ، خرجه أهل الصحيح . وقيل : أى ليست الساعة تكون قريبا ، فحذف هاء التانيث ذهابا بالساعة إلى اليوم ؛ كقوله : **(إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ)** ولم يقل قريبة ذهابا بالرحمة إلى العفو ، إذ ليس تأنيثها أصليا . وقد مضى هذا مستوفى . وقيل : إنما أخفى وقت الساعة ليكون العبد مستعدا لها فى كل وقت

قوله تعالى : **إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا** ﴿٦٤﴾
خٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : **(إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكٰفِرِينَ)** أى طردهم وأبعدهم . واللعن : الطرد والإبعاد عن الرحمة . وقد مضى فى « البقرة » بيانه . **(وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا . خٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا)** فانت السعير لأنها بمعنى النار . **(لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا)** ينجيهم من عذاب الله والخلود فيه .

قوله تعالى : **يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٦٦﴾** وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : **(يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ)** قراءة العامة بضم التاء وفتح اللام، على الفعل المجهول . وقرأ عيسى الهمداني وابن إسحاق : « نُقَلَّبُ » بنون وكسر اللام . « وُجُوهُهُمْ » نصبا . وقرأ عيسى أيضا : « تُقَلَّبُ » بضم التاء وكسر اللام على معنى تقاب السعير ووجوههم . وهذا التقليب تغيير ألوانهم بفتح النار، فسود مرة وتخضر أخرى . وإذا بدلت جلودهم بجلود أخرى فينثذ يثنون أنهم ما كفروا **(يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا)** . ويجوز أن يكون المعنى : يقولون يوم تقلب وجوههم في النار يا ليتنا . **(أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ)** أى لم نكفر فنتنجد من هذا العذاب كما نجا المؤمنون . وهذه الألف تقع في الفواصل فيوقف عليها ولا يوصل بها . وكذا « السَّبِيلَا » وقد مضى في أول السورة . وقرأ الحسن : **(إِنَّا أَطَعْنَا سَادَاتِنَا)** بكسر التاء ، جمع سادة . وكان في هذا زجر عن التقليد . والسادة جمع السيد ، وهو قعدة ، مثل كتبة وبخرة . وساداتنا جمع الجمع . والسادة والكبراء بمعنى . وقال قتادة : هم المطعمون في غزوة بدر . والأظهر العموم في القادة والرؤساء في الشرك والضلالة ، أى أطعناهم في معصيتك وما دعونا إليه **(فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا)** أى عن السبيل وهو التوحيد ، فلما حذف الجار وصل الفعل فنصب . والإضلال لا يتعدى إلى مفعولين من غير توسط حرف الجر ، كقوله : **(لَقَدْ أَضَلُّنِي عَنِ الذِّكْرِ)** ^(٢) .

قوله تعالى : **رَبَّنَا إِنَّهُمْ ضَعَفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾**

(١) راجع ص ١٤٥ من هذا الجزء .

(٢) راجع ج ١٣ ص ٢٥ فما بعد .

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا آتِنَهُمْ ضَعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ قال قتادة : عذاب الدنيا وعذاب الآخرة . وقيل : عذاب الكفر وعذاب الإضلال ؛ أى عذبهم مثلى ماتعدبنا فإنهم ضلوا وأضلوا . ﴿ وَاللَّهُمَّ لَعْنَا كَثِيرًا ﴾ قرأ ابن مسعود وأصحابه ويحيى وعاصم بالباء . الباقون بالثاء ، واختاره أبو حاتم وأبو عبيد والنحاس ، لقوله تعالى : « أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ^(١) » وهذا المعنى كثير . وقال محمد بن أبي السرى : رأيت فى المنام كأنى فى مسجد عسقلان وكان رجلا يناظرنى فىمن يبغض أصحاب محمد فقال : وألعنهم لعنا كثيرا ، ثم كررها حتى غاب عنى ، لا يقولها إلا بالثاء . وقراءة الباء ترجع فى المعنى إلى الثاء ؛ لأن ما كبر كان كثيرا عظيم المقدار .

قوله تعالى : يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذُوا مُوسَىٰ فَهَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ^(٢)

لما ذكر الله تعالى المنافقين والكفار الذين آذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، حذر المؤمنين من التعرض للإيذاء ، ونهاهم عن التشبه بنبي إسرائيل فى أذيتهم نبيهم موسى . واختلف الناس فيما أودى به محمد صلى الله عليه وسلم وموسى ، فحكى النقاش أن أذيتهم محمدا عليه السلام قولهم : زيد بن محمد . وقال أبو وائل : أذيته أنه صلى الله عليه وسلم قسم قسما فقال رجل من الأنصار : إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله ، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فغضب وقال : ” رحم الله موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصبر “ . وأما أذية موسى صلى الله عليه وسلم فقال ابن عباس وجماعة : هى ما تضمنته حديث أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنه قال : ” كان بنو إسرائيل يغتسلون عراة وكان موسى عليه السلام يتستر كثيرا ويخفى بدنه فقال قوم هو آدر وأبرص أو به آفة ، فانطلق ذات يوم يغتسل فى عين بارض الشام وجعل ثيابه على صخرة ففتر الحجر بثيابه واتبعه موسى عريانا يقول ثوبى حجر ثوبى حجر حتى انتهى إلى ملاء من بنى إسرائيل فنظروا إليه وهو من ^(٣)

(١) راجع ج ٢ ص ١٨٤ فما بعد . (٢) الأدره (وزان الفرقة) : انفخ الحصية .

(٣) أى دع ثوبى بالحجر .

أحسنهم خلقاً وأعد لهم صورة وليس به الذى قالوا فهو قوله تبارك وتعالى : « فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا »^(١) أخرجه البخارى ومسلم بمعناه . ولفظ مسلم : قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كانت بنو إسرائيل يفتسلون عرارة ينظر بعضهم إلى سَوَاءٍ بعض وكان موسى عليه السلام يفتسل وحده فقالوا والله ما يمنع موسى أن يفتسل معنا إلا أنه آدر قال فذهب يوماً يفتسل^(٢) فوضع ثوبه على حجر فغمر الحجر بثوبه قال فجمع موسى عليه السلام بآثره يقول ثوبى حجر ثوبى حجر حتى نظرت بنو إسرائيل إلى سَوَاءٍ موسى وقالوا والله ما بموسى من بأس فقام الحجر حتى نظر إليه قال فأخذ ثوبه فطفيق بالحجر ضرباً^(٣) قال أبو هريرة : والله إنه بالحجر ندب ستة أو سبعة ضرب موسى بالحجر . فهذا قول . وروى عن ابن عباس عن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أنه قال : آذوا موسى بأن قالوا : قتل هارون ؛ وذلك أن موسى وهرون نرجوا من حُصص التَّيَّةِ إلى جبل فمات هارون فيه ، بغاء موسى فقالت بنو إسرائيل لموسى : أنت قتلته ، وكان ألين لنا منك وأشدَّ حُبًّا . فأذوه بذلك فأمر الله تعالى الملائكة فحملته حتى طافوا به فى بنى إسرائيل ، ورأوا آية عظيمة دلَّتْهم على صدق موسى ، ولم يكن فيه أثر القتل . وقد قيل : إن الملائكة تكلمت بموته ولم يعرف موضع قبره إلا الرَّحْمُ ، وأنه تعالى جملة أصم أبكم . ومات هارون قبل موسى فى التَّيَّةِ ، ومات موسى قبل انقضاء مدَّة التَّيَّةِ بشهرين . وحكى القشيري عن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه : أن الله تعالى أحيا هارون فأخبرهم أنه لم يقتله ، ثم مات . وقد قيل : إن أذية موسى عليه السلام رميهم إياه بالسحر والجنون . والصحيح الأول . ويحتمل أن فعلوا كل ذلك فبرأه الله من جميع ذلك . مسألة — فى وضع موسى عليه السلام ثوبه على الحجر ودخوله فى الماء عُريانا — دليل على جواز ذلك ، وهو مذهب الجمهور . ومنعه ابن أبى ليلى واحتج بحديث لم يصح ؛ وهو

(١) فى مسلم : « مرة » . (٢) جرى أشد الجرى . (٣) الندب (بالتحريك) : أثر الجرح إذا لم يرتفع عن الجلد ، فشبه به أثر الضرب فى الحجر . (٤) قال ياقوت : الفحص كل موضع يسكن مهلا كان أو جبلا بشرط أن يزرع . والتية : هو الموضع الذى ضل فيه موسى بن عمران عليه السلام وقومه . وهو أرض بين أيلة (العقبة) ومصر وبحر القلزم (البحر الأحمر) . وهو الآن قلب شبه جزيرة طورسينا .

قوله صلى الله عليه وسلم : " لا تدخلوا الماء إلا بمئزر فإن للاء عامرا " . قال القاضى عياض : وهو ضعيف عند أهل العلم .

قلت : أما إنه يستحب التستر لما رواه إسرائيل عن عبد الأعلى أن الحسن بن علي دخل غديرا وعليه برد له متوشحا به ، فلما خرج قيل له ، قال : إنما تسترت ممن يرانى ولا أراه ؛ يعنى من ربي والملائكة . فإن قيل : كيف نادى موسى عليه السلام الحجر نداء من يعقل ؟ قيل : لأنه صدر عن الحجر فعل من يعقل . و « حَجْرٌ » منادى مفرد محذوف حرف النداء ، كما قال تعالى : « يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا » . و « ثوبى » منصوب بفعل مضمرب؛ التقدير : أعطنى ثوبى ، أو اترك ثوبى ، فحذف الفعل لدلالة الحال عليه .

قوله تعالى : (وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا) أى عظيما . والوجيه عند العرب : العظيم القدر الرفيع المنزلة . ويروى أنه كان إذا سأل الله شيئا أعطاه إياه . وقرأ ابن مسعود : « وَكَانَ عَبْدًا لِلَّهِ » . وقيل : معنى « وَجِيهًا » أى كلمه تكليما . قال أبو بكر الأنبارى فى (كتاب الرد) : زعم من طعن فى القرآن أن المسلمين صحفوا « وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا » وأن الصواب عنده « وَكَانَ عَبْدًا لِلَّهِ وَجِيهًا » وذلك يدل على ضعف مقصده ونقصان فهمه وقلة علمه ، وذلك أن الآية لو حملت على قوله وقرئت : « وكان عبدا » نقص الثناء على موسى عليه السلام ؛ وذلك أن « وَجِيهًا » يكون عند أهل الدنيا وعند أهل زمانه وعند أهل الآخرة ، فلا يوقف على مكان المدح ، لأنه إن كان وجيها عند بنى الدنيا كان ذلك إنعاما من الله عليه لا يبين عليه معه ثناء من الله . فلما أوضح الله تعالى موضع المدح بقوله : « وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا » استحق الشرف وأعظم الرفعة بأن الوجاهة عند الله ، فمن غير اللفظة صرف عن نبي الله أنخر الثناء وأعظم المدح .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾
يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ أي فصدداً وحقاً ، وقال ابن عباس : أي صواباً . وقال قتادة ومقاتل : يعني قولوا قولاً سديداً في شأن زينب وزيد ، ولا تنسبوا النبي صلى الله عليه وسلم إلى ما لا يحل . وقال عكرمة وابن عباس أيضاً : القول السداد لا إله إلا الله . وقيل : هو الذي يوافق ظاهره باطنه . وقيل : هو ما أريد به وجه الله دون غيره . وقيل : هو الإصلاح بين المشاجرين . وهو مأخوذ من تسديده السهم ليصاب به الغرض . والقول السداد يعم الخيرات ، فهو عام في جميع ما ذكر وغير ذلك . وظاهر الآية يعطى أنه إنما أشار إلى ما يكون خلافاً للأذى الذي قيل في جهة الرسول وجهة المؤمنين . ثم وعد جل وعز بأنه يجازى على القول السداد بإصلاح الأعمال وغفران الذنوب ، وحسبك بذلك درجة ورفعة منزلة . ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي فيما أمر به ونهى عنه ﴿ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ .

قوله تعالى : إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾

لما بين تعالى في هذه السورة من الأحكام ما بين ، أمر بالتزام أوامره . والأمانة تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال ، وهو قول الجمهور . روى الترمذي الحكيم أبو عبد الله : حدثنا إسماعيل بن نصر عن صالح بن عبد الله عن محمد بن يزيد بن جوهر عن الضحاك عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال الله تعالى لآدم يا آدم إني عرضت الأمانة على السموات والأرض فلم تطعها فهل أنت حاملها بما فيها فقال

(١) في شروك : « محمد بن زيد » ولم تقف على نصريه .

وما فيها يارب قال إن حملتها أحرقت وإن ضيعتها عذبت فاحتملها بما فيها فلم يلبث في الجنة إلا قدر ما بين صلاة الأولى إلى العصر حتى أخرجته الشيطان منها . فالأمانة هي الفرائض التي أتمن الله عليها العباد . وقد اختلف في تفاصيل بعضها على أقوال ؛ فقال ابن مسعود : هي في أمانات الأموال كالودائع وغيرها . وروى عنه أنها في كل الفرائض ، وأشدها أمانة المال . وقال أبي بن كعب : من الأمانة أن أتمنت المرأة على فرجها . وقال أبو الدرداء : غسل الجنابة أمانة ، وأن الله تعالى لم يأمن ابن آدم على شيء من دينه غيرها . وفي حديث مرفوع "الأمانة الصلاة" إن شئت قلت قد صلّيت وإن شئت قلت لم أصل . وكذلك الصيام وغسل الجنابة . وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : أول ما خلق الله تعالى من الإنسان فرجه وقال هذه أمانة استودعتكها ، فلا تلبسها إلا بحق . فإن حفظتها حفظتك ، فالفرج أمانة ، والأذن أمانة ، والعين أمانة ، واللسان أمانة ، والبطن أمانة ، واليد أمانة ، والرجل أمانة ، ولا إيمان لمن لا أمانة له . وقال السدي : هي أمانة آدم أبنته قابيل على ولده وأهله ، وخيانتها إياه في قتل أخيه . وذلك أن الله تعالى قال له : " يا آدم ، هل تعلم أن لي بيتا في الأرض " قال : " اللهم لا " قال : " فإن لي بيتا بمكة فاته ، فقال للسماء : احفظي ولدي بالأمانة ؟ فأبت ، وقال للأرض : احفظي ولدي بالأمانة فأبت ، وقال للجبال كذلك فأبت . فقال لقابيل : احفظ ولدي بالأمانة ، فقال نعم ، تذهب وترجع فتجد ولدك كما يسرك . فرجع فوجده قد قتل أخاه ، فذلك قوله تبارك وتعالى : « إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا » الآية . وروى معمر عن الحسن أن الأمانة عرضت على السموات والأرض والجبال ، قالت : وما فيها ؟ قيل لها : إن أحسنت جوزيت وإن أسأت عوقبت . فقالت لا . قال مجاهد : فلما خلق الله تعالى آدم عرضها عليه ، قال : وما هي ؟ قال : إن أحسنت أجزتكم وإن

(١) كذا وردت هذه الجملة في نسخ الأصل . والذي في نوادر الأصول : « فلا تبسل منها شيئا إلا بحقها » والإيسال هنا التضييع ؛ وهو رواية الدر المنثور ؛ قال : « فلا تضيعها إلا في حقها » . يقال : أسلت فلانا إذا أسلمته للهلكة .

أسأت عذبتك . قال : فقد تحملتها يارب . قال مجاهد : فما كان بين أن تحملها إلى أن أخرج من الجنة إلا قدر ما بين الظهر والعصر . وروى علي بن طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : « إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ » قال : الأمانة الفرائض ، عرضها الله عز وجل على السموات والأرض والجبال ، إن أدوها أثابهم ، وإن ضيعوها عذبهم . فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية ، ولكن تعظيما لدين الله عز وجل ألا يقوموا به . ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها . قال النحاس : وهذا القول هو الذي عليه أهل التفسير . وقيل : لما حضرت آدم صلى الله عليه وسلم الوفاة أمر أن يعرض الأمانة على الخلق ، فعرضها فلم يقبلها إلا بنوه . وقيل : هذه الأمانة هي ما أودعه الله تعالى في السموات والأرض والجبال والخلق ، من الدلائل على ربوبيته أن يظهرها فآظهورها ، إلا الإنسان فإنه كتمها وجحدها ، قاله بعض المتكلمين . ومعنى « عَرَضْنَا » أظهرنا ، كما تقول : عرضت الجارية على البيع . والمعنى إنا عرضنا الأمانة وتضييعها على أهل السموات وأهل الأرض من الملائكة والإنس والجن (فَأَيِّنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا) أى أن يحملن وزرها ، كما قال جل وعز : « وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ »^(١) . (وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ) قال الحسن : المراد الكافر والمنافق . (إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا) لنفسه (جَهُولًا) بربه . فيكون على هذا الجواب مجازا ، مثل : « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ »^(٢) . وفيه جواب آخر على أن يكون حقيقة أنه عرض على السموات والأرض والجبال الأمانة وتضييعها وهي الثواب والعقاب ، أى أظهر لمن ذلك فلم يحملن وزرها ، وأشفتت وقالت : لا أبتغي ثوابا ولا عقابا ، وكلُّ يقول : هذا أمر لا نطبقه ، ونحن لك سامعون ومطيعون فيما أمرن به ونُسخن له ، قاله الحسن وغيره . قال العلماء : معلوم أن الجهاد لا يفهم ولا يجيب ، فلا بد من تقدير الحياة على القول الأخير . وهذا العرض عرض تخيير لا إلزام . والعرض على الإنسان إلزام . وقال القفال وغيره : العرض في هذه الآية ضرب مثل ، أى أن السموات والأرض على كبر أجرامها ، لو كانت بحيث يجوز تكليفها للقل عاميا

(٢) راجع ج ٩ ص ٢٤٥ فابعد .

(١) راجع ج ١٣ ص ٣٣٠ فابعد .

تقلد الشرائع ، لما فيها من الثواب والعقاب ، أى أن التكليف أمر حقه أن تعجز عنه السموات والأرض والجبال ، وقد كُلفه الإنسان وهو ظلوم جهول لو عقل . وهذا كقوله : « لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ » - ثم قال : - « وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ » . قال القفال : فإذا تقرر في أنه تعالى يضرب الأمثال ، وورد علينا من الخبر ما لا يخرج إلا على ضرب المثل ، وجب حمله عليه . وقال قوم : إن الآية من المجاز ، أى إنا إذا قايسنا ثقل الأمانة بقوة السموات والأرض والجبال ، رأينا أنها لا تطيقها ، وأنها لو تكلمت لأبت وأشفقت ، فعبر عن هذا المعنى بقوله . « إنا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ » الآية . وهذا كما تقول : عرضت الحمل على البعير فأباه ، وأنت تريد قايست قوته بثقل الحمل ، فرأيت أنها تقصر عنه . وقيل : « عَرَضْنَا » بمعنى عارضنا الأمانة بالسموات والأرض والجبال فضعفت هذه الأشياء عن الأمانة ، ورجحت الأمانة بثقلها عليها . وقيل : إن عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال إنما كان من آدم عليه السلام . وذلك أن الله تعالى لما استخلفه على ذريته ، وسأطه على جميع ما فى الأرض من الأنعام والطيور والوحش ، وعهد إليه عهداً أمره فيه ونهاه وحرم وأحل ، فقبله ولم يزل عاملاً به . فلما أن حضرته الوفاة سأل الله أن يعلمه من يستخلف بعده ، ويقبله من الأمانة ما تقلده ، فأمره أن يعرض ذلك على السموات بالشرط الذى أخذ عليه من الثواب إن أطاع ومن العقاب إن عصى ، فأبين أن يقبلنه شفقاً من عذاب الله . ثم أمره أن يعرض ذلك على الأرض والجبال كلها فأبياه . ثم أمره أن يعرض ذلك على ولده فعرضه عليه فقبله بالشرط ، ولم يهب منه ما تهيبت السموات والأرض والجبال . « إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا » لنفسه « جَهُولًا » بعاقبة ما تقلد لربه . قال الترمذى الحكيم أبو عبد الله محمد بن على : عجبت من هذا القائل من أين أتى بهذه القصة ! فإن نظرنا إلى الآثار وجدناها بخلاف ما قال ، وإن نظرنا إلى ظاهره وجدناه بخلاف ما قال ، وإن نظرنا إلى باطنه وجدناه بميدان ما قال ! وذلك أنه ردّد ذكر الأمانة ولم يذكر ما الأمانة ، إلا أنه يومئذ فى مقاله إلى أنه سألته على

جميع ما في الأرض، وعهد الله إليه عهداً فيه أمره ونهيه وحلّه وحرامه، وزعم أنه أمره أن يعرض ذلك على السموات والأرض والجبال؛ فما تصنع السموات والأرض والجبال بالحلال والحرام؟ وما التسليط^(١) على الأنعام والطيور والوحش! وكيف إذا عرضه على ولده فقبله في أعناق ذريته من بعده. وفي مبتدأ الخبر في التنزيل أنه عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال حتى ظهر الإباء منهم، ثم ذكر أن الإنسان حملها، أي من قبل نفسه لأنه حمل ذلك، فسماه «ظُلُومًا» أي لنفسه، «جهولًا» بما فيها. وأما الآثار التي هي بخلاف ما ذكر، فحدثني أبي رحمه الله قال حدثنا الفيض بن الفضل الكوفي حدثنا السري بن إسماعيل عن عامر الشعبي عن مسروق عن عبد الله بن مسعود قال: لما خلق الله الأمانة مثلها صخرة، ثم وضعها حيث شاء، ثم دعا لها السموات والأرض والجبال ليحملنها، وقال لمن: إن هذه «الأمانة»، ولها ثواب وعليها عقاب؛ قالوا: يارب، لا طاقة لنا بها؛ وأقبل الإنسان من قبل أن يدعى فقال للسموات والأرض والجبال: ما وقوفكم؟ قالوا: دعانا ربنا أن نحمل هذه فأشفقن منها ولم نطقها؛ قال: فحركها بيده وقال: والله لو شئت أن أحملها لحملتها؛ فحملها حتى بلغ بها إلى ركبتيه، ثم وضعها وقال: والله لو شئت أن أزداد لزددت؛ قالوا: دونك! فحملها حتى بلغ بها حقويه^(٢)، ثم وضعها وقال: والله لو شئت أن أزداد لزددت؛ قالوا: دونك، فحملها حتى وضعها على عاتقه، فلما أهوى ليضعها، قالوا: مكانك! إن هذه «الأمانة»، ولها ثواب وعليها عقاب، وأمرنا ربنا أن نحملها فأشفقن منها، وحملتها أنت من غير أن تدعى لها، فهي في عنقك وفي أعناق ذريتك إلى يوم القيامة، إنك كنت ظلوماً جهولاً. وذكر أخباراً عن الصحابة والتابعين تقدم أكثرها. ((وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)) أي التزم القيام بحقوقها، وهو في ذلك ظلوم لنفسه. وقال قتادة: للأمانة، جهول بقدر ما دخل فيه. وهذا تأويل ابن عباس وابن جبير. وقال الحسن: جهول بربه. قال: ومعنى «حملها» خان فيها. وقال الزجاج: والآية في الكافر والمنافق والمعصاة على قدرهم على هذا التأويل. وقال ابن عباس وأصحابه

(١) في أ: «وما تسليطه». (٢) الحقور (بفتح الحاء وكسرهما): الخامسة.

والضحك وغيره : « الإنسان » آدم، تحمل الأمانة فما تم له يوم حتى عصى المعصية التي أخرجته من الجنة . وعن ابن عباس أن الله تعالى قال له : أتحمل هذه الأمانة بما فيها . قال وما فيها ؟ قال : إن أحسنت جُزيت وإن أسأت عوقبت . قال : أنا أحملها بما فيها بين أذنى وعاتقى . فقال الله تعالى له : إني سأعينك ، قد جعلت لبصرك حجاباً فأغلقه عما لا يحل لك ، ولفرجك لباساً فلا تكشفه إلا على ما أحلت لك . وقال قوم : « الإنسان » النوع كله . وهذا حسن مع عموم الأمانة كما ذكرناه أولاً . وقال السدي : الإنسان قابيل . فأنه أعلم . ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ ﴾ اللام في « لِيُعَذِّبَ » متعلقة بـ « حمل » أي حملها ليعذب العاصي ويشيب المطيع ؛ فهي لام التعليل ؛ لأن العذاب نتيجة حمل الأمانة . وقيل بـ « عرضنا » ؛ أي عرضنا الأمانة على الجميع ثم قلدهاها الإنسان ليظهر شرك المشرك ونفاق المنافق ليعذبهم الله ، وإيمان المؤمن ليثيبه الله . ﴿ وَيَتُوبَ اللَّهُ ﴾ قراءة الحسن بالرفع ، يقطعه من الأول ؛ أي يتوب الله عليهم بكل حال . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ خبر بعد خبر لـ « . كان » . ويموز أن يكون نعتاً لغفور ، ويموز أن يكون حالاً من المضمرة . والله أعلم بالصواب .

سورة سبأ

مكية في قول الجميع ، إلا آية واحدة اختلف فيها ، وهي قوله تعالى : « وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ » الآية . فقالت فرقة : هي مكية ، والمراد المؤمنون أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ؛ قاله ابن عباس . وقالت فرقة : هي مدنية ، والمراد بالمؤمنين من أسلم بالمدينة ؛ كعبد الله بن سلام وغيره ؛ قاله مقاتل . وقال قتادة : هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم المؤمنون به كائناً من كان . وهي أربع وخمسون آية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى : **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**
وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾

قوله تعالى : **(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)** «الَّذِي» في موضع خفض على النعت أو البدل . ويجوز أن يكون في موضع رفع على إضمار مبتدأ ، وأن يكون في موضع نصب بمعنى أغنى . وحكى سيبويه «الحمد لله أهل الحمد» بالرفع والنصب والخفض . والحمد الكامل والثناء الشامل كله لله ؛ إذ النعم كلها منه . وقد مضى الكلام فيه في أول الفاتحة . **(وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ)** قيل : هو قوله تعالى : «وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ» . وقيل : هو قوله «وَأَخِرْ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» فهو المحمود في الآخرة كما أنه المحمود في الدنيا ، وهو المالك للآخرة كما أنه المالك للأولى . **(وَهُوَ الْحَكِيمُ)** في فعله . **(الْخَبِيرُ)** بأمر خلقه .

قوله تعالى : **يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ**
مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾

قوله تعالى : **(يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ)** أي ما يدخل فيها من قطر وغيره ، كما قال : **« فَسَلَكَهُ بِنَائِجٍ فِي الْأَرْضِ »** من الكنوز والدفائن والأموات وما هي له كيفات . **(وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا)** من نبات وغيره . **(وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ)** من الأمطار والثلوج والبرد والصواعق والأرزاق والمقادير والبركات . وقرأ علي بن أبي طالب « وما تنزل » بالنون والتشديد . **(وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا)** من الملائكة وأعمال العباد؛ قاله الحسن وغيره . **(وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ)** .

(١) راجع ج ١ ص ١٣١ . (٢) راجع ج ١٥ ص ٢٨٤ فما بعد ص ٢٤٥ .
(٣) راجع ج ٨ ص ٣١٣ . (٤) الكفات : الموضع الذي يضم إليه الشيء ويقبض .

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يُعْزَبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾
لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ) قيل : المراد أهل مكة . قال مقاتل : قال أبو سفيان لكفار مكة : واللآت والعزى لا تأتينا الساعة أبدا ولا نبعث . فقال الله : (قُلْ) يا محمد (بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ) وروى هارون عن طلق المعلم قال : سمعت أشياخنا يقرءون « قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَيَأْتِيَنَّكُمْ » بياء، حملوه على المعنى، كأنه قال : لياتينكم البعث أو أمره . كما قال : « هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك »^(١) . فهؤلاء الكفار مقززون بالابتداء منكرون الإعادة، وهو نقض لما اعترفوا بالقدرة على البعث، وقالوا : وإن قدر لا يفعل . فهذا تحكم بعد أن أخبر على السنة الرسل أنه يبعث الخلق ، وإذا ورد الخبر بشيء وهو ممكن في الفعل مقدور، فتكذيب من وجب صدقه محال . (عَالِمُ الْغَيْبِ) بالرفع قراءة نافع وابن كثير على الابتداء ، وخبره « لَا يُعْزَبُ عَنْهُ » وقرأ عاصم وأبو عمرو « عَالِمٌ » بالخفض ، أى الحمد لله عالم ، فعلى هذه القراءة لا يحسن الوقف على قوله : « لَتَأْتِيَنَّكُمْ » . وقرأ حمزة والكسائي : « عَالِمُ الْغَيْبِ » على المبالغة والنعته . (لَا يُعْزَبُ عَنْهُ) أى لا يغيب عنه ، « وَيُعْزَبُ » أيضا . قال الفراء : والكسر أحب إلى . النحاس : وهى قراءة يحيى بن وثاب ، وهى لغة معروفة . يقال : عَزَبَ يُعْزَبُ وَيُعْزَبُ إِذَا بَعُدَ وَغَاب . (مِثْقَالُ ذَرَّةٍ) أى قدر نملة صغيرة . (فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ) وفى قراءة الأعمش « وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ » بالفتح فهما عطفا على « ذَرَّةٍ » . وقراءة العاقمة

بالرفع عطفا على « مِثْقَالٌ » . (إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ) فهو العالم بما خلق ولا يخفى عليه شيء .
 (لِيَجْزِيَ) منصوب بلام كي ، والتقدير: لتأتينكم ليجزي . (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)
 بالثواب ، والكافرين بالعقاب . (أُولَئِكَ) يعني المؤمنين . (لَهُمْ مَغْفِرَةٌ) لذنوبهم .
 (وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) وهو الجنة .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ
 عَذَابٌ مِّن رَّجْزِ أَلِيمٍ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا) أى فى إبطال أدلتنا والتكذيب بآياتنا .
 (مُعْجِزِينَ) مسابقين يحسبون أنهم يفوتوننا ، وأن الله لا يقدر على بعثهم فى الآخرة ، وظنوا
 أنا نهملهم ؛ فهؤلاء (لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزِ أَلِيمٍ) يقال : عاجزه وأعجزه إذا غالبه وسبقه .
 و « أَلِيمٍ » قراءة نافع بالكسر نعتا للرجز ، فإن الرجز هو العذاب ، قال الله تعالى : « فَأَنْزَلْنَا عَلَى
 الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ » (١) . وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم « عَذَابٌ مِّن رَّجْزِ أَلِيمٍ »
 برفع « الميم » هنا وفى « الجاثية » نعتا للعذاب . وقرأ ابن كثير وابن محيصن وحميد بن قيس ومجاهد
 وأبو عمرو « مُعْجِزِينَ » مثبطين ؛ أى ثبطوا الناس عن الإيمان بالمعجزات وآيات القرآن .

قوله تعالى : وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ
 هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٥١﴾

لما ذكر الذين سَعَوْا فى إبطال النبوة بين أن الذين أُوتوا العلم يرون أن القرآن حق .
 قال مقاتل : « الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ » هم مؤمنو أهل الكتاب . وقال ابن عباس : هم أصحاب
 محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل جميع المسلمين ، وهو أصح لعمومه . والرؤية بمعنى العلم ، وهو
 فى موضع نصب عطفا على « لِيَجْزِيَ » أى ليجزى ويرى ، قاله الزجاج والقرطبي . وفيه نظر ،

لأن قوله : « لِيَجْزِيَ » متعلق بقوله : « لَتَأْتِيَنَّكُمْ السَّاعَةُ » ، ولا يقال : لتأتينكم الساعة ليرى الذين أوتوا العلم أن القرآن حق ، فإنهم يرون القرآن حقاً وإن لم تأتهم الساعة . والصحيح أنه رفع على الاستئناف ، ذكره الفشيري .

قلت : وإذا كان « لِيَجْزِيَ » متعلقاً بمعنى أثبت ذلك في كتاب مبين ، فيحسن عطف « وَيَرَى » [عليه] ، أى وأثبت أيضاً ليرى الذين أوتوا العلم أن القرآن حق . ويجوز أن يكون مستأنفاً . (الَّذِي) في موضع نصب على أنه مفعول أول لـ « يرى » (هُوَ الْحَقُّ) مفعول ثانٍ ، و « هو » فاصلة . والكوفيون يقولون « هو » عماد . ويجوز الرفع على أنه مبتدأ . و « الْحَقُّ » خبره ، والجملة في موضع نصب على المفعول الثاني ، والنصب أكثر فيما كانت فيه الألف واللام عند جميع النحويين ، وكذا ما كان نكرة لا يدخله الألف واللام فيشبهه المعرفة . فإن كان الخبر اسماً معروفاً نحو قولك : كان أخوك هو زيد ، فزعم الفراء أن الاختيار فيه الرفع . وكذا كان محمد هو عمرو . وطلته في اختياره الرفع أنه لما لم تكن فيه الألف واللام أشبهه النكرة في قولك : كان زيد هو جالس ، لأن هذا لا يجوز فيه إلا الرفع . (وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) أى يهدى القرآن إلى طريق الإسلام الذي هو دين الله . ودل بقوله : « العزيز » على أنه لا يعال . وبقوله : « الحميد » على أنه لا يليق به صفة العجز .

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لِنِٰي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾

قوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ) وإن شئت أدغمت اللام في النون لقربها منها . (يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ) هذا إخبار عن قال : « لَا تَأْتِيَنَّ السَّاعَةُ » أى هل نرشدكم إلى رجل ينبئكم ، أى يقول لكم : إنكم تبعثون بعد الليل في القبور . وهذا صادر عن فرط إنكارهم . الزمخشيري : « فإن قلت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهوراً علماً في قريش ، وكان إنبأؤه بالبعث شائعاً عندهم ، فما معنى قولهم : « هَلْ نَدُلُّكُمْ

(١) في الأصول : « وأثبت أيضاً رؤية الذين ... » .

عَلَى رَجُلٍ يَنْبَثُكُمْ» فنكروه لهم وعرضوا عليهم الدلالة عليه، كما يُدَلُّ على مجهول في أمر مجهول.
قلت: كانوا يقصدون بذلك الطَّنَزَ والمزؤ والسخرية، فأخرجوه مخرج التحكى ببعض
الأحاجى التى يتحاجى بها للضحك والتلهمى، متجاهلين به وبأمره. و«إذا» في موضع
نصب والعامل فيها «مَرَّقُمُ» قاله النحاس. ولا يجوز أن يكون العامل فيها «يَنْبَثُكُمْ»،
لأنه ليس يخبرهم ذلك الوقت. ولا يجوز أن يكون العامل فيها ما بعد «إِنَّ»، لأنه لا يعمل
فيا قبله، والألا يتقدم عليها ما بعدها ولا معموها. وأجاز الزجاج أن يكون العامل فيها
محدوفاً، التقدير: إذا مَرَّقُمُ كل ممزق بعتم، أو يَنْبَثُكُمْ بأنكم تبعثون إذا مَرَّقُمُ. المهدوى:
ولا يعمل فيه «مَرَّقُمُ»؛ لأنه مضاف إليه، والمضاف إليه لا يعمل في المضاف. وأجازه
بعضهم على أن يجعل «إِذَا» للجازاة، فيعمل فيها حينئذ ما بعدها لأنها غير مضافة إليه.
وأكثر ما تقع «إِذَا» للجازاة في الشعر. ومعنى (مَرَّقُمُ كُلُّ مُمَزَّقٍ) فرقم كل تفريق.
والمزق خرق الأشياء؛ يقال: ثوب مَرَّقٍ وممزوق وممزق وممزق.

قوله تعالى: أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾

قوله تعالى: (أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) لما دخلت ألف الاستفهام استغثت عن ألف
الوصل فحذفتها، وكان فتح ألف الاستفهام فرقا بينها وبين ألف الوصل. وقد مضى هذا
في سورة «مریم» عند قوله تعالى: «أَطَّلَعَ الْغَيْبَ» مستوفى. (أَمْ بِهِ جِنَّةٌ) هذا مردود
على ما تقدم من قول المشركين، والمعنى: قال المشركون «أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا». والافتراء
الاختلاق. «أَمْ بِهِ جِنَّةٌ» أى جنون، فهو يتكلم بما لا يدري. ثم رد عليهم فقال:
(بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ) أى ليس الأمر كما قالوا، بل
هو أصدق الصادقين، ومن ينكر البعث فهو غداً في العذاب، واليوم في الضلال عن
الصواب؛ إذ صاروا إلى تعجيز الإله ونسبة الافتراء إلى من أيده الله بالمعجزات.

(١) الطنز: السخرية. (٢) في الكشاف والبحر: «النحلي» باللام. (٣) راجع ج ١١ ص ١٤٧

قوله تعالى : أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ^٤ إِنَّ نَسْأَ نَحْسِفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ
السَّمَاءِ^٥ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿١٠﴾

أعلم الله تعالى أن الذي قدر على خلق السموات والأرض وما فيهن قادر على البعث
وهي تعجيل العقوبة لهم ، فاستدل بقدرته عليهم ، وأن السموات والأرض ملكه ، وأنهما
محيطتان بهم من كل جانب ، فكيف يأمنون الحسف والكسف كما فعل بقارون وأصحاب
الأيكة . وقرأ حمزة والكسائي « إِنَّ نَسْأَ نَحْسِفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يُسْقِطُ » بالياء في الثلاث ؛
أى إن يشأ الله أمر الأرض فتتحسف بهم ، أو السماء فتسقط عليهم كسفاً . الباقر بالنون
على التعظيم . وقرأ السلمي وحفص « كِسْفًا » بفتح السين . الباقر بالإسكان . وقد تقدم
بيانه في « سبحان »^(١) وغيرها . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ أى في هذا الذى ذكرناه من قدرتنا
« لآية » أى دلالة ظاهرة . ﴿ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ أى تائب رجاع إلى الله بقلبه . وخص
المنيب بالذكر لأنه المنتفع بالفكرة في حجج الله وآياته .

قوله تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا^٦ يَجِبَالٌ أَوْبِي^٧ مَعَهُ
وَالطَّيْرُ وَالنَّارُ لَهُ الْحَدِيدُ ﴿١١﴾

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا ﴾ بين لمنكرى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أن إرسال الرسل
ليس أمراً بدعاً ، بل أرسلنا الرسل وأيدناهم بالمعجزات ، وأحللنا بمن خالفهم العقاب . ﴿ آتَيْنَا ﴾
أعطينا . ﴿ فَضْلًا ﴾ أى أمراً فضلناه به على غيره . واختلف في هذا الفضل على تسعة أقوال :
الأول - النبوة . الثانى - الزبور . الثالث - العلم ، قال الله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ
عِلْمًا »^(٢) . الرابع - القوة ، قال الله تعالى : « وَأَذْكُرُ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ^(٣) » . الخامس - تسخير

(١) راجع ج ١٠ ص ٣٣٠ (٢) راجع ج ١٣ ص ١٦٣ فابعد . (٣) راجع ج ١٥ ص ١٥٨

الجبال والناس، قال الله تعالى : « يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ ^(١) » . السادس — التوبة ، قال الله تعالى : « فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ^(١) » . السابع — الحكم بالعدل ، قال الله تعالى : « يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ » الآية . الثامن — إِيْلَانَةُ الْحَدِيدِ ، قال تعالى : « وَالنَّالَةَ الْحَدِيدِ ^(١) » . التاسع — حسن الصوت ، وكان داود عليه السلام ذا صوت حسن ووجه حسن . وحسن الصوت هبة من الله تعالى وتفضل منه ، وهو المراد بقوله تبارك وتعالى : « يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ^(٢) » على ما يأتي إن شاء الله تعالى . وقال صلى الله عليه وسلم لأبي موسى : « لَقَدْ أُوتِيَتْ مِزْمَارًا مِنْ مِزْمِيرِ آلِ دَاوُدَ » . قال العلماء : المِزْمَارُ والمِزْمُورُ الصوت الحسن ، وبه سميت آلة الزمر مِزْمَارًا . وقد استحسن كثير من فقهاء الأمصار القراءة بالتزيين والترجيع ، وقد مضى هذا في مقدمة الكتاب ^(٣) والحمد لله .

قوله تعالى : « يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ » (يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ) أى وقلنا يا جبال أَوِّبِي مَعَهُ ، أى سَبَّحِي مَعَهُ ، لأنه قال تبارك وتعالى : « إِنَّا نَسْتَخِرُكَ الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحُنَّ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ^(١) » . قال أبو ميسرة : هو التسبيح بلسان الحبشة ، ومعنى تسبيح الجبال : هو أن الله تعالى خلق فيها تسبيحها كما خلق الكلام في الشجرة ، فَيُسْمَعُ مِنْهَا مَا يُسْمَعُ مِنَ الْمَسْبُوحِ مَعْجَزَةً لِدَاوُدَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . وقيل : المعنى سِيرِي مَعَهُ حَيْثُ شَاءَ ، مِنَ التَّأْوِيبِ الَّذِي هُوَ سِيرُ النَّهَارِ أَجْمَعُ وَيَنْزِلُ اللَّيْلُ . قال ابن مقبل :

لحَقْنَا بِحِيٍّ أَوْبُوا السَّيْرَ بَعْدَ مَا * دَفَعْنَا شُعَاعَ الشَّمْسِ وَالطَّرْفَ يَجْنَحُ

وقرأ الحسن وقتادة وغيرهما : « أَوِّبِي مَعَهُ » أى رَجِّمِي مَعَهُ ، مِنْ آبٍ يَثُوبُ إِذَا رَجَعَ ، أَوْبًا وَأَوْبَةً وَإِيَابًا . وقيل : المعنى تصرفي معه على ما يتصرف عليه داود بالنهار ، فكان إذا قرأ الزبور صوتت الجبال معه ، وأصغت إليه الطير ، فكانها فعلت ما فعل . وقال وهب ابن منبه : المعنى نوحِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ تَسَاعُدُهُ عَلَى ذَلِكَ ، فَكَانَ إِذَا نَادَى بِالنِّيَاحَةِ أَجَابَتْهُ الْجِبَالُ

(١) راجع ج ١٥ ص ١٨٤ و ص ١٨٨ و ١٥٩ (٢) راجع ص ٣١٨ فما بعد من هذا الجزء .

(٣) راجع ج ١ ص ١١ فما بعد .

بصداها ، وعكفت الطير عليه من فوقه . فصَدَى الجبالِ الذي يسمعه الناس إنما كان من ذلك اليوم إلى هذه الساعة ؛ فأيد بمساعدة الجبال والطيور لثلاثا ^(١) يجد قَتْرَةً ، فإذا دخلت الفترة اهتاج ، أى نار وتحرك ، وقوى بمساعدة الجبال والطيور . وكان قد أعطى من الصوت ما يتراحم الوحوش من الجبال على حسن صوته ، وكان الماء الجارى ينقطع عن الجرى وقوفا لصوته . « وَالطَّيْرُ » بالرفع قراءة ابن أبى إسحاق ونصر عن عاصم وابن هرْمَزٍ ومَسْلَمَةَ بن عبد الملك ، عطفًا على لفظ الجبال ، أو على المضمرفى « أَوْيى » وحسنه الفصل بمع . الباقون بالنصب عطفًا على موضع « يَا جِبَالَ » أى نادينا الجبال والطيور ، قاله سيبويه . وعند أبى عمرو ابن العلاء بإضمار فعل على معنى وسخرنا له الطير . وقال الكسائى : هو معطوف ، أى وآتيناه الطير ، حملا على « وَآتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا » . النحاس : ويجوز أن يكون مفعولا معه ، كما تقول : استوى الماء والخشبة . وسمعت الزجاج يميز : قمت وزيدا ، فالمعنى أوتىي معه ومع الطير . (وَالنَّارُ لَهُ الْحَدِيدَ) قال ابن عباس : صار عنده كالشمع . وقال الحسن : كالعجين ، فكان يعمل من غير نار . وقال السدى : كان الحديد فى يده كالطين المبلول والعجين والشمع ، يصرفه كيف شاء ، من غير إدخال نار ولا ضرب بمطرقة . وقاله مقاتل . وكان يفرغ من الدرع فى بعض اليوم أو بعض الليل ، ثمها ألف درهم . وقيل : أعطى قوة يَنْبئُ بها الحديد ، وسبب ذلك أن داود عليه السلام ، لما ملك بنى إسرائيل لقي ملكا وداود يظنه إنسانا ، وداود متكرخرج يسأل عن نفسه وسيرته فى بنى إسرائيل فى خفاء ، فقال داود لذلك الشخص الذى تمثّل له : « ما قولك فى هذا الملك داود ؟ » فقال له الملك « نعم العبد لولا خلّة فيه » قال داود : « وماهى ؟ » قال : « يرتزق من بيت المال ولو أكل من عمل يده لثمت فضائله » . فرجع فدعا الله فى أن يعلمه صنعة ويسهلها عليه ، فعلمه صنعة كَبُوسٍ كما قال جل وعز فى سورة الأنبياء ، فالان له الحديد فصنع الدروع ، فكان يصنع الدرع فيما بين يومه وليلته يساوى ألف درهم ، حتى أذخر منها كثيرا وتوسعت

(١) الفترة : الضيف .

(٢) راجع ج ١١ ص ٢٢٠

معيشة منزله ، ويتصدق على الفقراء والمساكين ، وكان ينفق ثلث المال في مصالح المسلمين ، وهو أول من اتخذ الدروع وصنعها وكانت قبل ذلك صفائح . ويقال : إنه كان يبيع كل درع منها بأربعة آلاف . والدروع مؤنثة إذا كانت للحرب . ودروع المرأة مذكور .

مسألة - في هذه الآية دليل على تعلم أهل الفضل الصنائع ، وأن التحرف بها لا ينقص من مناصبهم ، بل ذلك زيادة في فضلهم وفضائلهم ؛ إذ يحصل لهم التواضع في أنفسهم والاستغناء عن غيرهم ، وكسب الحلال الخلق عن الامتنان . وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن خير ما أكل المرء من عمل يده وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده " . وقد مضى هذا في « الأنبياء » مجودا والحمد لله .

قوله تعالى : **أَنْ أَعْمَلَ سَبِيغَاتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَاحِحًا**
إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿ **أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ** ﴾ أي دروعا سابغات ، أي كوامل تامات واسمات ؛ يقال : سبغ الدرع والثوب وغيرهما إذا غطى كل ما هو عليه وفضل منه . ﴿ **وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ** ﴾ قال قتادة : كانت الدروع قبله صفائح فكانت ثقلا ؛ فلذلك أمر هو بالتقدير فيما يجمع من الخفة والحصانة . أي قدر ما تأخذ من هذين المعنيين بقسطه . أي لا تقصد الحصانة فتثقل ، ولا الخفة فتزيل المنعة . وقال ابن زيد : التقدير الذي أمر به هو في قدر الحلقة ، أي لا تعملها صغيرة فتضعف فلا تقوى الدروع على الدفاع ، ولا تعملها كبيرة فينال لابسها . وقال ابن عباس : التقدير الذي أمر به هو في المسمار ، أي لا تجعل مسمار الدرع رقيقا فيقلق ، ولا غليظا فيقصم الحلق . روى « يقصم » بالقاف ، والفاء أيضا رواية . ﴿ **فِي السَّرْدِ** ﴾ السرد نسج حلق الدروع ، ومنه قيل لصانع حلق الدروع : السرد والزرد ، تبدل من السين الزاي ، كما قيل : سراط وزراط . والسرد : الحرز ، يقال : سرد يسرد إذا حرز . والمسرود : الإشفى ، ويقال سراد ؛ قال الشماخ :

(١) القلق : ألا يستقر في مكان واحد .

(١) فظلت تباعا خيلنا في بيوتكم * كما تابعت سرد العنان الخوارز

والسراد : السير الذي يخرز به ؛ قال لبيد :

يشك صفاحها بالزوق شزرا * كما خرج السراد من النقال^(٢)

ويقال : قد سرد الحديث والصوم ؛ فالسرد فيهما أن يجيء بهما ولاء في نسق واحد، ومنه سرد الكلام . وفي حديث عائشة : لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يسرد الحديث كسردكم ، وكان يتحدث الحديث لو أراد العاد أن يمده لأحصاه . قال سيبويه : ومنه رجل سرندي أي جرى ، قال : لأنه يمضي قداما^(٤) . وأصل ذلك في سرد الدرع ، وهو أن يحكمها ويجعل نظام حلقها ولاء غير مختلف . قال لبيد .

صنع الحديد مضاعفا أسراده * لينال طول العيش غير مرسوم

وقال أبو ذؤيب :

وعليهما مسرودتان قضاهما * داود أو صنع السوايغ تبع^(٥)

(وَأَعْمَلُوا صَالِحًا) أي عملا صالحا . وهذا خطاب لداود وأهله ، كما قال : « اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا » . (إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) .

قوله تعالى : وَلِسْلِيمَانَ الرَّيْحَ غَدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحِها شَهْرٌ وَأَسْلَمْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ وَمَنْ أَلْحَنَ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : (وَلِسْلِيمَانَ الرَّيْحَ) قال الزجاج ، التقدير وسخرنا لسليمان الريح . وقرأ عاصم في رواية أبي بكر عنه : « الرَّيْحُ » بالرفع على الابتداء ، والمعنى له تسخير الريح ، أو بالاستقرار ،

(١) رواية البيت كما في ديوانه :

شككن بأحشاء الذنابي على هدى * كما تابعت الخ

(٢) الروق : القرن . والنقال : جمع النقل (بالتحريك) والنقل ، وهو الحف الخلق . (٣) في الأصول : « به » . (٤) أي لم يزعج ولم يفتن ؛ يوصف به الذكر والأنثى . (٥) قضاها : أحكمها ، أو فرغ منها . والصنع (بالتحريك) : الحذق في العمل . والصنع ها هنا تبع ، وهو ملك من ملوك حمير . وپروی : « أوصع السوايغ » .

أى وسليمان الريح ثابتة، وفيه ذلك المعنى الأول . فإن قال قائل : إذا قلت أعطيت زيدا درهما ولعمرو دينار؛ فرفعته فلم يكن فيه معنى الأول، وجاز أن يكون لم تعطه الدينار . وقيل : الأمر كذا ولكن الآية على خلاف هذا من جهة المعنى ، لأنه قد علم أنه لم يسخرها أحد إلا الله عز وجل . (غَدُوها شَهْرٌ وَرَوَّاحُها شَهْرٌ) أى مسيرة شهر . قال الحسن : كان يغدو من دمشق فيقيل بإصطخَر، وبينهما مسيرة شهر للسرع، ثم يروح من إصطخَر وبييت بكابل، وبينهما شهر للسرع . قال السدي : كانت تسير به في اليوم مسيرة شهرين . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان سليمان إذا جلس نصبت حوالبه أربعمائة ألف كرسى، ثم جلس رؤساء الإنس مما يليه، وجلس سفلة الإنس مما يليهم، وجلس رؤساء الجن مما يلي سفلة الإنس، وجلس سفلة الجن مما يليهم، وموكل بكل كرسى طائر لعملي قد عرفه، ثم تقلهم الريح، والطير تظلمهم من الشمس، فيغدو من بيت المقدس إلى إصطخَر، فيبيت بيت المقدس، ثم قرأ ابن عباس : « غَدُوها شَهْرٌ وَرَوَّاحُها شَهْرٌ » . وقال وهب بن منبه : ذكر لي أن منزلا بناحية دجلة مكتوبا فيه - كتبه بعض صحابة سليمان ، إقنا من الجن وإما من الإنس - : نحن نزلنا وما بنيناها ، ومبنيها وجدناها ، غُدُوًا من إصطخَر فقلناها ، ونحن رائحون منه إن شاء الله تعالى فباتون في الشام . وقال الحسن : شغلت سليمان الخيل حتى فاتته صلاة العصر، فمقر الخيل فأبدله الله خيرا منها وأسرع ، أبدله الريح تجرى بأمره حيث شاء ، غَدُوها شهر ورواحها شهر . وقال ابن زيد : كان مستقر سليمان بمدينة تدمر ، وكان أمر الشياطين قبل شخوصه من الشام إلى العراق، فبنوها له بالصفاح والعمد^(١) والرغام الأبيض والأصفر . وفيه يقول النابغة :

إلا سليمان إذ قال الإله له * قُمْ في البرية فأحددها عن الفند
وخيس الجن إني قد أذنت لهم * يبنون تدمر بالصفاح والعمد^(٢)

(٢) الحد : المنع . والفند : الخفا .

(١) الصفاح (كرمان) : حجارة عريضة رقيقة .

(٣) خيس : ذلل .

فن أطاعك فانفعه بطاعته * كما أطاعك وأدلكه على الرشد
ومن عصاك فعاقبه معاقبة * ^(١) تنهى الظلوم ولا تقعد على ضمير

ووجدت هذه الأبيات منقورة في صحفة بأرض يشكر، أنشأها بعض أصحاب سليمان
عليه الصلاة والسلام :

ونحن ولا حولٌ سوى حولِ ربنا * نروح إلى الأوطان من أرضٍ تدمر
إذا نحن رُحنا كان ريثٌ رواحنا * مسيرة شهرٍ والغدو لآخر
أناسٌ شروا لله طوعاً نفوسهم * ^(٢) بنصر ابن داود النبي المطهر
لهم في معالي الدين فضلٌ ورفعة * وإن نُسيبوا يوماً فن خير معشر
متى يركبوا الريح المطيعة أسرع * مبادرةً عن شهرها لم تقصر
تظلمهم طيرٌ صفوفٌ عليهم * متى رقرقت من فوقهم لم تنقر

قوله تعالى : ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ﴾ القطر: النحاس ؛ عن ابن عباس وغيره . أسيلت
له مسيرة ثلاثة أيام كما يسيل الماء ، وكانت بأرض اليمن ، ولم يذب النحاس فيما روى لأحد
قبله ، وكان لا يذوب ، ومن وقته ذاب ؛ وإنما ينتفع الناس اليوم بما أخرج الله تعالى
لسليمان . قال قتادة : أسأل الله عينا يستعملها فيما يريد . وقيل لعكرمة : إلى أين سالت ؟
فقال : لا أدري ! وقال ابن عباس ومجاهد والسدي : أجريت له عين الصفر ثلاثة أيام بلياليين .
قال القشيري : وتخصيص الإمالة بثلاثة أيام لا يدري ما حده ، ولعله وهم من الناقل ؛
إذ في رواية عن مجاهد : أنها سالت من صنعاء ثلاث ليال مما يلبها ؛ وهذا يشير إلى بيان الموضوع
لا إلى بيان المدة . والظاهر أنه جعل النحاس لسليمان في معدنه عينا تسيل كعيون المياه ،
دلالة على نبوته . وقال الخليل : القطر : النحاس المذاب .

قلت : دليله قراءة من قرأ : ﴿ مِنْ قِطْرِ آيَةٍ ﴾ . ﴿ وَمِنَ الْجَنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾
أى بأمره ﴿ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا ﴾ الذي أمرناه به من طاعة سليمان . ﴿ نُدِقُّهُ مِنْ

(١) الضد : الخقد . (٢) في الأصول : « رافة » والنصوب عن البحر وروح المعاني .

عَذَابِ السَّعِيرِ) أى فى الآخرة ، قاله أكثر المفسرين . وقيل ذلك فى الدنيا ، وذلك أن الله تعالى وكل بهم - فيما روى السُّدى - ملكاً بيده سوط من نار ، فمن زاغ عن أمر سليمان ضربه بذلك السوط ضربة من حيث لا يراه فأحرقته . و « من » فى موضع نصب بمعنى وسخرنا له من الجن من يعمل . ويجوز أن يكون فى موضع رفع ، كما تقدم فى الريح .

قوله تعالى : **يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُ** ﴿١٣﴾

فيه ثمانى مسائل :

الأولى - قوله تعالى : **(مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ)** المحراب فى اللغة : كل موضع مرتفع . وقيل للذى يصلّى فيه : محراب ؛ لأنه يجب أن يرفع ويعظم . وقال الضحاك : « مِنْ مَحْرِبٍ » أى من مساجد . وكذا قال قتادة . وقال مجاهد : المحاريب دون القصور . وقال أبو عبيدة : المحراب أشرف بيوت الدار . قال :

وماذا عليه أن ذكرت أو أنسا * كخزلان رمل فى محاريب أقيال^(١)

وقال عدى بن زيد :

كدمى العاج فى المحاريب أو كاله * بيض فى الروض زهره مستنير^(٢)

وقيل : هو ما يرقى إليه بالدرج كالمغرفة الحسنة ؛ كما قال : « إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ » وقوله : « نَخْرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ »^(٣) أى أشرف عليهم . وفى الخبر " أنه أمر أن يعمل حول كرسية ألف محراب فيها ألف رجل عليهم المسوح يصرخون إلى الله دائماً ، وهو على الكرسي فى موكبه والمحاريب حوله ، ويقول لجنوده إذا ركب : سَبِّحُوا اللَّهَ إِلَى ذَلِكَ الْعَلَمِ ، فإذا بلغوه قال : هَلِّوْهُ إِلَى ذَلِكَ الْعَلَمِ ، فإذا بلغوه قال : كَبِّرُوهُ إِلَى ذَلِكَ الْعَلَمِ الْآخِرِ ، فَتَلَجَّ الْجَنُودُ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّهْلِيلِ لِحَظَّةٍ وَاحِدَةٍ .

(١) البيت لامرئ القيس . والأقيال : جمع قيل ، وهو الملك .

(٢) راجع ج ١١ ص ١٤

(٣) راجع ج ١٥ ص ١٦٥

الثانية - قوله تعالى : (وَتَمَائِيلَ) جمع تمثال . وهو كل ما صُوِّرَ على مثل صورة من حيوان أو غير حيوان . وقيل : كانت من زجاج ونحاس ورخام تمائيل أشياء ليست بحيوان . وذكر أنها صور الأنبياء والعلماء ، وكانت تصور في المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة واجتهادا ، قال صلى الله عليه وسلم : ” إن أولئك كان إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره معجدا وصوروا فيه تلك الصور ” . أى ليتذكروا عبادتهم فيجتهدوا في العبادة . وهذا يدل على أن التصوير كان مباحا في ذلك الزمان ، ونسخ ذلك بشرع محمد صلى الله عليه وسلم . وسيأتى لهذا مزيد بيان في سورة « نوح »^(١) عليه السلام . وقيل : التماثيل طَلْسِمَات كان يعملها ، ويحرم على كل مصوِّر أن يتجاوزها فلا يتجاوزها ، فيعمل تماثلا للذباب أو للبعوض أو للتماسيح في مكان ، ويأمرهم ألا يتجاوزوه فلا يتجاوزوه واحد أبدا مادام ذلك التمثال قائما . وواحد التماثيل تمثال بكسر التاء . قال :

ويارُبُّ يومٍ قد لَهَوْتُ و ليلَةٍ * بأنسَةِ كأنها خطٌ تمثالٍ^(٢)

وقيل : إن هذه التماثيل رجال اتخذهم من نحاس وسأل ربه أن ينفخ فيها الروح ليقاتلوا في سبيل الله ولا يَجِيحُ فيهم السلاح . ويقال : إن اسفنديار كان منهم ، والله أعلم . وروى أنهم عملوا له أسدين في أسفل كرسيه ونسرين فوقه ، فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما ، وإذا قعد أطلق النسران أجنحتهما .

الثالثة - حكى مكى في الهداية له : أن فرقة تجوز التصوير ، وتحتج بهذه الآية . قال ابن عطية : وذلك خطأ ، وما أحفظ عن أحد من أئمة العلم من يجوزه .

قلت : ما حكاه مكى ذكره النحاس قبله ، قال النحاس : قال قوم عمل الصور جائز لهذه الآية ، وليأ خبر الله عز وجل عن المسيح . وقال قوم : قد صح النهى عن النبي صلى الله عليه وسلم عنها ، والتوعد لمن عملها أو اتخذها ، فنسخ الله عز وجل بهذا ما كان مباحا قبله ، وكانت الحكمة في ذلك لأنه بعث عليه السلام والصور تُعبد ، فكان الأصلح إزالتها .

(١) راجع ج ١٨ ص ٣٠٧ فما بعد . (٢) البيت لامرئ القيس . (٣) حاكه السيف حكا : أثر وعمل .

الرابعة - التمثال على قسمين : حيوان وهوات . والموات على قسمين : جماد ونائم ؛ وقد كانت الجن تصنع لسليمان جميعه ؛ لعموم قوله : « وَتَمَّائِيلَ » . وفي الإسرائيليات : أن التمائيل من الطير كانت على كرسى سليمان . فإن قيل : لا عموم لقوله : « وَتَمَّائِيلَ » فإنه إثبات في نكرة ، والإثبات في النكرة لا عموم له ، إنما العموم في النفي في النكرة . قلنا : كذلك هو ، بَيِّنَدَ أنه قد اقترن بهذا الإثبات في النكرة ما يقتضى حمله على العموم ، وهو قوله : « مَا يَشَاءُ » فاقتران المشيئة به يقتضى العموم له . فإن قيل : كيف استجاز الصور المنهى عنها ؟ قلنا : كان ذلك جائزا في شرعه ونسخ ذلك بشرعنا كما بينا ، والله أعلم . وعن أبي العالية : لم يكن اتخاذ الصور إذ ذاك محرماً .

الخامسة - مقتضى الأحاديث يدل على أن الصور ممنوعة ، ثم جاء " إلا ما كان رَقْمًا في ثوب " ^(١) نخص من جملة الصور ، ثم ثبتت الكراهية فيه بقوله عليه السلام لعائشة في الثوب : " أتحرية عنى فإنى كلما رأيته ذكرت الدنيا " . ثم بهتكة الثوب المصوّر على عائشة ^(٢) منع منه ، ثم بقطعها له وسادتين تغيرت الصورة وخرجت عن هيئتها ، فإن جواز ذلك إذا لم تكن الصورة فيه متصلة الهيئة ، ولو كانت متصلة الهيئة لم يجوز ، لقولها في التمرقة المصورة : ^(٣) اشتريتها لك لتقعد عليها وتوسدّها ، فمنع منه وتوعدّ عليه . وتبين بحديث الصلاة إلى الصور أن ذلك جائز في الرقم في الثوب ثم نسخه المنع منه . فهكذا استقر الأمر فيه والله أعلم ؛ قاله ابن العربي .

السادسة - روى مسلم عن عائشة قالت : كان لنا ستر فيه تمثال طائر وكان الداخل إذا دخل استقبله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " حوّلى هذا فإنى كلما دخلت فرأيت ذكرت الدنيا " . قالت : وكانت لنا قطيفة كما تقول صلها حرير ، فكأن نلبسها . وعنها قالت : دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مستترة بقرام ^(٤) فيه صورة ، فتأقون وجهه ،

(١) الرقم : النقش والوشى . (٢) الهتك : الحرق والشق . (٣) التمرقة (بضم التاء والراء وبكسرهما) بغير هاء : الوسادة . (٤) القرام : الستر الرقيق .

ثم تناول السترفهتكة ، ثم قال : ” إن من أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يُسهبون بخلق الله عز وجل “ . وعنها : أنه كان لها ثوب فيه تصاوير ممدود إلى سهوة^(١) ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يصل إلىه فقال : ” أحره عني “ قالت : فأحرته فجعلته وسادتين . قال بعض العلماء : ويمكن أن يكون تهتيكه عليه السلام الثوب وأمره بتأخيره ورعاً ؛ لأن محل النبوة والرسالة الكمال . فتأمله .

السابعة — قال المنزني عن الشافعي : إن دعى رجل إلى عرس فرأى صورة ذات روح أو صوراً ذات أرواح ، لم يدخل إن كانت منصوبة . وإن كانت توطأ فلا بأس ، وإن كانت صور الشجر . ولم يختلفوا أن التصاوير في الستور المعلقة مكروهة غير محرمة . وكذلك عندهم ما كان خرطاً أو نقشا في البناء . واستثنى بعضهم ” ما كان رقماً في ثوب “ ، لحديث سهل بن حنيف .

قلت : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المصومين ولم يستثن . وقوله : ” إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ويقال لهم أحيوا ما خلقتم “ ولم يستثن . وفي الترمذي عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” يخرج عنق^(٢) من النار يوم القيامة له عينان تبصران وأذنان تسمعان ولسان ينطق يقول : إني وكُلت بثلاث : بكل جبار عنيد ، وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر وبالْمصوِّرين “ قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب صحيح . وفي البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصوِّرون “ . يدل على المنع من تصوير شيء ، أي شيء كان . وقد قال جل وعز : « ما كان لكم أن تُنبتوا شجراً » على ما تقدم بيانه فأعلمه .

الثامنة — وقد استثنى من هذا الباب لعب البنات ، لما ثبت عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم تزوجها وهي بنت سبع سنين ، وزُفت إليه وهي بنت تسع

(١) السهوة : بيت صغير منحدر في الأرض قليلاً شبيه بالمنخدع والخزانة . وقيل : هو كالصفة تكون بين يدي

البيت . وقيل : شبه بالف أو الطاق يوضع فيه الشيء . (٢) العنق : القطعة .

(٣) راجع ج ١٣ ص ٢١٩

وَلَعِبَهَا مَعَهَا، وَمَاتَ عَنْهَا وَهِيَ بِنْتُ ثَمَانَ عَشْرَةَ سَنَةً . وَعَنْهَا أَيْضًا قَالَتْ : كُنْتُ أَلْعَبُ بِالْبَنَاتِ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ لِي صَوَاحِبُ يَأْمَنُ مَعِي ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا دَخَلَ يَتَقَمِّعُنَ مِنْهُ فَيَسْرِبُهُنَّ إِلَى فَيَأْمَنُ مَعِي . نَحْرُجُهُمَا مُسْلِمًا . قَالَ الْعُلَمَاءُ : وَذَلِكَ لِلضَّرُورَةِ إِلَى ذَلِكَ وَحَاجَةِ الْبَنَاتِ حَتَّى يَتَدَرَّبْنَ عَلَى تَرْبِيَةِ أَوْلَادِهِنَّ . ثُمَّ إِنَّهُ لَا بَقَاءَ لَذَلِكَ ، وَكَذَلِكَ مَا يَصْنَعُ مِنَ الْحَلَاوَةِ أَوْ مِنَ الْعَبِيْنِ لَا بَقَاءَ لَهُ ، فَرَحَّصَ فِي ذَلِكَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

قوله تعالى : ﴿ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ ﴾ قال ابن عرفة : الجوابى جمع الجابية، وهي حفيرة كالحوض . وقال : كحياض الإبل . وقال ابن القاسم عن مالك : كالجوبة من الأرض ، والمعنى متقارب . وكان يقعد على الجفنة الواحدة ألف رجل . النحاس : « وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ » الأولى أن تكون بالياء ، ومن حذف الياء قال سبيل الألف واللام أن تدخل على النكرة فلا يغيرها عن حالها ، فلما كان يقال جوابٍ ودخلت الألف واللام أقر على حاله فحذف الياء . وواحد الجوابى جابية ، وهي القدر العظيمة ، والحوض العظيم الكبير الذى يُجَبَّى فيه الشيء أى يجمع ؛ ومنه جببت الخراج ، وجببت الجراد ؛ أى جمعت الكساء بجمعه فيه . إلا أن لينا روى عن مجاهد قال : الجوابى جمع جوبة ، والجوبة الحفرة الكبيرة تكون فى الجبل فيها ماء المطر . وقال الكسائى : جبوت الماء فى الحوض وجبته أى جمعه ، والجابية : الحوض الذى يجبى فيه الماء للإبل ، قال :

تروح على آل المخلوق جفنة * بكبابية الشيخ العراقي تفهق^(١)

ويروى أيضا .

نفى الذم عن آل المخلوق جفنة * بكبابية السبع^(٢)

ذكرة النحاس .

(١) أى يتغيب ويدخلن فى بيت أو من وراء ستر، حياء وهدية له عليه السلام . (٢) أى يرسلهن ويبعثن (٣) البيت للأعشى . والفهق : الامتلاء . وخص العراقى بجهله بالمياه لأنه حضرى ؛ فاذا وجدها ملأ جابيته وأهداها ولم يدر متى يجد المياه ، وأما البدوى فهو عام بالمياه فهو لا يبالي ألا يهداها . (٤) السبع : الماء الظاهر الجارى على وجه الأرض .

قوله تعالى : ﴿ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ﴾ قال سعيد بن جبير : هي قدور النحاس تكون بفارس . وقال الضحاك : هي قدور تعمل من الجبال . غيره : قد نحتت من الجبال الصم مما عملت له الشياطين ، أثنافها منها منحوتة هكذا من الجبال . ومعنى « رَاسِيَاتٍ » ثوابت ، لا تُحمل ولا تحرك لعظمها . قال ابن العربي : وكذلك كانت قدور عبد الله بن جدعان ، يصعد إليها في الجاهلية بسلم . وعنها عبر طرفه بن العبد بقوله :

كالجوابى لا تبنى مُتَرَعَّةً * لِقَرَى الأضياف أو للحتضر

قال ابن العربي : ورأيت برباط أبي سعيد قدور الصوفية على نحو ذلك ، فإنهم يطبخون جميعا ويأكلون جميعا من غير استئثار واحد منهم على أحد .

قوله تعالى : ﴿ أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ﴾ قد مضى معنى الشكر في « البقرة »^(٢) وغيرها . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم صعد المنبر ف تلا هذه الآية ثم قال : « ثلاث من أو تهن فقد أوتى مثل ما أوتى آل داود » قال فقلنا : ما هن ؟ فقال : « العدل في الرضا والغضب . والقصد في الفقر والغنى . وخشية الله في السر والعلانية » . خروجه الترمذى الحكيم أبو عبد الله عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة . وروى أن داود عليه السلام قال : « يارب كيف أطيق شكرك على نعمك . وإلهامي وقدرتي على شكرك نعمة لك » فقال : « يا داود الآن عرفتني » . وقد مضى هذا المعنى في سورة « إبراهيم »^(٣) . وأن الشكر حقيقته الاعتراف بالنعمة للنعم واستعمالها في طاعته ، والكفران استعمالها في المعصية . وقليل من يفعل ذلك ؛ لأن الخير أقل من الشر ، والطاعة أقل من المعصية ، بحسب سابق التقدير . وقال مجاهد : لما قال الله تعالى « أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا » قال داود لسليمان : إن الله عز وجل قد ذكر الشكر فاكفني صلاة النهار أكفك صلاة الليل ، قال : لا أقدر ، قال : فاكفني — قال الفاريابي ، أراه قال إلى صلاة الظهر — قال نعم ، فكفاه . وقال الزهري : « أَعْمَلُوا

(١) الأثنافى (جمع الأثنية) : ما يوضع عليه القدر . (٢) راجع ج ١ ص ٣٩٧ فما بعد .

(٣) راجع ج ٩ ص ٣٤٣ .

آل داود شكراً» أى قولوا الحمد لله . و« شكراً » نصب على جهة المفعول ؛ أى اعملوا عملاً هو الشكر . وكان الصلاة والصيام والعبادات كلها هى فى نفسها الشكر إذ سدت مسده ، وبين هذا قوله تعالى : « إَلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ » وهو المراد بقوله « وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورِ » . وقد قال سفيان بن عيينة فى تأويل قوله تعالى « أَنْ أَشْكُرَ » أن المراد بالشكر الصلوات الخمس . وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله تعالى عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تفتطرق قدماه ؛ فقالت له عائشة رضى الله عنها : أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال : « أفلا أكون عبداً شكوراً » . انفرد بإخراجه مسلم . فظاهر القرآن والسنة أن الشكر بعمل الأبدان دون الاقتصار على عمل اللسان ؛ فالشكر بالأفعال عمل الأركان ، والشكر بالأقوال عمل اللسان . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾) يحتمل أن يكون مخاطبة لآل داود ، ويحتمل أن يكون مخاطبة لمحمد صلى الله عليه وسلم . قال ابن عطية : وعلى كل وجه ففيه تنبيه وتحريض . وسمع عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه رجلاً يقول : اللهم اجعاني من القليل ؛ فقال عمر : ما هذا الدعاء ؟ فقال الرجل : أردت قوله تعالى « وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورِ » . فقال عمر رضى الله عنه : كل الناس أعلم منك يا عمر ! وروى أن سليمان عليه السلام كان يأكل الشعير ويطعم أهله الخشكار ويطعم المساكين الدرهم^(٤) . وقد قيل : إنه كان يأكل الرماد ويتوسده ، والأول أصح ، إذ الرماد ليس بقوت . وروى أنه ما شبع قط ، فقيل له فى ذلك فقال : أخاف إن شبعت أن أنسى الجباع . وهذا من الشكر ومن القليل ، فتأمله ، والله أعلم .

قوله تعالى : فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةٌ مِنَ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ

الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾

(١) راجع ج ١٥ ص ١٦٥ فابعد . (٢) تفتطرق : تتشقق . (٣) الخشكار : ما خشن من الطحين (فارسية) . (٤) الدرهم : دقيق الحنّارى . وهو الدقيق الأبيض .

قوله تعالى : (فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ) أى فلما حكمنا على سليمان بالموت حتى صار كالأمر المفروغ منه ووقع به الموت (مَا دَلَّكُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ) وذلك أنه كان متكئا على المنسأة (وهى العصا بلسان الحبشة ، فى قول السُّدِّى . وقيل : هى بلغة اليمن ، ذكره القشيرى) فمات كذلك وبقى خافى الحال إلى أن سقط ميتا لأنكسار العصا لأكل الأرضة إياها ، فعلم موته بذلك ، فكانت الأرضة دالة على موته ، أى سببا لظهور موته ، وكان سأل الله تعالى ألا يعلموا بموته حتى تمضى عليه سنة . واختلفوا فى سبب سؤاله لذلك على قولين : أحدهما ما قاله قتادة وغيره ، قال : كانت الجن تدعى علم الغيب ، فلما مات سليمان عليه السلام وخفى موته عليهم (تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ) . ابن مسعود : أقام حولا والجن تعمل بين يديه حتى أكلت الأرضة منسأته فسقط . ويروى أنه لما سقط لم يعلم منذ مات ، فوضعت الأرضة على العصا فأكلت منها يوما وليلة ثم حسبوا على ذلك فوجدوه قد مات منذ سنة . وقيل : كان رؤساء الجن سبعة ، وكانوا منقادين لسليمان عليه السلام ، وكان دواد عليه السلام أسس بيت المقدس فلما مات أوصى إلى سليمان فى إتمام مسجد بيت المقدس ، فأمر سليمان الجن به ، فلما دنا وفاته قال لأهله : لا تخبروهم بموتى حتى يتموا بناء المسجد ، وكان بقى لإتمامه سنة . وفى الخبر أن ملك الموت كان صديقه فسأله عن آية موته فقال : أن تخرج من موضع سجدك شجرة يقال لها الخرنوبة ، فلم يكن يوم يصبح فيه إلا تبت فى بيت المقدس شجرة فيسألها : ما اسمك ؟ فتقول الشجرة : اسمى كذا وكذا ، فيقول : ولأى شىء أنت ؟ فتقول : لكذا وكذا ، فيأمر بها فتقطع ، ويغرسها فى بستان له ، ويأمر بكتف منافعها ومضارها وأسمها وما تصلح له فى الطب ، فبينما هو يصلّى ذات يوم إذ رأى شجرة نبتت بين يديه فقال لها : ما اسمك ؟ قالت : الخرنوبة ، قال : ولأى شىء أنت ؟ قالت : لخراب هذا المسجد ، فقال سليمان : ما كان الله ليخربه وأنا حي ، أنت التى على وجهك هلاكى وهلاك بيت المقدس ! فزعمها وغرسها فى حائطه ثم قال : اللهم عمّ عن الجن موتى حتى تعلم الإنس أن

الجن لا يعلمون الغيب . وكانت الجن تخبر الإنس أنهم يعلمون من الغيب أشياء ، وأنهم يعلمون ما في غد ؛ ثم لبس كفته وتمحط ودخل المحراب وقام يصلي واتكأ على عصاه على كرسیه ، فمات ولم تعلم الجن إلى أن مضت سنة وتم بناء المسجد . قال أبو جعفر النحاس : وهذا أحسن ما قيل في الآية ، ويدل على صحته الحديث المرفوع ، روى إبراهيم بن طهمان عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كان نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام إذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه فيسألها ما اسمك ؟ فإن كانت لفرس غرست وإن كانت لدواء كتبت ؛ فبينما هو يصلي ذات يوم إذا شجرة نابتة بين يديه قال ما اسمك ؟ قالت : الخرنوبة ؛ فقال : لأى شيء أنت ؟ فقالت : لخراب هذا البيت ؛ فقال : اللهم عمم عن الجن موتى حتى تعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب ؛ ففتحها عصا فتوأكأ عليها حولاً لا يعلمون فسقطت ، فعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب فنظروا مقدار ذلك فوجدوه سنة . وفي قراءة ابن مسعود وابن عباس « تبينت الإنس أن لو كان الجن يعلمون الغيب » . وقرأ يعقوب في رواية رويس « تبينت الجن » غير مسمى الفاعل . ونافع وأبو عمرو « تأكل منسأته » بألف بين السين والتاء من غير همز . والباقون بهمزة مفتوحة موضع الألف ، لغتان ، إلا أن ابن ذكوان أسكن الهمزة تخفيفاً ، قال الشاعر في ترك الهمزة :

إذا دببت على المنسأة من كبر * فقد تباعد عنك اللهو والغزل

وقال آخر فهمز وفتح :

ضربنا بمنسأة وجهه * فصار بذلك مهينا ذليلا

وقال آخر :

أمن أجل حبل لا أباك ضربته * بمنسأة قد جرح حبلك أحبلاً

وقال آخر فسكن همزها :

وقائم قد قام من تكائه * كقومه الشيخ إلى منسأته

وأصلها من : نسات الغنم أى زجرتها وسقتها ، فسميت العصا بذلك لأنه يزجر بها الشيء ويساق . وقال طرفة :

أُمُونٌ كألواحِ الإِيرانِ نَسَاتُهَا * على لَاحِبٍ كأنه ظَهْرُ بَرَجِدٍ^(١)

فَسَكَنَ هَمْزُهَا . قال النحاس : واشتقاقها يدل على أنها مهموزة ؛ لأنها مشتقة من نساته أى آخرته ودفعت له فقيل لها منسأة لأنها يدفع بها الشيء ويؤخر . وقال مجاهد وعكرمة : هى العصا ، ثم قرأ « منساته » أبدل من الهمزة ألفا ، فإن قيل : البدل من الهمزة قبيح جدا وإنما يجوز فى الشعر على بُعد وشذوذ ، وأبو عمرو بن العلاء لا يغيب عنه مثل هذا لاسيما وأهل المدينة على هذه القراءة . فالجواب على هذا أن العرب استعملت فى هذه الكلمة البدل ونطقوا بها هكذا كما يقع البدل فى غير هذا ولا يقاس عليه حتى قال أبو عمرو : ولست أدري من هو إلا أنها غير مهموزة لأن ما كان مهموزا فقد يترك همزه وما لم يكن مهموزا لم يجز همزة بوجه . المهديوى : ومن قرأ بهمزة ساكنة فهو شاذ بعيد ؛ لأن هاء التأنيث لا يكون ما قبلها إلا متحركا أو ألفا ، لكنه يجوز أن يكون ماسكنا من المفتوح استخفافا ، ويجوز أن يكون لما أبدل الهمزة ألفا على غير قياس قلب الألف همزة كما قلبوها فى قولهم العالم والخاتم ، وروى عن سعيد بن جبیر « من » مفصولة « سانه » مهموزة مكسورة التاء ؛ فقيل : إنه من سئة القوس فى لغة من همزها ، وقد روى همزية القوس عن رؤية . قال الجوهرى : سية القوس ما عطف من طرفيها ، والجمع سيآت ، والهاء عوض من الواو ، والنسبة إليها سيوى . قال أبو عبيدة : كان رؤية يهمز « سية القوس » وسائر العرب لا يهزونها . وفى دابة الأرض قولان : أحدهما - أنها الأَرْضُ ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وقد قرئ « دابة الأرض » بفتح الراء ، وهو جمع الأَرْضِ ؛ ذكره الماوردى . الثانى - أنها دابة تأكل العيدان . قال الجوهرى : والأَرْضُ (بالتحريك) : دَوْبِيَّةٌ تأكل الخشب ؛ يقال : أَرْضت الخشب تُورضُ أرضا (بالتسكين) فهى مأروضة إذا أكلتها .

(١) الأمون : الذى يؤمن عتارها . والإيران : تابوت الموتى . واللاحب : الطريق الواسع . والبرجد : كساء مخطط

(٢) فى نسخ الأصل : « وهو واحد » .

قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا نَحَرَ ﴾ أى سقط ﴿ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ ﴾ قال الزجاج : أى تبينت الجن موته . وقال غيره : المعنى تبين أمر الجن ؛ مثل : « وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ » . وفى التفسير بالأسانيد الصحاح عن ابن عباس قال : أقام سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام حولاً لا يعلم بموته وهو متكئ على عصاه ، والجن منصرفه فيما كان أمرها به ، ثم سقط بعد حول ؛ فلما نَحَرَ تَبَيَّنَتِ الإنس أن لو كان الجن يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين . وهذه القراءة من ابن عباس على جهة التفسير . وفى الخبر : أن الجن شكرت ذلك للأرضة فأينما كانت يأتونها بالماء . قال السدى : والطين ، ألم ترى الطين الذى يكون فى جوف الخشب فإنه مما يأتونها به الشياطين شكراً ؛ وقالت : لو كنت تأكلين الطعام والشراب لأتيناك بهما . و « أن » فى موضع رفع على البدل من الجن ، والتقدير : تبين أمر الجن ، فحذف المضاف ، أى تبين وظهر الإنس وانكشف لهم أمر الجن أنهم لا يعلمون الغيب . وهذا بدل الاشتمال . ويجوز أن تكون فى موضع نصب على تقدير حذف اللام . و « لَبِثُوا » أقاموا . و « الْعَذَابِ الْمُهِينِ » السُّخْرَةُ والحمل والبنيان وغير ذلك . وعمر سليمان ثلاثاً وخمسين سنة ، ومدة ملكه أربعون سنة ؛ فملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وابتدأ فى بنيان بيت المقدس وهو ابن سبع عشرة سنة . وقال السُّدِّيُّ وغيره : كان عمر سليمان سبعا وستين سنة ، وملك وهو ابن سبع عشرة سنة . وابتدأ فى بنيان بيت المقدس وهو ابن عشرين سنة ، وكان ملكه خمسين سنة . وحكى أن سليمان عليه السلام ابتدأ بنيان بيت المقدس فى السنة الرابعة من ملكه ، وقرب بعد فراغه منه اثني عشر ألف ثور ومائة وعشرين ألف شاة ، واتخذ اليوم الذى فرغ فيه من بنائه عيداً ، وقام على الصخرة رافعا يديه إلى الله تعالى بالدعاء فقال : اللهم أنت وهبت لى هذا السلطان وقويتنى على بناء هذا المسجد ، اللهم فأوزعنى شكرك على ما أنعمت على وتوفى على ملكك ولا تُرِغْ قلبى بعد إذ هديتني ، اللهم إني أسألك لمن دخل هذا المسجد خمس خصال : لا يدخله مذنب دخل للتوبة إلا غفرت له وتبت عليه . ولا خائف إلا أمنتته . ولا سقيم

(١) فى ج ، ح ، ك : « فإنها مما يأتونها بها » .

الإشقيته . ولا فقيراً إلا أغنيته . والخامس — ألا تصرف نظرك عن دخله حتى يخرج منه ؛
إلا من أراد إلحاداً أو ظمناً ، يارب العالمين ؛ ذكره الماوردي .

قلت : وهذا أصح مما تقدم أنه لم يفرغ بناؤه إلا بعد موته بسنة ، والدليل على صحة هذا
ماخرجه النسائي وغيره بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم
« أن سليمان بن داود لما بنى بيت المقدس سأل الله تعالى خللاً ثلاثة : حكماً يصادف حكمه
فأوتيته ، وسأل الله تعالى ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأوتيته ، وسأل الله تعالى حين فرغ من
بنائه المسجد ألا يأتيه أحد لا ينزهه إلا الصلاة فيه أن يخرج من خطيئته كيوم ولدته أمه »
وقد ذكرنا هذا الحديث في « آل عمران » وذكرنا بناءه في « سبحان » .

قوله تعالى : لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ

وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسَاكِنِهِمْ آيَةٌ ﴾ (٤) قرأ نافع وغيره بالصرف والتنوين على
أنه اسم حي ، وهو في الأصل اسم رجل ؛ جاء بذلك التوقيف عن النبي صلى الله عليه وسلم .
روى الترمذي قال : حدثنا أبو كريب وعبد بن حميد قالوا حدثنا أبو أسامة عن الحسن بن
الحكم النخعي قال حدثنا أبو سبرة النخعي عن فروة بن مسيك المرادي قال : أتيت النبي
صلى الله عليه وسلم فقلت : يارسول الله ، ألا أقاتل من أدبر من قومي بمن أقبل منهم ؛ فأذن لي
في قتالهم وأمرني ؛ فلما خرجت من عنده سألت عنى : « ما فعل الغطيفي » ؟ فأخبرني قد
سرت ، قال : فأرسل في أثرى فردني فأتيته وهو في نفر من أصحابه فقال : « ادع القوم فمن
أسلم منهم فاقبل منه ومن لم يسلم فلا تعجل حتى أحدث إليك ؛ قال : وأنزل في سبيل
ما أنزل ؛ فقال رجل : يارسول الله ، وما سبأ ؟ أرض أو امرأة ؟ قال : ليس بأرض ولا بامرأة

(٣) راجع ج ١٠ ص ٢١١

(٢) راجع ج ٤ ص ١٣٧

(١) أى لا يجره .

(٥) فى الأصول والترمذى :

(٤) « فى مساكينهم » قراءة نافع وبها كان يقرأ المؤلف رحمة الله عليه .

« الغطيفى » بالقاف بدل الغين وهو تحريف .

ولكنه رجل ولد عشرة من العرب فتيا من منهم ستة وتشاءم منهم أربعة . فاما الذين تشاءموا
 فلقم وجذام وغسان وعاملة . واما الذين تيا منوا فالأزد والأشعريون وحير وكندة ومدحج
 وأنمار . فقال رجل : يارسول الله وما أنمار؟ قال : «الذين منهم خنعم وبجيلة» . وروى
 هذا عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب .
 وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « لسبأ » بغير صرف ، جعله اسماً للقبيلة ، وهو اختيار أبي عبيد ،
 وأستدل على أنه اسم قبيلة بأن بعده « في مسأكنهم » . النحاس : ولو كان كما قال لكان
 في مسأكنها . وقد مضى في « التمل^(١) » زيادة بيان لهذا المعنى . وقال الشاعر في الصرف :
 الواردون وتيم في ذرى سبأ * قد عض أعناقهم جلد الجواميس
 وقال آخر في غير الصرف :

من سبأ الحاضرين مأرب إذ * يذنون من دون سبأ العرما
 وقرأ قبيل وأبو حيوة والمخدرى « لسبأ » بإسكان الهمزة . « في مسأكنهم » قراءة العامة
 على الجمع ، وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم ؛ لأن لهم مساكن كثيرة وليس بمسكن واحد .
 وقرأ إبراهيم وحمزة وحفص « مسأكنهم » موحدأ ، إلا أنهم فتحوا الكاف . وقرأ يحيى والأعمش
 والكسائي موحدأ كذلك ، إلا أنهم كسروا الكاف . قال النحاس : والساكن في هذا
 أئين ؛ لأنه يجمع اللفظ والمعنى ، فإذا قلت « مسأكنهم » كان فيه تقديران : أحدهما — أن يكون
 واحداً يؤدي عن الجمع . والآخر — أن يكون مصدرأ لا يثنى ولا يُجمع ؛ كما قال الله تعالى : « ختم الله
 على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم^(٢) » بجاء بالسمع موحدأ . وكذا « مقعد صدق^(٣) » و« مسكن »
 مثل مسجد ، خارج عن القياس ، ولا يوجد مثله إلا سماعاً . (آية) اسم كان ، أى علامة
 دالة على قدرة الله تعالى على أن لهم خالقاً خلقهم ، وأن كل الخلائق لو اجتمعوا على أن يخرجوا
 من الخشبة ثمرة لم يمكنهم ذلك ، ولم يهتدوا إلى اختلاف أجناس الثمار وألوانها وطعومها
 وروائحها وأزهارها ، وفي ذلك ما يدل على أنها لا تكون إلا من عالم قادر . (جتآن) يجوز

(١) راجع ج ١٣ ص ١٨١ (٢) راجع ج ١ ص ١٨٥ (٣) راجع ج ١٧ ص ١٤٩

أن يكون بدلا من « آية » ، ويجوز أن يكون خبر ابتداء محذوف ، فيوقف على هذا الوجه على « آية » وليس بتمام . قال الزجاج : أى الآية جتان ، بفتحان رفع لأنه خبر ابتداء محذوف . وقال الفراء : رفع تفسيرا للآية ، ويجوز أن تنصب « آية » على أنها خبر كان ، ويجوز أن تنصب الجنتين على الخبر أيضا في غير القرآن . وقال عبد الرحمن بن زيد : إن الآية التى كانت لأهل سبأ فى مساكنهم أنهم لم يروا فيها بعوضة قط ولا ذبابا ولا برغوثا ولا قملة ولا عقربا ولا حية ولا غيرها من الهوام ، وإذا جاءهم الركب فى ثيابهم القمل والدواب فإذا نظروا إلى بيوتهم ماتت الدواب . وقيل : إن الآية هى الجنتان ، كانت المرأة تمشى فيها وعلى رأسها مكمل^(١) فيمتلىء من أنواع الفواكه من غير أن تسمها بيدها ، قاله قتادة . وروى أن الجنتين كانتا بين جبلين باليمن . قال سفيان : وجد فيهما قصران مكتوب على أحدهما : نحن بنينا سائحين فى سبعين حريفاً دائيين ، وعلى الآخر مكتوب : نحن بنينا صرّواح ، مقبل ومراح ، فكانت إحدى الجنتين عن يمين الوادى والأخرى عن شماله . قال القشيري : ولم يرد جنتين اثنتين بل أراد من الجنتين يمنة ويسرة ، أى كانت بلادهم ذات بساتين وأشجار وثمار ، تستر الناس بظلالها . (كَلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ) أى قيل لهم كلوا ، ولم يكن ثم أمر ، ولكنهم تمكنوا من تلك النعم . وقيل : أى قالت الرسل لهم قد أباح الله تعالى لكم ذلك ، أى أباح لكم هذه النعم فاشكروه بالطاعة . (مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ) أى من ثمار الجنتين . (وَأَشْكُرُوا لَهُ) يعنى على ما رزقكم . (بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ) هذا كلام مستأنف ، أى هذه بلدة طيبة أى كثيرة الثمار . وقيل : غير سبخة . وقيل : طيبة ليس فيها هوام لطيب هوائها . قال مجاهد : هى صنعاء . (وَرَبُّ غَفُورٌ) أى والمنعم بها عليكم رب غفور يسترد ذنوبكم ، بجمع لهم بين مغفرة ذنوبهم وطيب بلدهم ولم يجمع ذلك لجميع خلقه . وقيل : إنما ذكر المغفرة مشيراً إلى أن الرزق قد يكون فيه حرام . وقد مضى القول فى هذا فى أول « البقرة » . وقيل : إنما امتن عليهم بمغفوه عن عذاب الاستئصال بتكذيب من كذبوه من سالف الأنبياء إلى أن استداموا الإصرار فأستوصلوا .

(١) المكمل : شبه الزنبيل .

(٢) راجع ج ١ ص ١٧٧

قوله تعالى : فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ نَحْمِطٍ وَأَثَلٍ وَمَشْيٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : (فَأَعْرَضُوا) يعني عن أمره واتباع رسله بعد أن كانوا مسلمين . قال السدي وهب : بعث إلى أهل سبأ ثلاثة عشر نبياً فكذبوهم . قال القشيري : وكان لهم رئيس يلقب بالحمار، وكانوا في زمن الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : كان له ولد مات فرفع رأسه إلى السماء فبزق وكفر ؛ ولهذا يقال : أكفر من حمار . وقال الجوهري : وقولهم « أكفر من حمار » هو رجل من عادي مات له أولاد فكفر كفراً عظيماً ، فلا يتر بارضه أحد إلا دعاه إلى الكفر ، فإن أجابه وإلا قتله . ثم لما سال السيل بجنتيهم تفرقوا في البلاد؛ على ما يأتي بيانه . ولهذا قيل في المثل : « تفرقوا أيادي سبأ » . وقيل : الأوس والخزرج منهم . (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ) والعريم فيما روى عن ابن عباس : السد ؛ فالتقدير : سيل السد العريم . وقال عطاء : العريم اسم الوادي . قتادة : العريم وادي سبأ ؛ كانت تجتمع إليه مسابيل من الأودية ، فيل من البحر وأودية اليمن ؛ فقدموا ردماً بين جبلين وجعلوا في ذلك الردم ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض ، فكانوا يستقون من الأعلى ثم من الثاني ثم من الثالث على قدر حاجاتهم ؛ فأخصبوا وكثرت أموالهم ، فلما كذبوا الرسل سلط الله عليهم الفأر فنقب الردم . قال وهب : كانوا يزعمون أنهم يجدون في علمهم وكهاتهم أنه يخرّب سدهم فأرة فلم يتركوا فرجة بين صخرتين إلا ربطوا إلى جانبها هرة ؛ فلما جاء ما أراد الله تعالى بهم أقبلت فأرة حمراء إلى بعض تلك الهرة فساورتها حتى استأخرت عن الصخرة ثم وثبت ودخلت في الفرجة التي كانت عندها ونقبت السد حتى أوهنته للسيل وهم لا يدرون ؛ فلما جاء السيل دخل تلك الخلل حتى بلغ السد وفاض الماء على أموالهم ففرقها ودفن بيوتهم . وقال الزجاج : العريم اسم الجرد الذي نقب السكر عليهم ، وهو الذي يقال له الخلد — وقاله قتادة أيضا — فنسب السيل إليه لأنه بسببه . وقد قال ابن الأعرابي أيضا : العريم من

اسماء الفار . وقال مجاهد وابن أبي نجیح : العَرِمُ ماء أحمر أرسله الله تعالى في السد فشقه وهدمه . وعن ابن عباس أيضا أن العَرِمَ المطر الشديد . وقيل العَرِمُ بسكون الراء . وعن الضحاك كانوا في الفترة بين هيمى ومجد عليهما السلام . وقال عمرو بن سُرحبيل : العَرِمُ المُسَنَّةُ ؛ وقاله الجوهري ، قال : ولا واحد لها من لفظها ، ويقال واحدا عَرِمَةً . وقال محمد بن يزيد : العَرِمُ كل شيء حاجز بين شيئين ، وهو الذي يسمى السُّكْرُ ، وهو جمع عَرِمَةٍ . النحاس : وما يجتمع من مطرين جبلين وفي وجهه مُسَنَّةٌ فهو العَرِمُ ، والمُسَنَّةُ هي التي يسميها أهل مصر الجسر ؛ فكانوا يفتحونها إذا شاءوا فإذا رويت جنتاهم سدوها . قال الهروي : المُسَنَّةُ الضفيرة تبنى للسيل ترده ، سُميت مُسَنَّةً لأن فيها مفاتيح الماء . وروى أن العَرِمَ سد بنته يلقبها صاحبة سليمان عليه الصلاة والسلام ، وهو المُسَنَّةُ بلغة حمير ، بنته بالصخر والقار ، وجعلت له أبوابا ثلاثة بعضها فوق بعض ، وهو مشتق من العرامة وهي الشدة ، ومنه : رجل عارم ، أى شديد ، وعَرَمَتِ العَظْمَ أَعْرَمَهُ وأَعْرَمَهُ عَرَمًا إذا عَرَقْتَهُ ، وكذلك عَرَمَتِ الإبل الشجر أى نالت منه . والأعرام بالضم : العراق من العظم والشجر . وتعزمت العظم تعزقته . وصبي عارم بين الأعرام (بالضم) أى شرس . وقد عرِمَ يعرِمُ ويعرِمُ عرامة (بالفتح) . والعَرِمُ العارم ؛ عن الجوهري .

قوله تعالى : ﴿ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِىْ أُكُلٍ نَّحِيْطٍ ﴾ وقرأ أبو عمرو (أُكُلٍ نَّحِيْطٍ) بغير تنوين مضافا . قال أهل التفسير والخليل : النخط الأراك . الجوهري : النخط ضرب من الأراك له حمل يؤكل . وقال أبو عبيدة : هو كل شجر ذى شوك فيه مرارة . الزجاج : كل نبت فيه مرارة لا يمكن أكله . المبرد : النخط كل ما تغير إلى ما لا يشتهي ، واللبن نخط إذا حُمض . والأولى عنده في القراءة « ذَوَاتِىْ أُكُلٍ نَّحِيْطٍ » بالتنوين على أنه نعت لـ « أُكُلٍ » أو بدل منه ؛ لأن الأكل هو النخط بعينه عنده ، فأما الإضافة فباب جوازها أن يكون

(١) في ج : « الحبس » ، والحبس (بكسر الحاء) : حجارة أو خشب تبنى في مجرى الماء لتحبسه كي يشرب

القوم ويسقوا أموالهم ، والجمع أحباس .

تقديرها ذواتي أكل حموضة أو أكل مرارة . وقال الأخفش : والإضافة أحسن في كلام العرب ؛ نحو قولهم : ثوبٌ نَزَّ . والنمط : اللبن الحامض . وذكر أبو عبيد أن اللبن إذا ذهب عنه حلاوة الحلب ولم يتغير طعمه فهو سامط ، وإن أخذ شيئاً من الريح فهو خامط ونميط ، فإن أخذ شيئاً من طعم فهو مُمَجَّل ، فإذا كان فيه طعم الحلاوة فهو فُوَّهَةٌ ^(١) . وتَمَطَّ الفحل : هَدَرَ . وتَمَطَّ فلان أى غضب وتكبر . وتَمَطَّ البحر أى التطم . وتَمَطَّت الشاةُ أَنْحَطَها نَحَطًا : إذا نزعت جلدها وشويتها فهى [نَحِيط ، فإن نزعت شعرها وشويتها فهى] سَمِيط . والمخطة : الخمر التي قد أخذت ريح الإدراك كريح التفاح ولم تُدْرِكْ بعدُ . ويقال هى الحامضة ؛ قاله الجوهري . وقال القتيبي في أدب الكاتب . يقال للحامضة نمطة ، ويقال : النمطة التي قد أخذت شيئاً من الريح ؛ وأنشد :

عُقَارُ كِجَاءِ النَّيِّ لَيْسَتْ بِنَخْطَةٍ * وَلَا خَلَّةٍ يَكْوِي الشُّرُوبَ شِهَابُهَا ^(٢)

(وَأَنبَلِ) قال الفراء : هو شبيه بالطرفاء إلا أنه أعظم منه طولاً ؛ ومنه اتخذ منبر النبي صلى الله عليه وسلم ، ولأنبل أصول غليظة يتخذ منه الأبواب ، وورقه كورق الطرفاء ، الواحدة أنلة والجمع أنلات . وقال الحسن : الأنبل الخشب . قتادة : هو ضرب من الخشب يشبه الطرفاء رأيته بفيء . وقيل هو السمر . وقال أبو عبيدة : هو شجر النضار . [النضار : الذهب . والنضار : خشب يعمل منه قصاع ، ومنه : قَدَحُ نَضَارٍ] ^(٣) . (وَشَيْءٌ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ) قال الفراء : هو السمر ؛ ذكره النحاس . وقال الأزهرى : السدر من الشجر سدران : برى لا ينتفع به ولا يصلح ورقه للغسول وله ثمر عَفِصٌ لا يؤكل ، وهو الذى يسمى الضفال . والثانى — سدر ينبت على الماء وثمره النبق وورقه غَسُولٌ يشبه شجر العناب . قال قتادة : بينما شجر القوم من خير شجر إذ صيره الله تعالى من شر الشجر بأعمالهم ، فأهلك أشجارهم المشمرة

(١) فى المخصص لابن سيده : « ... فهو قوهة ، صاحب العين : قوهة بالغاء . » وفى كتب اللغة « القوهة بالضم » : اللبن تدير قليلاً وفيه حلاوة . والقوهة (كقبرة : اللبن فيه طعم الحلاوة . (٢) ما بين المربعين ساقط من نسخ الأصل . وهو من كتب اللغة . (٣) الخلة : التي جاوزت القدر فخرجت من حال الخمر إلى حال الحموضة والخل . والشروب : الدائم . يقول : هى فى لون اللحم النى . (٤) ما بين المربعين ساقط من ش .

وأُنبِتَ بدلها الأراك والطرفاء والسدر . القشيري : وأشجار البوادي لا تسمى جنة وبستانا ولكن لما وقعت الثانية في مقابلة الأولى أطلق لفظ الجنة ، وهو كقوله تعالى : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ^(١) » ، ويحتمل أن يرجع قوله « قَلِيلٌ » إلى جملة ما ذُكِرَ من الخِطِّ والآثِلِ والسدر ،

قوله تعالى : ذَلِكْ جَزَائِنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي ^ط إِلَّا الْكَافُرَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : (ذَلِكْ جَزَائِنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا) أى هذا التبديل جزاء كفرهم . وموضع « ذَلِكْ » نصب ؛ أى جزيناهم ذلك بكفرهم . (وَهَلْ يُجَازَى إِلَّا الْكَافُرُ) قراءة العامة « يُجَازَى » بياء مضمومة وزاى مفتوحة ، « الْكَافُرُ » رفعا على ما لم يُسَمَّ فاعله . وقرا يعقوب وحفص وحمزة والكسائي : « نُجَازَى » بالنون وكسر الزاى ، « الْكَافُرَ » بالنصب ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، قالا : لأن قبله « جَزَائِنَهُمْ » ولم يقل جُوزُوا . النحاس : والأمر فى هذا واسع ، والمعنى فيه بين ، ولو قال قائل : خلق الله تعالى آدم صلى الله عليه وسلم من طين ، وقال آخر : خلق آدم من طين ، لكان المعنى واحدا .

مسألة — فى هذه الآية سؤال ليس فى هذه السورة أشد منه ، وهو أن يقال : لم خص الله تعالى المجازاة بالكفور ولم يذكر أصحاب المعاصى ؟ فتكلم العلماء فى هذا ، فقال قوم : ليس يُجَازَى بهذا الجزاء الذى هو الاصطلام ^(٢) والإهلاك إلا من كفر . وقال مجاهد : يجازى بمعنى يعاقب ؛ وذلك أن المؤمن يكفر الله تعالى عنه سيئاته ، والكافر يجازى بكل سوء عمله ؛ فالمؤمن يُجَازَى ولا يُجَازَى لأنه يثاب ^(٣) . وقال طاوس : هو المناقشة فى الحساب ، وأما المؤمن فلا يناقش الحساب . وقال قُطْرُبٌ خلاف هذا ، فجعلها فى أهل المعاصى غير الكفار ، وقال : المعنى على من كفر بالنعم وعمل بالكبائر . النحاس : وأولى ما قيل فى هذه الآية وأجل ما روى فيها : أن الحسن قال مثلاً بمثل . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) راجع ج ١٦ ص ٣٨ فما بعد (٢) الاصطلام : الاستئصال . (٣) فى نسخ الأصل : « لا يثاب » .

يقول : « من حوسب هلك » فقلت : يا نبي الله ، فأين قوله جلّ وعزّ : « فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا »^(١) ؟ قال : « إنما ذلك العرض ومن نوقش الحساب هلك » . وهذا إسناد صحيح ، وشرحه : أن الكافر يكافأ على أعماله ويحاسب عليها ويحبط ما عمل من خير ، ويبين هذا قوله تعالى في الأول : « ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا » وفي الثاني : « وَهَلْ يُجَازَى إِلَّا الْكَفُورُ » ومعنى « يُجَازَى » : يكافأ بكل عمل عمله ، ومعنى « جزيناهم » . وفيها ، فهذا حقيقة اللغة ، وإن كان « جازى » يقع بمعنى « جرى » مجازاً .

قوله تعالى : وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى

ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّبِيلَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً) قال الحسن : يعني بين اليمن والشام . والقرى التي بورك فيها : الشام والأردن وفلسطين . والبركة : قيل إنها كانت أربعة آلاف وسبعمئة قرية بورك فيها بالشجر والتمر والماء . ويحتمل أن يكون « بَارَكْنَا فِيهَا » بكثرة العدد . (قُرَى ظَاهِرَةً) قال ابن عباس : يريد بين المدينة والشام . وقال قتادة : معنى « ظَاهِرَةً » : متصلة على طريق ، يغدون فيقبلون في قرية ويروحون فيبيتون في قرية . وقيل : كان على كل ميل قرية بسوق ، وهو سبب أمن الطريق . قال الحسن : كانت المرأة تخرج معها مغزها وعلى رأسها مكئها ثم تلتهم بمغزها فلا تأتي بيتها حتى يمتلئ مكئها من كل الثمار ، فكان ما بين الشام واليمن كذلك . وقيل « ظَاهِرَةً » أي مرتفعة ، قاله المبرد . وقيل : إنما قيل لها « ظَاهِرَةً » لظهورها ، أي إذا خرجت عن هذه ظهرت لك الأخرى ، فكانت قرى ظاهرة أي معروفة ، يقال : هذا أمر ظاهر أي معروف . (وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّبِيلَ) أي جعلنا السبيل بين قراهم وبين القرى التي باركنا فيها سبيراً مقدراً من منزل إلى منزل ، ومن قرية إلى قرية ، أي جعلنا بين كل قرينتين نصف يوم حتى يكون المقيط في قرية والمبيت في قرية أخرى . وإنما يبلغ الإنسان في السير لعدم الزاد والماء

(١) راجع ج ١٩ ص ٢٧٠

ولخوف الطريق ، فإذا وجد الزاد والأمن لم يحمل على نفسه المشقة ونزل أبنا أراد . (سِيرُوا فِيهَا) أى وقلنا لهم سيروا فيها ، أى فى هذه المسافة فهو أمر تمكين ، أى كانوا يسرون فيها إلى مقاصدهم إذا أرادوا آمنين ، فهو أمر بمعنى الخبر ، وفيه إضمار القول . (لِيَأْتِيَّ وَأَيَّامًا) ظرفان (آمِنِينَ) نصب على الحال . وقال : « لِيَأْتِيَّ وَأَيَّامًا » بلفظ النكرة تنبيها على قصر أسفارهم ؛ أى كانوا لا يحتاجون إلى طول السفر لوجود ما يحتاجون إليه . قال قتادة : كانوا يسرون غير خائفين ولا جياع ولا ظمأ ، وكانوا يسرون مسيرة أربعة أشهر فى أمان لا يحرك بعضهم بعضها ، ولو لقي الرجل قاتل أبيه لا يحترقه .

قوله تعالى : فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : (فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا) لما بطروا وطفنوا وسموا الراحة ولم يصبروا على العافية تمنوا طول الأسفار والكدح فى المعيشة ؛ كقول بنى إسرائيل : « فَأَذْعُ لَنَا رَبُّكَ يُخْرِجُ لَنَا مِمَّا تُثَبِّتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقِيلِهَا » الآية . وكان نصر بن الحارث حين قال : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ » فأجابه الله تبارك وتعالى ، وقُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ بِالسَّيْفِ صَبْرًا ؛ فكذلك هؤلاء تبددوا فى الدنيا ومزقوا كل مُمزَّقٍ ، وجعل بينهم وبين الشام فلوات ومفاوز يركبون فيها الراحل ويتزودون الأزواد . وقراءة العامة « رَبَّنَا » بالنصب على أنه نداء مضاف ، وهو منصوب لأنه مفعول به ، لأن معناه : ناديت ودعوت . « بَعْدَ » سألوا المبعدة فى أسفارهم . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن محيَّصن وهشام عن ابن عاصم : « رَبَّنَا » كذلك على الدعاء « بعد » من التباعد . النحاس : وباعد وبعُد واحد فى المعنى ، كما تقول : قارب وقرب . وقرأ أبو صالح ومحمد بن الحنفية وأبو العالصة ونصر بن عاصم

(١) راجع ج ١ ص ٤٢٢ فابعد . (٢) راجع ج ٨ ص ٣٩٨

(٣) يقال للرجل إذا شدد يده ورجلاه أو أمسكه رجل آخر حتى يضرب عنقه أو حبس على القتل حتى يقتل :

قتل صبرا .

ويعقوب، ويروى عن ابن عباس: «رَبَّنَا» رفعا «بَاعَدَ» بفتح العين والذال على الخبر، تقديره: لقد باعد ربنا بين أسفارنا، كأن الله تعالى يقول: قَرَّبْنَا لَهُمْ أَسْفَارَهُمْ فَقَالُوا أَشْرًا وَبَطْرًا: لقد بُوعِدت علينا أسفارنا . واختار هذه القراءة أبو حاتم قال: لأنهم ما طلبوا التباعد إنما طلبوا أقرب من ذلك القرب بَطْرًا وَعَجْبًا مع كفرهم . وقراءة يحيى بن يعمر وعيسى بن عمر وتروى عن ابن عباس «رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا» بشد العين من غير ألف، وفسرها ابن عباس قال: شَكُّوا أَنْ رُبِّهِمْ بَاعَدَ بَيْنَ أَسْفَارِهِمْ . وقراءة سعيد بن أبي الحسن أنحى الحسن البصرى «رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا» . «رَبَّنَا» نداء مضاف، ثم أخبروا بعد ذلك فقالوا: «بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا» ورفع «بين» بالفعل، أى بعدما يتصل بأسفارنا . وروى الفراء وأبو إسحاق قراءة سادسة مثل التي قبلها في ضم العين إلا أنك تنصب «بين» على ظرف، وتقديره في العربية: بعد سيرنا بين أسفارنا . النحاس: وهذه القراءات إذا اختلفت معانيها لم يميز أن يقال إحداها أجود من الأخرى، كما لا يقال ذلك في أخبار الآحاد إذا اختلفت معانيها، ولكن خبر عنهم أنهم دعوا ربهم أن يباعد بين أسفارهم بَطْرًا وَأَشْرًا، وخبر عنهم أنهم لما فعل ذلك بهم خبروا به وشكوا، كما قال ابن عباس . (وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ) أى بكفرهم (جَعَلْنَا لَهُمْ آحَادِيثَ) أى يُتَحَدَّثُ بِأَخْبَارِهِمْ، وتقديره في العربية: ذوى أحاديث . (وَمَرْقَنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ) أى لما لحقهم ما لحقهم تفرقوا وتمزقوا . قال الشعبي: فلحقت الأنصار بيثرب، وغسان بالشام، والأسد بعمان، ونزاعة بتهامة، وكانت العرب تضرب بهم المثل فتقول: تفرقوا أيدي سبأ وإيادي سبأ، أى مذاهب سبأ وطرقها . (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) الصبار الذى يصبر عن المعاصى، وهو تكثير صبار يمدح بهذا الاسم . فإن أردت أنه صبر عن المعصية لم يستعمل فيه إلا صبار عن كذا . (شَكُورٍ) لنعمه؛ وقد مضى هذا المعنى في «البقرة» .^(١)

قوله تعالى: وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : (وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ) فيه أربع قراءات : قرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وأبو عمرو وآبن كثير وآبن عامر ويروى عن مجاهد ، « وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ » بالتخفيف « إِبْلِيسُ » بالرفع « ظَنَّهُ » بالنصب ؛ أى فى ظنه . قال الزجاج : وهو على المصدر ؛ أى صدق عليهم ظناً ظنه إذ صدق فى ظنه ؛ فنصب على المصدر أو على الظرف . وقال أبو عليّ : « ظَنَّهُ » نصب لأنه مفعول به ؛ أى صدق الظن الذى ظنه إذ قال : « لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ » وقال : « لَأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ » ؛ ويجوز تعديّة الصدق إلى المفعول به ، ويقال : صدق الحديث ، أى فى الحديث . وقرأ ابن عباس ويحيى بن وثّاب والأعمش وعاصم وحزمة والكسائى : « صدق » بالتشديد « ظَنَّهُ » بالنصب بوقوع الفعل عليه . قال مجاهد : ظن ظنا فكان كما ظن فصدق ظنه . وقرأ جعفر بن محمد وأبو الهجهاج « صدق عليهم » بالتخفيف « إِبْلِيسَ » بالنصب « ظَنَّهُ » بالرفع . قال أبو حاتم : لا وجه لهذه القراءة عندى ، والله تعالى أعلم . وقد أجاز هذه القراءة الفراء وذكرها الزجاج وجعل الظن فاعل « صدق » « إِبْلِيسَ » مفعول به ؛ والمعنى : أن إبليس سؤل له ظنه فيهم شيئاً فصدق ظنسه ، فكانه قال : ولقد صدق عليهم ظن إبليس . و« على » متعلقة بـ « صدق » ، كما تقول : صدقت عليك فيما ظننته بك ، ولا تتعلق بالظن لاستحالة تقدم شيء من الصلّة على الموصول . والقراءة الرابعة : « وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ » برفع إبليس والظن ، مع التخفيف فى « صدق » على أن يكون ظنه بدلا من إبليس وهو بدل الاشتمال . ثم قيل : هذا فى أهل سبأ ، أى كفروا وغيروا وبدلوا بعد أن كانوا مسلمين إلا قوما منهم آمنوا برسولهم . وقيل : هذا عام ، أى صدق إبليس ظنه على الناس كلهم إلا من أطاع الله تعالى ؛ قاله مجاهد . وقال الحسن : لما أهبط آدم عليه السلام من الجنة ومعه حواء وهبط إبليس قال إبليس : أما إذ أصبت من الأبوين ما أصبت فالذرية أضعف وأضعف ! فكان ذلك ظنا من إبليس ، فأنزل الله تعالى : « وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ » . وقال آبن عباس : إن إبليس قال : خلقت من نار وخلق آدم من طين

(١) راجع ج ٧ ص ١٧٤ (٢) راجع ج ١٠ ص ٢٧

(٣) كذا فى نسخ الأصل وكتاب إعراب القرآن للنحاس . وفى روح المعاني والبحر المحيظ : « أبو الهجهاج » .

والنار تحرق كل شيء « لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا »^(١) فصدق ظنه عليهم . وقال زيد بن أسلم : إن إبليس قال يارب أرأيت هؤلاء الذين كرمتهم وشرقتهم وفضلتهم على لا تجرد أكثرهم شاكرين ، ظنا منه فصدق عليهم إبليس ظنه . وقال الكلبي : إنه ظن أنه إن اغواهم أجابوه وإن أضلهم أطاعوه ، فصدق ظنه . (فَاتَّبِعُوهُ) قال الحسن : ما ضربهم بسوط ولا بعصا وإنما ظن ظنا فكان كما ظن بوسوسته . (إِلَّا قَرِيبًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) نصب على الاستثناء ، وفيه قولان : أحدهما أنه يراد به بعض المؤمنين ، لأن كثيرا من المؤمنين من يذنب وينقاد لإبليس في بعض المعاصي ، أي ما سلم من المؤمنين أيضا إلا فريق وهو المعنى بقوله تعالى : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ »^(١) . فاما ابن عباس فعنه أنه قال : هم المؤمنون كلهم ، فـ « من » على هذا للتبيين لا للتبعيض ، فإن قيل : كيف علم إبليس صدق ظنه وهو لا يعلم الغيب ؟ قيل له : لما نفذ له في آدم ما نفذ غالب على ظنه أنه ينفذ له مثل ذلك في ذريته ، وقد وقع له تحقيق ما ظن . وجواب آخر وهو ما أجيب من قوله تعالى : « وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَاعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمُ بِحَيْلِكَ وَرَجْلِكَ »^(١) فأعطى القوة والاستطاعة ، فظن أنه يملكهم كلهم بذلك ، فلما رأى أنه تاب على آدم وأنه سيكون له نسل يتبعونه إلى الجنة وقال : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ » علم أن له تبعا ولآدم تبعا ، فظن أن تبعه أكثر من تبع آدم ، لما وضع في يديه من سلطان الشهوات ، ووضعت الشهوات في أجواف الآدميين ، فخرج على ما ظن حيث نفخ فيهم وزين في أعينهم تلك الشهوات ، ومدّم إليها بالأمانى واللدائع ، فصدق عليهم الظن الذي ظنه ، والله أعلم .

قوله تعالى : وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾
قوله تعالى : (وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ) أي لم يقهرهم إبليس على الكفر ، وإنما كان منه الدعاء والترين . والسلطان : القوة . وقيل الحجّة ، أي لم تكن له حجة يستبعمهم

بها، وإنما اتبعوه بشهوة وتقليد وهوى نفس؛ لا عن حجة ودليل. ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَأْتِيَنَّ بِالْحَقِّ﴾ يريد علم الشهادة الذى يقع به الثواب والعقاب، فأما الغيب فقد علمه تبارك وتعالى. ومذهب الفراء أن يكون المعنى: إلا لنعلم ذلك عندكم؛ كما قال: «أَيْنَ شُرَكَائِي»^(١) على قولكم وعندكم، وليس قوله: «إِلَّا لِنَعْلَمَ» جواب «وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ» فى ظاهره إنما هو محمول على المعنى؛ أى وما جعلنا له سلطانا إلا لنعلم، فالاستثناء منقطع، أى لا سلطان له عليهم ولكننا ابتليناهم بوسوسته لنعلم، فـ «إِلَّا» بمعنى لكن. وقيل هو متصل، أى ما كان له عليهم من سلطان، غير أننا سلطناهم عليهم لئتم الابتلاء. وقيل: «كَانَ» زائدة؛ أى وماله عليهم من سلطان، كقوله: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ»^(٢) أى أتم خير أمة. وقيل: لما اتصل طرف منه بقصة سبأ قال: وما كان لإبليس على أولئك الكفار من سلطان. وقيل: وما كان له فى قضائنا السابق سلطان عليهم. وقيل: «إِلَّا لِنَعْلَمَ» إلا لنظهر، وهو كما تقول: النار تحرق الحطب، فيقول آخر لابل الحطب يحرق النار؛ فيقول الأول تعال حتى نجرب النار والحطب لنعلم أيهما يحرق صاحبه، أى لنظهر ذلك وإن كان معلوما لهم ذلك. وقيل: إلا لتعلموا أتم. وقيل: أى ليعلم أولياؤنا والملائكة؛ كقوله: «إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ»^(٣) أى يحاربون أولياء الله ورسوله. وقيل: أى ليميز؛ كقوله: «لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ»^(٤) وقد مضى هذا المعنى فى «البقرة» وغيرها. وقرأ الزهرى «إِلَّا لِنَعْلَمَ» على ما لم يسم فاعله. ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ﴾ أى أنه عالم بكل شىء. وقيل: يحفظ كل شىء على العبد حتى يجازيه عليه.

قوله تعالى: قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مَنْ ظَهِيرٌ ﴿١٧﴾

(١) راجع ج ٤ ص ١٧٠ .

(٢) راجع ج ١٠ ص ٩٨ .

(٣) راجع ج ٢ ص ١٥٦ فما بعد .

(٤) راجع ج ٦ ص ١٤٧ فما بعد .

قوله تعالى : (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ) أى هذا الذى مضى ذكره من أمر داود وسليمان وقصة سبأ من آثار قدرتى ، فقل يا محمد لهؤلاء المشركين هل عند شركائكم قدرة على شيء من ذلك . وهذا خطاب توبيخ ، وفيه إضمار : أى ادعوا الذين زعتم أنهم آلهة لكم من دون الله لتضعكم أولئذ عنكم ما قضاه الله تبارك وتعالى عليكم ، فإنهم لا يملكون ذلك ، و (لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا هُمْ فِيهِمَا مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ) أى ما لله من هؤلاء من معين على خلق شيء ، بل الله المنفرد بالإيجاد؛ فهو الذى يُعبَد، وعبادة غيره محال .

قوله تعالى : وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٣﴾ قوله تعالى : (وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ) أى شفاعة الملائكة وغيرهم . (عِنْدَهُ) أى عند الله . (إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) قراءة العامة « أَذِنَ » بفتح الهمزة ؛ لذكر الله تعالى أولا . وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي « أَذِنَ » بضم الهمزة على ما لم يسم فاعله . والأذن هو الله تعالى . و « مَنْ » يجوز أن ترجع إلى الشافعين ، ويجوز أن ترجع إلى المشفوع لهم . (حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ) قال ابن عباس : خُلِّيَ عَن قُلُوبِهِمُ الْفَزَعُ . قطرب : أخرج ما فيها من الخوف . مجاهد : كشف عن قلوبهم الغطاء يوم القيامة ؛ أى إن الشفاعة لا تكون من أحد هؤلاء المعبودين من دون الله من الملائكة والأنبياء والأصنام ؛ إلا أن الله تعالى يأذن للأنبيا والملائكة في الشفاعة وهم على غاية الفزع من الله ؛ كما قال : « وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ » ^(١) . والمعنى : أنه إذا أذن لهم في الشفاعة وورد عليهم كلام الله فزعوا ؛ لما يقترن بتلك الحال من الأمر الهائل والخوف أن يقع في تنفيذ ما أذن لهم فيه تقصير ، فإذا سرى عنهم قالوا للملائكة فوقهم وهم الذين يوردون عليهم الوحي بالإذن : (مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ) أى ماذا أمر الله به « فيقولون لهم : (قَالُوا الْحَقُّ) وهو أنه أذن لكم في الشفاعة للمؤمنين . (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) فله أن يحكم في عباده بما

يريد . ثم يجوز أن يكون هذا إذا لم في الدنيا في شفاة أقوام ، ويجوز أن يكون في الآخرة . وفي الكلام إضمار ؛ أى ولا تنفع الشفاة عنده إلا لمن أذن له ففزع لما ورد عليه من الإذن تهبيا لكلام الله تعالى ، حتى إذا ذهب الفزع عن قلوبهم أجاب بالانقياد . وقيل : هذا الفزع يكون اليوم للملائكة في كل أمر يأمر به الرب تعالى ؛ أى لا تنفع الشفاة إلا من الملائكة الذين هم اليوم فزعون ، مطيعون لله تعالى دون الجمادات والشياطين . وفي صحيح الترمذى عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا قضى الله في السماء أمرا ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنها سلسلة على صفوان ^(١) فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير — قال — والشياطين بعضهم فوق بعض " قال : حديث حسن صحيح . وقال الثؤاس بن سمان قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الله إذا أراد أن يوحى بالأمر تكلم بالوحى أخذت السموات منه رجفة أو رعدة شديدة خوفا من الله تعالى فإذا سمع أهل السموات ذلك صعبوا وخروا لله تعالى سجدا فيكون أول من يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله تعالى ويقول له من وحيه ما أراد ثم يمز جبريل بالملائكة كلما مر بسماء سألهم ملائكتها ماذا قال ربنا يا جبريل فيقول جبريل قال الحق وهو العلى الكبير — قال — فيقول كلهم كما قال جبريل فينتهى جبريل بالوحى حيث أمره الله تعالى " . وذكر البيهقي عن ابن عباس في قوله تعالى : « حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ » قال : كان لكل قبيل من الجن مقعد من السماء يستمعون منه الوحى ، وكان إذا نزل الوحى سمع له صوت كإمرار السلسلة على الصفوان ، فلا ينزل على أهل سماء إلا صعبوا فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير ، ثم يقول يكون العام كذا ويكون كذا فتسمعه الجن فيخبرون به الكهنة والكهنة الناس [يقولون] يكون العام كذا وكذا فيجدونه كذلك ؛ فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم دُحروا بالشهب فقالت العرب حين لم تخبرهم الجن بذلك : هلك من في السماء ، فجعل صاحب الإبل ينحر كل يوم بعيرا ، وصاحب البقر ينحر كل يوم بقرة ،

(١) الصفوان : الصخر الأملس .

وصاحب الغنم ينحر كل يوم شاة؛ حتى أسرعوا في أموالهم فقالت ثقيف وكانت أعقل العرب: أيها الناس! أمسكوا على أموالكم، فإنه لم يمت من في السماء، وإن هذا ليس بانتثار، أستم ترون معالمكم من النجوم كما هي والشمس والقمر والليل والنهار! قال فقال إبليس: لقد حدث في الأرض اليوم حدث، فأتوني من تربة كل أرض فاتوه بها، فجعل يَسْتُمها فلما شم تربة مكة قال من ها هنا جاء الحدث؛ فنصتوا فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث. وقد مضى هذا المعنى مرفوعا مختصرا في سورة «النجم»^(١)، ومعنى القول أيضا في رميهم بالشهب وإحراقهم بها، ويأتي في سورة «الجن»^(٢) بيان ذلك إن شاء الله تعالى. وقيل: إنما يفزعون من قيام الساعة. وقال الكلبي وكعب: كان بين عيسى ومحمد عليهما السلام فترة خمسمائة وخمسون سنة لا يجيء فيها الرسل، فلما بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم كلم الله تعالى جبريل بالرسالة، فلما سمعت الملائكة الكلام ظنوا أنها الساعة قد قامت، فصعقوا مما سمعوا، فلما انحدر جبريل عليه السلام جعل يمر بكل سماء فيكشف عنهم فيرفعون رؤوسهم ويقول بعضهم لبعض ماذا قال ربكم فلم يدروا ما قال ولكنهم قالوا قال الحق وهو العلي الكبير، وذلك أن محمدا عليه السلام عند أهل السموات من أشراط الساعة. وقال الضحاك: إن الملائكة المعقبات الذين يختلفون إلى أهل الأرض يكتبون أعمالهم، يرسلهم الرب تبارك وتعالى، فإذا انحدروا سمع لهم صوت شديد فيحسب الذين هم أسفل من الملائكة أنه من أمر الساعة، فيخرون سُجُداً وبصعقون حتى يعلموا أنه ليس من أمر الساعة. وهذا تنبيه من الله تعالى وإخبار أن الملائكة مع اصطفايتهم ورفعتهم لا يمكن أن يشفعوا لأحد حتى يؤذن لهم، فإذا أذن لهم وسمعوا صعقوا، وكان هذه حالهم، فكيف تشفع الأصنام أو كيف تؤتمنون أتم الشفاعة ولا تعترفون بالقيامة. وقال الحسن وابن زيد ومجاهد: حتى إذا كشف الفزع عن قلوب المشركين. قال الحسن ومجاهد وابن زيد: في الآخرة عند نزول الموت، إقامة للحجة عليهم قالت الملائكة لهم: ماذا قال ربكم في الدنيا قالوا الحق وهو العلي الكبير، فأقروا

(١) راجع ج ١٠ ص ١٠.

(٢) راجع ج ١٩ ص ١٠ فابعد.

حين لا ينفعهم الإقرار، أى قالوا قال الحق . وقراءة العامة « فَرَّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ » . وقرأ ابن عباس « فَرَّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ » مسمى الفاعل وفاعله ضمير يرجع إلى اسم الله تعالى . ومن بناء للفعول فالجار والمجرور فى موضع رفع ، والفعل فى المعنى لله تبارك وتعالى . والمعنى فى القراءتين : أزيل الفزع عن قلوبهم ، حسبما تقدم بيانه . ومثله : أشكاه ، إذا أزال عنه ما يشكوه . وقرأ الحسن : « فَرَّعَ » مثل قراءة العامة ، إلا أنه خفف الزاى ، والجار والمجرور فى موضع رفع أيضا ؛ وهو كقولك : انصرف عن كذا إلى كذا . وكذا معنى « فَرَّغَ » بالراء والغين المعجمة والتخفيف غير مسمى الفاعل ، رويت عن الحسن أيضا وقناة . وعنهما أيضا « فَرَّغَ » بالراء والغين المعجمة مسمى الفاعل ، والمعنى : فرغ الله تعالى قلوبهم أى كشف عنها ، أى فرغها من الفزع والخوف ، وإلى ذلك يرجع البناء للفعول على هذه القراءة . وعن الحسن أيضا « فَرَّغَ » بالتشديد .

قوله تعالى : قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) لما ذكر أن آلهتهم لا يملكون مثقال ذرة مما يقدر عليه الزب فقرر ذلك فقال : قل يا محمد للشركيين « مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى من يخلق لكم هذه الأرزاق الكائنة من السموات ؛ أى عن المطر والشمس والقمر والنجوم وما فيها من المنافع . « وَالْأَرْضِ » أى الخارجة من الأرض عن الماء والنبات — أى لا يمكنهم أن يقولوا هذا فعل آلهتنا — فيقولون لا ندري ، فقل إن الله يفعل ذلك الذى يعلم ما فى نفوسكم . وإن قالوا : إن الله يرزقنا فقد تقرررت الحجّة بأنه الذى ينبغى أن يعبد . (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) هذا على وجه الإنصاف فى الحجّة ؛ كما يقول القائل : أحدنا كاذب ، وهو يعلم أنه صادق وأن صاحبه كاذب . والمعنى : ما نحن وأنتم على أمر واحد ، بل على أمرين متضادين ، وأحد الفريقين مهتد وهو نحن والآخضال وهو أنتم ؛

فكذبهم بأحسن من تصريح التكذيب ، والمعنى : أتم الضالون حين أشركتم بالذي يرزقكم من السموات والأرض . « أَوْ إِيَّاكُمْ » معطوف على اسم « إِنْ » ولو عطف على الموضع لكان « أو أتم » ويكون « لَعَلَّ هُدًى » للأول لا غير . وإذا قلت : « أَوْ إِيَّاكُمْ » كان للثاني أولى ، وحذفت من الأول ، ويجوز أن يكون للأول ، وهو اختيار المبرد ، قال : ومعناه معنى قول المستبصر لصاحبه على صحة الوعيد والاستظهار بالمجته الواضحة : أهدنا كاذب ، قد عرف المعنى ، كما تقول : أنا أفعل كذا وتفعل أنت كذا وأهدنا مخطئ ، وقد عرف أنه هو المخطئ ، فهكذا « وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » . و « أَوْ » عند البصريين على بابها وليست للشك ، ولكنها على ما تستعمله العرب في مثل هذا إذا لم يرد المخبر أن يبين وهو عالم بالمعنى . وقال أبو عبيدة والفراء : هي بمعنى الواو ، وتقديره : وإنا على هدى وإياكم في ضلال مبين . وقال جرير :

أثعلبة الفوارس أو رياحا * عدت بهم طهية والربابا^(١)

يعني أثعلبة ورياحا . وقال آخر :

فلما أشند أمر الحرب فينا * تأملنا رياحا أو رزاما

قوله تعالى : قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : (قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا) أي اكتبنا ، (وَلَا تُسْأَلُ) نحن أيضا

(عَمَّا تَعْمَلُونَ) أي إنما أقصد بما أدعوك إليه الخير لكم ، لا أنه ينالني ضرر كنركم ، وهذا

كما قال : « لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ »^(٢) والله مجازي الجميع . فهذه آية مهادة ومشاركة ، وهي

منسوخة بالسيف . وقيل : نزل هذا قبل آية السيف .

قوله تعالى : قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ

الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٥﴾

(١) رواية الديوان وكتاب سيبويه : « والخشايا » .

(٢) راجع ج ٢٠ ص ٢٢٩ .

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا﴾ يريد يوم القيامة ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ أى يقضى فيثيب المهتدى ويعاقب الضال ﴿وَهُوَ الْفَاتِحُ﴾ أى القاضى بالحق ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوال الخلق . وهذا كله منسوخ بآية السيف .

قوله تعالى : قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَحَقُّمُ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَحَقُّمُ بِهِ شُرَكَاءَ﴾ يكون «أروني» هنا من رؤية القلب ، فيكون «شركاء» المفعول الثالث ، أى عرفوني الأصنام والأوثان التى جعلتموها شركاء لله عز وجل ، وهل شاركت فى خلق شيء ، فبينوا ما هو ؟ وإلا فلم تعبدونها . ويجوز أن تكون من رؤية البصر ، فيكون «شركاء» حالا . ﴿كَلَّا﴾ أى ليس الأمر كما زعمتم . وقيل : إن «كَلَّا» رد لجوابهم المحذوف ، كأنه قال : أروني الذين أحقتم به شركاء . قالوا : هى الأصنام . فقال كَلَّا ، أى ليس له شركاء ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعِجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أى وما أرسلناك إلا للناس كافة أى عامة ، ففى الكلام تقديم وتأخير . وقال الزجاج : أى وما أرسلناك إلا جامعا للناس بالإنذار والإبلاغ . والكافة بمعنى الجامع . وقيل : معناه كافا للناس ، تكفهم عما هم فيه من الكفر وتدعوهم إلى الإسلام . والهاء للبالغة . وقيل : أى إذا كافة ، فحذف المضاف ، أى إذا منع للناس من أن يشدوا عن تبليغك ، أو إذا منع لهم من الكفر ، ومنه :

كف الثوب ، لأنه ضم طرفيه . (بَشِيرًا) أى بالحنة لمن أطاع . (وَنَذِيرًا) من النار لمن كفر . (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) ما عند الله وهم المشركون ؛ وكانوا في ذلك الوقت أكثر من المؤمنين عددا . (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ) يعنى موعدكم لنا بقيام الساعة . (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) فقال الله تعالى : (قُلْ) لهم يا محمد : (لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ) فلا يعزّنكم تأخيره . والميعاد الميقات ، ويعنى بهذا الميعاد وقت البعث وقيل وقت حضور الموت ؛ أى لكم قبل يوم القيامة وقت معين تموتون فيه فتعلمون حقيقة قولى . وقيل : أراد بهذا اليوم يوم بدر ؛ لأن ذلك اليوم كان ميعاد عذابهم في الدنيا في حكم الله تعالى . وأجاز النحويون « ميعاد يوم » على أن يكون « ميعاد » ابتداء و « يوم » بدل منه ، والخبر « لكم » . وأجازوا « ميعاد يوماً » يكون ظرفاً ، وتكون الهاء في « عنه » ترجع إلى « يوم » ولا يصح « ميعاد يوم لا تستأخرون » بغير تنوين ، وإضافة « يوم » إلى ما بعده إذا قدرت الهاء عائدة على اليوم ، لأن ذلك يكون من إضافة الشيء إلى نفسه من أجل الهاء التي في الجملة . ويجوز ذلك على أن تكون الهاء للميعاد لا لليوم .

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لَنْ نَصَّدَّقَنَّكُمْ عَنْ أَهْدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ ثَجْرَمِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُمْ أُنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يريد كفار قريش . ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ قال سعيد عن قتادة : « وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ » من الكتب والأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وقيل من الآخرة . وقال ابن جريج : قائل ذلك أبو جهل بن هشام . وقيل : إن أهل الكتاب قالوا للمشركين صفة مجد في كتابنا فسألوه ، فلما سألوه فوافق ما قال أهل الكتاب قال المشركون : لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي أنزل قبله من التوراة والإنجيل بل نكفر بالجميع ؛ وكانوا قبل ذلك يراجعون أهل الكتاب ويحتجون بقولهم ، فظهر بهذا تناقضهم وقلة علمهم . ثم أخبر الله تبارك وتعالى عن حالهم فيما لهم فقال ﴿ وَلَوْ تَرَى ﴾ يا محمد ﴿ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أي محبوسون في موقف الحساب ، يتراجعون الكلام فيما بينهم باللوم والعتاب بعد أن كانوا في الدنيا أخلاء متناصرين . وجواب « لو » محذوف ؛ أي لرأيت امرأها ثلاثا فظيما . ثم ذكر أي شيء يرجع من القول بينهم فقال : ﴿ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا ﴾ في الدنيا من الكافرين ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ وهم القادة والرؤساء ﴿ لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ أي أغويتمونا وأضللتمونا . واللغة الفصيحة « لَوْلَا أَنْتُمْ » ومن العرب من يقول « لولاكم » حكاهما سيبويه ؛ تكون « لَوْلَا » تخفض المضمير ويرتفع المظهر بعدها بالابتداء ويحذف خبره . ومحمد بن يزيد يقول : لا يجوز « لولاكم » لأن المضمير عقيب المظهر ، فلما كان المظهر مرفوعا بالإجماع وجب أن يكون المضمير أيضا مرفوعا . ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا أَنْتُمْ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى ﴾ هو استفهام بمعنى الإنكار ، أي ما رددناكم نحن عن الهدى ، ولا أكرهناكم . ﴿ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلٌ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴾ أي مشركين مصرين على الكفر . ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ المكر أصله في كلام العرب الاحتيال والخديعة ، وقد مكر به يمكر فهو ما كروم مكار . قال الأخفش : هو على تقدير : هذا مكر الليل والنهار . قال النحاس : والمعنى — والله أعلم — بل مكركم في الليل والنهار ، أي مسارتكم إيانا ودعائكم لنا إلى الكفر حملنا على هذا . وقال سفيان الثوري : بل عملكم في الليل والنهار . قتادة : بل مكركم بالليل والنهار صدنا ؛ فأضيف المكر إليهما لوقوعه فيهما ،

وهو كقوله تعالى : « إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ^(١) » فأضاف الأجل إلى نفسه ، ثم قال : « فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ^(٢) » إذ كان الأجل لهم . وهذا من قبيل قولك : ليله قائم ونهاره صائم . قال المبرد : أى بل مكرّم الليل والنهار ، كما تقول العرب : نهاره صائم وليله قائم . وأنشد لجرير :

لقد لمتنايا أم غيلان في السرى * ونمت وما ليسل الميطى بنائم

وأنشد سيديويه : * فنام ليلى وتجلى همى *

أى نمت فيه . ونظيره : « وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ^(٣) » . وقرأ قتادة : « بل مكرّم الليل والنهار » بتنوين « مكر » ونصب « الليل والنهار » ، والتقدير : بل مكر كائن في الليل والنهار ، فحذف . وقرأ سعيد بن جبير « بَلْ مَكْرٌ » بفتح الكاف وشدّ الراء بمعنى الكور ، وارتفاعه بالابتداء والخبر محذوف . ويمحوز أن يرتفع بفعل مضمردل عليه « أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ » كأنهم لما قالوا لهم أنحن صددناكم عن الهدى قالوا بل صددنا مكر الليل والنهار . وروى عن سعيد بن جبير « بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » قال : مرّ الليل والنهار عليهم ففعلوا . وقيل : طول السلامة فيهما كقوله « فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ ^(٤) » . وقرأ راشد « بل مكرّم الليل والنهار » بالنصب ، كما تقول : رأيتهم مقدّم الحاج ، وإنما يحوز هذا فيما يعرف ، لو قلت : رأيتهم مقدّم زيد ، لم يحز ، ذكره النحاس . « إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا » أى أشباها وأمثالا ونظراء . قال محمد بن يزيد : فلان نذ فلان ، أى مثله . ويقال نديد ، وأنشد :

أينما تجملون إلى نداء * وما أتم لذي حسب نديد

وقد مضى هذا في البقرة ^(٥) . « وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ » أى أظهروها ، وهو من الأضداد يكون بمعنى الإخفاء والإبداء . قال امرؤ القيس :

تجاوزت أحراسا وأهوال معشير * على حراسا لو يشرون مقتلى ^(٦)

(١) راجع ج ١٨ ص ٢٩٩ فابعد . (٢) راجع ج ٧ ص ٢٠١ فابعد .

(٣) راجع ج ٨ ص ٣٦٠ . (٤) راجع ج ١٧ ص ٢٤٨ فابعد .

(٥) راجع ج ١ ص ٢٣٠ . (٦) هذه رواية البيت كما في نسخ الأصل والديوان وروايت

كما في المعلقات : تجاوزت أحراسا إليها ومعثرا * على حراسا لو يشرون مقتلى « يشرون » بالشين المعجمة : يظهرون .

وروى « يُشرون » . وقيل : « وأسروا الندامة » أى تبينت الندامة فى أسرار وجوههم .
 قيل : الندامة لا تظهر، وإنما تكون فى القلب، وإنما يظهر ما يتولد عنها ، حسبما تقدم
 بيانه فى سورة « يونس ، وآل عمران » . وقيل : إظهارهم الندامة قولهم : « فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ^(١)
 فَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » . وقيل : أسروا الندامة فيما بينهم ولم يجهروا القول بها ، كما قال : « وأسروا ^(٢)
 النَّجْوَى » . (وَجَعَلْنَا الْأَفْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا) الأفلال جمع غُلٌّ ، يقال : فى رقبته ^(٣)
 غُلٌّ من حديد . ومنه قيل للمرأة السيئة الخلق : غُلٌّ قَيْلٌ ، وأصله أن الغل كان يكون من
 قَدِّ عليه شمر فيقمل . وغلَّتْ يده إلى عنقه ؛ وقد غُلٌّ فهو مغلول ، يقال : ماله أُلٌّ وغُلٌّ . ^(٤)
 والغُلُّ أيضا والغُلَّةُ : حرارة العطش ، وكذلك الغليل ؛ يقال منه : غُلٌّ الرجلُ يغلُّ غللاً فهو
 مغلول ، على ما لم يسم فاعله ؛ عن الجوهري . أى جعلت الجوامع فى أعناق السابيين
 والمتبوعين . قيل من غير هؤلاء الفريقين . وقيل يرجع « الَّذِينَ كَفَرُوا » إليهم . وقيل :
 تم الكلال عند قوله : « لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ » ثم ابتداء فقال : « وَجَعَلْنَا الْأَفْلالَ » بعد ذلك فى أعناق
 سائر الكفار . (هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) فى الدنيا .

قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا
 بِمَا أَرْسَلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ
 بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ
 أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِآلَتِي
 تُقْرَبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ
 الضَّعِيفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ
 فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾

(١) راجع ج ٨ ص ٢٥٢ (٢) راجع ج ١٣ ص ١١٧ (٣) راجع ج ١١ ص ٢١٥

(٤) أل : دفع فى قفاه . وغل : جن ؛ فوضع فى عنقه الغل .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا ﴾ قال قتادة : أى أغنياؤها ورؤسائها وجبارتها وقادة الشر للرسول : ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ . وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا ﴾ أى فضلنا عليكم بالأموال والأولاد ، ولولم يكن ربكم راضيا بما نحن عليه من الدين والفضل لم يخولنا ذلك . ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴾ لأن من أحسن إليه فلا يعذبه ، فرد الله عليهم قولهم وما احتجوا به من الغنى فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَنْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ أى يوسعه ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ أى يقتر ، أى إن الله هو الذى يفاضل بين عباده فى الأرزاق امتحانا لهم ، فلا يدل شيء من ذلك على ما فى العواقب ، فسعة الرزق فى الدنيا لا تدل على سعادة الآخرة ، فلا تظنوا أموالكم وأولادكم تغنى عنكم غدا شيئا . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ هذا لأنهم لا يتأملون . ثم قال تأكيداً : ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى ﴾ قال مجاهد : أى قُرْبَى . والزلفة القرربة . وقال الأخفش : أى إزلافا ، وهو اسم المصدر ، فيكون موضع « قُرْبَى » نصبا ، كأنه قال بالتي تقربكم عندنا تقريبا . وزعم الفراء أن « التى » تكون للأموال والأولاد جميعا . وله قول آخر وهو مذهب أبى إسحاق الزجاج ، يكون المعنى : وما أموالكم بالتي تقربكم عندنا ، ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى ، ثم حذف خبر الأول لدلالة الثانى عليه . وأنشد الفراء :

نحن بما عندنا وأنت بما * عندك راضٍ والرأى مختلفٌ

ويجوز فى غير القرآن : بالتين وباللاتى وباللواتى وباللذين وبالذين ، وللأولاد خاصة ، أى لا تزيدكم الأموال عندنا رفعة ودرجة ، ولا تقربكم تقريبا . ﴿ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ قال سعيد بن جبير : المعنى إلا من آمن وعمل صالحا فلن يضره ما له وولده فى الدنيا . وروى ليث عن طاوس أنه كان يقول : اللهم ارزقنى الإيمان والعمل ، وجنبنى المال والولد ، لأنى سمعت فيما أوحيت « وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا » . قلت : قول طاوس فيه نظر ، والمعنى والله أعلم : جنبنى المال والولد المطغيين أو اللذين لاخير فيهما ، فأما المال الصالح والولد الصالح للرجل الصالح فبئس هذا ! وقد مضى هذا فى « آل عمران

(١) وصرم، والفرقان . و « مَنْ » في موضع نصب على الاستثناء المنقطع ، أى لكن من آمن وعمل صالحا فإيمانه وعمله يقربانه منى . وزعم الزجاج أنه في موضع نصب بالاستثناء على البدل من الكاف والميم التى فى « تقربكم » . النحاس : وهذا القول غلط ؛ لأن الكاف والميم للاخطاب فلا يجوز البدل ، ولو جاز هذا لحاز : رأيتك زيدا . وقول أبى إسحاق هذا هو قول الفراء ، إلا أن الفراء لا يقول بدل لأنه ليس من لفظ الكوفيين ، ولكن قوله يتول إلى ذلك ، وزعم أن مثله « إِلَّا مَنْ أَمَى اللَّهُ بِمَلِيحٍ سَلِيمٍ ^(١) » يكون منصوبا عنده بـ « ينفع » . وأجاز الفراء أن يكون « مَنْ » فى موضع رفع بمعنى : ما هو إلا من آمن ، كذا قال ، ولست أحصل معناه . (فأولئك لهم جزاء الضعيف بما عملوا)^(٢) يعنى قوله : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا » فالضعف الزيادة ، أى لهم جزاء التضعيف ، وهو من باب إضافة المصدر إلى المفعول . وقيل : لهم جزاء الأضعاف ، فالضعف فى معنى الجمع ، وإضافة الضعف إلى الجزاء كما إضافة الشيء إلى نفسه ، نحو : حق اليقين ، وصلاة الأولى . أى لهم الجزاء المضعف ، للواحد عشرة إلى ما يريد الله من الزيادة .

وبهذه الآية استدلل من فضل الغنى على الفقر . وقال محمد بن كعب : إن المؤمن إذا كان غنياً تقياً آتاه الله أجره مرتين بهذه الآية . (وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ) قراءة العامة « جَزَاءُ الضَّعِيفِ » بالإضافة . وقرأ الزهري ويعقوب ونصر بن عاصم « جزاء » متونا منصوبا « الضعيف » رفعا ؛ أى فأولئك لهم الضعيف جزاء ، على التقديم والتأخير . « وَجَزَاءُ الضَّعِيفِ » على أن يجازوا الضعيف . و « جَزَاءُ الضَّعِيفِ » مرفوعان ، الضعيف بدل من جزاء . وقرأ الجمهور أيضا « فِي الْغُرُفَاتِ » على الجمع ، وهو اختيار أبى عبيد ؛ لقوله : « لَنَبْوِئَنَّهُمْ مِنْ الْجَنَّةِ غُرَفًا ^(١) » . الزمخشري : وقرئ « فِي الْغُرُفَاتِ » بضم الراء وفتحها وسكونها . وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة وخلف « فِي الْغُرْفَةِ » على التوحيد ؛ لقوله تعالى : « أُولَئِكَ ^(١) يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ ^(٢) » . والغرفة قد يراد بها أسم الجمع وأسم الجنس . قال أبى عباس : هى غرف

(١) راجع ج ٤ ص ٧٢ وج ١١ ص ٨٠ وج ١٢ ص ٨٢ وض ١١٤ و ٣٥٩ .

(٢) راجع ٧ ص ١٥٠ .

من ياقوت وزبرجد ودُر . وقد مضى بيان ذلك ^(١) . (آمِنُونَ) أى من العذاب والموت والأسقام والأحزان . (وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا) فى إبطال أدلتنا وحجتنا وكتابنا . (مُعَاجِزِينَ) معاندين ، يحسبون أنهم يقوتوننا بأنفسهم . (أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ) أى فى جهنم تحضرهم الزبانية فيها .

قوله تعالى : قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ

وَيَقْدِرُ لَهُ ، وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾
قوله تعالى : (قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ) كرر تأكيداً .

(وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ) أى قل يا محمد لهؤلاء المغترين بالأموال والأولاد إن الله يوسع على من يشاء ويضيق على من يشاء ، فلا تنفروا بالأموال والأولاد بل أنفقوها فى طاعة الله ، فإن ما أنفقتم فى طاعة الله فهو يخلفه . وفيه إضمار ، أى فهو يخلفه عليكم ، يقال : أخلف له وأخلف عليه ، أى يعطيكم خلفه وبذله ، وذلك البذل إما فى الدنيا وإما فى الآخرة . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً وأعط ممسكاً تلفاً " . وفيه أيضاً عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ، " إن الله قال لى أنفق أنفق عليك ... " الحديث . وهذه إشارة إلى الخلف فى الدنيا بمثل المنفق فيها إذا كانت المنفقة فى طاعة الله . وقد لا يكون الخلف فى الدنيا فيكون كاللذات — كما تقدم ^(٢) — سواء فى الإجابة أو التكفير أو الإلادخار ؛ والأدخارها هنا مثله فى الأجر .

مسألة — روى الدارقطني وأبو أحمد بن هدي عن عبد الحميد الهلالى عن محمد بن المنكدر عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كل معروف صدقة وما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة وما وقى به الرجل عرضه فهو صدقة وما أنفق الرجل

(١) راجع ج ٨ ص ٢٠٤ وج ١٣ ص ٨٢ و ٣٥٩ (٢) راجع ج ٣ ص ٣٠٨ فابعد .

من نفقة فعلى الله خائفها إلا ما كان من نفقة في بئان أو معصية“ . قال عبد الحميد : قلت لابن المنكدر : « ما وقى الرجل عرضه » ؟ قال : يعطى الشاعر وذا اللسان . عبد الحميد وثقه ابن معين .

قلت : أما ما أنفق في معصية فلا خلاف أنه غير مثاب عليه ولا مخلوف له . وأما البئان فما كان منه ضرورياً يكتفى الإنسان ويحفظه فذلك مخلوف عليه وما جور ببئانه . وكذلك كحفظ بنته وستر عورته ، قال صلى الله عليه وسلم : “ ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال ، بيت يسكنه وثوب يوارى عورته وحلף الخبز والماء ” . وقد مضى هذا المعنى في « الأعراف^(١) » مستوفى .

قوله تعالى : (وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) لما كان يقال في الإنسان : إنه يرزق عياله ، والأمر جنده ، قال : « وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ » والرازق من الخلق يرزق ، لكن ذلك من مال يملك عليهم ثم ينقطع ، والله تعالى يرزق من خزائن لا تنفد ولا تنهاى . ومن أخرج من عدم إلى الوجود فهو الرازق على الحقيقة ، كما قال : « إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ^(٢) » .

قوله تعالى : وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَأُولَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً) هذا متصل بقوله : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ^(٤) » . أى لو تراهم في هذه الحالة لرأيت أمراً فظيماً . والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد هو وأمته . ثم قال : ولو تراهم أيضاً « يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً » العابدين والمعبودين ، أى نجتمعهم للحساب (ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَأُولَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ^(٣)) . قال سعيد عن قتادة : هذا

(٢) راجع ج ١٧ ص ٥٥

(١) راجع ج ٧ ص ٢٣٩

(٤) راجع ص ٣٠٢ من هذا الجزء .

(٣) قوله « نَحْشُرُهُمْ ، نقول » بالنون قراءة نافع .

أستفهام ؛ كقوله عز وجل لعيسى : « أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ » .
 قال النحاس : فالمعنى أن الملائكة صلوات الله عليهم إذا كذبتهم كان في ذلك تبيكيت لهم ؛
 فهو أستفهام توبيخ للعابدين . (قَالُوا سُبْحَانَكَ) أى تزيها لك . (أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ)
 أى أنت ربنا الذى نتولاه ونطيعه ونعبده ونُخلص فى العبادة له . (بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ)
 أى يطيعون إبليس وأعوانه . وفى التفاسير : أن حياً يقال لهم بنو مَلِيح من خزاعة كانوا يعبدون
 الجن ، ويزعمون أن الجن تترامى لهم ، وأنهم ملائكة ، وأنهم بنات الله ؛ وهو قوله : « وَجَعَلُوا
 بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا » .

قوله تعالى : فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا
 وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : (فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا) أى شفاعة ونجاة . (وَلَا ضَرًّا)
 أى عذاباً وهلاكاً . وقيل : أى لا تملك الملائكة دفع ضرر عن عابديهم ؛ فحذف المضاف .
 (وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ) يجوز أن يقول الله لهم
 أو الملائكة : ذوقوا .

قوله تعالى : وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا
 إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا
 إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرَى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا
 إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : (وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ) يعنى القرآن . (قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ)
 يعنون محمداً صلى الله عليه وسلم . (يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ) أى أسلافكم من

الآلهة التي كانوا يعبدونها . (وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرَى) يعنون القرآن ؛ أى ما هو إلا كذب مختلق . (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ) فتارة قالوا سحر ، وتارة قالوا إفاك . ويحتمل أن يكون منهم من قال سحر ومنهم من قال إفاك .

قوله تعالى : وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعَشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : (وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا) أى لم يقرءوا فى كتاب أو توه بطلان ما جئت به ، ولا سمعوه من رسول بعث إليهم ، كما قال : « أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون » (١) فليس لتكذيبهم وجه يشبث به ولا شبهة متعلق كما يقول أهل الكتاب وإن كانوا مبطلين : نحن أهل كتاب وشرائع ومستندون إلى رسل من رسل الله ، ثم توعدهم على تكذيبهم بقوله الحق : (وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) أى كذب قبلهم أقوام كانوا أشد من هؤلاء بطشا وأكثر أموالا وأولادا وأوسع عيشا ، فأهلكتهم كشمود وعاد . (وَمَا بَلَّغُوا) أى ما بلغ أهل مكة (مَعَشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ) تلك الأمم . والمعشار والعشر سواء ، لغتان . وقيل : المعشار عشر العشر . الجوهرى : ومعشار الشيء عشره ، ولا يقوون هذا فى شيء سوى العشر . وقيل : ما بلغ الذين من قبلهم معشار شكر ما أعطيناهم ؛ حكاة النقاش . وقيل : ما أعطى الله تعالى من قبلهم معشار ما أعطاهم من العلم والبيان والحجة والبرهان . قال ابن عباس : فليس أمة أعلم من أمته ، ولا كتاب أئين من كتابه . وقيل : المعشار هو عشر العشير ، والعشير هو عشر العشر فيكون جزءا من ألف جزء . الماوردى : وهو الأظهر ، لأن المراد به المبالغة فى التقليل . (فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) أى عقابى فى الأمم ، وفيه محذوف وتقديره : فأهلكناهم فكيف كان نكيرى .

قوله تعالى : **قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُ بِوَاحِدَةٍ** ^ط **أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفِرَادَى**
ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ^ج **إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيِ**
عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : **(قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُ بِوَاحِدَةٍ)** تتم الحجة على المشركين ؛ أى قل لهم يا محمد : **(إِنَّمَا أَعْظُمُ)** أى اذكركم واحذركم سوء عاقبة ما أتم فيه . **(بِوَاحِدَةٍ)** أى بكلمة واحدة مشتملة على جميع الكلام ، تقتضى نفي الشرك وإثبات الإله . قال مجاهد : هى لا إله إلا الله ؛ وهذا قول ابن عباس والسدى . وعن مجاهد أيضا : بطاعة الله . وقيل : بالقرآن ؛ لأنه يجمع كل المواعظ . وقيل : تقديره بخصلة واحدة ، ثم بينها بقوله : **(أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفِرَادَى)** فتكون « أَنْ » فى موضع خفض على البدل من « وَاحِدَةٍ » ، أو فى موضع رفع على إضمار مبتدأ ، أى هى أن تقوموا . ومذهب الزجاج أنها فى موضع نصب بمعنى لأن تقوموا . وهذا القيام معناه القيام إلى طلب الحق لا القيام الذى هو ضد القعود ، وهو كما يقال : قام فلان بأمر كذا ؛ أى لوجه الله والتقرب إليه . وكما قال تعالى : **(وَأَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ أُمَّمًا بِالْقِسْطِ)** ^(١) . **(مِثْلِي وَفِرَادَى)** أى وحدانا ومجتمعين ؛ قاله السدى . وقيل : منفردا برأيه ومشاورا لغيره ، وهذا قول مائور . وقال القتيبي : مناظرا مع غيره ومفكرا فى نفسه ، وكله متقارب . ويحتمل رابعا أن المثنى عمل النهار والفرادى عمل الليل ، لأنه فى النهار معان وفى الليل وحيد ، قاله الماوردى . وقيل : إنما قال : **(مِثْلِي وَفِرَادَى)** لأن الذهن حجة الله على العباد وهو العقل ، فأوفرهم عقلا أوفرهم حظا من الله ، فإذا كانوا فرادى كانت فكرة واحدة ، وإذا كانوا مثنى تقابل الذهنان فترأى من العلم لهما ما أضعف على الانفراد ؛ والله أعلم . **(ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ)** الوقف عند أبي حاتم وابن الأنبارى على **(ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا)** . وقيل : ليس هو بوقف ، لأن المعنى : ثم لتفكروا هل جربتم على صاحبكم كذبا ، أو رأيتم فيه جنة ، أو فى أحواله من

فساد ، أو اختلف إلى أحد من يدعى العلم بالسحر ، أو تعلم الأفاصيص وقرأ الكتب ، أو عرفتموه بالطمع في أموالكم ، أو تقدرون على معارضته في سورة واحدة ؛ فإذا عرفتم بهذا الفكر صدقه فما بال هذه المعاندة . (**إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**) وفي صحيح مسلم عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية « **وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ** » ورهطك منهم ^(١) المخلصين « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا فهتف : يا صباحاه ؟ فقالوا : من هذا الذي يهتف ! ؟ قالوا عهد ؛ فاجتمعوا إليه فقال : « يا بني فلان يا بني فلان يا بني عبدمناف يا بني عبدالمطلب — فاجتمعوا إليه فقال — أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي » ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذبا . قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » . قال فقال أبو لهب : تبأ لك ! أما جمعتنا إلا لهذا ؟ ثم قال فنزلت هذه السورة : « **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ** » ^(٢) كذا قرأ الأعمش إلى آخر السورة .

قوله تعالى : **قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ** ^ط **إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ^ط ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : (**قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ**) أى جعل على تبليغ الرسالة (**فَهُوَ لَكُمْ**) أى ذلك الجعل لكم إن كنت سألتموه (**إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**) أى رقيب وعالم وحاضر لأعمالى وأعمالكم ، لا يخفى عليه شيء فهو يجازى الجميع .

قوله تعالى : **قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَمُ الْغُيُوبِ** ^ط ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : (**قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ**) أى بين الحجة ويظهرها . قال قتادة : بالحق بالوحى . وعنه : الحق القرآن . وقال ابن عباس : أى يقذف الباطل بالحق علام الغيوب .

(١) قال القسطلانى فى قوله « ورهطك منهم المخلصين » : هو من عطف الخاص على العام ، وكان قرآنا فنسخت تلاوته . (٢) قوله : « يا صباحاه » بسكون الهاء ، وهى كلمة يقولها المنفيث ؛ وأصلها إذا صاحوا للغارة لأنهم أكثر ما كانوا يغيرون عند الصباح ، ويسمون الغارة يوم الصباح . (٣) راجع ج ٢٠ ص ٢٢٤ .

وقرأ عيسى بن عمر « عَلَامَ الْغُيُوبِ » على أنه بدل، أى قل إن ربي علام الغيوب يقذف بالحق . قال الزجاج . والرفع من وجهين على الموضع ، لأن الموضع موضع رفع ، أو على البدل مما في يقذف . النحاس : وفي الرفع وجهان آخران : يكون خبرا بعد خبر، ويكون على إضمار مبتدأ . وزعم الفراء أن الرفع في مثل هذا أكثر في كلام العرب إذا أتى بعد خبر « إن » ومثله « إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ » وقرئ : « الْغُيُوبُ » بالحركات الثلاث ، فالغُيُوب كالبيوت ، والغُيُوب كالصبور، وهو الأمر الذى غاب وخفى جدا .

قوله تعالى : قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : (قُلْ جَاءَ الْحَقُّ) قال سعيد عن قتادة : يريد القرآن . النحاس : والتقدير جاء صاحب الحق ؛ أى الكتاب الذى فيه البراهين والحجج . (وَمَا يُبَدِيُ الْبَاطِلُ) قال قتادة : الشيطان ؛ أى ما يخلق الشيطان أحدا . (وَمَا يُعِيدُ) فـ « ما » نفي . ويجوز أن يكون استفهاما بمعنى أى شيء ؛ أى جاء الحق فأى شيء بقى للباطل حتى يعيده ويبدئه ؛ أى فلم يبق منه شيء ، كقوله : « فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ » (٣) أى لا ترى .

قوله تعالى : قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحَىٰ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : (قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي) وذلك أن الكفار قالوا تركت دين آبائك فضلت . فقال له : قل يا محمد إن ضللت كما تزعمون وإنما أضل على نفسي . وقراءة العامة « ضَلَلْتُ » بفتح اللام . وقرأ يحيى بن وثاب وغيره : « قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ » بكسر اللام وفتح الضاد من « أَضِلُّ » ، والضلال والضلالة ضد الرشاد . وقد ضللت (بفتح اللام) أضل

(١) راجع ج ١٥ ص ٢٢٥ . (٢) عبارة روح المعاني : « ... الغيوب (بالكسر) كالبيوت » .
عبارة البحر : « ... أما الضم فجمع غيب ، وأما الكسر فكذلك استعملوا ضمينا والواو فكسروا لتناسب الكسر مع الياء والضممة التي على الياء مع الواو ، وأما الفتح فمفعول للبانة كالصبور » .

(٣) راجع ج ١٨ ص ٢١٦ .

(بكسر الضاد)، قال الله تعالى : « قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي » فهذه لغة نجد وهي الفصيحة . وأهل العالية يقولون « ضَلَّلت » بالكسر « أَضِلُّ » ، أى إثم ضللاتى على نفسى . ﴿ وَإِنْ أَهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحَىٰ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ من الحكمة والبيان ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ أى سميع ممن دعاه قريب الإجابة . وقيل وجه النظم : قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ وَيَبَيِّنُ الْحُجَّةَ ، وضلال من ضل لا يبطل الحججة ، ولو ضللت لأضررت بنفسى ، لا أنه يبطل حجة الله ، وإذا اهتديت فذلك فضل الله إذ ثبتنى على الحججة إنه سميع قريب .

قوله تعالى : وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأَخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ

قَرِيبٍ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ ﴾ ذكر أحوال الكفار في وقت ما يضطرون فيه إلى معرفة الحق . والمعنى : لو ترى إذا فزعوا في الدنيا عند نزول الموت أو غيره من بأس الله تعالى بهم ، روى معناه عن ابن عباس . الحسن : هو فزعهم في القبور من الصيحة . وعنه أن ذلك الفزع إنما هو إذا خرجوا من قبورهم ، وقاله قتادة . وقال ابن مغلل : إذا عاينوا عقاب الله يوم القيامة . السدى : هو فزعهم يوم بدر حين ضربت أعناقهم بسيف الملائكة فلم يستطيعوا فرارا ولا رجوعا إلى التوبة . سعيد بن جبیر : هو الجيش الذى يخسف بهم في البيداء فيبقى منهم رجل فيخبر الناس بما لقي أصحابه فيفزعون ، فهذا هو فزعهم . ﴿ فَلَا فَوْتَ ﴾ فلا نجاة ، قاله ابن عباس . مجاهد : فلا مهرب . ﴿ وَأَخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ أى من القبور . وقيل : من حيث كانوا ، فهم من الله قريب لا يعزبون عنه ولا يفوتونه . وقال ابن عباس : نزلت في ثمانين ألفا يغزون في آخر الزمان الكعبة ليخربوها ، وكلما يدخلون البيداء يخسف بهم ، فهو الأخذ من مكان قريب .

قلت : وفي هذا المعنى خبر مرفوع عن حذيفة وقد ذكرناه في كتاب التذكرة ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — وذكر فتنة تكون بين أهل المشرق والمغرب — : « فيبيناهم

(١) في مختار الصحاح : « بالكسر فيهما » والذى فى اللسان : « ضللت بالكسر أضل » .

كذلك إذ خرج عليهم السفيناني من الوادي اليابس في فورة ذلك حتى ينزل دمشق فيبعث جيشين ، جيشا إلى المشرق ، وجيشا إلى المدينة ، فيسير الجيش نحو المشرق حتى ينزلوا بأرض بابل في المدينة الملعونة والبقعة الخبيثة — يعني مدينة بغداد ، قال — فيقتلون أكثر من ثلاثة آلاف ويفتضون أكثر من مائة امرأة ويقتلون بها ثلاثمائة كبش^(١) من ولد العباس ، ثم يخرجون متوجهين إلى الشام فتخرج راية هدى من الكوفة فتلحق ذلك الجيش منها على ليتين فيقتلونهم لا يفلت منهم مخبر ويستنقذون ما في أيديهم من السبي والغنائم ويحلّ جيشه الثاني بالمدينة فينتهبونها ثلاثة أيام ولياليها ثم يخرجون متوجهين إلى مكة حتى إذا كانوا بالبيداء بعث الله جبريل عليه السلام فيقول يا جبريل أذهب فأبدهم فيضربها برجله ضربة ينحسف الله بهم ، وذلك قوله تعالى : «وَأَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزَعُوا فَلَآ قُوَّةَ وَأَخَذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ» فلا يبقى منهم إلا رجلان أحدهما بشير والآخر نذير وهما من جهينة ، ولذلك جاء القول : وعند جهينة الخبر اليقين . وقيل : «أَخَذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ» أي قبضت أرواحهم في أماكنها فلم يمكنهم الفرار من الموت ، وهذا على قول من يقول : هذا الفزع عند النزاع . ويحتمل أن يكون هذا من الفزع الذي هو بمعنى الإجابة ، يقال : فزع الرجل أي أجاب الصارخ الذي يستغيث به إذا نزل به خوف . ومنه الخبر إذا قال للأنصار : «إِنَّكُمْ لَتَقْلُونَ عِنْدَ الطَّمَعِ وَتَكْثُرُونَ عِنْدَ الْفَزَعِ» . ومن قال : أراد الخسف أو القتل في الدنيا كيوم بدر قال : أخذوا في الدنيا قبل أن يؤخذوا في الآخرة . ومن قال : هو فزع يوم القيامة قال : أخذوا من بطن الأرض إلى ظهرها . وقيل : «أَخَذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ» من جهنم فألقوا فيها . قوله تعالى : وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاطُوشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ قوله تعالى : (وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ) أي بالقرآن . وقال مجاهد : بالله عز وجل . الحسن : بالبعث . قتادة : بالرسول صلى الله عليه وسلم . (وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاطُوشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ) قال

(١) كبش القوم : رئيسهم ، وسبدهم ، وحاميتهم ، والمنظور إليه فيهم . (٢) في كتاب التذكرة «على مياين» .

ابن عباس والضحاك : التناوش الرجعة ؛ أى يطلبون الرجعة إلى الدنيا ليؤمنوا ، وهيهات من ذلك ! ومنه قول الشاعر :

تمنى أن تنوب إلى مَمَى * وليس إلى تناوشها سبيل

وقال السدي : هى التوبة ؛ أى طلبوها وقد بعدت ، لأنه إنما تقبل التوبة فى الدنيا . وقيل : التناوش التناول ؛ قال ابن السكيت : يقال للرجل إذا تناول رجلا ليأخذ برأسه ولحيته : ناشه ينوشه نَوْشًا . وأنشد :

(١)

فهى تنوش الحوض نَوْشًا من علًا * نَوْشًا به تقطع أجواز الفلا

أى لتناول ماء الحوض من فوق وتشرب شربا كثيرا ، وتقطع بذلك الشرب فلوأت فلا تحتاج إلى ماء آخر . قال : ومنه المناوشة فى القتال ؛ وذلك إذا تدانى الفريقان . ورجل نَوْش أى ذوبطش . والتناوش . تناول : والانتياش مثله . قال الراجز :

* كانت تنوش العنق انتياشا *

قوله تعالى : ﴿ وَأَنى لَّهُمُ التَّنَاضُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ يقول : أنى لهم تناول الإيمان فى الآخرة وقد كفروا فى الدنيا . وقرأ أبو عمرو والكسائى والأعمش وحزرة : « وأنى لهم التناؤش » بالهمز . النحاس : وأبو عبيدة يستبعد هذه القراءة ؛ لأن « التناؤش » بالهمز البعد ، فكيف يكون : وأنى لهم البعد من مكان بعيد . قال أبو جعفر : والقراءة جائزة حسنة ، ولها وجهان فى كلام العرب ، ولا يتأول بها هذا المتأول البعيد . فأحد الوجهين أن يكون الأصل غير مهموز ، ثم همزت الواو لأن الحركة فيها خفية ، وذلك كثير فى كلام العرب . وفى المصحف الذى نقلته الجماعة عن الجماعة « وَإِذَا الرُّسُلُ أُقْتَّتْ^(٢) » والأصل « وَقَتَّتْ » لأنه مشتق من الوقت . ويقال فى جمع دار : أدؤر . والوجه الآخر ذكره أبو إسحاق قال : يكون مشتقا من البئيش وهو الحركة فى إبطاء ؛ أى من أين لهم الحركة فيما قد بعد ، يقال : ناشت الشيء أخذته

(١) البيت لغيلان بن حريث : والضمير فى قوله « فهى » الإبل . وتنوش الحوض : تناول ملاءه . وقوله : « من علا » أن من فوق . يريد أنها عالية الأجسام طوال الأعناق ؛ وذلك النوش الذى تناه هو الذى يعينها على قطع الفلوات . والأجواز : جمع جوز وهو الوسط . (٢) راجع ج ١٩ ص ١٥٥ .

من بُعد والتيش : الشيء البطيء . قال الجوهري : التناؤش (بالهمز) التأخر والتباعد .
وقد نأشت الأمر أناشيه نأشا أحرته ؛ فانتأش . ويقال : فعله نئيشا أى أخيرا .
قال الشاعر :

تمتني نئيشا أن يكون أطاعني * وقد حدثت بعد الأمور أمور^(١)

وقال آخر :

قعدت زمانا عن طلابك للعلا * وجئت نئيشا بعد ما فاتك الخبير^(٢)

وقال الفراء : الهمز وترك الهمز في التناؤش متقارب ؛ مثل : ذممت الرجل وذأمنته أى عينه .
(مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ) أى من الآخرة . وروى أبو إسحاق عن التميمي عن ابن عباس قال :
« وأنى لهم » قال : الرد ، سألوه وليس بحين رد .

قوله تعالى : وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ

بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : (وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ) أى بالله عز وجل . وقيل : بحمد (مِنْ قَبْلُ)
يعنى في الدنيا . (وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ) العرب تقول لكل من تكلم بما لا يحقه : هو يقذف^(٤)
ويرجم بالغيب . (مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ) على جهة التمثيل لمن يرحم ولا يصيب ، أى يرمون بالظن
فيقولون : لا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار ، رجما منهم بالظن ؛ قاله قتادة . وقيل :
« يقذفون » أى يرمون في القرآن فيقولون : سحر وشعر وأساطير الأوائل . وقيل : في عهد
فيقولون ساحر شاعر كاهن مجنون . (مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ) أى إن الله بعد لهم أن يعلموا
صدق عهد . وقيل : أراد البعد عن القلب ، أى من مكان بعيد عن قلوبهم . وقرا مجاهد
« وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ » غير مسمى الفاعل ، أى يُرُونَ بِهِ . وقيل : يقذف به إليهم من
ينغيهم ويضلهم .

(١) في اللسان مادة نأش : « ويحدث من بعد ... » . (٢) في ش ، ك : « الخبير » بالياء المنناة .

(٣) في اللسان : ذامه يذمه ذميا وذا ما عابه ، وذمته أذميه وأذنته وذمته ، كنه بمعنى .

(٤) حق الأمر بحقه وأحقه : كان منه على يقين .

قوله تعالى : وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ
مَنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : (وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ) قيل : حيل بينهم وبين النجاة من
العذاب . وقيل : حيل بينهم وبين ما يشتهون في الدنيا من أموالهم وأهلهم . ومذهب قتادة
أن المعنى أنهم كانوا يشتهون لما رأوا العذاب أن يقبل منهم أن يطيعوا الله جل وعز وينتموا
إلى ما يأمرهم به الله فحيل بينهم وبين ذلك ؛ لأن ذلك إنما كان في الدنيا وقد زالت في ذلك
الوقت . والأصل « حُول » فقلبت حركة الواو على الحاء فانقلبت ياء ثم حذفت حركتها
لثقلها . (كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ) الأشياء جمع شَيْع ، وشَيْع جمع شَيْعة . (مَنْ قَبْلُ) أى بمن
مضى من القرون السالفة الكافرة . (إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ) أى من أمر الرسل والبعث والجنة
والنار . وقيل : فى الدين والتوحيد ، والمعنى واحد . (مُرِيبٌ) أى يستراب به ، يقال :
أراب الرجل أى صار ذا ريبة ، فهو مرِيب . ومن قال هو من الريب الذى هو الشك
والتهمة قال : يقال شكٌ مرِيبٌ ؛ كما يقال : عجبٌ عجيبٌ وشعرٌ شاعرٌ ؛ فى التأكيد .

ختمت السورة ، والحمد لله رب العالمين .

سورة فاطر

مكية فى قول الجميع ، وهى خمس وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئِكَةِ رُسُلًا أُولِي
أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلُثَ وَرُبْعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾

قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يجوز في « فاطر » ثلاثة أوجه :
 الخفض على النعت ، والرفع على إضمار مبتدأ ، والنصب على المدح . وحكى سيبويه : الحمد لله
 أهل الحمد [مثله ^(١)] وكذا « جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ » . والفاطر : الخالق . وقد مضى في « يوصف »
 وغيرها . والقَطْر . الشق عن الشيء ؛ يقال : فطرته فأفطر . ومنه : فَطَرُ نَابِ البعير طلع ،
 فهو بعير فاطر . وتفطر الشيء تشقق . وسيف فُطَار ، أى فيه تشقق . قال عنترة :
 وسيفي كالعقبة فهو كعبي * سلاحى لا أفَلَّ ولا فُطَاراً ^(٢)

والفطر : الابتداء والاختراع . قال ابن عباس : كنت لا أدري ما « فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ »
 حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، أى أنا ابتدأتها . والقَطْر .
 حلب الناقة بالسبابة والإبهام . والمراد بذكر السموات والأرض العالم كله ، ونبه بهذا على أن
 من قدر على الابتداء قادر على الإعادة . ﴿ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ ﴾ لا يجوز فيه التنوين ، لأنه لما
 مضى . ﴿ رُسُلًا ﴾ مفعول ثان ، ويقال على إضمار فعل ؛ لأن « فاعلا » إذا كان لما مضى
 لم يعمل فيه شيئا ، وإعماله على أنه مستقبل حذف التنوين منه تخفيفا . وقرأ الضحاك
 « الحمد لله فطر السموات والأرض » على الفعل الماضي . « جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا » الرسل
 منهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ، صلى الله عليهم أجمعين . وقرأ الحسن :
 « جَاعِلُ الْمَلَائِكَةِ » بالرفع . وقرأ خُليد بن نسيط « جعل الملائكة » وكله ظاهر . ﴿ أُولِي
 أجنحة ﴾ نعت ، أى أصحاب أجنحة . ﴿ ثِنْتِي وَثَلَاثَ وَرُبَاعًا ﴾ ^(٣) أى اثنين اثنين ، وثلاثة
 ثلاثة ، وأربعة أربعة . قال قتادة : بعضهم له جناحان ، وبعضهم ثلاثة ، وبعضهم أربعة ؛
 ينزلون بها من السماء إلى الأرض ، ويعرجون من الأرض إلى السماء ، وهى مسيرة كذا فى وقت
 واحد ، أى جعلهم رسلا . قال يحيى بن سلام : إلى الأنبياء . وقال السدى : إلى العباد
 برحمة أو نقمة . وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل عليه

(١) زيادة عن كتاب النحاس يقتضيا السياق . (٢) راجع ج ٩ ص ٢٧٩ ، ج ٦ ص ٣٩٧

(٣) عقيقة البرق : شماعه . والكعب (بكسر فسكون) والكعبج : الضجيج . (٤) فى كتاب البحر : « وفيل

أول أجنحة » معترض ، و« ثنيتي » حال ، والعامل فعل محذوف يدل عليه « رسلا » ؛ أى يرسلون ثنيتي وثلاث ورباع .

السلام له ستمائة جناح . وعن الزهري أن جبريل عليه السلام قال له : " يا محمد ، لو رأيت إسرافيل إن له لاثني عشر ألف جناح منها جناح بالمشرق وجناح بالمغرب وإن العرش لعل كاهله وإنه في الأحايين ليتضاءل لعظمة الله حتى يعود مثل الوصع — والوصع عصفور صغير — حتى ما يجعل عرش ربك إلا عظمته " . و « أولو » امم جمع لذو ، كما أن هؤلاء اسم جمع لذا ، ونظيرهما في المتمكنة : المحاض والخليفة . وقد مضى الكلام في « مثنى وثلاث ورباع » في « النساء » وأنه غير منصرف . (١) « يزيد في الخلق ما يشاء » أي في خلق الملائكة ، في قول أكثر المفسرين ؛ ذكره المهدوي . وقال الحسن : « يزيد في الخلق » أي في أجنحة الملائكة ما يشاء . وقال الزهري وابن جريح : يعني حسن الصوت . وقد مضى القول فيه في مقدمة الكتاب . (٢) وقال الهيثم الفارسي : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في منامي ، فقال : " أنت الهيثم الذي تُزين القرآن بصوتك جزاك الله خيرا " . وقال قتادة : « يزيد في الخلق ما يشاء » الملاحاة في العينين والحسن في الأنف والحلاوة في الفم . وقيل : الخط الحسن . وقال مهاجر الكلابي قال النبي صلى الله عليه وسلم : " الخط الحسن يزيد الكلام وضوحا " . وقيل : الوجه الحسن . وقيل في الخبر في هذه الآية : هو الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن ؛ ذكره القشيري . النقاش : هو الشعر الجعد . وقيل : العقل والتمييز . وقيل : العلوم والصنائع . (٣) « إن الله على كل شيء قدير » من النقصان والزيادة . الزمخشري : والآية مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق ؛ من طول قامته ، واعتدال صورته ، وتمام في الأعضاء ، وقوة في البطش ، وحصافة في العقل ، وجرأة في الرأي ، وجرأة في القلب ، وسماحة في النفس ، وذلاقة في اللسان ، ولباقة في التكلم ، وحسن تأت في مزاولة الأمور ؛ وما أشبه ذلك مما لا يحيط به وصف .

(١) المحاض : الحوامل من النوق ، واحدها خلفه على غير قياس ولا واحدها من لفظها ؛ كما قالوا لواحدة

النساء : امرأة ، ولواحدة الإبل : ناقة أو بعير . (٢) راجع ج ٥ ص ١٥ فابعد .

(٣) راجع (باب كيفية التلاوة لكاتب الله تعالى) . (٤) ما فيه التواء وتقبض . أو القصير منه .

(٥) تأتي فلان لحاجته : إذا ترق لها وأتاها من وجهها .

قوله تعالى : مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا
وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : (مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا) وأجاز النحويون في غير القرآن « فلا ممسك له » على لفظ « ما » و « لها » على المعنى . وأجازوا « وما يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهَا » . وأجازوا « ما يفتح الله للناس من رحمة » (بالرفع) تكون « ما » بمعنى الذي . أى إن الرسل بعثوا رحمة للناس فلا يقدر على إرسالهم غير الله . وقيل : ما يأتيهم به الله من مطر أو رزق فلا يقدر أحد أن يمسه ، وما يمسه من ذلك فلا يقدر أحد على أن يرسله . وقيل : هو الدعاء ؛ قاله الضحاك . ابن عباس : من توبة . وقيل : من توفيق وهداية . قلت : ولفظ الرحمة يجمع ذلك ؛ إذ هي منكرة للإشاعة والإبهام ، فهي متناولة لكل رحمة على البديل ، فهو عام في جميع ما ذكر . وفي موطأ مالك : أنه بلغه أن أبا هريرة كان يقول إذا أصبح وقد مطر الناس : مطرنا بنوء الفتح ، ثم يتلو هذه الآية « مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا » . (وهو العزيز الحكيم) تقدم .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ أذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآئِنِ
تُؤْفِكُونَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ) معنى هذا الذكر الشكر . (هل من خالق غير الله) يجوز في « غير » الرفع والنصب والحذف ، فالرفع من وجهين : أحدهما — بمعنى هل من خالق إلا الله ؛ بمعنى ما خالق إلا الله . والوجه الثاني — أن يكون نعناً على الموضوع ؛ لأن المعنى : هل خالق غير الله ، و « من » زائدة . والنصب على الاستثناء .

(١) راجع ج ٢ ص ١٣١ .

(٢) في ش ، وك . « يجوز في القرآن الرفع ... » الخ وفي ح : « في غير القرآن » .

والخلفض على اللفظ . قال حميد الطويل : قلت للحسن : من خلق الشر ؟ فقال سبحانه الله ! هل من خالق غير الله جل وعز ، خلق الخير والشر . وقرا حمزة والكسائي : « هَلْ مِنْ خَالِقِ غَيْرِ اللَّهِ » بالخلفض . الباقون بالرفع . ﴿ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى المطر . ﴿ وَالْأَرْضِ ﴾ أى النبات . ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَإِنِّي تُؤْفِكُونَ ﴾ من الأفك (بالفتح) وهو الصرف ؛ يقال : ما أفكك عن كذا ، أى ما صرفك عنه . وقيل : من الإفك (بالكسر) وهو الكذب ، ويرجع هذا أيضا إلى ما تقدم ؛ لأنه قول معروف عن الصدق والصواب ، أى من أين يقع لكم التكذيب بتوحيد الله . والآية حجة على القدرية لأنه نفى خالقا غير الله وهم يثبتون معه خالقين ، على ما تقدم فى غير موضع .

قوله تعالى : وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ

تَرْجِعُ الْأُمُورُ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ ﴾ يعنى كفار قريش . ﴿ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ يعزى نبيه ويسلمه صلى الله عليه وسلم ؛ وليناسى بن قبله فى الصبر . ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ ﴾ قرا الحسن والأعرج ويعقوب وابن عامر وأبو حيوة وابن محيصة وحيد والأعمش وحمزة ويحيى والكسائي وخلف (بفتح التاء) على أنه مسمى الفاعل . وأختره أبو عبيد لقوله تعالى : « ^{ألا} إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ » الباقون « تَرْجِعُ » على الفعل المجهول .

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ

الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ هذا وعظ للمكذبين للرسول بعد إيضاح الدليل على صحة قوله : إن البعث والثواب والعقاب حق . ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ قال سعيد بن جبیر : غرور الحياة الدنيا أن يشتغل الإنسان بنعيمها ولذاتها عن عمل الآخرة ،

حتى يقول : يا ليتني قدمت لحياتي . ﴿ وَلَا يَغْرُنْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ قال ابن السكيت وأبو حاتم : « الغرور » الشيطان . وغرور جمع غرّة ، وغرّ مصدر . ويكون « الغرور » مصدرا وهو بعيد عند غير أبي إسحاق ؛ لأن « غرّته » متعدّ ، والمصدر المتعدّي إنّما هو على فعل ؛ نحو : ضربته ضربا ، إلا في أشياء يسيرة لا يقاس عليها ؛ قالوا : لزمته لزوما ، ونهكه المرض نهوكا . فأما معنى الحرف فأحسن ما قيل فيه ما قاله سعيد بن جبير ، قال : الغرور بالله أن يكون الإنسان يعمل بالمعاصي ثم يتمنى على الله المغفرة . وقراءة العامة « الغرور » (بفتح الغين) وهو الشيطان ؛ أي لا يغرنكم بوساوسه في أنه يتجاوز عنكم لفضلكم . وقرأ أبو حيوة وأبو السّمال العدويّ ومحمد بن السّمّيع « الغرور » (برفع الغين) وهو الباطل ؛ أي لا يغرنكم الباطل . وقال ابن السكيت : والغرور (بالضم) ما اغترّ به من متاع الدنيا . قال الزجاج : ويجوز أن يكون الغرور جمع غاز ؛ مثل قاعد وقعود . النحاس : أو جمع غرّ ، أو يُشبهه بقولهم : نهكه المرض نهوكا ولزمه لزوما . الزمخشريّ : أو مصدر « غره » كاللزم والنهوك .

قوله تعالى : إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦٦﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ أي فعادوه ولا تطيعوه . ويدلّكم على عداوته إخراجهم أباكم من الجنة ، وضمانه إضلالكم في قوله : « وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا مَنِينَهُمْ » الآية . وقوله : « لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ . ثُمَّ لَا تَجِدُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ » الآية . فأخبرنا جل وعز أن الشيطان لنا عدو مبین ، واقتصص علينا قصته ، وما فعل بأبينا آدم صلى الله عليه وسلم ، وكيف أنتدب لعداوتنا وغرورنا من قبل وجودنا وبعده ، ونحن على ذلك نتولاه ونطيعه فيما يريد منا مما فيه هلاكنا . وكان الفضيل بن عياض يقول : يا كذاب

(١) راجع ج ٥ ص ٣٨٨ فابعد .

(٢) راجع ج ٧ ص ١٧٤ .

يا مُفْتَرٍ ، أتق الله ولا تُسَبِّبِ الشَّيْطَانَ فِي الْعَلَانِيَةِ وَأَنْتَ صَدِيقُهُ فِي السِّرِّ . وقال ابن السَّمَاكِ :
يا عَجَبًا لِمَنْ عَصَى الْمُحْسِنَ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ بِإِحْسَانِهِ ! وَأَطَاعَ اللَّعِينَ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ بِعِدَاوَتِهِ ! وقد مضى
هذا المعنى في « البقرة » مجوداً . و « عَدُوٌّ » في قوله : « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ » يجوز أن
يكون بمعنى معادٍ ، فيثني ويجمع ويؤنث . ويكون بمعنى النسب فيكون موحداً بكل حال ؛
كما قال جل وعز : « فَأَنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي » . وفي المؤنث على هذا أيضاً عدو . النحاس : فأما
قول بعض النحويين إن الواو خفية بفاءوا بالهاء خطأ ، بل الواو حرف جلد . (إِنَّمَا يَدْعُو
حِزْبَهُ) كَقَوْلِ « مَا » « إِنْ » عن العمل فوقع بعدها الفعل . (حِزْبُهُ) أى أشياعه .
(لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ) فهذه عداوته . (الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ) يكون
« الَّذِينَ » بدلا « مِنْ أَصْحَابِ » فيكون في موضع خفض ، أو يكون بدلا من « حِزْبِهِ »
فيكون في موضع نصب ، أو يكون بدلا من الواو فيكون في موضع رفع . وقول رابع وهو
أحسنها - يكون في موضع رفع بالابتداء ويكون خبره « لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ » ؛ وكأنه سبحانه
بين حال موافقته ومخالفته ، ويكون الكلام قد تم في قوله : « مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ » ثم ابتداء
فقال : « الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ » . (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) في موضع
رفع بالابتداء أيضا ، وخبره (لَهُمْ مَغْفِرَةٌ) أى لذنوبهم . (وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) وهو الجنة .

قوله تعالى : أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ
مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ
عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾

قوله تعالى : (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ) « مَنْ » في موضع رفع بالابتداء ، وخبره
محذوف . قال الكسائي : والذي يدل عليه قوله تعالى : « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ »
فالمعنى : أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ذهب نفسك عليهم حسرات . قال : وهذا كلام

عربي طريف لا يعرفه إلا قليل . وذكره الزمخشري عن الزجاج . قال النحاس : والذي قاله الكسائي أحسن ما قيل في الآية ، لما ذكره من الدلالة على المحذوف ، والمعنى أن الله جل وعز نهى نبيه عن شدة الاغتمام بهم والحزن عليهم ، كما قال جل وعز : « فَلَمَّا كَانَ بَاخِعٌ ^(١) نَفْسِكَ » قال أهل التفسير : قاتل . قال نصر بن علي : سألت الأصمعي عن قول النبي صلى الله عليه وسلم في أهل اليمن : « هم أرقُّ قلوباً وأبجع طاعةً » ما معنى أبجع ؟ فقال : أنصح . فقلت له : إن أهل التفسير مجاهداً وغيره يقولون في قول الله عز وجل : « لَعَلَّكَ بَاخِعٌ ^(٢) نَفْسِكَ » : معناه قاتل نفسك . فقال : هو من ذلك بعينه ، كأنه من شدة النصيحة لهم قاتل نفسه . وقال الحسين بن الفضل : فيه تقديم وتأخير ، مجازه : أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء . وقيل : الجواب محذوف ، المعنى أفمن زين له سوء عمله كمن هدى ، ويكون يدل على هذا المحذوف « فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » . وقرأ يزيد بن القعقاع : « فَلَا تُذْهِبْ نَفْسَكَ » وفي « أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ » أربعة أقوال ، أحدها — أنهم اليهود والنصارى والمجوس ؛ قاله أبو قلابة . ويكون « سُوءُ عَمَلِهِ » معاندة الرسول عليه الصلاة والسلام . الثاني — أنهم الخوارج ؛ رواه عمر بن القاسم . فيكون « سُوءُ عَمَلِهِ » تحريف التأويل . الثالث — الشيطان ؛ قاله الحسن . ويكون « سُوءُ عَمَلِهِ » الإغواء . الرابع — كفار قريش ؛ قاله الكلبي . ويكون « سُوءُ عَمَلِهِ » الشرك . وقال : إنها نزلت في العاص بن وائل السهمي والأسود بن المطلب . وقال غيره : نزلت في أبي جهل بن هشام . (فرآه حسناً) أى صواباً ؛ قاله الكلبي . وقيل : جميلاً .

قلت : والقول بأن المراد كفار قريش أظهر الأقوال ؛ لقوله تعالى : « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ » ، وقوله : « وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ » ، وقوله : « فَلَمَّا كَانَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَى أَنْبَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » ، وقوله : « لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » ،

(١) راجع ج ١٠ ص ٣٥٣ . (٢) راجع ج ٣ ص ٣٢٧ . (٣) راجع ج ٤ ص ٢٨٤ .

(٤) راجع ج ١٣ ص ٨٧ فبا به .

وقوله في هذه الآية : « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ » . وهذا ظاهر بين ، أى لا ينفك
تأسفك على مقامهم على كفرهم ، فإن الله أضلهم . وهذه الآية ترد على القدرية قولهم على
ما تقدم ؛ أى أفن زَيْن له سوء عمله فرآه حسنا تريد أن تهديه ، وإنما ذلك إلى الله لا إليك ،
والذى إليك هو التبليغ . وقرأ أبو جعفر وشيبة وابن مُحِبُّصن : « فَلَا تَذْهَبْ » بضم التاء وكسر
الماء « نَفْسُكَ » نصبا على المفعول ، والمعنيان متقاربان . « حَسْرَاتٍ » منصوب مفعول
من أجله ؛ أى فلا تذهب نفسك للحسرات . و « عَلَيْهِمْ » صلة « تذهب » ، كما تقول : هلك
عليه حبا ومات عليه حزنا . وهو بيان للتحسر عليه . ولا يجوز أن يتعلق بالحسرات ؛ لأن
المصدر لا يتقدم عليه صلته . ويجوز أن يكون حالا كأن كلها صارت حسرات لفرط التحسر ؛
كما قال جرير .

مَشَقَّ الْهَوَاجِرُ لِحْمَتَيْهِ مَعَ السَّرَى * حَتَّى ذَهَبَ كَلَّا كَلًّا وَصُدُّورًا

يريد : رجعت كَلَّا كَلًّا وصدورا ؛ أى لم يبق إلا كلالها وصدورها . ومنه قول الآخر :

فَعَلَى إِثْرِهِمْ تَسَافَطَ نَقِيصِي * حَسْرَاتٍ وَذَكَرَهُمْ لِي سَقَامِ

أو مصدرا . (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) .

قوله تعالى : وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ

مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾

قوله تعالى : (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ) مَيِّتٌ وَمَيِّتٌ

واحد ، وكذا مَيِّتَةٌ وَمَيِّتَةٌ ؛ هذا قول الحُذَّاق من النحويين . وقال محمد بن يزيد : هذا قول

البصريين ، ولم يستثن أحدا ، واستدل على ذلك بدلائل قاطعة . وأنشد :

ليس من مات فاستراح مَيِّتٌ * إنما المَيِّتُ مَيِّتُ الأحياء

إنما المَيِّتُ من يعيش كمييا * كاسفًا بالله قليل الرجاء

قال : فهل ترى بين مَيِّت ومَيِّت فرقا، وأنشد :

هَيِّنُونَ لَيِّنُونَ أَيْسَارُ بَنُو يَسَّرَ * سُؤَسَاسُ مَكْرُمَةُ أَيْسَاءُ أَيْسَارُ

قال : فقد أجمعوا على أن هَيِّنُونَ وَلَيِّنُونَ واحد ، وكذا مَيِّت ومَيِّت ، وَسَيِّد وَسَيِّد . قال :

« فَسُقْنَاهُ » بعد أن قال : « وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ » وهو من باب تلوين الخطاب .

وقال أبو عبيدة : سبيله « فَتَسْوُفُهُ » ، لأنه قال : « فَتَشِيرُ سَحَابًا » . الزمخشري : فإن قلت :

لم جاء « فتشير » على المضارعة دون ما قبله وما بعده ؟ قلت : لتحكى الحال التي تقع فيها إثارة

الرياح السحاب ، وتستحضر تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية ، وهكذا يفعلون

بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تُستغرب ، أو تهتم المخاطب أو غير ذلك ، كما قال تأبط شراً

بأنى قد لقيت الغول تهوى * بسهب كالصحيفة صحصحان^(١)

فأضربها بلا دَهِشٍ فخرت * صريعا للبيدين وللبجران^(٢)

لأنه قصد أن يصور لقومه الحالة التي تشجع فيها بزعمه على ضرب الغول ، كأنه يبصرهم إياها ،

ويطلعهم على كنهها مشاهدة للتعجب من جرأته على كل هول ، وثباته عند كل شدة . وكذلك

سوق السحاب إلى البلد الميت ، لما كانا من الدلائل على القدرة الباهرة قيل : « فسقنا »

و « أحيينا » معدولا بهما عن لفظة الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدل عليه .

وقراءة العامة « الرياح » . وقرأ ابن محيصن وابن كثير والأعمش ويحيى وحمزة والكسائي

« الريح » توحيدا . وقد مضى بيان هذه الآية والكلام فيها مستوفى . (كَذَلِكَ النُّشُورُ)^(٣)

أى كذلك نُحْيُونَ بعد ماتم ، من نشر الإنسان نشورا . فالكاف في محل الرفع ؛ أى مثل

إحياء الموت نشر الأموات . وعن أبي رزين العقيلي قال : قالت يا رسول الله ، كيف يحيى

الله الموتى ، وما آية ذلك في خلقه ؟ قال : « أما مررت بوادى أهلك مُجَلَّأً ثم مررت به

يهتز خضرا » قلت : نعم يا رسول الله . قال « فكذلك يحيى الله الموتى وتلك آيته في خلقه »

وقد ذكرنا هذا الخبر في « الأعراف »^(٤) وغيرها .

(١) السهب (بالفتح) : الفضاء المستوفى البعيد الأطراف . والصحيفة : الكتاب . والصحصحان (بالفتح) :

المسنوى من الأرض . (٢) الجران (بالكسر) : مقدم العنق من مذبح البعير إلى منحره .

(٣) راجع ج ٢ ص ١٩٨ . (٤) راجع ج ٧ ص ٢٣٠ .

قوله تعالى : مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ
الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ
لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبَوِّرُ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا) التقدير عند الفراء : من كان يريد علم العزة . وكذا قال غيره من أهل العلم . أى من كان يريد علم العزة التى لا ذلة معها ؛ لأن العزة إذا كانت تؤدى إلى ذلة فإنما هى تعرض للذلة ، والعزة التى لا ذل معها لله عز وجل . (جَمِيعًا) منصوب على الحال . وقدر الزجاج معناه : من كان يريد بعبادته الله عز وجل العزة — والعزة له سبحانه — فإن الله عز وجل يعزه فى الآخرة والدنيا .

قلت : وهذا أحسن ، وروى مرفوعا على ما يأتى . (فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا) ظاهر هذا إثناس السامعين من عزته ، وتعريفهم أن ما وجب له من ذلك لا مطمع فيه لغيره ؛ فتكون الألف واللام للعهد عند العالمين به — سبحانه — وبما وجب له من ذلك ، وهو المفهوم من قوله الحق فى سورة يونس : « وَلَا يَحْزِنَكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ » . ويحتمل أن يريد سبحانه أن ينبه ذوى الأقدار والهمم من أين تنال العزة ومن أين تستحق ؛ فتكون الألف واللام للاستغراق ، وهو المفهوم من آيات هذه السورة . فمن طلب العزة من الله وصدقته فى طلبها بآفتقار وذل ، وسكون وخضوع ، وجدها عنده — إن شاء الله — غير ممنوعة ولا محجوبة عنه ؛ قال صلى الله عليه وسلم : « من تواضع لله رفعه الله » . ومن طلبها من غيره وكَلَّه إلى من طلبها عنده . وقد ذكر قوما طلبوا العزة عند من سواه فقال : « الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْدِيَهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا » . فأنباك صريحا لا إشكال فيه أن العزة له يُعزَّبها من يشاء ويُذل من يشاء . وقال صلى الله عليه وسلم مفسرا لقوله « مَنْ كَانَ يُرِيدُ

(١) راجع ج ٨ ص ٣٥٩ .

(٢) راجع ج ٥ ص ٤١٦ فما بعد .

العِزَّةَ فَلَئِنَّ الْعِزَّةَ جَمِيعًا « : ” من أراد عز الدارين فليطع العزيز “ . وهذا معنى قول الزجاج .
ولقد أحسن من قال :

وإذا تذلت الرقاب تواضعا * منا إليك فعزها في ذلها

فمن كان يريد العزة لينال الفوز الأكبر، ويدخل دار العزة — والله العزة — فليقصد بالعزة الله سبحانه والاعتزاز به؛ فإنه من اعتر بالعبد أذله الله، ومن اعتر بالله أعزه الله .

قوله تعالى : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ فيه مسألان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ وتم الكلام . ثم ابتدئ ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ على معنى : يرفعه الله ، أو يرفع صاحبه . ويجوز أن يكون المعنى : والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب ؛ فيكون الكلام متصلا على ما يأتي بيانه . والصعود هو الحركة إلى فوق ، وهو العروج أيضا . ولا يتصور ذلك في الكلام لأنه عرض ، لكن ضرب صعوده مثلا لقبوله ؛ لأن موضع الثواب فوق ، وموضع العذاب أسفل . وقال الزجاج : يقال ارتفع الأمر إلى القاضى أى علمه ؛ فهو بمعنى العلم . وخص الكلام والطيب بالذكريان الثواب عليه . وقوله : «إِلَيْهِ» أى إلى الله يصعد . وقيل : يصعد إلى سمائه والمحل الذى لا يجرى فيه لأحد غيره حكم . وقيل : أى يحمل الكتاب الذى كتب فيه طاعات العبد إلى السماء . و«الْكَلِمُ الطَّيِّبُ» هو التوحيد الصادر عن عقيدة طيبة . وقيل : هو التمجيد والتجيد، وذكر الله ونحوه . وأنشدوا :

لا ترض من رجل حلاوة قوله * حتى يزين ما يقول فعالم

فإذا وزنت فعالمه بمقاله * فتوازننا فأحاء ذاك بحمال

وقال ابن المقفع : قول بلا عمل ، كثير يد بلا دسم ، وسحاب بلا مطر ، وقوس بلا وتر .
وفيه قيل :

لا يكون المقال إلا بفعالٍ * كل قولٍ بلا فعالٍ هباءُ

إن قولاً بلا فعالٍ جميل * ونكاحاً بلا وليٍّ سواء

وقرأ الضحاك «يُصعد» بضم الياء. وقرأ جمهور الناس «الكلم» جمع كلمة. وقرأ أبو عبد الرحمن «الكلام» .

قلت : فالكلام على هذا قد يطلق بمعنى الكلم وبالعكس ؛ وعليه يخرج قول أبي القاسم : أقسام الكلام ثلاثة ؛ فوضع الكلام موضع الكلم ، والله أعلم . (وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : المعنى والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب . وفي الحديث " لا يقبل الله قولا إلا بعمل ، ولا يقبل قولا وعملا إلا بنية ، ولا يقبل قولا وعملا ونية إلا بإصابة السنة " . قال ابن عباس : فإذا ذكر العبد الله وقال كلاما طيبا وأدى فرائضه ، ارتفع قوله مع عمله ، وإذا قال ولم يؤد فرائضه ردّ قوله على عمله . قال ابن عطية : وهذا قول يرده معتقد أهل السنة ولا يصح عن ابن عباس . والحق أن العاصي التارك للفرائض إذا ذكر الله وقال كلاما طيبا فإنه مكتوب له متقبّل منه ، وله حسناته وعليه سيئاته ، والله تعالى يتقبل من كل من أتى الشرك . وأيضا فإن الكلام الطيب عمل صالح ، وإنما يستقيم قول من يقول : إن العمل هو الرفع للكلم ، بأن يتأول أنه يزيد في رفعه وحسن موقعه إذا تعاضد معه . كما أن صاحب الأعمال من صلاة وصيام وغير ذلك ، إذا تخلل أعماله كلم طيب وذكّر الله تعالى كانت الأعمال أشرف ؛ فيكون قوله : « وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ » موعظة وتذكيرة وحصفا على الأعمال . وأما الأقوال التي هي أعمال في نفوسها ؛ كالتوحيد والتسبيح فقبولة . قال ابن العربي : « إن كلام المرء بذكر الله إن لم يقترن به عمل صالح لم ينفع ؛ لأن من خالف قوله فعله فهو وبال عليه . وتحقيق هذا : أن العمل إذا وقع شرطا في قبول القول أو مرتبطا ، فإنه لا قبول له إلا به ، وإن لم يكن شرطا فيه فإن كلمه الطيب يكتب له ، وعمله السيئ يكتب عليه ، وتقع الموازنة بينهما ، ثم يحكم الله بالفوز والريح والخسران » .

قلت : ما قاله ابن العربي تحقيق . والظاهر أن العمل الصالح شرط في قبول القول الطيب . وقد جاء في الآثار " أن العبد إذا قال : لا إله إلا الله بنية صادقة نظرت الملائكة

(١) في روح المعاني : « وقال ابن عطية : وقرأ الضحاك « يصعد » بضم الياء ولم يذكر مبنيا للفاعل ولا مبنيا للفعول ، ولا إعراب ما بعده » .

إلى عمله ، فإن كان العمل موافقا لقوله صعدا جميعا ، وإن كان عمله مخالفا وقف قوله حتى يتوب من عمله “ . فعلى هذا العمل الصالح يرفع الكلم الطيب إلى الله . والكفاية في « يرفعه » ترجع إلى الكلم الطيب . وهذا قول ابن عباس وشهر بن حوشب وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة وأبي العالية والضحاك . وعلى أن « الكلم الطيب » هو التوحيد ، فهو الرفع للعمل الصالح ؛ لأنه لا يقبل العمل الصالح إلا مع الإيمان والتوحيد . أى والعمل الصالح يرفعه الكلم الطيب ؛ فالكفاية تعود على العمل الصالح . وروى هذا القول عن شهر بن حوشب قال : « الكلم الطيب » القرآن « والعمل الصالح يرفعه » القرآن . وقيل : تعود على الله جل وعز ؛ أى أن العمل الصالح يرفعه الله على الكلم الطيب ؛ لأن العمل بتحقيق الكلم ، والعامل أكثر تعباً من القائل ، وهذا هو حقيقة الكلام ؛ لأن الله هو الرفع الخافض . والثاني والأول مجاز ، ولكنه سائغ جائز . قال النحاس : القول الأول أولها وأصحها لعازي من قال به ، وأنه في العربية أولى ؛ لأن القراء على رفع العمل . ولو كان المعنى : والعمل الصالح يرفعه الله ، أو العمل الصالح يرفعه الكلم الطيب ، لكان الاختيار نصف العمل . ولا نعلم أحدا قرأه منصوبا إلا شيئا روى عن عيسى بن عمر أنه قال : قرأه أناس « والعمل الصالح يرفعه الله » . وقيل : والعمل الصالح يرفع صاحبه ، وهو الذي أراد العزة وعلم أنها تُطلب من الله تعالى ؛ ذكره القشيري .

الثانية — ذكروا عند ابن عباس أن الكلب يقطع الصلاة ، فقرأ هذه الآية : « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ » . وهذا استدلال بعموم على مذهب السلف في القول بالعموم ، وقد دخل في الصلاة بشروطها ، فلا يقطعها عليه شيء إلا بثبوت ما يوجب ذلك ؛ من مثل ما اعتقدت به من قرآن أو سنة أو إجماع . وقد تعلق من رأى ذلك بقوله عليه السلام : “ يقطع الصلاة المرأة والحمار والكلب الأسود ” فقلت : ما بال الكلب الأسود من الكلب الأبيض من الكلب الأحمر ؟ فقال : “ إن الأسود شيطان ” خرجه مسلم . وقد

(٢) أورد المؤلف هذا الحديث بمعنى لا يقطع .

(١) في الأصول : « يرفع » .

جاء ما يعارض هذا ، وهو ما أخرجه البخارى عن ابن أحنى ابن شهاب أنه سأل عمه عن الصلاة يقطعها شيء ؟ فقال : لا يقطعها شيء ، أخبرني عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت : لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم فيصلى من الليل ، وإنى لمعترضة بينه وبين القبلة على فراش أهله .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ ذكر الطبرى فى (كتاب آداب النفوس) : حدثني يونس بن عبد الأمل قال حدثنا سفيان عن ليث بن أبى سليم عن شهر بن حوشب الأشعري فى قوله عز وجل : « وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورٌ » قال : هم أصحاب الرياء ، وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة . وقال أبو العالية : هم الذين مكروا بالنبي صلى الله عليه وسلم لما اجتمعوا فى دار الندوة . وقال الكلبى : يعنى الذين يعملون السيئات فى الدنيا . مقاتل : يعنى الشرك ، فتكون « السيئات » مفعولة . ويقال : بار يبور إذا هلك وبطل . وبارت السوق أى كسدت ، ومنه : نعوذ بالله من بوار الأيام .^(١) وقوله : « وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا »^(٢) أى هلكى . والمكر : ما عمل على سبيل احتيال وخديعة . وقد مضى فى « سبأ »^(٣) .

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعْمِرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ »

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ قال سعيد عن قتادة قال : يعنى آدم عليه السلام ، والتقدير على هذا : خلق أصلكم من تراب . ﴿ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ قال : أى التى أخرجها من ظهور آبائكم . ﴿ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ قال : أى زوج بعضكم بعضا ، فالذكر زوج الأنثى ليم البقاء فى الدنيا إلى انقضاء مدتها . ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ ﴾

(٢) راجع ج ١٦ ص ٢٦٩ فما بعد .

(١) الأيم : التى لا زوج لها -

(٣) راجع ص ٣٠٢ من هذا الجزء .

إِلَّا يَعْلَمُهُ) أى جعلكم أزواجا فيترّوج الذكر بالأُنثى فيتناسلان بعلم الله ، فلا يكون حمل ولا وضع إلا والله عالم به ، فلا يخرج شيء عن تديره . (وَمَا يَعْمُرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ) سماه معمرًا بما هو صائر إليه . قال سعيد بن جبير عن ابن عباس : « وَمَا يَعْمُرُ مِنْ مُعَمَّرٍ » إلا كتب عمره ، كم هو سنة كم هو شهرا كم هو يوما كم هو ساعة ؛ ثم يكتب في كتاب آخر : نقص من عمره يوم ، نقص شهر ، نقص سنة ، حتى يستوفي أجله . وقاله سعيد بن جبير أيضا ، قال : فما مضى من أجله فهو النقصان ، وما يستقبل فهو الذى يعمره ؛ فالهاء على هذا للعمر . وعن سعيد أيضا : يكتب عمره كذا وكذا سنة ، ثم يكتب فى أسفل ذلك : ذهب يوم ، ذهب يومان ، حتى يأتى على آخره . وعن قتادة : المعمر من بلغ ستين سنة ، والمنقوص من عمره من يموت قبل ستين سنة . ومذهب الفقهاء فى معنى « وَمَا يَعْمُرُ مِنْ مُعَمَّرٍ » أى ما يكون من عمره « وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ » بمعنى معمر آخر ، أى ولا ينقص الآخر من عمره إلا فى كتاب . فالكفاية فى « عمره » ترجع إلى آخر غير الأول . وكفى عنه بالهاء كأنه الأول ، ومثله قولك : عندى درهم ونصفه ، أى نصف آخر . وقيل : إن الله كتب عمر الإنسان مائة سنة إن أطاع ، وتسعين إن عصى ، فأيهما بلغ فهو فى كتاب . وهذا مثل قوله عليه الصلاة والسلام : « من أحب أن يُسَّطَّ له فى زرقه ويُنسأ له فى أثره ^(١) فليصل رحمه » أى أنه يكتب فى اللوح المحفوظ : عمر فلان كذا سنة ، فإن وصل رحمه زيد فى عمره كذا سنة . فبين ذلك فى موضع آخر من اللوح المحفوظ ، إنه سيصل رحمه فمن أطلع على الأول دون الثانى ظن أنه زيادة أو نقصان . وقد مضى هذا المعنى عند قوله تعالى : « يَحْجُوا اللَّهَ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ^(٢) » والكفاية على هذا ترجع إلى العمر . وقيل : المعنى وما يعمر من معمر أى هرم ، ولا ينقص آخر من عمر الهرم إلا فى كتاب ؛ أى بقضاء من الله جل وعز . روى معناه عن الضحاك واختاره النحاس ، قال : وهو أشبهها بظاهر التنزيل . وروى نحوه عن ابن عباس . فالهاء على هذا يجوز أن تكون للعمر ، ويجوز أن تكون لغير

(١) ينسأ : يؤخر . والأثر : الأجل ؛ لأنه تابع للحياة فى أثرها . (٢) راجع ج ٩ ص ٣٢٩ .

المعمر . ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أى كتابة الأعمال والآجال غير متعذر عليه . وقراءة العامة « يُنْقَصُ » بضم الياء وفتح القاف . وقرأت فرقة منهم يعقوب « يَنْقُصُ » بفتح الياء وضم القاف ، أى لا ينقص من عمره شيء . يقال ، نقص الشيء بنفسه ونقصه غيره ، وزاد بنفسه وزاده غيره ، متعد ولازم . وقرأ الأعرج والزهرى « مِنْ عَمْرِهِ » بتخفيف الميم . وضمها الباقون . وهما لغتان مثل السُّحْقِ والسُّحُقِ . و« يَسِيرٌ » أى إحصاء طويل الأعمار وقصيرها لا يتمدّد عليه شيء منها ولا يعزب . والفعل منه : يَسُرُّ . ولو سميت به إنسانا انصرف ؛ لأنه فعيل .

قوله تعالى : وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمَنْ كُلَّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ؕ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قال ابن عباس : « فُرَاتٌ » حلوة ، و« أُجَاجٌ » مرّة . وقرأ طلحة : « هذا ملح أجاج » بفتح الميم وكسر اللام بغير ألف . وأما المالح فهو الذى يجعل فيه الملح . وقرأ عيسى وابن أبى إسحاق « سائغ شرابه » مثل سيد وميت . ﴿ وَمَنْ كُلَّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ لا اختلاف فى أنه منهما جميعا . وقد مضى فى « النحل » الكلام فيه ^(١) .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ مذهب أبى إسحاق أن الحلية إنما تستخرج من الملح ، فقبيل منهما لأنهما مختلطان . وقال غيره : إنما تستخرج الأصداف التى فيها الحلية من الدرّ وزيه من المواضع التى فيها العذب والملح نحو العيون ، فهو مأخوذ منهما ؛ لأن فى البحر عيوناً عذبة ، وبينهما يخرج اللؤلؤ عند التمازج . وقيل :

من مطر السماء . وقال محمد بن يزيد قولاً رابعاً ، قال : إنما تستخرج الحلية من الملح خاصة .
النحاس : وهذا أحسنها وليس هذا عنده ، لأنهما مختلطان ، ولكن جمعاً ثم أخبر عن أحدهما
كما قال جل وعز : « وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ^(١) » .
وكما تقول : لو رأيت الحسن والحجاج لرأيت خيراً وشراً . وكما تقول : لو رأيت الأصمعي وسيبويه
لملأت يدك لغة ونحواً . فقد عرف معنى هذا ، وهو كلام فصيح كثير ، فكذا : « وَمِنْ كُلِّ
تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا » فاجتمع في الأول وانفرد الملح بالثاني .
الثالثة — وفي قوله : « تَلْبَسُونَهَا » دليل على أن لباس كل شيء بحسبه ، فالخاتم
يُعمل في الإصبع ، والسوار في الذراع ، والقلادة في العنق ، والخلخال في الرجل . وفي البخاري
والنسائي عن ابن سيرين قال قلت لعبيدة : افتراش الحرير كلبسه ؟ قال نعم . وفي الصحاح
عن أنس " فقمتم على حصير لنا قد اسود من طول ما لبس " . الحديث .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ ﴾ قال النحاس : أى ماء الملح
خاصة ، ولولا ذلك لقال فيهما . وقد سحرت السفينة تمخر إذا شقت الماء . وقد مضى هذا
في « النحل » ^(٢) . ﴿ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ قال مجاهد : التجارة في الفلك إلى البلدان البعيدة
في مدة قريبة ، كما تقدم في « البقرة » ^(٣) . وقيل : ما يستخرج من حلته ويصاد من حيتانه .
﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ على ما أتاكم من فضله . وقيل : على ما أنجاكم من هوله .

قوله تعالى : يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ
الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ
وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ تقدم في « آل عمران » ^(٤)
وغيرها . ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ تقدم في « لقمان » ^(٥) بيانه .

(١) راجع ج ١٣ ص ٣٠٨ فابعد . (٢) راجع ج ١٠ ص ٨٩ . (٣) راجع ج ٢ ص ١٩٤ فابعد .

(٤) راجع ج ٤ ص ٥٦ . (٥) راجع ص ٧٨ من هذا الجزء .

(ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ) أى هذا الذى من صنعه ما تقرّر هو الخالق المدبر، والقادر المقدر؛ فهو الذى يعبد . (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ) يعنى الأصنام . (مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ) أى لا يقدرون عليه ولا على خلقه . والقطمير : القشرة الرقيقة البيضاء التى بين التمرة والنواة؛ قاله أكثر المفسرين . وقال ابن عباس : هو شق النواة؛ وهو اختيار المبرّد، وقاله قتادة . وعن قتادة أيضا : القِطْمِيرُ القِطْعُ الذى على رأس النواة . الجوهري : ويقال هى النكتة البيضاء التى فى ظهر النواة ، تنبت منها النخلة .

قوله تعالى : **إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ** ﴿١٤﴾

قوله تعالى : (إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ) أى إن تستغيثوا بهم فى النوايب لا يسمعوا دعاءكم ؛ لأنها جمادات لا تبصر ولا تسمع . (وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ) إذ ليس كل سامع ناطقا . وقال قتادة : المعنى لو سمعوا لم ينفعوكم . وقيل : أى لو جعلنا لهم عقولا وحياة فسمعوا دعاءكم لكانوا أطوع لله منكم ، ولما استجابوا لكم على الكفر . (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ) أى يحدون أنكم عبدتموهم ، ويتبرءون منكم . ثم يجوز أن يرجع هذا إلى المعبودين مما يعقل ؛ كالملائكة والجن والأنبياء والشياطين ؛ أى يحدون أن يكون ما فعلتموه حقا ، وأنهم أسروكم بعبادتهم ؛ كما أخبر عن عيسى بقوله : « مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ » . ويجوز أن يندرج فيه الأصنام أيضا ، أى يحياها الله حتى تخبر أنها ليست أهلا للعبادة . (وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ) هو الله جل وعز ؛ أى لا أحد أخبر بخلق الله من الله ، فلا ينبئك مثله فى عمله .^(٢)

قوله تعالى : **يَنبَأُهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** ﴿١٥﴾

(٢) فى بوح : « عليه » .

(١) راجع ج ٦ ص ٣٧٤ .

قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ) أى المحتاجون إليه فى بقائكم وكل أحوالكم . الزمخشري : « فإن قلت لم عرف الفقراء ؟ قلت : قصد بذلك أن يريهم أنهم لشدة افتقارهم إليه هم جنس الفقراء ، وإن كانت الخلائق كلهم مفتقرين إليه من الناس وغيرهم ؛ لأن الفقر مما يتبع الضعف ، وكلما كان الفقير أضعف كان أفقر ؛ وقد شهد الله سبحانه على الإنسان بالضعف فى قوله : « وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا »^(١) ، وقال : « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعِيفٍ »^(٢) ولو نكر لكان المعنى : أتم بعض الفقراء . فإن قلت : قد قوبل « الفقراء » بـ « الغنى » فما فائدة « الحميد » ؟ قلت : لما أثبت فقرهم إليه وغناه عنهم ، وليس كل غنى نافعاً بغناه إلا إذا كان الغنى جواداً منعماً ، وإذا جاد وأنعم حمده المنعم عليهم واستحق عليهم الحمد — ذكر « الحميد » ليدل به على أنه الغنى النافع بغناه خلقه ، الجواد المنعم عليهم ، المستحق بإنعامه عليهم أن يحمده . وتخفيف الهمزة الثانية أجود الوجوه عند التحليل ، ويجوز تخفيف الأولى وحدها وتخفيفهما وتحقيقهما جميعاً . (وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) تكون « هو » زائدة ، فلا يكون لها موضع من الإعراب ، وتكون مبتدأة فيكون موضعها رفعاً .

قوله تعالى : إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ

عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ) فيه حذف ؛ المعنى إن يشأ [أن] يذهبكم يذهبكم ، أى يفتيكهم . (وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ) أى أطوع منكم وأزكى . (وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ) أى ممتنع عسير متعذر . وقد مضى هذا فى « إبراهيم » .^(٤)

قوله تعالى : وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِئِهَا لَا يُجْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يُخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۗ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

(٢) راجع ج ٤٦ من هذا الجزء .

(٤) راجع ج ٩ ص ٣٥٤

(١) راجع ج ٥ ص ١٦٨

(٣) زيادة عن النحاس .

(١) تقدم الكلام فيه ، وهو مقطوع مما قبله . والأصل « تَوَزَّر » حذف الواو اتباعاً ليزر . (وَاِزْرَةٌ) نعت لمحذوف ، أى نفس وازرة . وكذا (وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِهَا) قال الفراء : أى نفس مثقلة أو دابة . قال : وهذا يقع للذكر والمؤنث . قال الأخفش : أى وإن تدع مثقلة إنساناً إلى جملها وهو ذنوبها . والحمل ما كان على الظهر ، والحمل حمل المرأة وحمل النخلة ؛ حكاهما الكسائي بالفتح لا غير . وحكى ابن السكيت أن حمل النخلة يفتح ويكسر . (لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ) التقدير على قول الأخفش : ولو كان الإنسان المدعو ذاً قروبى . وأجاز الفراء ولو كان ذو قروبى . وهذا جائز عند سيبويه ، ومثله « وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ » فتكون « كان » بمعنى وقع ، أو يكون الخبر محذوفاً ؛ أى وإن كان فيمن تطالبون ذو عسرة . وحكى سيبويه : الناس مجزيون بأعمالهم إن خير نخير ؛ على هذا . وخيراً نخير ؛ على الأول . وروى عن عكرمة أنه قال : بلغنى أن اليهودى والنصرانى يرى الرجل المسلم يوم القيامة فيقول له : ألم أكن قد أسديت إليك يداً ، ألم أكن قد أحسنت إليك ؟ فيقول بلى . فيقول : آتفنى ؛ فلا يزال المسلم يسأل الله تعالى حتى ينقص من عذابه . وأن الرجل ليأتى إلى أبيه يوم القيامة فيقول : ألم أكن بك باراً ، وعليك مشفقاً ، وإليك محسناً ، وأنت ترى ما أنا فيه ، فهب لى حسنة من حسناتك ، أو احمل عنى سيئة ؛ فيقول : إن الذى سألتنى يسير ؛ ولكنى أخاف مثل ما تخاف . وأن الأب ليقول لابنه مثل ذلك فيرد عليه نحواً من هذا . وأن الرجل ليقول لزوجته : ألم أكن أحسن العشرة لك ، فأحمل عنى خطيئة لعل أنجو ؛ فنقول : إن ذلك ليسير ولكنى أخاف مما تخاف منه . ثم تلا عكرمة : « وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ » . وقال الفُضَيْل بن عياض : هى المرأة تلقى ولدها فتقول : يا ولدى ، ألم يكن بطنى لك وعاء ، ألم يكن ندى لك سقاء ، ألم يكن حجرى لك وطاء ؛ فيقول : بلى يا أماه ؛ فتقول : يا بنى ، قد أثقلتى ذنوبى فأحمل عنى منها ذنباً واحداً ؛ فيقول : إليك عنى يا أماه ، فلانى بذنبى عنك مشغول .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يُحْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ ﴾ أى إنما يقبل إنذارك من يخشى عقاب الله تعالى ، وهو كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ ﴾ .^(١)

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ ﴾ أى من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه .
وقرى : « وَمِنْ آزَكَّى فَإِنَّمَا يَزَكَّى لِنَفْسِهِ » . ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ أى إليه مرجع جميع الخلق .

قوله تعالى : وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾ أى الكافر والمؤمن والجاهل والعالم .
مثل : « قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ » . ﴿ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴾ قال الأخفش سعيد : « لا » زائدة ؛ والمعنى ولا الظلمات والنور ، ولا الظل والحرور . قال الأخفش : والحرور لا يكون إلا مع شمس النهار ، والسموم يكون بالليل ، وقيل بالعكس . وقال رؤبة ابن العجاج : الحرور تكون بالنهار خاصة ، والسموم يكون بالليل خاصة ، حكاه المهدوى . وقال الفراء : السموم لا يكون إلا بانهار ، والحرور يكون فيهما . النحاس : وهذا أصح ؛ لأن الحرور فعول من الحز ، وفيه معنى التكثير ، أى الحز المؤذى .

قلت : وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قالت النار ربّ أكل بعضى بعضها فأذّن لى أنفس فأذّن لها بتفسين نفيس في الشتاء ونفس في الصيف فما وجدتم من برد أوزمهر يرفن نفس جهنم وما وجدتم من حر أوحور فن نفس جهنم » . وروى من حديث الزهري عن سعيد عن أبي هريرة : « فما تجدون من الحز فن

(٢) راجع ج ٦ ص ٣٢٧ .

(١) راجع ص ٩ من هذا الجزء فابعد آية ١١ سورة يس .

سمومها وشدة ما تجدون من البرد فن زمهريها“ وهذا يجمع تلك الأقوال ، وأن السموم والحرور يكون بالليل والنهار ؛ فتأمله . وقيل : المراد بالظل والحرور الجنة والنار ؛ فالجنة ذات ظل دائم ، كما قال تعالى : « أَكُلُّهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا^(١) » والنار ذات حرور ، وقال معناه السدي . وقال ابن عباس : أى ظل الليل ، وحر السموم بالنهار . قُطِرْبُ : الحرور الحر ، والظل البرد . (وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ) قال ابن قتيبة : الأحياء العقلاء ، والأموات الجهال . قال قتادة : هذه كلها أمثال ؛ أى كما لا تستوى هذه الأشياء كذلك لا يستوى الكافر والمؤمن . (إِنْ أَنْتَ تَسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ) أى يُسْمِعُ أولياءه الذين خلقهم لجنته . (وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ) أى الكفار الذين أمات الكفر قلوبهم ؛ أى كما لا تُسمع من مات ، كذلك لا تُسمع من مات قلبه . وقرأ الحسن وعيسى الثقفى وعمرو ابن ميمون : « بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ » بحذف التنوين تخفيفاً ؛ أى هم بمنزلة [أهل] القبور فى أنهم لا ينتفعون بما يسمعونه ولا يقبلونه .

قوله تعالى : إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾

أى رسول منذر ؛ فليس عليك إلا التبليغ ، ليس لك من الهدى شىء إنما الهدى بيد الله تبارك وتعالى .

قوله تعالى : إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) أى بشيرا بالجنة أهل طاعته ، ونذيرا بالنار أهل معصيته . (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) أى سلف فيها نبي . قال ابن جريح : إلا العرب .

قوله تعالى : وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ
رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ
كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ) يعنى كفار قريش . (فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)
أنبياءهم ، يسأل رسوله صلى الله عليه وسلم . (جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ) أى بالمعجزات
الظاهرات والشرائع الواضحات . (وَبِالزُّبُرِ) أى الكتب المكتوبة . (وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ)
أى الواضح . وكرر الزبر والكتاب وهما واحد لاختلاف اللفظين . وقيل : يرجع البيئات
والزبر والكتاب إلى معنى واحد ، وهو ما أنزل على الأنبياء من الكتب . (ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ
كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) أى كيف كانت عقوبتى لهم . وأثبت ورش عن نافع وشيبة الباء
فى « نكيرى » حيث وقعت فى الوصل دون الوقف . وأثبتها يعقوب فى الحالين ، وحذفها
الباقون فى الحالين . وقد مضى هذا كله ، والحمد لله .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ
تَمْرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنْ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا
وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ
كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) هذه الرؤية رؤية القلب والعلم ؛
أى ألم ينه علمك ورأيت بقلبك أن الله أنزل ؛ فـ « أن » واسمها وخبرها سدت مسد مفعولى
الرؤية . (فَأَخْرَجْنَا بِهِ تَمْرَاتٍ) هو من باب تلوين الخطاب . (مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا) نصبت
« مُخْتَلِفًا » نعمتا لـ « تَمْرَاتٍ » . (أَلْوَانُهَا) رفع بمختلف ، وصاح أن يكون نعمتا لـ « تَمْرَاتٍ »
لما عاد عليه من ذكره . ويجوز فى غير القرآن رفعه ؛ ومثله رأيت رجلا خارجا أبوه .

(بِه) أى بالماء وهو واحد، والثمرات مختلفة . (وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ) الجدد جمع جُدَّة ، وهى الطرائق المختلفة الألوان ، وإن كان الجميع حجرا أو ترابا . قال الأخفش : واو كان جمع جديد لقال : جُدُد (بضم الجيم والذال) نحو سرير وسرر . وقال زهير :

كأنه أسفع الحدين ذو جُدُدٍ * طاوٍ ويرتع بعد الصيف عُربانا

وقيل : إن الجدد القِطع ، مأخوذ من جدت الشيء إذا قطعتة ؛ حكاه ابن بحر . قال الجوهري : والجُدَّة الخُطَّة التى فى ظهر الحمار تخالف لونه . والجُدَّة الطريقة ، والجمع جدد ؛ قال تعالى : « وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ » أى طرائق تخالف لون الجبل . ومنه قولهم : ركب فلان جُدَّة من الأمر ؛ إذا رأى فيه رأيا . وكساء مجدّد : فيه خطوط مختلفة . الرخشرى : وقرأ الزهرى « جدد » بالضم جمع جديدة ، وهى الجُدَّة ؛ يقال : جديدة وجُدُد وجدائد ؛ كسفينة وسفن وسفائن . وقد فسرها قول أبى ذؤيب :

* جَوْنُ السَّرَاةِ لَهُ جَدَائِدُ أَرْبَعٌ ^(١) *

وروى عنه « جَدَد » بفتحين ، وهو الطريق الواضح المسفر ، وضعه موضع الطرائق والخطوط الواضحة المنفصل بعضها من بعض . (وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ) وقرى : « والدواب » مخففا . ونظير هذا التخفيف قراءة من قرأ : « وَلَا الضَّالِّينَ » لأن كل واحد منهما فز من التقاء الساكنين ، فترك ذلك أولها ، وحذف هذا آخرهما ؛ قاله الرخشرى . (وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ) أى فيهم الأحمر والأبيض والأسود وغير ذلك ، وكل ذلك دليل على صانع مختار . وقال : « مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ » فذكر الضمير مراعاة « من » ؛ قاله المؤرّج . وقال أبو بكر بن عياش :

إنما ذكر الكناية لأجل أنها مردودة إلى « ما » مضمرة ؛ مجازه : ومن الناس ومن الدواب ومن الأنعام ما هو مختلف ألوانه ، أى أبيض وأحمر وأسود . (وَغَرَائِبٌ سُودٌ) قال أبو عبيدة : الغريب الشديد السواد ؛ ففى الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى : ومن الجبال

(١) صدر البيت :

* والمدهر لا يبق على حدثانه *

سود غرايب . والعرب تقول للشديد السواد الذي لونه كلون الغراب : أسود غرايب . قال الجوهري : وتقول هذا أسود غرايب ؛ أى شديد السواد . وإذا قلت : غرايب سود ، تجعل السود بدلا من غرايب لأن توكيد الألوان لا يتقدم . وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الله يبغض الشيخ الغرايب " يعنى الذى يخضب بالسواد . قال امرؤ القيس :

(١)
العين طامحة واليد ساجحة * والرجل لافحة والوجه غرايب
وقال آخر يصف كرمًا :

(٢)
ومن تعاجيب خلق الله غاطية * يعصر منها ملاحى وغرايب

(كذلك) هنا تمام الكلام ؛ أى كذلك تختلف أحوال العباد فى الخشية ، ثم استأنف فقال : (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ) يعنى بالعلماء الذين يخافون قدرته ؛ فن علم أنه عز وجل قدير أيقن بمعاقبته على المعصية ، كما روى على بن أبى طلحة عن ابن عباس « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » قال : الذين علموا أن الله على كل شىء قدير . وقال الربيع بن أنس : من لم يخش الله تعالى فليس بعالم . وقال مجاهد : إنما العالم من خشى الله عز وجل . وعن ابن مسعود : كفى بخشية الله تعالى علما وبالاعتزاز جهلا . وقيل لسعد ابن إبراهيم : من أفقه أهل المدينة؟ قال أتقاهم لربه عز وجل . وعن مجاهد قال : إنما الفقيه من يخاف الله عز وجل . وعن على بن رضى الله عنه قال : إن الفقيه حق الفقيه من لم يقنط

(١) هذه رواية الأصول . والببت كما ورد فى ديوانه طبع مطبعة الاستقامة :

واليد ساجحة والرجل ضارحة * والعين قاذحة والتمن ساحوب

والماء منهمر والشدة منحدر * والقصب مضطمر واللون غرايب

قوله « ساجحة » يعنى إذا جرى فرسه مد يديه فكانه ساجح فى الماء . وضرحت الدابة برجلها : رجحت . وقدحت العين : غارت . والتمن : الظاهر . وقوله « ساحوب » بالسين ، وفسر بأنه أماس قليل اللحم . وهذا التفسير لم نجده لهذه الكلمة فى المظان التى بين أيدينا . والرواية فيه « ملحوب » بالميم . ولحب من الفرس وعجزه : أماس فى حدوره . وتمن لحوب . و « والشدة » العدو . و « القصب » بالضم : الحصر . و « مضطمر » ضامر .

(٢) الغاطية : الشجرة التى طالت أغصانها وانبتت على الأرض . و « ملاحى » : أبيض .

الناس من رحمة الله ، ولم يرخص لهم في معاصي الله تعالى ، ولم يؤتمنهم من عذاب الله ، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره ؛ إنه لا خير في عبادة لا علم فيها ، ولا علم لا فقه فيه ، ولا قراءة لا تدبر فيها . وأسند الدارمي أبو محمد عن مكحول قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن فضل العالم على العابد كفضل علي أدناكم — ثم تلا هذه الآية — إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ . إن الله وملائكته وأهل سمواته وأهل أرضيه والنون في البحر يصلون على الذين يعلمون الناس الخير " الخبر مرسل . قال الدارمي : وحدثني أبو النعمان حدثنا حماد بن زيد عن يزيد بن حازم قال حدثني عمي جرير بن زيد أنه سمع ^(١) تبعاً يحدث عن كعب قال : إني لأجد نعت قوم يتعلمون لغير العمل ، ويتفقهون لغير العبادة ، ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة ، ويلبسون جلود الضأن ، قلوبهم أمرٌ من الصبر ؛ فبي يفترتون ، وإياي يخادعون ، فبي حلفت لا أتبعن لهم فتنه تذر الحليم فيهم حيران . خرجه الترمذي مرفوعاً من حديث أبي الدرداء وقد كتبه في مقدمة الكتاب . الزخشي : فإن قلت : فما وجه قراءة من قرأ « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ » بالرفع « مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » بالنصب ، وهو عمر بن عبد العزيز ، وتُحكي عن أبي حنيفة . قلت : الخشية في هذه القراءة استعارة ، والمعنى : إنما يحلهم ويعظمهم كما يحل المهيب المخشى من الرجال بين الناس من بين جميع عباده . (إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)^(٢) تعليل لوجوب الخشية ، لدلالته على عفوبة العصاة وقهرهم ، وإنباء أهل الطاعة والعتق عنهم . والمعاقب والمثيب حقه أن يخشى .

قوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ۗ لِيُؤْفِقَهُمُ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ** ﴿٢٩﴾

(١) في الأصول : « جرير بن يزيد » وهو تخریف راجع تهذيب التهذيب وسنن الدارمي .

(٢) راجع ج ١ ص ١٩ فابعد .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ هذه آية القراء العاملين العالمين الذين يقيمون الصلاة الفرض والنفل ، وكذا في الإنفاق . وقد مضى في مقدمة الكتاب ما ينبغي أن يتخلى به قارئ القرآن . ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ قال أحمد بن يحيى : خبر « إن » « يرجون » . ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ قيل : الزيادة الشفاعة في الآخرة . وهذا مثل الآية الأخرى : « رِجَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ - إِلَى قَوْلِهِ - وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ » ، وقوله في آخر النساء : « فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ » وهناك بيناه . ﴿ إِنَّهُ غَفُورٌ ﴾ للذنوب . ﴿ شَكُورٌ ﴾ يقبل القليل من العمل الخالص ، ويشيب عليه الجزيل من الثواب .

قوله تعالى : وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ يعني القرآن . ﴿ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أى من الكتب . ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ .

قوله تعالى : ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجَلِّونَ فِيهَا مِنْ أُسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾

(١) راجع ج ١ ص ٢٦ فابعد .

(٢) راجع ج ١٢ ص ٢٧٩ .

(٣) راجع ج ٦ ص ٢٦

فيه أربع مسائل :

الأولى — هذه الآية مشكلة ؛ لأنه قال جل وعز : (اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا) ثم قال : (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ) وقد تكلم العلماء فيها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم . قال النحاس : فمن أصح ما روى في ذلك ما روى عن ابن عباس « فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ » قال : الكافر ؛ رواه ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن عطاء عن ابن عباس أيضا . وعن ابن عباس أيضا « فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ » قال : نجت فرقتان ، ويكون التقدير في العربية : فمنهم من عبادنا ظالم لنفسه ؛ أى كافر . وقال الحسن : أى فاسق . ويكون الضمير الذى فى « يَدْخُلُونَهَا » يعود على المقتصد والسابق لا على الظالم . وعن عكرمة وقتادة والضحاك والفرزاء أن المقتصد المؤمن العاصى ، والسابق التقي على الإطلاق . قالوا : وهذه الآية نظير قوله تعالى فى سورة الواقعة : « وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً » الآية . قالوا وبعيد أن يكون ممن يصطفى ظالم . ورواه مجاهد عن ابن عباس . قال مجاهد : « فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ » أصحاب المشامة ، « وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ » أصحاب الميمنة ، « وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ » السابقون من الناس كلهم . وقيل : الضمير فى « يَدْخُلُونَهَا » يعود على الثلاثة الأصناف ، على ألا يكون الظالم هاهنا كافرا ولا فاسقا . ومن روى عنه هذا القول عمرو وعثمان وأبو الدرداء ، وابن مسعود وعقبة بن عمرو وعائشة ، والتقدير على هذا القول : أن يكون الظالم لنفسه الذى عمل الصغائر . و (المقتصد) قال محمد بن يزيد : هو الذى يعطى الدنيا حقها والآخرة حقها ؛ فيكون « جَنَاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا » عائدا على الجميع على هذا الشرح والتبيين ؛ وروى عن أبى سعيد الخدرى . وقال كعب الأحبار : استوت منا كبهم — ورب الكعبة — وتفاضلوا بأعمالهم . وقال أبو إسحاق السبىعى : أما الذى سمعت منذ ستين سنة فكلهم ناج . وروى أسامة بن زيد أن النبى - صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية وقال : « كلهم فى الجنة » . وقرأ عمر بن الخطاب هذه الآية ثم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سَابِقُنَا سَابِقٌ وَمُقْتَصِدُنَا نَاجٍ وَظَالِمُنَا مَغْفُورٌ لَهُ » . فعلى هذا القول يقدر مفعول الاصطفاء من قوله : « أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ

أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا « مضافاً حذف كما حذف المضاف في « وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ ^(١) » أي اصطفتينا دينهم ، فبقى اصطفتيناهم ؛ فحذف العائد إلى الموصول كما حذف في قوله : « وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُهُمْ ^(٢) » أي تزدريهم ، فالاصطفاء إذاً موجه إلى دينهم ، كما قال تعالى : « إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ ^(٣) » . قال النحاس : وقول ثالث — يكون الظالم صاحب الكبائر ، والمقتصد الذي لم يستحق الجنة بزيادة حسناته على سيئاته ؛ فيكون : « جَنَاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا » للذين سبقوا بالخيرات لا غير . وهذا قول جماعة من أهل النظر ؛ لأن الضمير في حقيقة النظر لما يليه أولى .

قلت : القول الوسط أولها وأصحها إن شاء الله ؛ لأن الكافر والمنافق لم يصطفوا بحمد الله ، ولا اصطفتى دينهم . وهذا قول ستة من الصحابة ، وحسبك . وستريده بيانا وإيضاحا في باقى الآية .

الثانية — قوله تعالى : « أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ » أي أعطينا . والميراث عطاء حقيقة أو مجازا ؛ فإنه يقال فيما صار للإنسان بعد موت آخر . و « الْكِتَابَ » هاهنا يريد به معانى الكتاب وعلمه وأحكامه وعقائده ، وكان الله تعالى لما أعطى أمة محمد صلى الله عليه وسلم القرآن ، وهو قد تضمن معانى الكتب المنزلة ، فكأنه ورث أمة محمد عليه السلام الكتاب الذى كان فى الأمم قبلنا . « أَصْطَفَيْنَا » أي اخترنا . واشتقاقه من الصفوة ، وهو الخلوص من شوائب الكدر . وأصله اصتفونا ، فأبدلت التاء طاء والواو ياء . « مِنْ عِبَادِنَا » قيل المراد أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، قاله ابن عباس وغيره . وكان اللفظ يحتمل جميع المؤمنين من كل أمة ، إلا أن عبارة توريث الكتاب لم تكن إلا لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، والأول لم يرثوه . وقيل : المصطفون الأنبياء ، توارثوا الكتاب بمعنى أنه انتقل عن بعضهم إلى آخر ، قال الله تعالى : « وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ^(٤) » ، وقال : « يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ^(٥) » فإذا جاز أن تكون النبوة موروثة فكذلك الكتاب . « فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ^(٦) » من وقع فى صغيرة . قال ابن عطية : وهذا

(١) راجع ج ٩ ص ٢٤٥ و ص ٢٧٠ .

(٢) راجع ج ٢ ص ١٣٤ فما بعد .

(٣) راجع ج ١٣ ص ١٦٣ فما بعد .

(٤) راجع ج ١١ ص ٧٣ فما بعد .

قول مردود من غير ما وجه . قال الضحاك : معنى « فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ » أى من ذرِّيَّتِهِمْ ظالم لنفسه وهو المشرك . الحسن : من أمهم ، على ما تقدم ذكره من الخلاف فى الظالم . والآية فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقد اختلفت عبارات أرباب القلوب فى الظالم والمقتصد والسابق ، فقال سهل بن عبد الله : السابق العالم ، والمقتصد المتعلم ، والظالم الجاهل . وقال ذو النون المصرى : الظالم الذاكر الله باسائه فقط ، والمقتصد الذاكر بقلبه ، والسابق الذى لا ينساه . وقال الأنطاكى : الظالم صاحب الأقوال ، والمقتصد صاحب الأفعال ، والسابق صاحب الأحوال . وقال ابن عطاء : الظالم الذى يحب الله من أجل الدنيا ، والمقتصد الذى يحبه من أجل العقبى ، والسابق الذى أسقط مراده بمراد الحق . وقيل : الظالم الذى يعبد الله خوفا من النار ، والمقتصد الذى يعبد الله طمعا فى الجنة ، والسابق الذى يعبد الله لوجهه لا لسبب . وقيل : الظالم الزاهد فى الدنيا ، لأنه ظلم نفسه فترك لها حظا وهى المعرفة والمحبة ، والمقتصد العارف ، والسابق المحب . وقيل : الظالم الذى يجزع عند البلاء ، والمقتصد الصابر على البلاء ، والسابق المتلذذ بالبلاء . وقيل : الظالم الذى يعبد الله على الغفلة والعادة ، والمقتصد الذى يعبد على الرغبة والرغبة ، والسابق الذى يعبد على الهيبة . وقيل : الظالم الذى أُعْطِيَ فَمَنَعَ ، والمقتصد الذى أُعْطِيَ فَبَدَّلَ ، والسابق الذى مُنِعَ فَشَكَرَ وَآثَرَ . يروى أن عابدين التقيما فقال : كيف حال إخوانكم بالبصرة ؟ قال : بخير ، إن أعطوا شكروا وإن منعوا صبروا . فقال : هذه حالة الكلاب عندنا بلخ ! عبأدنا إن منعوا شكروا وإن أعطوا آثروا . وقيل : الظالم من استغنى بماله ، والمقتصد من استغنى بدينه ، والسابق من استغنى بربه . وقيل : الظالم التالى للقرآن ولا يعمل به ، والمقتصد التالى للقرآن ويعمل به ، والسابق القارئ للقرآن العامل به والعالم به . وقيل : السابق الذى يدخل المسجد قبل تأذين المؤذن ، والمقتصد الذى يدخل المسجد وقد أذن ، والظالم الذى يدخل المسجد وقد أقيمت الصلاة ؛ لأنه ظلم نفسه الأجر فلم يحصل لها ما حصله غيره . وقال بعض أهل العلم فى هذا : بل السابق الذى يدرك الوقت والجماعة فيدرك الفضيلتين ، والمقتصد الذى إن فانتها الجماعة لم يفرط

في الوقت، والظالم الغافل عن الصلاة حتى يفوت الوقت والجماعة، فهو أولى بالظلم . وقيل :
الظالم الذي يحب نفسه ، والمقتصد الذي يحب دينه ، والسابق الذي يحب ربه . وقيل :
الظالم الذي ينتصف ولا يُنصف ، والمقتصد الذي ينتصف ويُنصف ، والسابق الذي يُنصف
ولا ينتصف . وقالت عائشة رضي الله عنها : السابق الذي أسلم قبل الهجرة ، والمقتصد من
أسلم بعد الهجرة ، والظالم من لم يسلم إلا بالسيف ؛ وهم كلهم مفسور لهم .

قلت : ذكر هذه الأقوال وزيادة عليها الثعلبي في تفسيره . وبالجملة فهم طرفان
وواسطة ، وهو المقتصد الملازم للقصد وهو ترك الميل ؛ ومنه قول جابر بن حنّ التّغلي :
نعاطي الملوك السلم ما قصدوا لنا * وليس علينا قتلهم بحرم

أى نعاطيهم الصلح ما ركبوا بنا القصد ، أى ما لم يجوروا ، وليس قتلهم بحرم علينا إن جاروا ؛
فذلك كان المقتصد منزلة بين المنزلتين ، فهو فوق الظالم لنفسه ودون السابق بالخيرات .
(ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) يعنى إتياننا الكتاب لهم . وقيل : ذلك الاصطفاء مع علمنا
بعبودهم هو الفضل الكبير . وقيل : وعد الجنة لهؤلاء الثلاثة فضل كبير .

الثالثة - وتكلم الناس في تقديم الظالم على المقتصد والسابق فقيل : التقديم
في الذكر لا يقتضى تشريفاً ، كقوله تعالى : « لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ » .
وقيل : قدم الظالم لكثرة الفاسقين منهم وغلبتهم ، وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم ،
والسابقين أقل من القليل ؛ ذكره الزمخشري ولم يذكره غيره . وقيل : قدم الظالم لتأكيد
الرجاء في حقه ، إذ ليس له شيء يتكل عليه إلا رحمة ربه . واتكل المقتصد على حسن ظنه ،
والسابق على طاعته . وقيل : قدم الظالم لثلاث يبتس من رحمة الله ، وأحر السابق لثلاث يعجب
بعمله . وقال جعفر بن محمد بن علي الصادق رضي الله عنه : قدم الظالم ليخبر أنه لا يتقرب
إليه إلا بصرف رحمته وكرمه ، وأن الظالم لا يؤثر في الاصطفائية إذا كانت ثمّ عناية ، ثم تقي
بالمقتصدين لأنهم بين الخوف والرجاء ، ثم ختم بالسابقين لثلاث يأمن أحد مكر الله ، وكلهم في الجنة

بجرمة كلمة الإخلاص : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . وقال محمد بن علي الترمذي :
 جمعهم في الاصطفاء لإزالة للعلل عن العطاء ؛ لأن الاصطفاء يوجب الإرث ، لا الإرث يوجب
 الاصطفاء ، ولذلك قيل في الحكمة : صحح النسبة ثم ادع في الميراث . وقيل : آخر السابق
 ليكون أقرب إلى الجنات والثواب ، كما قدم الصوامع والبيع في « سورة الحج ^(١) » على المساجد ،
 لتكون الصوامع أقرب إلى الهدم والحراب ، وتكون المساجد أقرب إلى ذكر الله . وقيل :
 إن الملوك إذا أرادوا الجمع بين الأشياء بالذكر قدموا الأدنى ؛ كقوله تعالى : « لَسْرِيْعُ الْعِقَابِ
 وَإِنَّهُ لَكَغَفُورٌ رَحِيمٌ ^(٢) » ، وقوله : « يَبِّبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّا نَا وَبِيبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورُ ^(٣) » ، وقوله :
 « لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ » .

قلت : ولقد أحسن من قال :

وغاية هذا الجود أنت وإنما * يوافي إلى الغايات في آخر الأمر

الرابعة - قوله : (جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا) جمعهم في الدخول لأنه ميراث ، والعاق
 والبار في الميراث سواء إذا كانوا معترفين بالنسب ؛ فالعاصي والمطيع مقزون بالرب . وقرئ :
 « جَنَّةُ عَدْنٍ » على الأفراد ، كأنها جنة مختصة بالسابقين لقتلهم ؛ على ما تقدم . و « جَنَّاتِ
 عَدْنٍ » بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر ؛ أي يدخلون جنات عدن يدخلونها . وهذا
 للجمع ، وهو الصحيح إن شاء الله تعالى . وقرأ أبو عمرو « يُدْخَلُونَهَا » بضم الياء وفتح الخاء .
 قال : لقوله « يُحَلَّلُونَ » . وقد مضى في « الحج » الكلام في قوله تعالى : « يُحَلَّلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ
 مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ^(٤) » .

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ) قال أبو ثابت : دخل رجل المسجد فقال
 اللهم ارحم غُربتي وآنس وحدتي ويسر لي جليسا صالحا . فقال أبو الدرداء : لئن كنت
 صادقا فلا أنا أسعد بذلك منك ، سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ

(١) راجع ج ١٢ ص ٦٨ . (٢) راجع ج ٧ ص ٣٠٩ .

(٣) راجع ج ١٦ ص ٤٨ . (٤) راجع ج ١٢ ص ٢٨ .

الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ « - قال -
 فيجىء ، هذا السابق فيدخل الجنة بغير حساب ، وأما المقتصد فيحاسب حساباً يسيراً ، وأما الظالم
 لنفسه فيحبس في المقام ويونج ويقزع ثم يدخل الجنة فهم الذين قالوا : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ
 عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ » . وفي لفظ آخر « وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك
 يحبسون في طول المحشر ثم هم الذين يتلقاهم الله برحمته فهم الذين يقولون « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
 أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ » - إلى قوله - « وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ » . وقيل :
 هو الذي يؤخذ منه في مقامه ؛ يعني يكفر عنه بما يصيبه من الهم والحزن ، ومنه قوله تعالى :
 « مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِيهِ ^(١) » يعني في الدنيا . قال الشعبي : وهذا التأويل أشبه بالظاهر ؛
 لأنه قال : « جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا » ، ولقوله : « الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا » والكافر
 والمنافق لم يصطفوا .

قلت : وهذا هو الصحيح ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « ومثل المنافق الذي يقرأ
 القرآن مثل الريحانة ، ريحها طيب وطعمها مر » . فأخبر أن المنافق يقرؤه ، وأخبر الحق
 سبحانه وتعالى أن المنافق في الدرك الأسفل من النار ، وكثير من الكفار واليهود والنصارى
 يقرءونه في زماننا هذا . وقال مالك : قد يقرأ القرآن من لا خير فيه . والنصب : التعب .
 واللغوب : الإعياء .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ
 فِيمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿٢٤١﴾
 وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ
 أَوْ لِمَ نَعْمَرُكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَ كُرُّ النَّذِيرِ فذوقوا فَمَا
 لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٢٤٢﴾

(١) كذا في شروح . وفي ب . وك : « يتلقاهم » . (٢) راجع ج ٥ ص ٢٩٦

قوله تعالى : (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ) لما ذكر أهل الجنة وأحوالهم ومقاتلتهم ، ذكر أهل النار وأحوالهم ومقاتلتهم . (لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا) مثل : « لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا » . (وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا) مثل : « كَلِمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ » . (كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ) أى كافر بالله ورسوله . وقرأ الحسن « فِيمَوتُونَ » بالنون ، ولا يكون للنفي حينئذ جواب ، ويكون « فِيمَوتُونَ » عطفا على « يُقْضَىٰ » تقديره لا يقضى عليهم ولا يموتون ؛ كقوله تعالى : « وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَدِرُونَ » . قال الكسائي : « وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَدِرُونَ » بالنون فى المصحف لأنه رأس آية و « لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا » لأنه ليس رأس آية . ويجوز فى كل واحد منهما ما جاز فى صاحبه . (وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا) أى يستغيثون فى النار بالصوت العالى . والصراخ الصوت العالى ، والصارخ المستغيث ، والصرخ المغيث . قال :

كأ إذا ما أتانا صارخ فـزِعْ * كان الصراخ له قرع الظنابيب^(٤)

(رَبَّنَا أَخْرِجْنَا) أى يقولون ربنا أخرجنا من جهنم ورددنا إلى الدنيا . (نَعْمَلُ صَالِحًا) قال ابن عباس : نقل : لا إله إلا الله . وهو معنى قولهم : (غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ) أى من الشرك ؛ أى تؤمن بدل الكفر ، ونطيع بدل المعصية ، ونمثل أمر الرسل . (أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ) هذا جواب دعائهم ؛ أى يقال لهم ، فالقول مضمرة . وترجم البخارى : (باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه فى العمر لقوله عز وجل « أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ») يعنى الشيب) حدثنا عبد السلام بن مطهر قال حدثنا عمر بن على قال حدثنا معن بن محمد الغفارى عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أعذر الله إلى أمرى أخر أجله حتى بلغه ستين سنة » . قال الخطابى : « أعذر إليه » أى بلغ به أقهى العذر ، ومنه قولهم : قد

(١) راجع ج ١١ ص ٢٢٧ (٢) راجع ج ٥ ص ٢٥٣ (٣) راجع ج ١٩ ص ١٦٤

(٤) البيت لسلامة بن جندل . والظنابيب (جمع الظنوب) وهو مسبار يكون فى جبة السنان .

أعذر من أنذر؛ أى أقام عذر نفسه في تقديم نذارته . والمعنى : أن من عمره الله ستين سنة لم يبق له عذر ؛ لأن الستين قريب من معتك المنايا ، وهو سنُّ الإنابة والخشوع وترقُّب المنية ولقاء الله تعالى ؛ ففيه إعدار بعد إعدار، الأول بالنبي صلى الله عليه وسلم ، والموتان^(١) في الأربعين والستين . قال عليّ وابن عباس وأبو هريرة في تأويل قوله تعالى « أو لم نعمركم ما يتذكّر فيه من تذكّر » : إنه ستون سنة . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في موعظته : « ولقد أبلغ في الإعدار من تقدّم في الإنذار وإنه لينادى منادٍ من قبل الله تعالى أبناء الستين « أو لم نعمركم ما يتذكّر فيه من تذكّر وجاءكم النذير » . وذكر الترمذى الحكيم من حديث عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا كان يوم القيامة نودى أبناء الستين وهو العمر الذى قال الله « أو لم نعمركم ما يتذكّر فيه من تذكّر » . وعن ابن عباس أيضا أنه أربعون سنة . وعن الحسن البصرى ومسروق مثله . ولهذا القول أيضا وجه ، وهو صحيح ؛ والحجة له قوله تعالى : « حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة^(٢) » الآية . ففى الأربعين تنهى العقل ، وما قبل ذلك وما بعده منتقص عنه ، والله أعلم . وقال مالك : أدركت أهل العلم ببلدنا وهم يطلبون الدنيا والعلم ويخالطون الناس ، حتى يأتى لأحدهم أربعون سنة ، فإذا أتت عليهم اعتزلوا الناس واشتغلوا بالقيامه حتى يأمهم الموت . وقد مضى هذا المعنى فى سورة « الأعراف^(٤) » . وخرّج ابن ماجه عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين وأقلهم من تجاوز ذلك » .

قوله تعالى : (وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ) وقرئ « وجاءكم النذير » واختلف فيه ؛ فقيل القرآن . وقيل الرسول ؛ قاله زيد بن على وابن زيد . وقال ابن عباس وصكرمة وسفيان ووكيع والحسين ابن الفضل والفراء والطبرى : هو الشيب . وقيل : النذير الحمى . وقيل : موت الأهل والأقارب . وقيل : كمال العقل . والنذير بمعنى الإنذار .

(٢) راجع ج ١٦ ص ١٩٤

(١) الموتان (بضم الميم وفتحها وسكون الواو) : الموت .

(٤) راجع ج ٧ ص ٢٧٩

(٣) كيف هذا وقد عاش صلى الله عليه وسلم ثلاثا وستين سنة ؟؟

قلت : فالشيب والخمى وموتُ الأهل كُله إنذار بالموت ؛ قال صلى الله عليه وسلم :
 « الخُمى رائدُ الموت » . قال الأزهري : معناه أن الخُمى رسول الموت ، أى كأنها تُشعر
 بقدومه وتُنذِرُ بمجيئه . والشيب نذيرٌ أيضاً ؛ لأنه يأتى فى سنِّ الاكتهال ، وهو علامة لمفارقة
 سنِّ الصِّبَا الذى هو سنُّ اللهُو واللعب . قال :

رأيت الشيب من نُذُرِ المنايا * لصاحبه وحسبُك من نذير

وقال آخر :

فقلت لها المشيبُ نذيرُ عمري * وأست مسودا وجه النذير

وأما موت الأهل والأقارب والأصحاب والإخوان فإنذار بالرحيل فى كل وقت وأوان ،
 وحين وزمان . قال :

وأراك تحملهم ولست تردهم * فكأننى بك قد حملت فلم تُرد

وقال آخر :

الموت فى كل حين ينشر الكفنا * ونحن فى غفلة عما يراد بنا

وأما كمال العقل فيه تُعرف حقائق الأمور ويفصل بين الحسنات والسيئات ؛ فالعاقل يعمل
 لآخِرتِه ويرغب فيما عند ربه ؛ فهو نذير . وأما مجد صلى الله عليه وسلم فبعثه الله بشيراً ونذيراً
 إلى عباده قطعاً لحججهم ؛ قال الله تعالى : « لئلا يكون للناس على الله حجةٌ بعد الرسل^(١) » ،
 وقال : « وما كنا مُعذِّبين حتى نبعث رسولاً^(٢) » .

قوله تعالى : (فَذُوقُوا) يريد عذاب جهنم ؛ لأنكم ما اعتبرتم ولا آتعتم . (فَآ لِلظَّالِمِينَ
 مِنْ نَصِيرَةٍ) أى مانع من عذاب الله .

قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ

بذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾

تقدم معناه في غير موضع . والمعنى : علم أنه لو ردكم إلى الدنيا لم تعملوا صالحاً ، كما قال : « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه » . و (عالم) إذا كان بغير تنوين صلح أن يكون للماضي والمستقبل ، وإذا كان متوناً لم يجوز أن يكون للماضي .

قوله تعالى : هُوَ الَّذِي جَعَلَكَ خَلِيفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : (هُوَ الَّذِي جَعَلَكَ خَلِيفَ فِي الْأَرْضِ) قال قتادة : خلفاً بعد خلف ، قرناً بعد قرن . والخلف هو التالي للتقدم ، ولذلك قيل لأبي بكر : يا خليفة الله ، فقال : لست بخليفة الله ، ولكني خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا راض بذلك . (فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ) أي جزاء كفره وهو العقاب والعذاب . (وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا) أي بغضاً وغضباً . (وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا) أي هلاكاً وضللاً .

قوله تعالى : قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمُ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِنْهُ بَلْ إِنَّ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ) «شركاءكم» منصوب بالرؤية ، ولا يجوز رفعه ، وقد يجوز الرفع عند سيبويه في قولهم : قد علمت زيدا أبو من هو ؟ لأن زيدا في المعنى مستفهم عنه . ولو قلت : أرايت زيدا أبو من هو ؟ لم يجوز الرفع . والفرق بينهما أن معنى هذا أخبرني عنه ، وكذا معنى هذا أخبروني عن شركائكم الذين تدعون من

دون الله ، أعبدتموهم لأن لهم شركة في خلق السموات ، أم خلقوا من الأرض شيئاً !
 ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا﴾ أى أم عندهم كتاب أنزلناه إليهم بالشركة . وكان في هذا ردُّ على من عبد
 غير الله عز وجل ؛ لأنهم لا يجدون في كتاب من الكتب أن الله عز وجل أمر أن يُعبد غيره .
 ﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وحفص عن عاصم « على بَيِّنَةٍ »
 بالتوحيد ، وجمع الباقون . والمعنيان متقاربان إلا أن قراءة الجمع أولى ؛ لأنه لا يخلو من
 قرأه « على بَيِّنَةٍ » من أن يكون خالف السواد الأعظم ، أو يكون جاء به على لغيره من قال :
 جاءنى طاحت ، فوقف بالتاء ، وهذه لغة شاذة قليلة ؛ قاله النحاس . وقال أبو حاتم
 وأبو عبيد : الجمع أولى لموافقته الخط ، لأنها في مصحف عثمان « بينات » بالالف والتاء .
 ﴿بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ أى أباطيل تفتروا ، وهو قول السادة للسفلة :
 إن هذه الآلهة تنفعكم وتقربكم . وقيل : إن الشيطان يعد المشركين ذلك . وقيل : وعدهم
 بأنهم ينصرون عليهم .

قوله تعالى : **إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا** ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ لما بين أن آلهتهم
 لا تقدر على خلق شيء من السموات والأرض بين أن خالقهما وممسكهما هو الله ، فلا يوجد
 حادث إلا بإيجاده ، ولا يبقى إلا ببقائه . و « أن » في موضع نصب بمعنى كراهة أن تزولا ،
 أو لتلا تزولا ، أو يحمل على المعنى ؛ لأن المعنى أن الله يمنع السموات والأرض أن تزولا ،
 فلا حاجة على هذا إلى إضمار ، وهذا قول الزجاج . ﴿وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ
 بَعْدِهِ﴾ قال الفراء : أى ولو زالتا ما أمسكهما من أحد . و « إن » بمعنى ما . قال : وهو
 مثل قوله : « وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ^(١) » . وقيل : المراد زوالهما

(١) راجع ص ٤٥ من هذا الجزء .

يوم القيامة . وعن إبراهيم قال : دخل رجل من أصحاب ابن مسعود إلى كعب الأخبار يتعلم منه العلم ، فلما رجع قال له ابن مسعود : ما الذي أصبت من كعب ؟ قال سمعت كعباً يقول : إن السماء تدور على قُطْبٍ مثل قطب الرّحى ، في عمود على منكب مَلَك ؛ فقال له عبد الله : وددتُ أنك انقلبت براحتك ورحلها ، كذب كعب ، ما ترك يهوديته ! إن الله تعالى يقول : « إن الله يُمسِكُ السمواتِ والأرضَ أن تزولا » إن السموات لا تدور ، ولو كانت تدور لكانت قد زالت . وعن ابن عباس نحوه ، وأنه قال لرجل مقبل من الشام : من لقيت به ؟ قال كعبا . قال : وما سمعته يقول ؟ قال : سمعته يقول : إن السموات على منكب مَلَك . قال : كذب كعب ، أما ترك يهوديته بعد ! إن الله تعالى يقول : « إن الله يُمسِكُ السموات والأرضَ أن تزولا » والسموات سبع والأرضون سبع ، ولكن لما ذكرهما أجزأهما مجرى شيئين ، فعادت الكفاية إليهما ، وهو كقوله تعالى : « أن السموات والأرضَ كانتا رتقاً ففتقناهُما^(١) » ثم ختم الآية بقوله : « إنه كان حليماً غفوراً » لأن المعنى فيما ذكره بعض أهل التأويل : أن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا من كفر الكافرين ، وقولهم اتخذ الله ولداً . قال الكلبي : لما قالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ، كادت السموات والأرض أن تزولا عن أمكنتهما ، فسمعهما الله ، وأنزل هذه الآية فيه ؛ وهو كقوله تعالى : « لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا . تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ^(٢) » الآية .

قوله تعالى : **وَأَقْسُمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا** ﴿٤٢﴾

أَسْتَجَابَرَا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ

فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا

وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾

(٢) راجع ج ١١ ص ١٥٥ .

(١) راجع ج ١١ ص ٢٨٢ .

قوله تعالى : (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ) هم قريش أقسموا قبل أن يبعث الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ، حين بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم ، فآلعنوا من كذب نبيهم منهم ، وأقسموا بالله جل اسمه (لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ) أى نبي (لِيَكُونَنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ) يعنى ممن كذب الرسل من أهل الكتاب . وكانت العرب تمنى أن يكون منهم رسول كما كانت الرسل من بنى إسرائيل ، فلما جاءهم ما تمنّوه وهو النذير من أنفسهم ، نفروا عنه ولم يؤمنوا به . (اسْتَكْبَرُوا) أى عتوا عن الإيمان (وَمَكَرَ السَّيِّئُ) أى مكر العمل السيئ وهو الكفر وخدع الضعفاء ، وصدّهم عن الإيمان ليكثر أتباعهم . وأنت « من إحدى الأمم » لتأنيث أمة ؛ قاله الأخفش . وقرأ حمزة والأخفش « ومكر السيئ ولا يحيق المسكر السيئ » حذف الإعراب من الأول وأثبتته فى الثانى . قال الزجاج : وهو لحن ؛ وإنما صار لحناً لأنه حذف الإعراب منه . وزعم المبرد أنه لا يجوز فى كلام ولا فى شعر ؛ لأن حركات الإعراب لا يجوز حذفها ، لأنها دخلت للفرق بين المعانى . وقد أعظم بعض النحويين أن يكون الأعمش على جلاته ومحله يقرأ بهذا ، قال : إنما كان يقف عليه ، فغاط من أدى عنه ، قال : والدليل على هذا أنه تمام الكلام ، وأن الثانى لما لم يكن تمام الكلام أعرب باتفاق ، والحركة فى الثانى أثقل منها فى الأول لأنها ضمة بين كمرتين . وقد احتج بعض النحويين لحمزة فى هذا بقول سيبويه ، وأنه أشد هو وغيره :

* إذا أعوججن قلتُ صاحب قوم^(١) *

وقال الآخر :

فاليوم أشرب غير مستحقيب * إنما من الله ولا وأغل^(٢)

(١) تمامه : * بالدر أمثال السفين العوم *

الدر : الصحراء . وأمثال السفين : راحل محملة تقطع الصحراء . قطع السفين البحر .

(٢) البيت لامرئ القيس . والمستحقيب : المكتسب للإثم الحامل له . والراغل : الداخل على القوم يشربون

ولم يدع . قال هذا حين قتل أبوه ونذر الأ يشرب الخمر حتى يثار به ، فلما أخذ ناره حلت له بزعمه فلا ياتم فى شربها إذ قد رقى بذره فيها .

وهذا لا حجة فيه؛ لأن سيبويه لم يحزه، وإنما حكاه عن بعض النحويين، والحديث إذا قيل فيه عن بعض العلماء لم يكن فيه حجة، فكيف وإنما جاء به على وجه الشذوذ ولضرورة الشعر وقد خولف فيه . وزعم الزجاج أن أبا العباس أنشده :

* إذا اعوججن قلت صاح قوم *

وأنه أنشد :

* فاليوم أشرب غير مستحقب *

بوصل الألف على الأمر؛ ذكر جميعه النحاس . الزمخشري : وقرأ حمزة « ومكر السيئ » بسكون الهمزة، وذلك لاستنقاله الحركات، ولعله اختلس فظن سكونا، أو وقف وقفـة خفيفة ثم ابتداء « ولا يحيق » . وقرأ ابن مسعود « ومكرًا سيئًا » . وقال المهدي : ومن سكن الهمزة من قوله : « ومكر السيئ » فهو على تقدير الوقف عليه، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف، أو على أنه أسكن الهمزة لتوالي الكسرات والياءات، كما قال :

* فاليوم اشرب غير مستحقب *

قال القشيري : وقرأ حمزة « ومكر السيئ » بسكون الهمزة، وخطأه أقوام . وقال قوم : لعله وقف عليه لأنه تمام الكلام، فغلط الراوي وروى ذلك عنه في الإدراج، وقد سبق الكلام في أمثال هذا، وقلنا : ما ثبت بالأستفاضة أو التواتر أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأه فلا بد من جوازه ، ولا يجوز أن يقال : إنه لحن ، ولعل مراد من صار إلى التخطئة أن غيره أفصح منه ، وإن كان هو فصيحاً . (وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ) أى لا ينزل عاقبة الشرك إلا بمن أشرك . وقيل : هذا إشارة إلى قتلهم ببدر . وقال الشاعر :

وقد دفعوا المنية فاستقات * ذراعاً بعد ما كانت تحيق

أى تنزل ، وهذا قول قُطْرِب . وقال الكلبي : « يحيق » بمعنى يُحْبِط . والحق الإحاطة ، يقال : حاق به كذا أى أحاط به . وعن ابن عباس أن كعباً قال له : لى أجد فى التوراة « من حفر لأخيه حفرة وقع فيها » ؟ فقال ابن عباس : فلانى أوجدك فى القرآن ذلك . قال : وأين ؟ قال : فاقراً « ولا يحيق المكر السيئ إلا بإهله » . وفى أمثال العرب « من حفر لأخيه

جُبًا وَقَع فِيهِ مُنْتَجِبًا » وروى الزهري - أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تَمَكْرَ وَلَا تُعِنُّ مَا كَرَّ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : « وَلَا يَجِيْقُ الْمَكْرَ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ » ، وَلَا تَبْغِ وَلَا تُعْنِ بَاغِيًّا فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : « فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ » وَقَالَ تَعَالَى : « إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ » وقال بعض الحكماء :

يَأْيَسُ الظالم في فعله * والظلم مردود على من ظلم
إلى متى أنت وحتى متى * تُحصى المصائب وتُنسى النعم

وفي الحديث « المكرو والخديعة في النار » . فقوله : « في النار » يعني في الآخرة تدخل أصحابها في النار؛ لأنها من أخلاق الكفار لا من أخلاق المؤمنين الأخيار؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في سياق هذا الحديث : « وليس من أخلاق المؤمن المكرو والخديعة والخيانة » . وفي هذا أبلغ تحذير عن التخلق بهذه الأخلاق الذميمة ، والحزج عن أخلاق الإيمان الكريمة .

قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأُولَى ﴾ أي إنما ينتظرون العذاب الذي نزل بالكفار الأولين . ﴿ فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ أي أجرى الله العذاب على الكفار ، ويجعل ذلك سنة فيهم ، فهو يعذب بمنله من استحققه ، لا يقدر أحد أن يبدل ذلك ، ولا أن يحول العذاب عن نفسه إلى غيره . والسنة الطريقة ، والجمع سن . وقد مضى في « آل عمران » وأضافها إلى الله عز وجل . وقال في موضع آخر : ﴿ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا ﴾ فأضاف إلى القوم لتعلق الأمر بالجانين ، وهو كالأجل ، تارة يضاف إلى الله ، وتارة إلى القوم ، قال الله تعالى : « فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ » وقال : « فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ » .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾

بين السنة التي ذكرها ؛ أى أو لم يروا ما أنزلنا بعد وثمود ، وبمدين وأمثالهم لما كذبوا الرسل ، فتدبروا ذلك بنظرهم إلى مساكنهم ودورهم ، وبما سمعوا على التواتر بما حل بهم ، أفليس فيه عبرة وبيان لهم ؛ ليسوا خيراً من أولئك ولا أقوى ، بل كان أولئك أقوى ؛ دليله قوله : ﴿ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى إذا أراد إنزال عذاب بقوم لم يعجزه ذلك . ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيرًا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَنِّهِمْ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ۝٥٥ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا ﴾ يعنى من الذنوب . ﴿ مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ قال ابن مسعود : يريد جميع الحيوان مما دب ودرج . قال قتادة : وقد فعل ذلك زمن نوح عليه السلام . وقال الكلبي : ﴿ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ يريد الجن والإنس دون غيرها ؛ لأنهما مكلفان بالعقل . وقال ابن جرير والأخفش والحسين بن الفضل : أراد بالدابة هنا الناس وحدهم دون غيرهم .

قلت : والأول أظهر ؛ لأنه عن صحابي كبير . قال ابن مسعود : كاد الجمل أن يُعذب في بحره بذب ابن آدم . وقال يحيى بن أبي كثير : أمر رجل بالمعرف ونهى عن المنكر ، فقال له رجل : عليك بنفسك ؛ فإن الظالم لا يضر إلا نفسه . فقال أبو هريرة : كذبت ؛ والله الذى لا إله إلا هو — ثم قال — والذى نفسى بيده إن الحُبَارَى لَتَمُوتُ هَزْلًا فِي وَكْرَهَا بِظُلْمِ الظَّالِمِ . وقال الثمالي ويحيى بن سلام في هذه الآية : يحبس الله المطر فيملك كل شيء . وقد مضى في « البقرة » نحو هذا عن عكرمة ومجاهد في تفسير « وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ » ^(١) هم الحشرات والبهائم يصيبهم الجذب بذنوب علماء السوء الكاتمين فيلعنونهم . وذكرنا هناك حديث الأبراء

ابن هازب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : « وياعنهم اللاعنون » قال :
 « دواب الأرض » . (وَلَكِنْ يُؤَخَّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى) قال مقاتل : الأجل المسمى هو
 ما وعدهم في اللوح المحفوظ . وقال يحيى : هو يوم القيامة . (فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ) أى بمن
 يستحق العقاب منهم (بصيرا) . ولا يجوز أن يكون العامل فى « إذا » « بصيرا » كما
 لا يجوز : اليوم إن زيدا خارج . ولكن العامل فيها « جاء » لشبهها بحروف المجازاة ، والأسماء
 التى يجازى بها يعمل فيها ما بعدها . وسببويه لا يرى المجازاة بـ « إذا » إلا فى الشعر ، كما قال :
 إذا قَصُرَتْ أسيافنا كان وصلها * خُطَّانَا إِلَى أمدائنا فنضارب^(١)

ختمت سورة « فاطر » والحمد لله

(١) البيت لقيس بن الحطيم الأنصارى راجع ج ١ ص ٢٠١ طبعة ثانية أو ثالثة .



تم بعون الله تعالى الجزء الرابع عشر من تفسير القرطبي

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الخامس عشر، وأوله :

« سورة يس »



من الأصول التى راجعنا عليها هذا الجزء والذى قبله نسخة خطية فى مكتبة حضرة

الأستاذ أحمد خيرى نجل المرحوم خيرى باشا، تفضل حضرته فأعارنا إياها .

وقد كان لهذه النسخة فضل كبير فى تيسير السبيل أمامنا ، فجزاه الله خير الجزاء ما

حققه

أحمد عبد العليم

البردوني

جمادى الأولى سنة ١٣٨٤ هـ

سبتمبر سنة ١٩٦٤ م

استدراك

تقدم في الجزء الثالث ص ٩٣ عند الكلام على قوله تعالى : « نساؤكم حرث لكم » :

إنما الأرحام أرضون لنا محترثات * فعلىنا الزرع فيها وعلى الله النبات

وصواب إنشاده :

إنما الأرحام أر * ضون لنا محترثات

فعلىنا الزرع فيها * وعلى الله النبات

محققه

أحمد عبد العليم البردوني



بعون الله وجميل توفيقه ، قد تم طبع الجزء الرابع عشر من " تفسير القرطبي "

بمطبعة دار الكتب في شهر ربيع الثاني سنة ١٣٨٤ هـ (أغسطس سنة ١٩٦٤ م) ما

إحسان عثمان

مدير إدارة المطبعة والنصوير

محمد حمدي جنيدى

رئيس المطبعة

صفحة

- رسول الله صلى الله عليه وسلم . الكلام على جواز إمامة المولى والمفضول على
 غيرها ما عدا الإمامة الكبرى . مكانة أسامة رضى الله عنه من الرسول صلى الله
 عليه وسلم . بيان أذية المؤمنين والمؤمنات هي بالأفعال والأقوال القبيحة ... ٢٣٧
- تفسير قوله تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ... » الآية . بيان زوجات
 النبي صلى الله عليه وسلم وأولاده . أمر الحرائر بالنستر وإرخاء الجلابب عليهن
 حتى لا يختلطن بالإماء . صورة إرخاء الجلابب عليهن ٢٤١
- تفسير قوله تعالى : « لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض ... » الآيات .
 تهديد المنافقين والمرجفين على نشر أخبار السوء . بيان أن سنة الله فيمن
 أرجف بالأنبياء وأظهر نفاقه أن يؤخذ ويقتل ٢٤٥
- تفسير قوله تعالى ~~« إن الله لعن الكافرين ... »~~ الآيات ٢٤٨
- تفسير قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى ... » الآيات .
 تحذير المؤمنين من التعرض للإيذاء، ونهيمهم عن التشبه بنبي إسرائيل من أذيتهم
 بنبيهم . بيان المجازاة عن القول السداد ٢٥٠
- تفسير قوله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض ... » الآية . أقوال
 العلماء في معنى الأمانة ٢٥٣

سورة سبأ

- تفسير قوله تعالى : « الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ... » الآيات ٢٥٩
- تفسير قوله تعالى : « وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة ... » الآيات . الرد على
 منكرى الساعة . وعيد الذين سعوا فى إبطال النبوة . إنكار المشركين للبعث ... ٢٦٠
- تفسير قوله تعالى : « ولقد آتينا داود منا فضلا ... » الآية . اختلاف العلماء
 فى الفضل الذى أعطاه الله لداود . فى الآية دليل على تعلم أهل الفضل الصنائع ... ٢٦٤

صفحة

- تفسير قوله تعالى : « ولسليمان الريح غدوها شهر ... » الآيات . بيان ما أوتيه سليمان
من تسخير الريح والجن وإذابة النحاس له . أقوال العلماء فى التصوير . الكلام
على موت سليمان وما صنعه من إخفاء موته عن الجن ٢٦٨
- تفسير قوله تعالى : « لقد كان لسبا فى مسكنهم آية ... » الآيات . بيان نسب سبا
والآية التى كانت فى مساكنهم . الكلام على سدهم والسيل الذى أرسل عليهم ... ٢٨٢
- تفسير قوله تعالى : « ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له » الآية . بيان ما يحدث
فى الملأ الأعلى إذا أراد الله أن يوحى بالأمر ٢٩٥
- تفسير قوله تعالى : « قل من يرزقكم من السموات والأرض ... » الآيات ... ٢٩٨
- تفسير قوله تعالى : « وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ... » الآيات . القول
فى كفر المشركين بالقرآن وبالكتب والأنبياء ٣٠١
- تفسير قوله تعالى : « وما أرسلنا فى قرية من نذير ... » الآيات . بيان أن سعة الرزق
فى الدنيا لا تدل على سعادة الآخرة . فضل النفقة فى طاعة الله تعالى ... ٣٠٤
- تفسير قوله تعالى : « ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت ... » الآيات . ذكر أحوال
الكفار ونحروج السفينانى بجيشه آخر الزمان وخسف الأرض بهم ٣١٤

سورة فاطر

- تفسير قوله تعالى : « الحمد لله فاطر السموات والأرض ... » الآيات . الكلام
على قوله « يزيد فى الخلق » ٣١٨
- تفسير قوله تعالى : « يا أيها الناس إن وعد الله حق ... » الآيات . بيان معنى
الفرور . القول فى عداوة الشيطان ابنى آدم ٣٢٢
- تفسير قوله تعالى : « من كان يريد العزة ... » الآية . بيان أن العزة لا تكون
إلا فى طاعة الله تعالى . القول فى الكلم الطيب والعمل الصالح ٣٢٨
- تفسير قوله تعالى : « والله خلقكم من تراب ... » الآية . بيان معنى الزيادة فى العمر
والتقصان منه وكيفية كتابته فى اللوح المحفوظ ٣٣٢

من تفسير القرطبي

(ك)

صفحة

- ٣٣٤ تفسير قوله تعالى : « وما يستوى البحران ... » الآيات . بيان معنى « القَطْمِير »
- تفسير قوله تعالى : « وما يستوى الأعمى والبصير ... » الآيات . بيان أن هذا ضرب مثل للؤمن والكافر، والعالم والجاهل . معنى قوله « ومن الجبال جدد » .
- ٣٣٩ بيان أن مخافة الله لا تكون إلا من العلماء العاملين
- تفسير قوله تعالى : إن الذين يتلون كتاب الله... » الآيات . القول في أن هذا خاص بالقراء العاملين العالمين
- ٣٤٤ تفسير قوله تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا ... » الآيات . الكلام على الظالم والمقتصد والسابق بالخيرات . بيان أن التقديم في الذكر لا يقتضى تشريفا
- ٣٤٥ تفسير قوله تعالى : « والذين كفروا لهم نار جهنم ... » الآيات . بيان أحوال أهل النار ومقاتلهم والرد عليهم
- ٣٥١ تفسير قوله تعالى : « وأفسحوا باليهما جهد أيمانهم ... » الآيات . بيان ما كانت قريش تقول قبل بعث الرسول عليه السلام
- ٣٥٧ تفسير قوله تعالى : « واو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ... » الآية
- ٣٦١